تفسير من هدى القرآن

الجزء السادس عشر

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الامام الصادق - عليه السلام - : " مـــن قـرأ سورة التغابــن في فريضة كانت شفيعة له يوم القيامة ، و شاهد عدل عند من يجيز شهادتها ، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنــة "ثواب الاعمال / ص ٢١٠

الإطار العام

كيف يمكن ان نربح صفقة العمر و نأتي يوم التغابن بالفوز الكبير ، ذلك اليوم الذي تبلو الحقائق و يظهر مدى خسارة الانسان و مدى ربحه ؟

قبل ان يبصرنا السياق بالجواب يذكرنا بجلال الله القدوس عن اي نقص و عجز ، و ان كل شيء يسبح بحمده ، لان له الملك و الحمد جميعا.

و انما يكفر من كفر بعد تمام الحجة عليه ، فهو المسؤول عن ضلاله ، و هو المجزي بعمله ، لان الله قد خلق السماوات و الارض بالحق ، و الجزاء صورة من صور الحق .. و اكمل خلق الانسان (فأعطاه ما يحتاجه لاختيار الحق و اكمل عليه الحجة) و اليه المصيــر للجزاء .. و هو عليم بما يسرون و ما يعلنون .. فانى لهم الفرار من الجزاء ؟

و الجزاء حق واقع تاريخيا . افلا نعتبر به ؟ فكم ذاق الكفار الغابرون و بالأمرهم . لماذا ؟ لانهم قالوا : " ابشر يهدوننا " فمن الذي خسر أهم أم الرسل الطاهرون ؟

كانت تلك عاقبة أمرهم في الاولى ، و في الأخرى ينبؤهم الله بما عملوا و يتم عليهم الحجة البالغة ثم يعذبهم ، ويا ويلهم!!

في ذلك اليوم يربح المؤمنون الجنة تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، و انه حقا فوز عظيم.

و هكذا يبلغ السياق محور السورة ، و يبين كيف يفوز عباد الله الصالحون في يوم التغابن ، و ذلك عبر بصائر تترى:

الاولى : الرضا بالقدر ، و الايمان بأن كل مصيبة تصيبه فبإذن الله.

الثانية : الايمان هدى القلب ، و به يعرف الانسان سبيل النجاة عن المصائب و به يتحداها.

الثالثة : الطاعة لله و للرسول ، و التوكل عليه.

الرابعة :الحذر من اقرب الناس اليه (و هم الازواج و الاولاد) لان فيهم من هو عدو له ، و لكن الحذر لا يتحول عند المؤمن الى عداء او جفاء او مواقف حدية .

الخامسة : اليقظة التامة من (حب) الاموال و الاولاد و (الافتتان) بهم.

السادسة :التقوى بكل استطاعته ، (و الاجتهاد في الطاعة) ، و الاستماع الى أوامر الشريعة و وعيها ، و الطاعة للقيادة الرشيدة ، و الانفاق و تجاوز شح الذات .

ان هذا سبيل الفلاح ؟

وفي خاتمة السورة يأمرنا الله بان نقرضه قرضا حسنا (بالانفاق او الاستدانة) ، لانه يضاعف ذلك و يغفر لصاحبه و الله شكور حليم ، و انه عالم الغيب و الشهادة ، و هو العزيز الحكيم.

ذلك يوم التغابن

هدى من الآيات

لكي نؤمن بالآخرة ايمانا عميقا لابد من المعرفة بالله اولا ، لانها الدين (١ (، و الاساس الصحيح الذي تبنى عليه سائر البصائر و الحكم و الشرائع ، لذلك نجد السياق القرآني و هو يمضي بنا في التذكرة بالبعث و الجزاء (يوم الجمع و التغابن) يهدينا الى الله و اسمائه الحسنى [الآيات ١ / ٤) ، فهو السبوح ، الملك ، المحمود ، القادر ، الخالق ، البصير ، المصور ، اليه المصير ، و هو بكل شيء عليم ، ثم تذكرنا الآيات بالجزاء الذي لقيه الكافرون في التاريخ كدليل الى الجزاء الاكبر في الاخرة ، و ان سبب كفرهم هو الاعتماد على المقاييس المادية في موقفهم من قيادة الرسل ، و كفرهم بالبعث و الحساب ، مما يبرر لهم عدم تحملهم المسؤولية في الحياة ، لذلك يؤكد القرآن حقيقة الآخرة و ضرورة الايمان بالله و رسوله و الكتاب باعتباره السبيل الى الصالحات و المستقبل الحسن في الاخرة ،على العكس من الكفر الذي

(1)و في الخبر : " اول الدين معرفته. "

يقود الانسان الى بئس المصير في الدارين.

بينات من الايات

[1]تتصور الفلسفات البشرية التي تتحدد بالجهل و العجز و ضيق الافق و شح النفس عند الانسان تتصور العالم الكبير و ما فيه من اختلاف و تسابق ركاما من القوى المتناقضة و المتصارعة ، و بالتالي حلبة لصراع الالهة و الشركاء المختلفين ، كلا .. انما العالم - في القرآن - ينضوي تحت راية العبودية لله.

]يسبح لله ما في السماوات و ما في الارض[

هكذا يسبح جميع ما في السماوات و الارض لرب العزة ، لان كل شيء عارف باستحقاق ربه للتنزيه عن كل نقص و عيب ، فهو وحده الكمال المطلق في ضمير الخلق و عقله . و فعل المضارعة من التسبيح يدل على الاستمرار في التسبيح ، و السبب ان الله تجلى لكل شيء بقدر وعيه، و اعطاه حسبما شاء من نوره ، فوله كل شيء بربه و سبحه و قدسه بقدره.

]له الملك[

وحده ، و انما يملك احد شيئا بتمليكه له ، و مع ذلك يبقى ملكه محدودا ، و ملك الله نافذ يسلبه متى شاء . و ربنا ليس متصرفا في الاشياء و حسب بل يملكها و يملك شهودها و ضميرها و مبدءها و مصيرها ، يملكها دون تملك هي منه شيئا ، بعكس البشر الذين لا يملكون شيئا الا بقدر ما يمتلك منهم ، لانهم و اياه سواء في حد العبودية و الضعف و العجز . و حري بالمملوك ان يخضع لمالكه المطلق و يتوجه له بالتسبيح دون سواه . و ان هذه الصفة كما صفة القدرة و غيرهما لا تدعوه سبحانه كما الملوك الى الظلم و القهر لمن تحت سلطانه ، فكل افعاله حميدة.

]و له الحمد[

مما ينزل عليهم من نعمه و يدفع عنهم من البلاء ، فسبحان الذي لا ياخذ اهل الارض بالوان العذاب.

و من تجليات حمده قدرته ، فهو ذو القدرة على كل ما يريد.

]و هو على كل شيء قدير[

وهذه البصيرة (قدرة الله على كل شيء) هي التي ينبغي ان يتحسسها الانسان ، لانها محور لكثير من الحقائق و العقائد التي منها الايمان بالآخرة ، فان الذي لا يؤمن بقدرة الله الثابتة يصعب عليه التصديق بحقيقة البعث و الجزاء .و هكذا تتصل هذه البصيرة بما يأتي من التذكرة بالبعث.

و تذكير الانسان بان الوجود كله يسبح لله يزرع في نفسه الشعور بالشذوذ اذا ما كفر بربه و خالف رسالته ، بل و يزرع في داخله الوازع الذي يدفعه للانتظام في المسيرة الحقة الواحدة حيث العبودية لله وحده و المعرفة به.

كما تهدينا هذه التذكرة الى حقيقة اخرى هامة و هي : ان الخليقة بكينونتها و السنن الحاكمة عليها تدعم المؤمن في مسيرته ، لانه يلتقي معها في المسيرة و الهدف ، و هذا ما يجعل اتباع الحق سهلا ميسورا و اتباع الباطل عسيرا في الدنيا و الاخرة ، و بهذا المضمون جاءت بعض الاخبار التي منها قول الامام علي - عليه السلام - : " و من ضاق به العدل فالجور عليه اضيق " (١. (

[2]و يتساءل الانسان : من اين اتيت ؟ و من الذي خلقني ؟ و الاجابة على(١) بح / ج ٤١ - ص ١١٦

ذلك هي التي تحدد مبادىء الناس و مسيرتهم ، فيهتدي البعض و يضل اخرون ، و القرآن هنا يوجهنا الى الاجابة الحق ليضعنا على الصراط المستقيم في الحياة .

]هو الذي خلقكم [

و ليست الصدفة و لا الشركاء المزعومين من دونه . تلك الفلسفات التي تاهت بعقول الكثير و لا زالت حتى اليوم تضلها .و حيث ان الله هو الخالق فانه اهل الملك و الحمد و القدرة ، و لكنك مع ذلك ترى بين الناس من يكفر به سبحانه بالرغم من تجليات اسمائه و اياتهفي الطبيعة و في ضمير الانسان و عقله.

]فمنكم كافر و منكم مؤمن[

و كما يؤكد هذا المقطع حرية الانسان في اختيار مسيرته و مصيره فهو يبين مدى طغيان البشر الذين يكفرون بخالقهم بدل ان يشكروه على نعمة الخلق و سائر النعم . و تنسف الآية فلسفة الجبر التي تقول بان الكفر و الايمان امر تكويني يحدده الله ، فكما يخلق الاسود والابيض كذلك يخلق المؤمن و الكافر ، كلا .. ان الخلق منه تعالى بينما الكفر و الايمان رهين اختيار الناس و ارادتهم " فمنكم .. و منكم. "

]و الله بما تعملون بصير[

اذا فعمل الانسان هو الذي يحدد مذهبه و مصيره عند الله و ليس لونه او مجيؤه من و الدين كافرين او مؤمنين و لا اي شيء اخر . و في الآية تحذير من طرف خفي بان حريتك ايها الانسان ليست ابدية ، و ان الله لم يخلق الناس ليتركهم سدى ، او انه مغلولة يداه و محجوب عن الخلق ، انما هو رقيب و مهيمن عليهم ، و هكذا تنفي الآية التفويض كما تنفي الجبر لتثبت - بالتالي - امرا وسطا بين الأمرين.

و كلمة أخيرة في هذه الآية هي : أن اختلاف الناس الى مؤمن و كافر ، و مظلوم و ظالم ، و قاتل و

مقتول ، تجعل البعث و الجزاء ضرورة فطرية في ضوء الايمان بالإله الملك الحميد الذي من مظاهر حمده العدل .وهذه من الأفكار الرئيسية في المبادئ الإسلامية.

[3]و نجد آية هادية الى الآخرة عند النظر الى الحياة مفردة مفردة ، فهي قائمة على أساس الحق بكل ما تعني هذه الكلمة من آفاق الواقعية و النظام السليم ، و أهم تلك الآفاق بالنسبة للانسان أن الحياة عرصة يجري الله فيها الحق.

]خلق السماوات و الأرض بالحق[

و الهدفية من الحق ، كما أن العبثية من الباطل . و إن الانسان حينما يلقي بنظره و فكره الى خلق الكون يراه بكل أجزائه حتى الذرة قد خلق بحكمة و هدف معين ، كما أنه عندما يعود الى نفسه من رحلة الآفاق يرى نفس الحقيقة ، فهو قد صور و خلق كل عضو منه لغرض محدد ، فالعين للإبصار ، و الأذن للسمع ، و الأنف للشم و التنفس و .. و..

]و صوركم فأحسن صوركم[

فهل يعقل أن يكون الانسان ككل بلا هدف ؟! كلا .. بل له هدف معين هو أن يقوم بالحق وهذا يقتضي أن يكون هناك جزاء و مصير . و لأن الدنيا تقصر أن تكون محلا للجزاء الأوفى فلابد من دار ثانية يرجع فيها الناس الى ربهم.

]و إليه المصير [

[4]وهو تعالى لا يقضي للناس بمصائرهم اعتباطا ، إنما يجازي كل فرد و أمةالجزاء الاوفى القائم على علمه النافذ في كل دقائق الامور و لطائفها حتى النوايا المنطوية عليها الصدور ، و لايشغله علم عن علم ، و لاسمع عن سمع ، بل يعلم كل شيء في آن واحد.

]يعلم ما في السماوات و الارض و يعلم ما تسرون و تعلنون]خير او شر.

]و الله عليم بذات الصدور[

و تأكيد الله على علمه المحيط بحياة الانسان يتصل بمنهج الاسلام التربوي القائم على اساس زرع الوازع الديني في نفوس المؤمنين ، فان المتحسس لرقابة الله عليه لن يقتحم المحرمات و المعاصي ، و لن يتخلف في اداء الواجبات .. و هذه المنهجية ذاتها هي التي تضعنهاية للخداع الذاتي (المنافقة) ، حيث تضع الانسان امام يقين بعلم الله بذات صدره ، و ان جزاءه للناس لا يعتمد على اعمالهم و اقوالهم الظاهرة فحسب انما يعتمد على ما في القلوب من النوايا و الخلفيات ايضا.

[5]و يحثنا القرآن الى التفكر في واحدة من الآيات الكاشفة لحقيقة كون المصائر بيد الله ، و لحقيقة البعث و الجزاء في الاخرة ، و هي تاريخ الامم و الاقوام الذين كفروا بالحق فاستأصلهم الله بألوان من العذاب.

]ألم ياتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا و بال امرهم]في الدنيا ، و الوبال هو السوء ، و هنا بمعنى العاقبة السيئة ، و ما دام الانسان مسؤولا عن افعاله في الدنيا و هي دار امتحان فكيف لا يكون مسؤولا عنها في الاخرة ؟! و عموما : فاننا سوف نواجهه ان خالفنا عاجلا ام اجلا في الدنيا او في الاخرة.

]و لهم عذاب اليم[

ينتظرهم في الآخرة . و وصف الله للعذاب بانه " اليم " ينسف بعض الفلسفات التي حاولت تبرير الذنوب للناس بزعمها ان الانسان يوم القيامة لا يشعر بحرارة النار ، و مثلوا لذلك بالقول ان هناك بعض الحشرات تعيش في النار و لا تتاثر بها ! وهو زعم لا دليل عليه.

[6]اما السبب الذي انتهى بأولئك الى عذاب الدارين فهو تكبرهم على الرسل ، و كفرهم بهم ، و توليهم عنهم الى غيرهم.

]ذلك بانه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات[

اي الآيات الواضحة التي لا غموض فيها . اذن كانت الحجة قائمة و بالغة مما يجعل العقلاء يخضعون لها ، و لكن الكفار لم يتبعوا العقل ، انما اتبعوا الاهواء . لذلك لم يسلموا لقيادة الرسل.

]فقالوا ابشر يهدوننا[

انهم لم يجدوا ثغرة في رسالات الله لكي يعيبوها ، و لا نقصا في اخلاق الرسل و سلوكياتهم ، و لكنهم مع ذلك لم يكونوا مستعدين للخضوع لقيادة واحد منهم ، و لا لتحمل المسؤولية بأية صورة ، لذلك صاروا يبحثون عن تبرير يتخلصون به من المسؤولية ، فكان قولهم انالرسل بشر لا يصح الخضوع لهم ، و هذا ما يتشبث به الكفار عبر التاريخ .. فلماذا اذا يبعث الله الرسل من البشر انفسهم ؟ و الجواب : لامرين اساسيين:

الاول : ان الكفار ارادوا من ذلك تبرير انحرافهم و كفرهم ، فلو ان الله بعثملائكة او جنا لبحثوا لهم عن تبرير آخر ، و لو كان يهمهم الحق لا تبعوا الرسل الذين جاؤوهم بالبينات.

الثاني :ان الهدف من بعث الرسل هو تزكية الانسان و تطهره من امور النزعات السلبية التي فيه كالكبر و السمو به الى آفاق العبودية و التسليم للقيم و الحق ، و هذا يقتضي ان يكون الرسل من البشر انفسهم حيث ان التسليم لهم ابلغ اثرا في امتحان البشر ، و هلقد تخلصوا من نزعة الكبر ، و تعالوا الى سماء التواضع لله ، علما بان الصراع على السلطة اعظم من اي صراع آخر ، و شهوة الرئاسة اشد من أية شهوة أخرى ، و ان الرسل جاؤوا ليحكموا بين الناس بالعدل ، و كان الطغاة يحكمونهم بالجور . و ترى كيف يتنازل الطغاة عن سلطانهم و يسلموا لامرهم و لامر من ينوب عنهم من اوصيائهم و اوليائهم ؟ !انه حقا ابتلاء عظيم للطغاة و من ايدهم و اتبعهم ، و انها لفتنة عمياء سقطت فيها اكثرية النفوس الضعيفة ، و نجد صورة لها في امر الله ابليس بالسجود لادم و ليس لاعظم ملائكته مما أثار رفضهو تمرده ، مما يؤكد بان ظاهر القرآن الشريعة و باطنه الولاية ، حيث ان خضوع الانسان لبشر مثله باعتباره وليا عليه من عند الله امر صعب مستصعب ، و هكذا رفض الكفار ذلك.

]فكفروا و تولوا[

كفروا بالرسول و الرسالة و لم يشكروا هاتين النعمتين ، و حيث لا يمكن للانسان ان يعيش في الفراغ فانهم حولوا وجهتهم الى القيم الفاسدة و القيادات المنحرفة (الضلال) ، و لعل التولي هنا بهذا المفهوم ، اي تولوا الى غير الله بمعنى و لاية غير الله ، كما جاء في بعض تفاسير الآية الكريمة : " فهل عسيتم - ان توليتم - ان تفسدوا في الارض و تقطعوا ارحامكم "، و قد يكون الكفر هو الموقف النفسي و المبدئي ، بينما التولي هو الموقف العملي السياسي.

]و استغنى الله [

اي انه تعالى كان يريد ان يظهر دينه و رسوله بهم فلما كفروا استغنى و اظهر غناه عنهم فنصر دينه بغيرهم من الناس و الملائكة ، كما قال سبحانه : " يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه. "

و هكذا يكون معنى الاستغناء فعل ما يظهر الغنى ، و ذلك على ضوء معرفتنا بربنا و انه لا يصدق عليه ما يصدق علينا من التحول و التبدل سبحانه ، فلم يكن لربنا حاجة فيهم و لكن اراد ان يتفضل عليهم بنصر دينه عبرهم فرفضوا ، حيث ان من نعم الله على عباده ان يجعلهم وسائل لنشر دينه و نصر رسله فيطلب منهم الدعوة او الجهاد او القرض و الانفاق و ما اشبه .. لا لحاجة منه اليهم انما ليتلطف بهم و

ينعم عليهم بفضله!

]و الله غني[

بذاته ، و استغناء الله عن احد يعني قطع حبل رحمته عنه ، و هذا سبب هلاك الاقوام التي كفرت من قبل ، لانه انما يستقرضهم و يستنفقهم و يدعوهم للايمان لكي يرحمهم ، و لعل تاكيد الله على غناه و استغنائه يأتي لعلاج عقبة نفسية طالما منعت و لا زالت تمنع الكثير من الايمان بالرسالة و التسليم للرسول ، و هي عقبة الاحساس بالغنى عن الحق من جهة ، و حاجة الله و رسوله اليهم كما قال بعضهم : " ان الله فقير و نحن اغنياء " (١) من جهة اخرى.

]حميد[

و قد اضاف تعالى هذه الصفة للغنى لانه ليس كل غني حميد ، فقد يطغيه(١) آل عمران / ١٨١.

الغنى ، او تبطره النعم.

[7]ثم يبين السياق موقف الكفار الاساسي الذي انشطر عنه الاستكبار و الكفر و التولي ، و هو عدم ايمانهم بالاخرة ، و طبيعي ان من يكفر بالجزاء لا يبالي بتحمل المسؤولية.

]زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا[

للجزاء بعد الموت ، و الزعم هو مجرد الادعاء الذي لا يقين للانسان به ، و حيث ان الكفار لم يجدوا دليلا ينفي الاخرة باعتبارها حقيقة واقعية فطرية فانهم لجأوا الى تأكيد زعمهم بكلمة " لن " تبريرا لكفرهم بالحقائق ، و لكن القرآن يكذب زعمهم بالتأكيد على البعث و الحساب و من ثم على الجزاء اذ يقول تعالى يخاطب رسوله - صلى الله عليه وآله: -

]قل بلى و ربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم[

و في هذه الآية تأكيدات عديدة و ذلك في مواجهة زعمهم الباطل ، فالتأكيد اللفظي يواجه بتأكيدات في الكلام اقوى منه . و امره تعالى الرسول و من خلال ذلك كل مؤمن يواجه شبهات الكفار " قل " لا يعني مجرد الدعوة للقول بل هو دعوة لاتخاذ موقف مضاد ،اذ ان القول هو ما يحكي ايمان الانسان ، و المؤمن مكلف ان يحكي ايمانه بالآخرة موقفا صريحا يتحدى موقف الاستهزاء و الانكار . ثم انهم نفوا البعث بينما نجد السياق يؤكده و يضيف بالتأكيد على الجزاء لانه محور القضية ، فهم زعموا ان لا بعث حتى يتحللوا من المسؤولية ، بينما القرآن أكد ان انكارهم البعث لا يخفف عنهم من العذاب شيئا و لا يهون لهم من المسؤولية امرا.

و في خاتمة الآية اشارة الى اهم عقبة نفسية عند الكفار امام ايمانهم بالاخرة و نسفها.

]و ذلك على الله يسير[

لانه تعالى قدير ، فهو ليس كما نحن البشر عاجزا او محدود القدرة ، بل هو صاحب المشيئة التامة فلا شيء يمتنع عنه او يصعب عليه . و قد نتلمس في الآية اشارة الى ان الكفار زعموا لله مجموعة من الصفات البشرية التي تجعله عاجزا عن بعث الناس بعد الموت في فكرهم، و ذلك امتداد لتصوراتهم و مقاييسهم البشرية التي دعتهم للكفر و التولي عن بينات الله و رسله.

[8]و لكي يتجنب الناس و بال الامر في الدنيا و العذاب الاليم في الآخرة ، و يفوزوا الفوز العظيم ، يرسم القرآن المعالم الاساسية لطريق النجاة و الفوز .انه في الايمان بالله و رسوله و النور المنزل من عنده.

]فامنوا بالله و رسوله[

الايمان بالله هو الاصل و لكنه لا يكتمل الا بالتسليم لرسوله حتى تتحول الرسالة الالهية الى واقع حضاري بالانتظام تحت راية القيادة الرسالية ، و لا بد ان تصير واقعا تفصيليا يضع لمساته على جوانب حياته و مفرداتها المختلفة ، و بعبارة : ان الايمان بالله والرسول ليس عقيدة مجردة في القلب ، و لا مظاهر و طقوس فقط ، انما هو منهج حياة يجب على الانسان (فردا و امة) ان يلتزم به.

]و النور الذي أنزلنا[

و القــرآن نـور لانه يخرج الانسان من ظلمات الجهل و الكفر ، و يثير دفائن عقله ، و ينمي بواعث الخير في وجدانه ، و يرسم له مناهج الحياة . و اي نور اعظم من حبل الله و كتابه الذي يوصل البشرية بالله " نور السماوات و الارض " ؟!

و لقد مضى القول في سورة النور و في الصف عن ان القيادة الرسالية هي الاخرى مظهر و تجل لنور الله ، لانها صورة ناطقة لكتاب الله و مثل اعلى لرسالاته ، و ان اتباعها ينير للانسان دروب الحياة الفرعية المتداخلة ، و من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - : " لنور الامام في قلوب المؤمنين انور من الشمس المضيئة بالنهار " (١. (

و الاسلام الاصيل لا يرى الايمان مجرد الاعتقاد (بالله و بالرسول و بالنور) ، انما الايمان تسليم لله ، و اتباع للرسول ، و تطبيق للكتاب ، و بعبارة : الايمان هو العمل المستمر و المتقن و المخلص الذي يستمد جذوره من اليقين التام بهيمنة الله عز وجل ، وهذا ما نفهمه من النصوص الدينية و من قوله سبحانه في هذه الآية.

]و الله بما تعملون خبير[

فالمؤمن يقرأ في هذه الخاتمة ان عليه الاستمرار في الايمان و العمل به ، و ان يخلص فيه لوجهه تعالى ، بل و يتقن اداءه ، لانه في حضرة خالقه الذي لا يمكنه خداعه او التدليس عليه ، فهو الخبير باعمال الانسان بأشمل و ألطف مما عند الانسان نفسه.

و كلمة اخيرة : كما ان الرسالة نور و ان الرسول نور فان من يحمل رسالة الرسول اليوم و يكون امتدادا لقيادته الربانية و نائبا عن خلفائه الامناء - عليهم السلام - فانه هو الاخر نور . اوليس داعيا الى الله ؟ اوليس يحمل رسالات ربه الى العباد ؟ كذلك كان علماء امة محمد - صلى الله عليه وآله - كأنبياء بني اسرائيل . اوليسوا هم خلفاء الرسول ؟ و كذلك نقرأ في حديث النبـي يعـظ سلمان المحمــدي : " يا سلمــان .. و ان اكرم العباد الى الله بعد الانبياء العلماء ، ثم حملة القرآن ، يخرجون من الدنيا كما يخرج الانبياء ، و يحشرون من قبورهم مع الانبياء ، و يمرون

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٤١.

على الصراط مع الانبياء ، و يأخذون ثواب الانبياء ، فطوبى لطالب العلم و حامل القرآن مما لهم عند الله من الكرامة و الشرف " (١. (

[9]و تأكيد الله على ضرورة الايمان به و برسوله و بنوره المنزل باعتبار ذلك هو طريق النجاة يوم القيامة.

]يوم يجمعكم ليوم الجمع[

أي يجمــع اوصالكم التي تفرقت بعد الموت و يجمعكم الى بعضكم مؤمنين و كافرين ، و كذلك يجمع الناس مع الرسل ليشهدوا عليهم ، و سميت القيامة بيوم الجمع و في مواضع اخرى بيوم الحشر لانها اليوم الذي تجتمع فيه البشرية كلها من ادم حتى اخر مولود ادمي.

]ذلك يوم التغابن[

ماذا يعني التغابن ، و لماذا سمي يوم القيامة بيوم التغابن ؟

الجواب :ان الغبن في البيع او الشراء هو ظهور الخديعة و الغلبة ، غبن فلانا نقصه في الثمن و غيره ، فهو غابن و ذلك مغبون (٢) ، و التغابن من التفاعل اي ان كل فرد او طرف يسعى لايقاع الغبن بالآخر ، و سميت الآخرة بذلك لامور أهمها :

- 1ان لكل انسان خلقه الله منزلين في الآخرة ، احدهما في الجنة و الآخر في النار ، فاذا افلح ان يكون اهلا للجنة ملك قصوره فيها و ورث اهل النار منزله فيها ، كما يرث منازل اهل النار التي كانت لهم في الجنة ، و ذلك قوله تعالى : " اولئك(١) بح / ج ٩٢ - ص ١٨.

(2)المنجد / مادة غبن بتصرف.

هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون " (١) ، و يومئذ يظهر الغبن لدى اهل النار بخسرانهم الجنة و وقوعهم في الخسارة العظمى بدخول جهنم ، و لان المؤمنين يرثون منازلهم في الجنة فكأنهم اوقعوا بهم الغبن.

- 2ان المؤمنين و الكافرين في صراع و تحد دائمين ، و كل فريق يحاول ايقاع الخسارة بالطرف الآخر عبر الانتصار عليه او تحطيمه ، و حيث ان الدنيا دار الابتلاء لكلا الفريقين فهي للكافرين على المؤمنين تارة ، و تارة للمؤمنين على الكافرين ، و الغبن فيها نسبيمحدود ، اما في الآخرة و هي دار الخلود فانها المصداق الاعظم للتغابن ، فالغابن فيها غابن حقا ، و المغبون فيها خاسر بتمام المعنى . صحيح ان اساس الغبن في الدنيا ، لان الدنيا هي دار العمل ، و لكن ظهوره لا يكون الا في الاخرة و لا يسمى الغبن غبنا الا بعد ان يظهر للناس جليا.

]و من يؤمن بالله و يعمل صالحا[

أي يترجم ايمانه الى العمل فان الايمان الحقيقي بالله اصل كل خير و الباعث على كل صلاح.

]يكفر عنه سيئاته[

أي الخطايا الجانبية.

]و يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم]و هذا مصير الطرف الغابن . و في الآية اشارة الى احد معاني الشفاعة و هي ان(١) المؤمنون / ١٠ - ١١.

تكون لدى الانسان حسنات كبيرة تذهب بالسيئات الصغيرة.

[10]و في نهاية الدرس الاول من سورة التغابن يضع القرآن بين ايدينا صورة للفريق المغبون ، و اي غبن و خسارة اعظم من الخلود في عذاب النار ؟!!

]و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار خالدين فيها و بئس المصير]ان السبيل الى الفوز كان في الايمان بالله الذي بيده مصائر الناس ، و في اتباع رسله و القيادات الرسالية ، و في العمل بمنهج الفوز الذي تنطوي عليه آيات القرآن ، و قد نبذوها وراء ظهورهم فصاروا الى الخسران.

إنما أموالكم و أولادكم فتنة
هدى من الآيات
كيف نتجنب الغبن في يوم التغابن ؟

- 1لنعلم اولا :ان المصائب اقدار الهية ، و بالايمان يهتدي الانسان كيف يتحصن ضدها او يتعامل معها دون ان ينهار.

- 2الطاعة لله و الرسول ، و التوكل على الله لمقاومة ضغوط الشهوات و نوائب الدهر.

- 3الحذر من الازواج و الاولاد ، لان فيهم من هو عدو لنا ، ثم العفو عما تبدو منهم من اساءة ، و لنعلم انهم فتنة ، فلنقاوم الفتنة بأبتغاء ما عند الله من اجر عظيم.

- 4التقوى حسب المستطاع ، و الطاعة للقيادة ، و مواجهة شح النفس باداء الحقوق.

- 5القروض الواجبة و الانفاق المستحب.

بينات من الآيات

[11]ليس من تغير خيرا كان او شرا الا و يمر عبر تدبير الله و اذنه.

]ما اصاب من مصيبة الا باذن الله[

لانه تعالى الذي يمد كل شيء بنور الوجود و الاستمرار ، و لانه الذي وضع السنن في الخليقة و يجريها بسلطانه و ليست من مصيبة الا في سياق تلك السنن ، و له الارادة غير المحدودة بان يفعل ما يشاء و يغير ما يريد . و ما دامت المصائب تكون باذنه تعالى وهو الحميد العادل الحكيم فلن تكون بلا سبب و من دون حكمة ، بلى . و من حكمته و لطفه انه بين في كتابه كيف يتخلص الانسان من المصيبة ، و لكن انى للانسان ان يستفيد من كتابه دون ان يؤمن به ؟!

]و من يؤمن بالله يهد قلبه[

و لهداية القلب هنا معان ابرزها:

- 1ان الايمان بالله ، و بالتالي معرفة انه الفعال لما يشاء ، و انه المهيمن على العالم ، و انه لا تقع مصيبة الا باذنه ، معرفة هذه الحقائق جميعا تجعل الانسان يسمو الى سماء التسليم لله عز وجل ، مما يجعله قادرا على الاستقامة في طريق الحق رغم التحدياتو المشاكل . و تقديم هذا البيان هو تمهيد للامر القادم بطاعة القيادة الرسالية حيث يواجه المؤمنون في هذا الطريق الوان الفتن و المصائب ، و اذا كانت المصائب تسبب للكثير الانحراف عن سواء السبيل فهي لا تزيد المؤمن الا ايمانا و تسليما.

المؤمن كما الذهب يزداد صفاء كلما تعرض لفتنة النار ، و ان ايمانه بالله ليزيده صلة بربه عند المصائب ، لانه يعلم بانها لا تقع الا باذنه و لا تزول الا باذنه ، و ان خير وسيلة لتحديها هو المزيد من الاتصال به و التقرب اليه ، بل يزداد احساسه بالحاجة الىالله و ضرورة الاستعانة به ، كما قال تعالى " : الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه راجعون " (١. (

- 2و كما ان الايمان معراج الروح الى التسليم فهو معراج الفكر الى الصواب ، فان المصيبة تفقد اكثر الناس توازنهم النفسي لما تحمله من الضغوط ، فتزرع فيهم اليأس من التغيير ، و قد تشل عقولهم عن التفكر ، و لكن المؤمن يقف امامها كالجبل الاشم لا تخرجه عن طوره ، و هذا يبقيه مهتديا ، و قادرا على الوصول الى الصواب حتى في ظروف المصيبة ، بل انها تصبح مدخله لكثير من المعارف ، فالمرض يدفعه لمعرفة سنن الله في جسم الانسان ، و طغيان الظلمة يجعله يعرف سنن الله في المجتمع ، و هكذا..

- 3اضف الى ذلك انه يجد الحل للمصيبة و الموقف السليم منها نتيجة الايمان ، فالايمان بالله اكثر من مجرد الاعتقاد . انه منهجية حياة شاملة ، و المؤمن عند المصيبة يتذكر بان الله حكيم لا يفعل شيئا الا لسبب فيبحث عن ذلك السبب ، و يتذكر ان الانسان بأعمالهو السبب الرئيسي لكل ما يجري عليه ، تسليما لقوله تعالى : " و ما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم " (٢) ثم يسعى للتغيير ايمانا بقوله تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم (3) " ، (1)البقرة / ١٥٦.

(2)الشورى / ٣٠.

(3)الرعد / ١١.

و يستعين بالله بكل ما يستطيع من دعاء و صدقة ، لايمانه بانه على كل شيء قدير ، و انه يمحو ما يشاء و يثبت ، و لانه قال : " ادعوني استجب لكم (1) " ، فالمصيبة اذن تتحول عند المؤمن الى عمل بمناهج الله ، و بالتالي الوصول الى الحل ، و ذلك من مصاديقالهداية.

]و الله بكل شيء عليم[

و هذه الخاتمة تبني روح التسليم لقضاء الله عند كل مؤمن ، حيث تؤكد له ان اذن الله و تدبيره متاسس على علمه ، فهو لحكمة يعرفها ، و لاسباب احاط بها .

و نجد في الاية التفاتة لطيفة تتصل بنظرية الجبر التي عالجها كثير من المفسرين عند هذه الاية ، فقد زعم البعض بان الانسان ليس له اختيار في الحياة ما دام الله هو الذي يقدر شؤونها - كالمصائب - و يجريها كيف يشاء ! و لكن القرآن يحل هذه الاشكالية باختصارو باسلوب بليغ حيث يؤكد دور الانسان في صنع واقعه و مصيره بالقول : " و من يؤمن بالله يهد قلبه . " اذن فالهداية التي هي من عند الله لا تحصل الا بعد ايمان الانسان نفسه بالله ، و على هذه السنة تمضي الحياة بخيرها و شرها ، بافراحها و احزانها ، كماانننا نستطيع ان نفسر كل الحوادث بهذه البصيرة.

و سؤال أخير في الآية : لماذا قال ربنا : " يهد قلبه " و لم يقل : يهديه ، كما في كثير من الآيات الأخرى ؟

و الجواب : اولا : لبيان ان صلاح الانسان و فساده (هدايته و ضلاله) كل ذلك متصل بما ينطوي عليه قلبه من الافكار و المعتقدات ، و بالتالي فان التغيير الحقيقي و الجذري يتم بتغيير القلب.

(1)غافر / ٦٠.

ثانيا :لبيان شمولية الهداية فهداية الله لقلب المؤمن تجعله خالصا من كل انحراف و ضلالة ، فان القلوب قد تكون مزيجا من الحق و الباطل الا قلب المؤمن حيث يصفو للحق دون الباطل و للهدى دون الضلال ، اي ان الايمان صنو لهداية القلب حيث يقوده الى سائر الحقائق ، و يبصره في جميع ابعاده و جوانب الحياة ، و كما زاد ايمان احد زاد هدى قلبه.

[12]و أعظم مصيبة تصيب البشر هي التخلف في الدنيا و دخول النار و التعرض لسخط الله في الآخرة ، و لكي يتجنبها الانسان يجب ان يطيع الله ، و يتبع القيادة الشرعية ، و يعمل بمناهج الحق التي بلغها الرسول - صلى الله عليه وآله - و فصلها ائمة الهدى و العلماء الصالحون . و هكذا يوصل القرآن حقيقة الايمان بالله و بالآخرة بحقيقة الايمان بالرسول (القيادة الالهية) . و لقد مهد السياق للحديث عن طاعة القيادة بما تضمنته الآية السالفة من بيان عن المصاعب ، و انطوت عليه من دعوة للتسليم لله فيها ، لان الطاعة لله واتباع القيادة الرسالية التي تنشد التغيير سوف يتسبب بلا شك في كثير من المشاكل و الضغوط التي ينبغي تحديها بروح التسليم لله عز وجل ، و لكنها تقضي على مشاكل اكبر بصورة جذرية.

]و اطيعوا الله و اطيعوا الرسول[

و نقف هنا عند تعبير القرآن الكريم ، فهو تارة يقول : " اطيعوا الله و رسوله "و اخرى يقول : " اطيعوا الله و اطيعوا الرسول " ، باضافة فعل الامر " اطيعوا " ، كما في هذه الآية . اوليس العطف بالواو وحده كاف لتأدية نفس المعنى ؟

و الجواب : ان لكلا التعبيرين ظلاله الخاص في المعنى و النفس ، و لعل العطف بالواو وحـدها يبين ان طاعة الرسول هي امتداد لطاعة الله ، بينما العطف بها مع الفعل : " اطيعوا " يؤكد استحالة الفصل بين طاعة الله و طاعة القيادة الرسالية ،بان يزعم البعض بانه يكتفي بالقرآن طاعة لله و بعدها لا داعي لطاعة احد رسولا او اماما او عالما .. و اللطيف ان هذا التعبير ورد في سياق سورة التغابن التي تعرضت لاشكالية الفصل بين طاعة الله و طاعة رسوله حيث قال الكفار : " ابشر يهدوننا (الاية ٦ (محاولة للفصل بين الطاعتين . و يحذر الله من عصيانه و رسوله و التولي لغيرهما اذ يقول:

]فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين[

و كفى بهذه الآية تحذيرا للناس و تهديدا للكفار.

[13]و لما انتقد القرآن موقف الكفر و التولي من قبل الكفار تجاه رسلهم لكونهم بشر امثالهم ، و بالتالي التقليل من شأنهم و تبرير عصيانهم ، اكد هنا في سياق أمره بطاعة الرسول (القائد الرباني) و انطلاقا من منهجيته المتوازنة على حقيقة التوحيد كحد لتقديسالرسل و الاولياء القادة ، فانه لا يجوز بحال من الاحوال اعتبارهم شركاء لله او انصاف الهة ، كما صنع بعض النصارى و اليهود بالنسبة لعيسى و عزير - عليهما السلام - ، فالطاعة للقيادة و العبادة لله وحده.

]الله لا اله الا هو و على الله فليتوكل المؤمنون]و قد أكد القرآن على ضرورة التوحيد و التوكل في سياق أمره بطاعته و طاعة رسوله لان هناك سببين يدعوان الانسان للتخلف عن الطاعة لهما:

الاول : الشرك بالله سبحانه شركا مبدئيا باتباع الافكار و الفلسفات الضالة ، او عمليا بالخضوع للارادات الاخرى من دون الله لمجارات الشهوات و المصالح ، او اتباع الطواغيت و الركوع اليهم . و لكي يسمو الانسان الى آفاق الطاعة و التسليم لله و لقيادة الحق يجب اولا ان يتطهر من رواسب الشرك ، و يتخلص من اغلاله ،و يتحدى الانداد المزعومة.

الثاني :الضعف و الانهزام امام الضغوط و التحديات المضادة لخط الرسول و القيادة الالهية ، فان اجلى صور التحدي و الضغوط تبرز في مواجهة النظام الاجتماعي بكل أبعاده سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا و اخلاقيا و يجب على المؤمن ان يستقيم في خط التوحيد رغم ذلك، و هذا بحاجة الى ارادة صلبة تجعله اشد من الجبال ، و هذه يستمدها من الاستعانة بصاحب القدرة الواسعة و التوكل عليه .وما احوج الحركات الرسالية و المجاهدين للصمود في مسيرة التغيير عبر التوكل على خالق السماوات و الارض ، و الالتجاء الى حصن ولايته و عزتهو قدرته.

[14]و يذكرنا الوحي بأحد أقوى و أخطر التحديات التي يواجهها المؤمنون في طريق الجهاد و الطاعة لله و للقيادة الرسالية و هو تحدي الأسرة ، ذلك لان الأسرة هي حلقة الوصل الاساسية بين الانسان و محيطه الثقافي و السياسي ، و لذلك فهي أقرب تأثيرا و أبلغ نفاذافي إرادة المجاهد .

ثم ان مقاومة المؤمنين للطاغوت تنعكس بصورة حادة و سريعة على اسرهم ، فاذا بها كلها او بعضها تقف عقبة في طريق الجهاد ، فينهاروا نتيجة الصلات التي تربطهم بها . و لكـي يستقيم المؤمن لا بد ان يتذكر هذه الحقيقة ، و يحرق سفن العودة الى الشرك ، و يتحصن ضد وسائل الضغوط ، و من ابرزها الاسرة ، و ذلك عبر تحديها بصلابة التقوى و الايمان.

]يا ايها الذين ءامنوا ان من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم]قال الامام الباقر - عليه السلام - : " و ذلك ان الرجل كان اذا أراد الهجرة الى الرسول - صلى الله عليه وآله - تعلق به ابنه و امرأته ، و قالوا : ننشدك الله ان لا تذهب عنا و تدعنا فنضيع بعدك ، فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فحذرهم الله ابناءهم و نساءهم و نهاهم عن طاعتهم ، و منهم من يمضي و يذرهم و يقول : اما و الله لئـن لم تهاجروا معي ثم يجمع الله بيني و بينكم في دار الهجرة لا انفعكم بشيء ابدا " (١. (

و في توجيه القرآن الخطاب للمؤمنين بالذات في هذه الآية بيان لحقيقة واقعية و هي : ان المؤمن الحقيقي مجاهد بطبعه ، لذلك تتوالى عليه الضغوط و التحديات ، و لانه من دون سائر الناس يتحمل المسؤولية الرسالية ، و بالتالي فانه الاولى بمثل هذا الخطاب ، و الأقرب لفهم معانيه ، فهو هنا ذلك

الانسان الذي أمن بربه وحده ، و اطاع قيادة الحق متوكلا على الله . و كيف يدرك المتقاعسون معنى التحديات الاسرية و الاجتماعية و السياسية و هم يسبحون مع تيارها و ليس ضده كما يفعل المؤمنون الصادقون ؟!

و لا تعني الاية من الازواج النساء وفقط ، فقد تكون الزوجة مؤمنة مجاهدة و يكون العدو هم الزوج و الاولاد فهي مسؤولة ايضا . و ما اروع موقف وهب الانصاري حينما تحدى تثبيط زوجته اذ تعلقت به لتردعه عن خوض القتال دفاعا عن الاسلام بين يدي الامام الحسين -عليه السلام - و لكنه اندفع الى الشهادة ، لان حب الله كان انفذ بقلبه من عاطفته تجاه زوجته الشابة ! و ما اعظم موقف آسية بنت مزاحم و هي تتحدى طغيان زوجها فرعون حتى استشهدت موثقة بالاوتاد ! و لعمري ان التاريخ الرسالي لحافل بمواقف البطولة للنساء و الرجال على سواء ، الذين فكوا حلقة الاسرة ، و انطلقوا في رحاب الدفاع عن القيم السامية.

و كما أن العداوة تتخذ ألوانا فان عداوة الازواج و الاولاد قد لا تظهر على شفرة سيف ، و لا سنان رمح ، و لكنها تتمثل في مظاهر اخرى عاطفية و اجتماعية و اقتصادية ، فحينما يكون المؤمن متفانيا لقضيته منصهرا في بوتقة اهدافه فان معاداة(١) تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣٧٢.

أسرته للقضية و الاهداف هي في الواقع معاداة له ذاته ، و لو جاءت تلك المعادات في صورة قشيبة من جهة التظاهر بحبه.

و اذا لم يحذر المؤمن هذه العداوة فان عاقبته الخسران ، ذلك ان الطغاة و المترفين و الكسالى و الرجعيين يحسنون استخدام سلاح الأسرة ضد المؤمن الرسالي ، لذلك تراهم ما يبرحون يسعون بشتى الاساليب ترغيبا و ترهيبا و تضليلا لادخالها في معادلة الصراع ضد الرساليين.

]فاحذروهم[

أي خذوا الحيطة المسبقة ، و تحصنوا ضد عداوتهم . و امره تعالى بالاحتياط هنا ثم دعوته الى الصفح و التسامح بعدئذ يدل على ان العداوة المعنية ليست التي تصل الى حد القتال بل هي العداوة الخفية ، كالتي تستهدف التثبيط و النيل من عزيمة الجهاد لدى الانسان المؤمن.

و ثمة ملاحظة جديرة بالانتباه تجدها في وزن كلمات الآية من الزاوية البلاغية ، فقد قال تعالى " :عدوا " بالافراد ، ثم قال : " فاحذروهم " بالجمع ، لان العدو قد يكون واحدا منهم و لكنه مندس بين ابناء العائلة و مؤثر فيهم فلا بد ان يحذرالمؤمن الجميع و يتوجس خيفة من اي كلمة تثبيط تتغلف بالود و العاطفة ، سواءا صدرت من امه و ابيه او زوجته و بنيه او اخته و اخيه ، و بهذا الحذر وحده يستطيع ان يتجنب الفضل الذي وقع فيه الكثير من الناس ، فما اكثر القرارات الصائبة التي ضربت عرض الحائط بسبب دمعة تحلقت في جفون الزوجات او كلمة عاطفية صدرت من أم أو أب ؟!!

وليست الدعوة الى الحذر تعني المقاطعة التامة مع الاسرة ، كلا .. بل لا بد ان يتحرك في علاقاته ضمن معادلة متوازنة احدى كفتيها الاحتياط و الحذر ، و الاخرى العفو و الصفح و الغفران.

]و ان تعفوا و تصفحوا و تغفروا[

و هذه ثلاث درجات لصفة واحدة هي التنازل عن الحقوق الشخصية بالسماحة و سعة الصدر لصالح الاسرة . و ينبغي للمؤمن ان يسمو بنفسه الى آفاق الحلم و السماحة تخلقا باخلاق الله ، و يتحمل بعض الاساءات من اجل جذب اسرته الى الرسالة.

]فان الله غفور رحيم[

يغفر للمتسامحين و يرحمهم ، و هي اعلى درجات التسامح . و تحسس المؤمن بحاجته الى غفران الله و رحمته لا شك يدعوه للتلطف بمن هو تحت يده و قدرته.

و نعود آلان الى معنى الكلمات الثلاث : (العفو ، الصفح ، الغفران (، فالعفو هو التنازل عن حق الانتقام و المماثلة في القصاص و بالذات عند المقدرة ، و الصفح درجة ارفع ، اذ قد يتنازل الانسان عن حقه في الاقتصاص مثلا و لكن علاقته مع الطرف الآخر تبقى كدرة بسبب الاساءة ، اما اذا صفح عنه فهو يطوي صفحة الماضي و يفتح صفحة جديدة فتعود علاقته الظاهرة به علاقة طبيعية ، و ليس بالضرورة ان تزول الاثار النفسية الداخلية بذلك ، بلى . اذا غفر ازال حتى هذه الاثار ، بل و تنازل عن طلب الانتقام من الله عز وجل . و هذهالصفات ينبغي ان يتحلى بها المؤمن تجاه اسرته و الاخرين على كل حال و في كل الظروف ، و بالذات عندما يحتدم الصراع المبدئي بينه و بينهم ، فان هذا الصراع ينبغي ان يبقى في حدود المبدء و لا يتحول الى صراع شخصي مستمر ، فاذا عادت زوجته التي كانت تمنعه من العمل في سبيل الله الى رشدها او اقتنع ابواه و سائر اسرته فان عليه ان ينسى الاساءات التي صدرت منهم تجاهه ، و لا يذكرهم بها ، و لا يحمل في نفسهغضاضة ، و لا يطالبهم بالغرامة ، و ما اشبه.

[15]و قد لا تبدر العداوة من قبل الاسرة تجاه المؤمن ، و لكنه يفتتن بهم او بماله ، و لربما نجد البعض تحرضه زوجته او اسرته على الجهاد و لكن تفكيره في مستقبلها بعده يمنعه من الاقدام عليه ، لذلك حذرنا الله عن ذلك بقوله:

]إنما أموالكم و أولادكم فتنة[

قد ينجح المؤمن في مواجهتها و قد يفشل و لكنها كلها بالحصر و دون استثناء فتنة ، اي انها تضعه امام مفترق طريقين : احدهما الحق و الآخر الباطل ، و تثير فيه نفسه الامارة و الاخرى اللوامة ، ليختار بعقله و يمشي بارادته في ايهما شاء.

]و الله عنده أجر عظيم[

و إنما يذكر ربنا بهذه الحقيقة لان الايمان الصادق بها كفيل بان يدفع الانسان لتجاوز الفتنة بنجاح فيختار ما عند الله على ما في الدنيا ، كما ان هذه البصيرة ترغب المؤمن ليسخر الاموال و الاولاد في سبيل الحصول على ما عنده تعالى ، و ليس جعلها عقبة دون ذلك ، و فرق بين الامام الحسين - عليه السلام - الذي جعل اولاده و اصحابه و أهل بيته و أمواله وسيلة للتقرب من الله و بين الزبير الذي ادخله افتتانه بولده عبد الله فـي حرب مع ولي الله و حزبه في موقعة الجمل ، فقال عنه امير المؤمنين - عليه السلام - يصف عاملالانحراف في حياته : " مازال الزبير رجلا منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله " (1)، لانه الذي دفعه الى حب الدنيا و الرئاسة ، و حرضه على الحرب ضد الامام - عليه السلام - . و هذه البصيرة تجعل المؤمن يتصرف تصرفا معتدلا مع أمواله و أولاده ، فلا يفرط في حق أبنائه ، و لا يبذر في صرف أمواله ، انما يتبع طريقا وسطا يزن كل موقف منه(١) نهج / حكمة ٤٥٣.

تجاههما بدقة ، و يتصرف بحكمة ، و يتجنب الاسترسال في موقف ايجابي او سلبي.

و هكذا روى المفسرون حديثا عن الرسول - صلى الله عليه وآله - نستلهم منه معنى ايجابيـا للفتنة ، و انها لا تعني طرد الاولاد او نبذ الاموال ، بل التصرف الحكيم معها . الحديث كما يلي:

روى عبد الله بن يزيد عن ابيه قال : كان رسول الله يخطب فجاء الحسن و الحسين - عليهما السلام - و عليهما قميصان احمران يمشيان و يعثران ، فنزل رسول اللـه إليهمـا فـأخذهمـا فوضعهما في حجره على المنبر ، و قال : " صدق الله عز وجل " : إنما أموالكم و أولادكم فتنة " نظرت الى هذين الصبيين يمشيان و يعثران فلم اصبر حتى قطعت حديثي و رفعتمهما " ، ثم اخذ في خطبته (١. (

[17 - 16]و ليـس من درع يتحصن به المؤمنون ضد الفتن افضل من تقوى الله ، لانها الحبل المتين الـذي يـوصل الانسان بربه في كل مكان و في كل لحظة من عمره ، و في كل سعي و قول يصدر عنه . هذا اولا ، و ثانيا : السماع لله و لرسوله و الطاعة لهما ، و ثالثا:
الانفاق في سبيل الله و التضحية بكل ما يملكه الانسان ، فان ذلك هو السبيل المستقيم لنيل ما عنده تعالى من الاجر ، و الانتصار على شح النفس الذي هو أساس كل انحراف في حياة البشر ، و بالتالي

الفلاح الحقيقي في الدنيا و الاخرة.

]فاتقوا الله ما استطعتم[

و هذه الآية بيان لقول الله في موضع آخر : " اتقوا الله حق تقاته " (٢) ، و ذلك(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٠١.

(2)آل عمران / ١٠٢.

من وجهين:

الاول :ان الله سبحانه حينما فرض التقوى على الانسان اعطاه من الاستطاعة ما يمكنه بها احرازها كما يريدها منه تعالى ، قال الامام الصادق - عليه السلام - : " ما كلف الله العباد كلفة فعل و لا نهاهم عن شيء حتى جعل لهم الاستطاعة ثم أمرهم و نهاهم " (١. (

و قال - عليه السلام - : " و انما وقع التكليف من الله تبارك و تعالى بعد الاستطاعة ، و لا يكون مكلفا للفعل الا مستطيعا " (٢) كما قال تعالى : " لا يكلف الله نفسا الا وسعها . (3) " اذن فتقوى الله بقدر ما يستطيع الانسان هي نفس حقالتقاة.

الثاني :ان تقوى الله حق تقاته تختلف من انسان الى آخر باختلاف الظروف و الامكانات الذاتية ، فتقوى الاعرج و الاعمى و المريض تختلف عن تقوى السليم في بدنه ، و تقوى العالم تختلف عن تقوى الجاهل ، و تقوى السجين تختلف عن تقوى الحر ، و هكذا .. فاذا ما بذلالانسان كل ذرة من جهد يستطيعه فقد اتقى ربه حق تقاته عمليا . و لذلك فرق تعالى في الكم بين انفاق الموسع و المقتر فقال : " لينفق ذو سعة من سعته و من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها " (٤. (

و نستوحي من الآية : ان المؤمن يجب ان يكون واقعيا في نظرته الى الدين ، فيتقي الله حسب استطاعته و مكنته ، و اذا لم يستطع فلا يؤنب نفسه و لا يقنط من(١) نور الثقلين / ج - 5ص ٣٤٣.

(2)المصدر.

(3)البقرة / ٢٨٦.

(4)الطلاق / ٧.

رحمة الله ، بل يفعل بقدر وسعه . مثلا : من لم يستطع طولا ان يصلي قائما فلا يترك صلاته رأسا ، بل يصليها عن جلوس ، و من لم يستطع ان يعارض حاكم السوء فلا يجاريه بقلبه بل يتقيه ظاهرا و يستمر في مقاومته في السر ، و هكذا..

قال تعالى : " لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله من شيء الا ان تتقوا منهم تقاة " (١) ، و قال : " من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره و قلبه مطمئن بالايمان " (٢) .. و الحاصل :ان الانسان حينما يضطر الى التقوى الممكنة عمليا لسبب مشروع فهو في الواقع صار الى التقوى المأمور بها ، لان تقوى الله حق تقاته تكون بالتزام احكامه سواءا كانت احكاما اولية او ثانوية ، و قد لا تحرز التقوى بحق الا بشرب الخمر و أكل الميتة و العمل ظاهريا في جهاز الحكم الجائر ، كما أكد ذلك الامام الكاظم - عليه السلام - لصاحبه علي بن يقطين الذي اراد الاستقالة من رئاســـة الوزراء في عهد هارون حيث منعه و بين له بان بقاءه هو الواجب المطلوب شرعــا.

و الآية الكريمة التي نحن بصددها تعبير عن النظرة الواقعية في الاسلام ، و ينبغي للحركات الرسالية اعتبارها اصلا من اصول التحرك حيث ان النظرة المثالية الى الشريعة تجعل الاولويات ضحية للامور

الثانوية و الاصول ضحية للفروع.

]و اسمعوا و اطيعوا[

فالمهم اذن ليس الاستماع الى كلام الله و توجيهات القيادة الرسالية فقط ، انما الاهم هو الطاعة و الاتباع ، لان التوجيه لا يؤثر في الواقع الا اذا سلمنا له و عملنا بمضامينه ، و بالذات تلك التي تتطلب من الانسان التضحية لانها الاصعب ،(١) آل عمران / ٢٨.

(2)النحل / ١٠٦.

و التزام الانسان بها مؤشر على عمق ايمانه ، و اقتحامه عقبة الشح الكبرى . لذا قال تعالى:

]و انفقوا خيرا لانفسكم[

اي ان الانفاق يعود على صاحبه بالخير ، فهو يزكي النفس و يزيد ايمانها ، و يتقدم بالمجتمع اقتصاديا لما يسببه من نماء في الثروة و تدوير لها . و للآية تفسير آخر هو : انفقوا خيرا في مقابل الشر ، فان الخير هو الذي يعود للنفس و المجتمع بالنفع.

]و من يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون[

و شح النفس هو مجموع الصفات السلبية التي تعبر عن حب الذات و حب الدنيا ، كالبخل و الحرص و العنصرية و ما اشبه ، و اذا انتصر الانسان على شح نفسه صار من المصلحين لانه جذر كل ضلال و انحراف و معصية في حياة البشر ، و لان الانتصار عليه يفتح الطريق له نحوكل فضيلة و صلاح ، و لذلك يحدثنا ابو قرة فيقول : " رأيت ابا عبد الله (الامام الصادق عليه السلام) يطوف من اول الليل الى الصباح و هو يقول : اللهم قني شح نفسي ، فقلت : جعلت فداك ما سمعتك تدعو بغير هـذا الدعاء ؟! قال : و أي شيء أشد من شح النفس ، وان الله يقول : " و من يـوق شـح نفسه فاولئك هم المفلحون " (١. (

و الانفاق من اهم العوامل التي تقضي على شح النفس ، جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " من ادى الزكاة فقد وقي شح نفسه. (2) "

]ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم[

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٤٦.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٠١.

ماهو القرض هنا ؟ قال بعضهم : هو الدين ، و قال البعض : بل هو كل إنفاق ، او الإنفاق المندوب (بينما الاول كان في عموم الإنفاق) . و أنى كان فان لكل هذه المفردات آثارا مباركة في حياة الفرد و المجتمع ، و لها ايضا اثار معنوية تتصل بمصير الانسان في الآخـرة ، اذ تسبب فـي غفران الذنوب باعتباره من الحسنات الكبيرة التي تشفع في السيئات.

]و يغفر لكم و الله شكور حليم[

فهو يرد القرض مضاعفا بشكره ، و يغفر الذنوب بحلمه.

[18]و كلما كان الانفاق اصفى من شوائب الرياء و السمعة و المن و الاستكبار و ابتغاء المصالح المادية كلما كان اقرب الى الله و انفع للنفس و ازكى لها ، و ربما لذلك ختمت السورة بالتذكرة باسماء الله:

]عالم الغيب و الشهادة[

يعرف ما ينفق ، و يعرف لماذا و باية نية.

]العزيز[

الذي لا يحتاج الى انفاق أحد أو نصر أحد ، قال سبحانه " فتولوا و استغنى الله و الله غني حميد. "

]الحكيم[

الذي يثيب من يثيب بقدر طاعته و اخلاصه ، و يعاقب من يعاقب حسب ذنبه و كفره.

نسأل الله ان يجعلنا ممن يتبصر هذه الحقائق حتى لا نكون من المغبونين.

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

من كتاب ثواب الاعمال و عقابها للصدوق (رض) باسناده عن ابي عبد الله الصادق -عليه السلام - قال : " من قرأ سورة الطلاق و التحريم في فريضة اعاذه الله من ان يكون يوم القيامة ممن يخاف او يحزن ، و عوفي من النار ، و ادخله الله الجنة بتلاوته إياهما، و محافظته عليهما ؛ لانهما للنبي صلى الله عليه وآله "تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٤٦

الإطار العام

في بادىء الأمر يتراءى ان سورة الطلاق تتحدث عن قانون الطلاق ، و لكن حينما نتدبر في سياقها نجد محور السورة الحديث عن التقوى ، و ما الحديث عن قانون الطلاق و سنن الله في الغابرين و .. و .. الا اطارا لهذه المحور ، و السؤال : ما هو سبب مزج السياق بين الاحكام الشرعية و بين الاوامر المؤكدة بالتقوى ؟ و الجواب:

- 1ان التقوى هي افضل ضمانة لتنفيذ الاحكام الشرعية ، و التزام الحدود الالهية ، و الاعتبار بالمواعظ ، و العمل بقيم الذكر ، و بالذات في صورتين:

الاولى : القضايا الفردية التي لا تتصل بالنظام السياسي للامة بقدر اتصالها بالنظام الاجتماعي و بالقرارات الفردية للانسان.

الثانيــة :غيـاب النظام الاسلامي المتكامل (المجتمع الاسلامي ، و الحكومة الالهية (اذ مع وجود هذا النظام يصعب على الفرد ان يتجاوز حدود الله ، لانهسيجد من يمنعه و يقف في طريقه ، و بالذات في المسائل الاجتماعية ، لذا فقد يلتزم الانسان بالاحكام خشية الناس و القانون ، اما اذا نمت روح التقوى عند احد فان من ربه ستكون أعظم من كل شيء ، و ذلك ما يدعوه لاتباع الحق في أي مكان و زمان حتى لو لم يكن ثمة نظاماسلامي قائم ، بل و لو كان وحده لا يراه أحد من الناس.

- 2ان حقيقة التقوى لا تنمو في القلب الا اذا اتصلت بمجمل سلوك الانسان ، فهي ليست مفهوما ذهنيا او مادة للمعرفة ، إنما هي صبغة حياة و لون سلوك ، و منهج تكامل ، و موقف من الاحداث المتحركة حول الانسان ، لذلك يحدثنا الوحي عنها عبر تيارات الحياة و تطوراتها ، و امواج ضغوطها المختلفة ، لكي لا نتعامل مع التقوى كقضية مجردة ، و بعيدة عن التفاعل في قضايانا اليومية.

و بهذه الطريقة تتصل التقوى بكل التعاليم الدينية ، فاذا امر الله بالتقوى عند الحديث عن قانون الطلاق فان معناها يكون الالتزام باحكام الله و حدوده فيه.

و من يتق الله يجعل له مخرجا

هدى من الآيات

الاسرة كما يراها الاسلام هي اللبنة الاولى في بناء المجتمع الاسلامي ، و قد أولاها القرآن اهتماما بالغا باعتبارها حصن الفرد و المجتمع ، و المدرسة التي تتربى فيها الاجيال ، فهو ما يفتأ يعالج القضايا المتصلة بها بين سورة و اخرى ، ليرسم المنهج المتكاملللمسيرة النكاح و المعاشرة و التربية ، و لنظامها الداخلي (الدخول و الخروج ، و الأكل و النوم) و علاقاتها المختلفة ، و فيما بينها حالات الشقاق و الطلاق.

و بالرغم من ان بعضا من المذاهب كالمسيحية الكاثوليكية تحرم الطلاق البتة ، و بالرغم من انه في شريعة الاسلام نفسه ابغض الحلال الى الله ، فقد جاء الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - انه قال : " تزوجوا و لا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش " (١. (

و جاء في حديث آخر عنه - صلى الله عليه وآله - : " لا تطلقوا النساء الا من ريبة فان الله لا يحب الذواقين و الذواقات " (٢. (

الا انه تعالى يشرعه لان الروابط الزوجية في نظر الاسلام انما وضعت لاهداف فردية و اسرية و اجتماعية و حضارية ، فاذا اصبحت لا تؤدي الاغراض او اضرت بها فان الطلاق يصير الاولى منها.

و حيث ان الطلاق عملية هدم لكيان الاسرة فقد اسس الله دينه على الوقاية منه ، و في هذا السياق تنتظم الكثير من القيود التي وضعت ليصبح الطلاق مشروعا ، كوجوب العدة ، و بقاء الزوجة في بيت زوجها حينها لا هو يخرجها و لا هي تخرج منه ، و حضور شاهدي عدل حينالطلاق ، و ما الى ذلك.

و لا يعتبر الاسلام الطلاق مسألة شخصية يتصرف فيها الرجل كيف يشاء - كما يظن البعض ، و كما هي عند بعض المذاهب - انما هو قضية اجتماعية تمس كيان الاسرة بصورة خاصة و المجتمع بصورة عامة . لذا يضع الله حدودا يحذر من تجاوزها ، بل لا يقع الطلاق من الناحيةالقانونية و الواقعية و الشرعية الا ضمنها.

و يلاحظ الى جانب السياق الذي يعالج مشكلة الطلاق من الناحية القانونية تأكيدات متتالية على أهمية التقوى و بصيغ مختلفة ، لانها الدرع التي تحصن المجتمع ضد المشاكل كالطلاق ، و لانها الضمانة الحقيقية و الاهم لالتزام الانسان بحدود الله و تنفيذها في كل مكان و زمان.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٠٤.

(2)المصدر.

بينات من الآيات

[2 - 1]في اول آية من السياق يوجه الله الخطاب الى رسوله بصورة خاصة : " يا ايها النبي " باعتباره مسؤولا عن الامة و شاهدا عليها ، ثم يعم المسلمين ببلاغة فائقة : " طلقتم " ، و ذلك لكي ينسف المزاعم التي تقول بان علاقة الرجل بزوجته و تدبيره لشؤونها أمرا خاصا به ، و لا يمت بصلة الى الدين الذي تمثله القيادة الاسلامية ، و يؤكد بان هذا الوهم غلط فاضح ، لان علاقة الرجل بزوجته لا تقف عند حدود مصالح الفرد بل تنتشر الى كل امرأة . اوليست الزوجة عضوة في المجتمع الاسلامي ، و بالتالي لها امتداداتها و علاقاتها بالمجتمع و بقيادته ؟ فلابد اذا ان يكون التعامل معها ضمن حدود الله و توجيه القيادة الالهية ، و لذلك بدا الخطاب بالنبي ثم توسع الى سائر المسلمين.

]يا ايها النبي اذا طلقتم النساء[

و الملاحظ انه تعالى قال : " طلقتم " بصيغة الماضي ، ثم قال : " فطلقوهن " مما يدل على ان للطلاق مرحلتين : المرحلة النفسية الداخلية ، و المرحلة القانونية الظاهرية ، و تلك تسبق هذه الا انها لا تكفي لتحقق الطلاق لانه يجب اجراؤ الطلاق وفق حدوده و منها الصيغة التي تفيد ايقاعه كقول الرجل : زوجتي فلانة طالق ، او : انت طالق .. كما يفيد قوله : " طلقتم " الجزم و الاستقرار اي جزمتم و استقريتم على هذا القرار في انفسكم و اردتم ايقاعه.

و لعل كلمة " النساء " تنصرف الى الزوجات اللاتي تم الدخول بهن ، فان غير المدخول بها ليس لها عدة ، لان الحكمة منها حسب الاخبار منع اختلاف المياه ، و هذا منتف الا في المدخول بهن.

و لان هناك طلاق الجاهلية و طلاق البدعة لم يدع الوحي الكلمة هكذا انما حدد النوع المشروع و الصحيح من الطلاق ، و هو الذي الآيات اللاحقة تأتي على بيان حدوده و شروطه ، و من شروطه العدة ، و ان يتم في طهر لم يواقعها فيه ، لانه وحده الذي يدخل في حساب العدة الشرعية (١. (

]فطلقوهن لعدتهن[

و كلمة " طلقوهن " من الناحية القانونية تعتبر تشريعا للطلاق ، الامر الذي يختلف فيه الاسلام عن بعض المذاهب التي حرمته و منعته فلم تحل المشكلة ، بل تسببت في كثير من المشاكل النفسية و الاسرية و الاجتماعية . و لم يقل الله للعدة لكونها تختلفمن امرأة لاخرى ، فعدة الحامل تختلف عن غير الحامل ، قالوا في تفسير كلمة " لعدتهن " أي لزمان عدتهن ، و ذلك ان يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، عن ابن عباس و ابن مسعود و الحسن و مجاهد و ابن سيرين و قتادة و الضحاك و السدي ، فهذا هو الطلاق للعدةلانها تعتد بذلك الطهر من عدتها ، و تحصل في العدة عقيب الطلاق . فالمعنى فطلقوهن لطهرهن الذي يحصين من عدتهن ، و لا تطلقوهن لحيضهن الذي لا يعتدون به من قرئهن ، فعلى هذا يكون العدة الطهر (٢. (

و تهدينا الآية الى ان المرأة لا تنفصل كليا عن زوجها بمجرد ان تنطلق من لسانه صيغة الطلاق الاولى ، لتكون حرة في اختيار غيره مثلا ، انما تبقى في بيته و تحت مسؤوليته اثناء عدتها ، فاذا انتهت العدة سرى مفعول الطلاق عمليا فتنفصل المراة عن زوجها تماما لتصبح في غير عهدته الا ان يرجع اليها و ترجع اليه ، لذلك قال تعالى:

(1)قال الامام الصادق (ع) " لا طلاق الا على طهر من غير جماع " نور الثقلين / ج ٥ ص ٣٤٧ نقلا عن اصول الكافي.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٠٣.

]و احصوا العدة و اتقوا الله ربكم[

و قد أمر الرجل بالذات بالاحصاء لان الطلاق بيده و لانه المسؤول عن المراة في سكنها و نفقتها و حمايتها ، فلابد ان يحصي لكي يعرف بالضبط متى يمكنه التحلل من هذه المسؤولية الشرعية . و التأكيد على التقوى بعد الامر بأحصاء العدة يهدينا الى ضرورة الدقة فيالحساب ، لان التقوى هي التي تمنع الكذب و التلاعب . و في الآية تحذير للزوجين بأن الله رقيب و شاهد لا يمكن مخادعته ابدا ، و ينبغي اتقاء سخطه و عذابه . و لان فترة العدة مصيرية بالنسبة لعلاقة الطرفين ففيها يراجع الرجل نفسه و يقيم زوجته من جديد ليقرر الرجوع اليها او الانفصال عنها فيجب عليه ان يراقب الله من كل ذلك و يكون منصفا . ولعل الرجل بالذات يستطيع مضارة زوجته فيتلاعب بالمدة بعيدا عن علم اي احد ، و حيث لا يوجد النظام الاسلامي المتكامل فهو قادر على صنع ما يشاء دون ان يواجه اي اجراءات قضائية و قانونية تخالف هواه ، لذا فهو محتاج الى مراقبة الله قبل كل شيء وتقواه (باعتبارها اهم الضمانات التنفيذية للحدود و الشرائع. (

و يوصل القرآن الدعوة للتقوى بالنهي عن اخراج المطلقات من بيوت الزوجية قبل العدة ، و هكذا نهيهن عن الخروج ، لان ذلك هو الآخر يحتاج الى المزيد من خشية الله و تقواه.

]لا تخرجوهن من بيوتهن و لا يخرجن[

اذن فقول الرجل لامرأته : انت طالق لا يخرجها من مسؤوليته ، و لا يبرر لها التمرد عليه .. فان البيت يبقى بيتها لا يجوز له اخراجها منه ، و هي تبقى في عهدته لا يحق لها الخروج من تحت يده مادامت العدة لم تنقض " ثلاثة قروء و هي ثلاث حيضات ، وان لم تكن تحيض ثلاثة اشهر ، و ان كان بها حمل فاذا وضعت انقضى أجلها " (١) كما يقول الامام الصادق - عليه السلام. -

و لعل بقاء المرأة في بيت زوجها اثناء العدة - بالذات مع ملاحظة ما ندب اليه الاسلام من التبرج و التزين لزوجها - صلاح كبير ، باعتباره يشدهما لبعضهما ، و يعيد الرجل الى زوجته من زوايا انسانية عاطفية و جنسية حيث يرى ضعفها و انكسارها بين يديه و حيث يربالزينة و الجمال ، و من زاوية دينية باستشعار التقوى ان كان ثمة طريق للرجعة و الانسجام . قال الامام الصادق - عليه السلام - : " المطلقة تكتحل و تختضب و تطيب و تلبس ما شاءت من الثياب لان الله عز وجل يقول : " لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " لعلها ان تقع في نفسه فيراجعها " (٢. (

و يستثني القرآن مبررا واحدا تبين بسببه الزوجة من زوجها مباشرة بحيث يجوز له اخراجها من بيته فلا يكون بيتها ولا يتحمل مسؤولية الانفاق و ما اشبه في العدة ، وهو ان تأتي بفاحشة.

]الا ان يأتين بفاحشة مبينة[

الاقرب ان الفاحشة هي المعاصي الجنسية و اظهرها الزنا و السحاق ، لقوله تعالى " : و لا تقربوا الزنى انه كان فاحشة و ساء سبيلا " (٣) ، و في ذلك جاء الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - حيث قال في تفسير الآية : (الا ان تزني فتخرجو يقام عليها الحد) " (٤.. (

(1)تفسير القمي / ج ٢ عند الآية الرابعة.

(2)تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٥٢.

(3)الاسراء / ٣٢.

(4)تفسير نور الثقلين / ج ٢ - ص ٣٥٠.

و لكن الفاحشة المبينة تعم حتى سائر الذنوب الكبيرة ، و بالذات تلك التي تؤثر في العلاقات الزوجية ، كما جاء في عدة نصوص منها المروي عن الامام الباقر - عليه السلام - في تفسير الآية " انها الايذاء " (١) ، و منها المأثور عن الامام الرضا - عليه السلام - قال : " الفاحشة ان تؤذي اهل زوجها و تسبهم " (٢. (

]و تلك حدود الله[

و ما دامت حدود الله فهي مفروضة و واجب مراعاتها بالسير على هداها و الخريطة التي ترسمها ، لما فيها من صلاح للفرد وللأسرة و المجتمع ، و لا يجوز للانسان ان يصطنع لنفسه حدودا غيرها و يتبعها باللف و الدوران ، او بادعاء ان القضية شخصية ، كلا ... انماالتشريع لله وحده.

]ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه[

لان لا تبقى سعادة و لا قيمة في العلاقات الزوجية التي لا تحكمها الضوابط ، و لان المجتمع الذي لا

يحترم النظام يحطم بعضه بعضا و يسوده الظلم و التبادل ، و لكن أجلى صورة لظلم الانسان نفسه بتعدي حدود الله العذاب الذي يلقاه في الآخرة جزاء انتهاكه حرمة احكام الله و شرائعه.

و يبين الله الحكمة الاساسية التي جعلت من اجلها العدة ، و وجب بقاء المرأة في بيت زوجها اثنائها ، و هي رجاء تغير المواقف و عودة العلاقة الى حالها الطبيعي حيث الوئام و المحبة ، فلا يصح اذن ان يحكم الانسان في لحظة غضب و انتقام وردة فعل حكم يأس على علاقته مع شريكة حياته بانها لا تصلح أبدا ، فان الأمور بيد الله يبدل فيها كيف يشاء ، فربما عطف القلوب على بعضها ، و الفها بعد الفرقة(١) المصدر / ص ٣٥١.

(2)المصدر.

برحمته.

]لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا[

و لعلنا نهتدي هنا الى فكرة تشريعية هامة هي : ان تشريع الطلاق من قبل الله عز وجل ينبغي ان لا يتنكر له البشر ، او يلغوه من قائمة القوانين الاجتماعية ، لانه اذا يرى في موارده الموضوعية و ضمن الحدود الالهية فانه يعود على المجتمع بالنفع ، فاذا بتلك الروابط الضعيفة تصير متينة جدا ، و تنتهي المشاجرات و اسباب الخلاف ، و يزداد الحب بين الطرفين فلا يفكرا الا في المزيد من التلاحم بعد ان ذاقا طعم الفراق بينهما ، و بعبارة : يحدث تحول ايجابي في الروابط الزوجية و الاسرية بسببه . و معرفة الانسان انه مكره علىقبول زوجته لا يبعث فيه التطلع الى تطوير علاقته معها و تنمية حبه لها بل يجعلها و كأنها شر لابد منها.

و اذا انقضت العدة هنالك لا يسمح له بان يذرها كالمعلقة انتقاما كما يفعل اهل الجاهليـــة الذين لا يؤمنون بحد و لا قيمة في العلاقة الزوجية سوى الهوى و الشهوة ، كلا .. انه مخير بين امرين لا ثالث لهما ، فاما ان يرجع الى العلاقة الطبيعية مع اهله و التيشعارها المعروف (الحب و الاحترام و العقلانية) ، و اما الفراق و الانفصال بالمعروف (بعيدا عن التشفي و الاذى و سوء الخلق) . و يقدم القرآن خيار الرجوع ترجيحا له على الفراق لان الله يريد خير الاسرة و المجتمع و الحفاظ على كيانهما بالحفاظ على تماسكهما منخلال العلاقات الوطيدة التي منها العلاقات الزوجية.

]فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف]و استخدام القرآن تعبير امسكوا يؤكد على ان الطلاق في الاسلام قبل انتهاء العدة لا يعني انهاء العلاقة الزوجية و طرد الزوجة من أسرتها ، انما يبقى كل شيء على طبيعته ، فالزوج لا يزال زوجها و القائم عليها (ممسك بها) الا ان يختار الفراق فهنالك تتغير الامور ، فتطلق من زوجها بالمفهوم العرفي.

]و اشهدوا ذوي عدل منكم[

على الطلاق اذا كان هو الخيار لا الرجعة ، لانها لا تحتاج الى شهود بل يكفي التصريح بارادتها او مقاربة الزوجة ، فقد جاء في كتاب الكافي قال الامام ابو الحسن موسى الكاظم - عليه السلام - " ان الله تعالى أمر في كتابه في الطلاق و أكد فيه بشاهدين و لميرض بهما الا عدلين " (١) و أهمية الشهود في الطلاق لامور منها وضع النقاط على الحروف في الارث و في حرية المرأة بعد فراق زوجها . فلولا الشهود لكانت المطلقة تدعي في الارث ما ليس لها ، و لكان الرجل يمنع مطلقته من الزواج بادعاء انها لا تزال في عصمتهمثلا.

و لكــن الشهادة العظمى التي يجب على المؤمن اعتبارها و اقامتها هي الشهادة لله.

]و اقيموا الشهادة لله[

ولا تقوم الشهادة لله الا بشروطها التي تتوافر عند المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، لان الله لا يحضر عند

العيون و الاسماع انما يحضر عند القلوب المؤمنة به عز وجل . و كذلك الآخرة ليست شيئا محسوسا في الدنيا انما يؤمن بها المؤمنون بالغيب.

]ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر[

أي يؤمن بعلم الله بالحقائق كما تكون ، و يؤمن بالجزاء بعد البعث على كل(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٥٢.

خير و شر ، و شهادة الله لمن يؤمن بذلك اعظم واعظ له عن مخالفة أمره و حدوده علنا او بما يسمى بالحيل الشرعية.

و قد أورد الدكتور بدران ابو العينين استاذ الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق بجامعتي الاسكندرية و بيروت الغربية بحثا حول الشهادة على الطلاق و دورها في تقليل نسبة الطلاق ، هذا نصها من كتابه : الفقه المقارن للاحوال الشخصية:

)ذهب اكثر الفقهاء على انه لا يشترط الاشهاد على الطلاق ، بل استحبوه فقط استنادا الى انه لم يؤثر عن الرسول و لا صحابة رسول الله -صلى الله عليه وآله - اشتراط الشهود في الطلاق ، و حملوا الامر الوارد في قوله تعالى " و اشهدوا ذوي عدل منكم "على الندب كما في : " و اشهدوا اذا تبايعتم " ، و اشترط الامامية و الظاهرية لوقوع الطلاق اشهاد عدلين ، لقوله تعالى : " فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف و اشهدوا ذوي عدل منكم " (الطلاق / ٢) فالله سبحانه طلب الاشهاد على الطلاق الـذي سيق الكلام لبيان احكامه ، و من المستهجن ان يعود طلب الاشهاد الى الرجعة ، لانها انما ذكرت تبعا و استطرادا ، كما قالوا ان من المعلوم انه ما من حلال أبغض الى الله من الطلاق ، فالدين الاسلامي لا يرغب في اي نوع من انواع الفرقة ، و لا سيما في العائلة و الاسرة ، و على الاخص في الزوجية بعدما افضى كل منهما الى الاخر بما افضى . فالشارع بحكمته العالية يريد تقليل وقوع الطلاق و الفرقة ، بتكثير قيوده و شروطه بناءا على القاعدة المعروفة من ان الشيء اذا كثرت قيوده عز ، او قل وجوده .فلهذا اعتبرالشاهدين العدلين للضبط اولا ، و للتأخير و الأناة ثانيا ، عسى الى ان يحضر الشاهدان ، او يحضر الزوجان ، او احدهما عندها يحصل الندم ، و يعودان الى الالفة ، يشير الى هذا قوله تعالى : " لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمـرا " و ايضا قوله تعالى:
"و اقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله و اليوم الاخر " ، فهذا الأمر بالشهادة جاء بعد ذكر انشاء الطلاق ، و جواز الرجعة ، فكان المناسب ان يكون راجعا الى الطلاق ، و ان تعليل الاشهاد بانه يوعظ به من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر يرشح ذلك و يقويه ، لان حضور الشهود العدول لا يخلو من موعظة حسنة يزجونها الى الزوجين ، فيكون لهما مخرج من الطلاق.

فاذا لم يشهد على الطلاق شاهدين ظاهرهما العدالة يسمعان انشاء الطلاق كان غير واقع ، و كذا لا يقع اذا اشهد عدلا واحدا او فاسقين يكون باطلا ، فانهم قالوا : ان بالاشهاد على الطلاق يظهر التناسق بين انشاء الزواج و انهائه ، بل قالوا : انه لو طلق ثم اشهدلم يكن ذلك شيئا ، و الشرط ان يكونا رجلين عدلين ، فلا شهادة للنساء منفردات و لا منضمات للرجال.

و رأي الشيعة الامامية هو الراجح اذ انه يضيق دائرة الطلاق التي اتسعت الان كثيرا ، كما يسهل اثباته فيما لو وقع خلاف بين الزوجين في الطلاق ، و يجري العمل في مصر على انه يجب على الموثق " الماذون " ان يجري الطلاق بحضور شاهدين يثبتهما في اشهاد الطلاق ، و يوقعان على وثيقة الطلاق بالشهادة . و قد نص قانون حقوق العائلة في المادة (١١٠) على ان الزوج الذي يطلق زوجته مجبور على اخبار المحاكم بذلك) (١. (

و هذه شهادة بصورة اخرى يقرها القانون المدني نظرا لاهميتها و واقعيتها.

و يقول الدكتور محمد يوسف موسى استاذ و رئيس قسم الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه : (الاحوال الشخصية) مشيدا براي الامامية في الشهادة : (و هذه وجهة نظر يجب عدم التغاضي عنها ، فان الأخذ(١) الفقه المقارن للاحوال الشخصية بين المذهب الاربعة

السنية و المذاهب الجعفري و القانون طبعة دار النهضة العربية / ص ٣٧٨.

بهذا الرأي يمهد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقا) (١. (

و من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الكاظم - عليه السلام - انه قال لابي يوسف (الفقيه الحنفي الشهير) : " يا ابا يوسف ان الدين ليس بقياس كقياسك و قياس اصحابك . ان الله تبارك و تعالى أمر في كتابه في الطلاق و أكد فيه بشاهدين ، و لم يرض بهما الا عدلين ، و أمر في كتابه بالتزويج فأهمله بلا شهود ، فأتيتم بشاهدين فيما ابطل الله ، و ابطلتم شاهدين فيما أكد الله تعالى " (٢. (

و يعود القرآن ليؤكد على أهمية التقوى بالذات في الظروف الصعبة و الحرجة ، فانها قبل كل شيء سبيل الانسان للأنتصار على المشاكل و حلها ، لما فيها من زخم ايماني يثبت المؤمن على الحق ، و لان التقوى في حقيقتها برنامج متكامل يجد فيه حلا لكل معضلة و مخرجا من كل حرج مهما كان الظاهر باعثا على اليأس و القنوط.

]و من يتق الله يجعل له مخرجا[

و تنقض هذه الآية ظنون البعض بان اتباع شرع الله و احكامه يضيق على الانسان مدار حريته ، و يسبب له في الحرج و الضيق ، كلا .. انما يصل البشر لاهدافه و يتخلص من مشاكله ، و يجد الحلول الناجعة لها و المخارج من العسر و الحرج بأتباع سنن الله و احكامه ، وذلك لان سنن الله كما السبل اللاحبة التي لو مشى عليها الانسان بلغ اهدافه بيسر و بلا عقبات ، و من يتقي الله يتقي - في الواقع - الانزلاق عن هذه السنن الى المتاهات التي لا تزيد السائر فيها الا ضلالا و بعدا عن اهدافه ، فقد تبدو للبعض ان السرقة و الانتهاب والحيلة و الغش و الظلم

(1)الاحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٧١ طبعة ١٩٥٨ م.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٥٢.

و الاعتداء و الربا و سائر الطرق المحرمة هي وسائل جيدة للارتزاق لما في بعضها من ربح عاجل ، الا ان عاقبة هذه الطرق هي الخسارة ، بينما السعي النظيف و الكسب الحلال هو باب الرزق الواسع و السبيل اللاحب للثروة المشروعة ، اما غير المؤمن فهو ينهزم امام الازماتو المشاكل الى حد الانتحار ، و كثيرهم الذين انتحروا بسبب عقدة الفشل في العلاقات الزوجية او الجنسية . و في تضاعيف الآية اشارة الى ان المآزق التي يتورط فيها الانسان تأتي في الاغلب نتيجة ذنوبه و مخالفته لاحكام الله ، فاذا اتقى ابتعد عن الذنوب و نفذ القوانين ، و هل نأتي الطرق المسدودة الا بسبب مخالفة القوانين و الانظمة ؟!

[3]و لان الفقر و الضيق من المآزق التي يواجهها الرجل في ادارة اسرته و الانفاق على اهله و عياله ، فان الاسلام يسعى ان لا يكون مبررا للطلاق ، و ذلك من خلال تنمية روح الامل بالله و التوكل عليه في روعه بانه يضمن له رزقه ، و هذه الافكار و المنهجية ترتكز على قيمة اساسية في الاسلام هي ايمانه بضرورة دفع الانسان باتجاه المزيد من تحمل المسؤولية و ليس تبرير التهرب منها.

]و يرزقه من حيث لا يحتسب[

اي ان هناك افاقا للرزق لا يتوقعها الانسان لمحدودية علمه و احاطته يفتحها الله له ، و خير شاهد على ذلك ما يكتشفه العلم الحديث من الوسائل و الافاق الجديدة للتنمية و الاستثمار و الاقتصاد و التي ما كانت تخطر على بال احد منذ قبل ، جاء في الحديث المرويعن الامام الصادق - عليه السلام - في رسالته الى بعض اصحابه : " اما بعد فاني اوصيك بتقوى الله ، فان الله قد ضمن لمن اتقاه ان يحوله عما يكره الى ما يحب ، و يرزقه من حيث لا يحتسب ، فاياك ان تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم ، و

يأمن العقوبة من ذنبه. (1) "

و قال (ع) : " ان الله عز وجل جعل ارزاق المؤمنين من حيث لا يحتسبون ، و ذلك ان العبد اذا لم يعرف وجه رزقه كثر دعاؤه " (٢. (

و قال -في حديث آخر يفسر هذه الكلمة " : - يبارك له فيما آتاه " (٣. (

و الايمان بهذه الحقيقة يقشع عن عقل الانسان و روحه سحب اليأس و يفك أغلاله ، و يدعوه الى المزيد من البحث و السعي طلبا لتلك الآفاق . و ما دام ربنا يرزقنا مـن حيث لا نحتسب فبالاولى ان ياتنا رزقه من حيث نتوقع حيث نعمل و نسعى و نتبع سبله ، و من المعروف : ان مالتز كان قد حذر العالم قبل قرن من نقص هائل في الموارد الغذائية في هذا القرن ، و اتبعه الكثير من الكتاب و المؤسسات الدراسية ، بينما فتح الله آفاقا جديدة في حقل التقدم العلمي و تنمية الموارد الغذائية التي تضاعفت خلال القرن الحاضر .. و تبشر الدراسات بانها ستتضاعف في المستقبل.

ان افاق التقدم لا تحد ، و ان قدرات الانسان على التكامل عبرها لا تحصى ، و انما اليأس و سائر الاغلال و الاصر تقيد البشر من الانبعاث ، و لو عرف الانسان قيمة التوكل على الله فاتقى ربه لرزقه الله من حيث لا يحتسب.

و لا ريب ان الآية لا تدعونا الى الكسل و الجلوس في البيت على أمل نزول رزق الله بالمعجزة ، كلا .. بل ينبغي النظر لمعناها و التدبر فيها ضمن الاصول العامة التي جاء بها الاسلام و الموجودة في الآيات الاخرى ، كأصل السعي و العمل و الكدح ، بل الآية نفسهاتشير الى ذلك في الخاتمة و تدعو الى نفض غبار اليأس و القنوط ، (1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٥٥.

(2)المصدر / ص ٣٥٤.

(3)المصدر / ص ٣٥٧.

و الانبعاث بروح الأمل و التوكل . كذلك الآية تواجه الوسوسة الشيطانية التي تجعل البعض يزعم ان الرزق لا يتأتى الا عبر الحرام ، لذلك يجد مثلا انفصاله عن دوائر الانظمة و مؤسساتها امرا لا يطاق ، بينما لو توكلنا على الله فسوف نجده عند حسن ظننا به.

]و من يتوكل على الله فهو حسبه[

أي الذي يكفيه ، و لا ينبغي للمؤمن ابدا ان يشك في قدرة الله على تحقيق ما يعد به ، مهما كانت الظروف صعبة و معاكسة كما يبدو للانسان فان ارادته تعالى فوق كل شيء.

]ان الله بالغ أمره[

بلـــى . نحن البشر تثنينا الاسباب ، و تحول بيننا و بين ما نريد العقبات و الموانع ، لان ارادتنا محدودة ، اما الله فان ارادته مطلقة . و لكنه تعالى ابى ان يجري الامور الا بحكمة و موازين.

]قد جعل الله لكل شيء قدرا[

على الاطلاق ، فليس من شيء خارج على هذا القانون الالهي العام ، و كما تحكم المقاييس الظاهرية الحجم و الوزن و الكثافة و اللون و الاجل وجود كل شيء و من ذلك المشاكل فان هناك سننا و قوانين معنوية تحكمه ايضا ، فلا يمكن للانسان ان يجد رزقا حلالا من غير سعي مادي او معنوي . و وعد الله برزق من يتقيه و يتوكل عليه امر من اموره و هو لاريب بالغه ، و لكنه جعل لذلك موازين و ضوابط " قدرا " ينبغي للانسان معرفتها و حل مشاكله من خلالها ، و يجب عليه السعي في الحياة لتحقيق اهدافه و تطلعاته و مقاصده انطلاقا من الايمان بهذه الحقيقة في تدبير الله لشؤون خلقه . من هنا جاء في تفسير

هذه الآية : " ان الامام الصادق - عليه السلام - سأل بعض أصحابه فقال : ما فعل عمر بن مسلم ؟ فقال له البعض : جعلت فداك اقبل على العبادة و ترك التجارة ، فقال : ويحه اما علم انتارك الطلب لا يستجاب له . ان قوما من اصحاب رسول الله لما نزلت : " و من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب " اغلقوا الابواب ، و اقبلوا على العبادة ، و قالوا : قد كفينا ، فبلغ ذلك النبي فأرسل اليهم قال : ما حملكم على ما صنعتم ؟ فقالوا : يا رسول الله تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة ، قال : انه من فعل ذلك لم يستجب له ، عليكم بالطلب " (١. (

[5 - 4]و كما تتجلى هذه الحقيقة في عالم التكوين الطبيعية الاقتصاد و الفيزياء و ما أشبه ، فانها تطبع آثارها في عالم التشريع ايضا ، حيث فرض الله عدة معينة كحق من حقوق المرأة و واجب من واجبات الرجل بعد الطلاق . و بالطبع ان هناك حكمة ليست لذات الاعتداد و حسب ، بل لاختلاف العدة من امرأة الى اخرى كذلك ، قد تتكشف للانسان في مفردات العدة بالتفكير العميق.

]و اللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم[

في كونهن هل يئسن ام لا ؟

]فعدتهن ثلاثة اشهر[

بناء على الاصل السابق هو عدم اليـأس ، مما يجعل حكمهن كحكم النساء العاديات . اما لو تبين كونهن يائسات فليست لهـن عدة ، فعن الامام الصادق - عليه السلام - في التي يئست من المحيض يطلقها زوجها قال : " قد بانت منه(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ١٥٥.

و لا عدة عليها " (١) . و يظهر من النصوص ان الاشهر هي الاشهر الهلالية .

]و اللائي لم يحضن[

اذا ارتيب في كونهن بلغن الحيض فان عدتهن كالمشكوك في يئسهن ، اي ثلاثة اشهر ، تأسيسا على الاحتياط ، فان كن لم يحضن فليس ذلك بضار احدا ، و ان تبين حيضهن يكون الرجل قد احرز التكليف الشرعي الملقى عليه . و الا فان الصبية لا عدة لها و لو دخل بها ، فعن علي ابن ابراهيم ، عن ابيه عن بن محبوب ، عن حماد عن عثمان ، عمن رواه عن زرارة ، عن ابي عبد الله - عليه السلام - في الصبية التي لا تحيض مثلها و التي قد يئست من الحيض قال : " ليس عليهما عدة و ان دخل بهما " (٢) و اعتبار الاسلام مجرد الريب و الشكبمنزلة اليقين بعدم الياس لدى النساء و بالحيض للصبية عمليا بحيث يعطي للمرأة حق الاعتداد ثلاث اشهر يظهر حرصه على سلامة الاسرة و العلاقات الزوجية ، اذا لعل الاختلاف يحل و تعود المياه الى مجاريها في هذه الفرصة.

]و أولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن[

فاذا ما وضعت الحمل انتهت عدتها ، قال ابو عبد الله - عليه السلام - " طلاق الحبلى واحدة و ان شاء راجعها قبل ان تضع ، فان وضعت قبل ان يراجعها فقد بانت منه وهو خاطب من الخطاب " (٣) اي تقبله او ترفضه . و وضع الحمل خروجه من بطنها ولدا او سقطا، تماما او مضغة ، عن عبد الرحمن الحجاج عن ابي الحسن - عليه السلام - قال : سألته عن الحبلى اذا طلقها زوجها فوضعت(١ (المصدر / ص ٤٠٩.

(2)وسائل الشيعة / ج ١٥ - ص ٤٠٨.

(3)المصدر / ص ٤١٩.

سقطا تم او لم يتم او وضعته مضغة فقال : " كل شيء يستبين انه حمل تم او لم يتم فقد انقضت عدتها و ان كان مضغة " (١) ، و لا يعتد بالمدة أكانت ثمانية اشهر او لحظة واحدة بين الطلاق و وضع

الحمل . و قد تكون العلة التي صارت من اجلها عدة الحامل وضع الحمل ان مسؤولية الحمل مشتركة بين الام و الاب لذلك تمتد عدتها زمنيا حتى تضع و قد يطول ذلك ثمانية أشهر ، كما ان ذلك يعطي للزوج فرصة اكبر للمراجعة و التفكير ، فعسى يعدو الى تكفل الولد بعد ان يلقي الله في قلبه حبه ، و لعل ظاهر الآية يدل على ان العدة تنقضي حتى لو اجهضت المرأة نفسها لان المعول على وضع الحمل . اما الحامل التي يتوفى زوجها فعدتها ابعد الاجلين ، فعن سماعة عن الصادق عن الباقر - عليهما السلام - قال : " المتوفى عنها زوجها الحامل أجلها آخر الأجلين ، ان كانت حبلى فتمت لها أربعة أشهر و عشر و لم تضع فان عدتها الى ان تضع ، و ان كانت تضع حملها قبل ان يتم لها أربعة أشهر و عشر تعتد بعد ما تضع تمام اربعة اشهر و عشر ، و ذلك ابعد الاجلين " (٢. (

]و من يتق الله يجعل له من أمره يسرا[

اذن فالطريق السليم الذي ينبغي للانسان ان ينتهجه للخروج من العسرة و المشاكل المتازمة هو التقوى ، و خطأ ظن البعض انه يصل الى اليسر في اموره بمخالفة حدود الله و احكامه.

]ذلك أمر الله أنزله اليكم[

و أمره أحكامه و تعاليمه.

]و من يتق الله يكفر عنه سيئاته[

(1)المصدر / ٤٢١.

(2)المصدر / ص ٤٥٥.

و نتساءل : كيف تكفر التقوى سيئات الانسان ؟ و الجواب لسببين:

- 1لان أخطاء الانسان التي تنتهي به الى المآزق و المشاكل كالطلاق و خراب علاقته مع أهله نتيجة مباشرة لمنهجية خاطئة يتبعها في الحياة ، كمنهجية الهوى او المناهج البشرية الضالة ، و بالتالي عدم اتباعه لنهج الله القويم .و التقوى بمفهومها الواسع ليس مجرد الايمان بالله و الخشية منه بل هي اضافة الى ذلك عودة الانسان الى نهج ربه المستقيم الكفيل بتصحيح أخطائه و إزالة آثارها السلبية في الواقع.

- 2و لان التقوى حسنة كبيرة تشفع عند الله في الاخطاء الجانبية . و الى جانب التكفير عن السيئات هناك ثمرة عظيمة اخرى للتقوى تتمثل في المزيد من الجزاء و الثواب.

]و يعظم له أجرا[

اذ لا شك ان العمل الصالح كالصدقة أعظم ثوابا و أجرا مع التقوى منه بدونها ، ذلك انه كلما زاد ايمان الانسان كلما زاد اتقانه للعمل و خلوصه فيه و قربه بالتالي به الى ربه ، مما يزيد في جزائه عنده.

فاتقوا الله يا أولي الالباب

هدى من الآيات

في الدرس الاخير من سورة الطلاق يشرع الله مجموعة من الاحكام المتصلة بالاسرة ، و بالذات بالعلاقة بين الزوجين حيث العدة ، ليقرر للمرأة حق السكنى و النفقة على زوجها ، بل أخذ أجرة على الرضاعة ، كما و ينهى الرجل عن الاضرار بها و التضييق عليها تشفيا او للخلاص من المسؤولية بالضغط ، ثم يؤكد بان الائتمار بالمعروف كواجب شرعي على كل مؤمن و مؤمنة تجاه بعضهم لا ينبغي ان يقطع حباله الاختلاف مهما بلغ . ولو بلغ حالة الطلاق .. لان المسؤولية الاجتماعية واجب الهي يجب ان تبقى حاكمة في علاقة المؤمنين ببعضهم حيث بعضهم اولياء بعض في كل زمان و مكان و ظرف .. و تبلغ عناية الدين

الحنيف بالمرأة الى حد يقرر لها الحق في قبول الرضاعة او رفضها ، خلافا للعرف الذي جرت عليه المجتمعات ، و سارت عليه الجاهلية و الكثير من المذاهب البشرية.

ثم يعود القرآن ليضع الميزان الحق في شأن النفقة ، فهو كما يوجبها على الرجل حقا للمرأة ، لا يسمح من جهة اخرى للزوجة استغلال هذا الحق لتطالب زوجها عند قراره بالطلاق نفقة اكثر مما يتحمل تشفيا منه ، فليس احد مكلفا في شرع الله اكبر و اكثر مما يستطيع.

و ينتهي السياق القرآني الذي يتمحور حول التقوى في هذه السورة ليحذر من مخالفة شرائع الله و حدوده بصورة عامة و في حق الاسرة بالذات ، مشيرا الى ان الاسرة لا تختلف في ظل سننه عن المجتمع الكبير الذي لو تجاوز الحدود فان عاقبته الخسارة و الدمار كما ينطق بذلك تاريخ الحضارات التي دمرت فاصبحت عبرا و احاديث.

و لان المؤمنين أولى بدراسة التاريخ من غيرهم فان الخطاب يتوجه اليهم خاصة لكي يخرجوا بذلك الى النور ، و يختم السورة بالاشارة الى الحكمة من خلق الانسان و العالم المسخر له الا و هي ان يتعرف الله لعباده عبر آياته المبثوثة في النفس و في الافاق لعلهم يخلصون من ظلمات الضلال و الشرك.

بينات من الآيات

[6]لكـي لا يظلـم المرء زوجته التي عافتها نفسه ، و مشى الشيطان بينهما بألف عقدة و عقدة ، يأمر القرآن بان يختار لها زوجها سكنا مناسبا لوضعهم الاجتماعي بلا تميز.

]اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم[

و الوجد : ما يجده الانسان و يقدر عليه ، و في المنجد : انا واجد للشيء اي قادر عليه . و الوجد القدرة ، يقال انا واجد الشيء اي قادر عليه . و الآية تحدثنا عن نوعالسكن و انه واجب على الرجل ليس السكنى و حسب بل اسكان زوجته في العدة بالذات كما يسكن ، فلا يصح ان يسكن هو في المكان المكيف صيفا و تشاء و يسكنها فيما دون ذلك ، و لهذا جاء التعبير ب " من " التبعيضية و لا يكون بعض الشيء الا من نوعه و جنسه . و يحرم الاسلام ان يضر الرجل بزوجته اثناء العدة ليضطرها للتنازل عن النفقة او الخروج من بيته قبل انتهاء العدة باستخدام الضغوط المختلفة المادية او المعنوية نفسية و اقتصادية و اجتماعية و اخلاقية او ما اشبه مما يحقق نفس الغرض ، بل لابد ان تجد الزوجة الراحة و السعة من جميع جوانبها قدر الامكان.

]و لا تضاروهن لتضيقوا عليهن[

و لعل ابلغ ضرر تناله المرأة المطلقة من زوجها هو جراحات اللسان ، قال الامام الصادق - عليه السلام - : " لا يضار الرجل امرأته اذا طلقها فيضيق عليها حتى تنتقل قبل ان تنقضي عدتها فان الله قد نهى عن ذلك " (١) و التي لزوجها عليها السكنى و النفقة غير المبتوته (٢) ، فعن ابي بصير عنه - عليه السلام - انه " سأله عن المطلقة ثلاثا لها سكنى و نفقة ؟ قال : حبلى هي ؟ قلت : لا ، قال : لا " (٣) و عن زرارة عن ابي جعفر - عليه السلام - قال " : المطلقة ثلاثا ليس لها نفقة على زوجها ، انما ذلك للتي لزوجها عليها رجعة " (٤. (

و كما تمتد عدة الحامل الى الوضع كذلك يجب ان يسكنها و ينفق عليها حتى تضع حملها ، لان الولد له ، و ثابت علميا ان الولد يستهلك ما يحتاج من امه ، فلو(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٦٢.

(2)المصدر.

(3)المبتوته : المطلقة بائنها فلا يحق لزوجها الرجعة لها بتة.

(4)تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٦٢.

نقص الكالسيوم في غذاء أمه فانه سوف يؤثر على تركيبة عظامها ، يقول الدكتور محمد علي البار في كتابه خلق الانسان بين الطب و القرآن : (تصاب بعض الامهات الحوامل بلين في العظام اثناء الحمل ، كما تصاب اسنانهن بالالتهابات المتكررة ، و السبب في ذلك ان الجنين لكي يبنى عظامه يسحب من دم امه و عظامها الكالسيوم و المواد الضروية لبناء عظامه ، حتى و لو تركها هزيلة هشة العظام شاحبة الوجه تعاني من لين العظام و من فقر الدم .. و يضيف : يقول مجموعة من اساتذة طب النساء و الولادة : و الطفل يعتبر كالنبات الطفيلي الذي يستمد كل ما يحتاج اليه من الشجرة التي يتعلق بها ، يعيش و يأخذ غذاءه من الام مهما كانت حالتها او ظروفها حتى و لو تركها شبحا) (١) ، لهذا فالمرأة احوج ما تكون للعناية في فترة الحمل.

]و ان كن اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن]و جاء في اصول الكافي عن ابي جعفر - عليه السلام - قال : " الحامل اجلها ان تضع حملها و عليه نفقة بالمعروف حتى تضع حملها " (٢) ، و لو انها ارضعت وليدها بعدئذ فلها الحق ان تتقاضى اجرا على الارضاع ، لانه من الناحية الشرعية ليس واجبا على الامبشكل عام حتى غير المطلقة التي تنتهي عدتها و قيمومة الرجل عليها بعد الوضع ، فالحليب ملكها و ان كان من الناحية التكوينية يتكون مع الحمل و بسببه.

و العلم الحديث يقر هذه الحقيقة ، و على اساسه دعت التشريعات الحديثة الى تخصيصات للمرأة اثناء الرضاعة ، و بعض البلدان تشرف على طعام المرأة المرضع و الحامل ، و تدعو الى الاهتمام بطعامها في هاتين الفترتين.

(1)المصدر نقلا عن الكافي.

(2)المصدر / ص ٤٤٨.

]فان ارضعن لكم فاتوهن اجورهن[

في مقابل الرضاعة . اما السكنى و النفقة فليسا واجبين على الزوج بعد الوضع.

و لا يحق للزوج ان يلزم زوجته - و بالذات المطلقة - بالرضاعة ، بلى . يجوز التفاهم فـي هـذه المسألة بين الطرفين بعيدا عن اي لون من الضغوط و السبل الملتوية ، بل بالحق.

]و أتمروا بينكم بمعروف[

اي ليأمر بعضكم بعضا بالمعروف بالتشاور و التحاور ، و لابد ان يتم ذلك في اطار صحيح لا يتنكر له العقلاء " بمعروف " حتى يستقر التآمر على رأي يرضاه الطرفان . اما اذا حدث الاختلاف فان الحق للأم تقبل الرضاعة او ترفضها لتكون المرضعة غيرها.

]و ان تعاسرتم فسترضع له اخرى[

و لا يجوز للاب ان يجبر ام ولده على رضاعته كحل للتعاسر ، لان ولاية الرجال على النساء لا تمتد الى هذه الحدود في الظروف الطبيعية فكيف بعد الطلاق ؟ !و نهتدي من خاتمة الآية ان للحاكم الشرعي ان يلزم الام بالرضاعة لو توقفت حياة الولد عليها ، فيكون الزوجحينئذ ملزما باعطاء اجرة المثل.

[7]و يعود القرآن لبيان المقياس الذي ينبغي ان يكون ميزانا فيصلا بين الطرفين في مقدار النفقة ، و لكن الوحي لا يحدد دينارا و لا درهما بل يضع قيمة تصلح لكل زمان و مكان واحد لانه لم ينزل لأمة دون اخرى ، و لا لجيل دون جيل . من هنا يطرح المقاييس الفطرية العامة بوضوح كاف لينطبق على كل عصر ، فما هو المقياس الذي يحدد كيف و كم تكون النفقة ؟ انه استطاعة الزوج المادية الممكنة ، و ليست صفاته ، فلو كان غنيا بخيلا فانه لا يجوز منه التقتير على زوجته المطلقة بالذات حيث تجب عليه نفقتها ،

بل عليه التوسيع عليها، كما لا يجوز للزوج و لا للحاكم ان يفرض عليه التوسيع في النفقة لو كان مقترا فقيرا.

]لينفق ذو سعة من سعته[

اي بعضها و بنسبتها ، فليس مطالبا ببذل كل ما يملك ، انما الواجب ان يفيض عليها من غناه بحيث يوسع عليها.

]و من قدر عليه رزقه[

و كان فقيرا.

]فلينفق مما اتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما اتاها]فتشريعه عز وجل تشريع واقعي عملي ، و حاشا له ان يكلف احدا ما لا يطيق ، و هذه الآية لا تقتصر على مسألة النفقة على الزوجة حيث العدة ، بل هي قاعدة لتنظيم الاقتصاد الفردي ، و حل المشاكل المتصلة به في المجتمع و الاسرة ، فلا غرو ان يوسع الغني على نفسه منالمال الحلال لان الله اذا انعم على عبد نعمة احب ان يراها فيه ، قال الامام ابو عبد الله - عليه السلام - و قد سأله احد اصحابه عن الرجل الموسر يتخذ الثياب الكثيرة الجياد و الطيالسه و القمص الكثيرة يصون بعضها بعضا يتجمل بها أيكون مسرفا ؟ قال " لا لان الله عز وجل يقول : " الاية " (١) ، و من جهة اخرى يجب ان لا ينفق الفقير اكثر من طاقته تلبية لرغباته الشخصية او تظاهرا بين الناس او لكي يوافق المجتمع المحيط في معيشته و مظاهره ، فان ذلك يوقعه في(١) المصدر / ص ٣٦٣.

مشاكل اقتصادية تنتهي الى انحرافات خطيرة بعض الاحيان.

و هذه الآية يجب ان يتخذها الانسان شعارا في ادارة نفسه و اسرته . و حيث ان النفقة من واجبات الرجل تجاه أسرته و أهله فان للمرأة الحق في طلب الانفصال عنه لو لم يؤدها الرجل ، فعن ابي بصير عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " ان انفق الرجل على امرأته ما يقيم ظهرها مع الكسوة و الا فرق بينهما " (١) ، و لكن الله يعطي الانسان شحنة من الامل برحمته و رزقه ، و في نفس الوقت يدعو من طرف خفي الزوجة الى الصبر و التحمل تسليما لقضاء الله ، و املا في فضله ، فانها لا تدري لعل زوجها الفقير يصبح غنيا مقتدرا بفضله تعالى.

]سيجعل الله بعد عسر يسرا[

[8]و بعد ان يبين ربنا هذه الحدود الشرعية يحذر من عواقب خرقها و تعديها حيث الفشل و العذاب في الدارين ، فانها سنة الله التي تتجلى في تاريخ البشرية ، و هي كما تجري في المجتمعات الكبيرة حينما تحادد الله و تخرج عن أمره تجري في الاسرة ذلك المجتمع الصغير ، لان سنن الله واحدة تجري في الموضوعات الصغيرة بمثل ما تجري في الحقائق الجليلة ، ارايت سنة الله في النار . انها تحرق سواء كانت في عود الثقاب او في فرن عظيم ! من هنا علينا ان ندرس التاريخ لنعتبر به في سلوكنا الفردي في تنظيم حياتنا الاسرية و في نظامالمجتمع و حركة الحضارة .. لان التاريخ تجسيد لسنن الله و سنن الله واحدة في الصغير و الكبير.

و تنتظم الآيات اللاحقة في السياق العام للسورة (التقوى) من زاوية مباشرة لهذا الموضوع ، ذلك ان التفكر في مصير الامم الماضية التي تمردت على شرائع الله و سننه فلقيت من العذاب ما لا يخطر ببال بشر كفيل بتنمية روح التقوى عند(١) المصدر.

الانسان.

]و كأين من قرية[

أي : و كم من قرية ؟!! فكأين تفيد الكثرة.

و لعل التعبير بصيغة الكثرة الرهيبة يهدف مواجهة حالة الاسترخاء التي تصيب الانسان بسبب تواتر نعم الله و تتابع آلائه الكثيرة ، حتى يزعم بان الرب قد غفل عنه او اهمله او فوض اليه أمره فيدعوه ذلك الى الايغال في الذنوب ، كلا .. ان قرى كثيرة قد دمرت فحـــذار ان تـدمر ايضا قريتك الصغيرة المتمثلة في الاسرة و الكبيرة المتمثلة في بلدك ، لانها ليست فوق سنن الله بل هي كأي من القرى الاخرى.

و القرية - كما يبدو - تطلق في القرآن عادة على المجتمعات المتخلفة الفاسدة ، بينما تستخدم كلمة بلد او المدينة عن المجتمعات المتحضرة ، و عدم تحديد الآية لقرية بذاتها ينطوي على دعوة لدراسة شاملة لتاريخ البشرية ، ذلك لان الانسان مفطور على مراجعة التاريخ و الاعتبار به ، و نظرته اليه تحدد نظرته الى الحاضر و تطلعه نحو المستقبل .و الرسالات الالهية تسعى الى تصحيح تقييمه للتاريخ ، لكي لا تكون نظراته خاطئة و لا حتى عابرة ، و ذلك لان الكثير حينما يمرون على اثار الماضين يكتفون بالسياحة او النياحة ، و الادب العربي - كما سائر آداب البشر - زاخر بروائع الشعر التي تستوقف الانسان على الاطلال و البكاء حزنا عندها ، و قد اشتهر هذا الاستهلال في شعر العرب ، قفا نبكي من ذكرى حبيب و منزل .. حتى قيل انه مطلع لسبعين رائعة شعرية!!

بينما القرآن الكريم يستوقف الانسان ايضا عند القرى المدمرة و لكن ليس لمجرد السياحة او النياحة بل للاتعاظ و الاعتبار.

و لقد مر المسلمون في عهد الامام علي - عليه السلام - على اطلال عاصمة كسرى فانشد بعضهم:

جـرت الريـاح على ديارهــم فكـأنهــم كانــوا علــى ميعـــادفنهره الامام و أمره بأن يقرأ : " كم تركوا من جنات و عيون. "

و هكذا يوجه القرآن هذه النظرة الكامنة في الانسان ليقف على الاطلال ، و يتذكر الغابرين ، و يعتبر بمصيرهم ، و يهتدي بالسنن التي كشفتها حياتهم و مماتهم من أجل بناء حياة سعيدة آمنة.

و عادة ما ينقل القرآن تاريخ الشعوب و ليس الافراد ، و حتى اذا تحدث عن فرد كفرعون او هامان او قارون فغالبا ما يضع الحديث عنه في اطار اجتماعي باعتباره طاغية او مرتزق او مترف ، و السبب ان حركة التاريخ اجلى و اوضح حينما يوجه الانسان نظره و فكره الى مسيرة الامم و تاريخها ، و تدمير المجتمعات و الشعوب ادل على سنن الله و حاكميته من هلاك فرد لانه قد يكون موته بسبب طبيعي ، بل ان موته لا يثير الانسان للتفكر و الاعتبار كما يثيره هلاك الامم و المجتمعات.

ان هلاك الامم و بصورة متعاقبة لا يمكن ان يكون امرا اعتياديا ، و هذا ما يتضح عند دراسة تاريخ القرى التي دمرت و الحضارات التي بادت ، فاننا لا شك سنجد سببا لهذه العاقبة وهو الفساد الواقع الذي افقدها مبرر الحياة ، حيث تمردت على النظم الالهية ، كما قالالله:

]عتت عن أمر ربها و رسله[

و العتو : هو المبالغة في العصيان و الانحراف و التحدي ، اما الامر فهو النهج و السبيل المتمثل في الشرائع و الحدود الالهية ، كما قال تعالى بعد ان عدد مجموعة من الاحكام و الحدود في الآيات (١ / ٤) : " ذلك أمر الله انزله اليكم " (١) ، و لكن الله سماها كلها أمرا بصفة الافراد ربما ليؤكد لنا بأنها لا تقبل التجزأة أبدا ، فمن يعص الله او الرسول و لو في امر واحد فانه يعتبر عاصيا لهما ، كما لا يسمى مطيعا و ملتزما الا من يسلم لكل ما يصدر عنهما و يعمل به.

و قد أضاف الى أمره " رسله " لان الطاعة للقيادة الرسالية من اعظم و اجلى أوامر الله ، لان أمر الله هو القيم التشريعية كالاحكام و النظم و القوانين الصادرة عن الله مباشرة و المذكورة في رسالته التي أنزلها للناس ، بينما أمر الرسول - صلى اللهعليه وآله - هو الجانب العملي و السياسي من أمر الله المتجسد في النظام السياسي و الديني الذي يقوده (ص) و من يمثله بحق ، فلا يصح اذن ان يقول احد : حسبي كتاب الله ، بل لا بد له من البحث عن القيادة الالهية لكي ينتمي الى خطها و يجند نفسه تحت لوائها

فلا يعتوعن امر من أوامرها أبدا ، فان في ذلك الخسران و بئس العاقبة.

إن الهدف من الخلق و الوجود هو عبادة الله " :و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون " (٢) ، فاذا لم يحرز المجتمع هذا الهدف لم يبق مبرر لوجوده ، و ان قيمة الانسان يستمدها من مدى تجسيده للحق و طاعته لربه ، فاذا تمحض في الشر و العصيان لم تبق لهقيمة عند الله ، و لا عجب حينئذ ان ترى في التاريخ تلك القرى التي دمرها الله لعتوها عن أمره .

]فحاسبناها حسابا شديدا و عذبناها عذابا نكرا[

اذن العذاب الذي حل بتلك القرى ليس بالصدفة ، وإنما هو نتيجة طبيعية(١) الطلاق / ٥.

(2)الذاريات / ٥٦.

لاعمالهـــا السيئة التي تتكشف بالدراسة و المتابعة و التحليل لمسيرتها التي سبقت الهلاك ، فلكل فعل رد فعل ، و لكل معصية مردود سلبي على صاحبها ، فشرب الخمر يسبب مجمـــوعة مـن الامراض ، و الربا يؤدي الى الفساد الاقتصادي ، و الزنا يعدم الاسرة ، و لكنك اذا جمعت بالحساب الدقيق انحرافات امة من الامم تعتو عن امر ربها فستجد رد فعلها الخسران و الدمار لا غير ، و هذا ما حل بتلك القرى من العذاب المنكر الذي لا يتصوره البشر.

و ما دامت حركة التاريخ في الامم و الافراد قائمة على الحسابات الدقيقة فحري بالانسان ان يدرس كل خطوة يقوم بها في الحياة ، و كل قرار يتخذه صغيرا و كبيرا ، في ضوء معادلة الربح و الخسارة و العاقبة المصيرية.

و الحساب الشديد هو الحساب الدقيق ، ذلك لان الله يحاسب الناس بلطفه فيتغاضى عن كثير من سيئاتهم ، و لكنه اذا سخط على احد بسبب انحراف مجمل سلوكه) امة او فردا) حاسبه بعدله فيصير من الحساب اليسير الى الاخر الشديد و العسير ، و حينئذ لا ينجو من العذاب ،و قد اشار الله الى ذلك بقوله " : ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة " (١) ، و كما ان الله يحاسب الانسان الذي يكون مجمل مسيرته الصلاح و الحسنات الكبيرة حسابا يسيرا فيكفر عنه سيئاته ، فانه سبحانه يحاسب الذي يكون مجمل مسيرته الفساد و الفواحش الكبيرة حسابا عسيرا لا تغفر فيه سيئة بل تتضاعف ، و هكذا فعل الله بالقرى التي دمرها ، من هنا قال العلامة الطبرسي رحمه الله " :الحساب الشديد الذي ليس فيه عفو " (٢. (

و تعذيب الله لتلك القرى ينسف ظنون البعض بانه وهو الرحيم أجل من ان(١) فاطر / ٤٥.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٠٩.

يؤاخذ العباد بما يعصون ، و بالتالي مما يبعثهم نحو الاسترسال في الفسق و الانحراف من خلال هذا التبرير الواهي ، و هذا احد معاني قوله سبحانه " و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فاصبحتم من الخاسرين " (١) و ذكر ذلك يزرع روح التقوى في القلب ، و يوقف مسيرة الاسترسال نحو الهاوية!

[9]ان الانسان لا يمكنه ان يتحرك في الفراغ ، لذلك فان القرى حينما عتت عن أمر الله (مناهجه و نظمه) اصطنعت لنفسها نظما و قوانين بشرية ، و لكن هل وصلت الى اهدافها الحقيقية ، بل هل حققت مصالحها و رغباتها لا اقل ؟ كلا ..لان رسالات الله و سبله وحدهاالتي تسعد الانسان و تلبي حاجاته ، لذلك بقيت وحدها الخط الثابت عبر الزمن ، رسالة بعد اخرى ، و جيلا بعد جيل ، اما المذاهب البشرية فهي تبطل الواحد بعد الاخر ، فكلما ابتدع المترفون مذهبا وضعيا ليكون بديلا عن رسالات الله و رسله و غطاء لتسلطهم غير المشروععلى رقاب الناس لم يلبث ان ظهر فساده ، و انتشرت اثاره السيئة فاستبدلوه بمذهب اخر او افسد منه ، و ها نحن اليوم نسمع و نقرا عن افلاس الشيوعية ، و ظهر ما جرت على الناس من دمار و قمع و فساد عريض . اوليس هذا و بالا و عذابا ؟ ! بلى ؛ و لكن هل يعود الناس لمناهج الوحي ؟ كلا .. انما يبتدع لهم كبراؤهم مذهبا باطلا اخر و يأفكونهم به.

]فذاقت و بال أمرها[

أي ثقل عاقبة أمرها المتمثلة في الخسران.

]و كان عاقبة أمرها خسرا[

(1)فصلت / ٢٣.

فهي من جهة خسرت المكاسب و المعطيات العظيمة التي تنال بتطبيق امر الله و رسله ، و من جهة اخرى خسرت سعيها و جهودها و الاهداف التي تمنت بلوغها و هذه هي نتيجة المسيرة الخاطئة التي اختارها الناس لانفسهم ، و هكذا كل حضارة لا تقوم على اساس رصين من الحق فانها تكون كبناء على شرف هار ، كلما ارتفع البناء كلما اقترب من الانهيار ، و في لحظة يتلاشى كل شيء ، و تذهب جهود الملايين من البشر!!

[11 - 10]و الخطير في الامر ان الخسارة و العذاب ليسا في الدنيا فحسب فان ما في الاخرة اشد و أخزى!

]اعد الله لهم عذابا شديدا[

و لعل اعداد العذاب بسبب انه يأتي نتيجة الافعال التي يجترحها المذنبون في الدنيا فيهيء الله لكل ذنب ما يناسبه من العذاب كما و كيفا ، مما يجعلنا اشد حذارا من السيئات لانها تتحول الى عذاب شديد فور و قوعها و لكننا محجوبون عنه اليوم.

و كما تهبط الامم الى حد الهلاك بالعتو عن امر الله و رسله ، و اتباع المناهج البشرية ، فانها ترتقي في مدارج الكمال و التقدم بالتسليم لامر الله و رسله و بالتقوى و تطبيق شرائعه و مناهجه في الحياة ، فتفلح في الدنيا بالخروج من الظلمات الى النور ، و فيالاخرة بالخلود في جنات النعيم.

]فاتقوا الله يا أولي الالباب الذين ءامنوا[

ان التقوى درجة رفيعة من الايمان بالله تبعث الانسان الى المزيد من الوعي لأمر الله و التسليم له ، فهي اذن تكمل لبه و عقله ، كما تكمل ايمانه و جوانبه الروحية.

من هنا فانها اكبر عامل و اوثق ضمانة لاستجابته للحق و التزامه به.

و قد قالوا ان " أولي الالباب " بدل عن " الذين آمنوا " ، و اللب هو مخ الشيء و عمقه ، و ذي اللب هو صاحب البصيرة التي تنفذ الى اغوار الامور ، و قد خاطب الله المؤمنين من هذه الزاوية لان دراسة التاريخ و ما صارت اليه تلك القرى و الاعتبار منه يحتاج الى الايمان و الى الالباب و البصائر التي هي محور الثواب و العقاب ، ففي محاسن البرقي مرفوعا الى الائمة - عليهم السلام - قال : " ما يعبأ من اهل هذا الدين بمن لا عقل له " ، قال) الراوي) قلت : جعلت فداك انا آتي قوما لا بأس بهمعندنا ممن يصف هذا الامر ليست له تلك العقول ؟ فقال : " ليس هؤلاء ممن خاطب الله في قوله : " يا أولي الالباب " . ان الله خلق العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال : و عزتي و جلالي ما خلقت شيئا أحسن منك و لا أحب إلي منك أبدا ، بك آخذ و بك أعطي " (١) ان تقوى الله تعني تجنب الوقوع في سخطه و عذابه ، و هي لا تتحقق بالايمان وحده ، بل لا بد من لب يعرف به الانسان ما يسخط الرب و ما يرضيه ، ذلك لان الشروط الموضوعية للتقوى متوافرة ، فتلك هي عبر التاريخ أمامنا ، و هذاكتاب الله و رسوله يذكرنا الله بهما.

]قد أنزل الله اليكم ذكرا[

يذكر الانسان بربه ، و بالحقائق الفطرية ، و يذكره بطاقاته ، و قدراته الكامنة ، و اهدافه ، و تطلعاته ، و يستنقذه من الغفلة ، فما هو ذلك الذكر ؟

]رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات[

قال اكثر المفسرين ان الذكر هو الرسول ، و الذي يبدو لي ان الذكر اعم . انه(١) المحاسن / ج ١ - ص ١٩٤.

الرسول و الرسالة ، لانهما جنبا الى جنب يكمل احدهما الآخر ذكر الله للناس ، و الرسول ليس منزلا انما المنزل هي صفة الرسالة التي اشتق اسم الرسول منها ، و هكذا وصف الرسول بالذكر لانه يتلو آيات بينات ، و من هنا : لا يكون الذكر الكتاب وحده ، و لا الرسول وحده، و انما هما معا . و هما معا يشكلان حالة واحدة لا ينفصلان و لا يفترقان حتى يوم القيامة.

و الاية هي العلامة و الدلالة ، و آيات الله كل ما يعرف الانسان به و يهديه ، فالسماء آية ، و الشجر آية ، و المطر آية و .. و .. ، و لكن اجلى الآيات هي التي جاءت بها رسالة الله عز وجل ، و التي وصفها بانها " مبينات " لانها آية في ذاتها و تهدينا الى سائر آيات الله ، و هذا ما يميز آيات القرآن عن الآيات الطبيعية الاخرى.

ثم انها ترسم الطريــق المستقيم ، فتبين الصواب و الخطأ ، و ما أحوجنا ان نتبعها . أوليست تنصب لنا انوار الهداية ، كما قال تعالى:

]ليخرج الذين ءامنوا و علموا الصالحات من الظالمات الى النور]من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، و من ظلمات الجهل الى نور العلم ، و من ظلمات التفرق الى نور الوحدة و .. و .. و بعبارة اخرى : من كل شر و ظلمة الى كل خير و نور ، و نتساءل : او ليس المؤمنون قد خرجوا فعلا من ظلمة الكفر الى ضياء التوحيد ، فماذا يعني بيان ان الله يخرجهم من الظلمات الى النور ؟ الجواب : للانسان في البدء فرصتان متساويتان للايمان و للكفر ، و قلبه كالشفق فيه ضغث من نور و اخر من ظلمة ، و آيات الله ليس تكشف له عن النور و الظلمة فقط ، بل ترجح فيه فرصة الايمان و تزيد النور الذي في قلبه لتميل به الى الحق ، ثم ترقى به درجة فدرجة في مدارج النور و الكمال حتى يتمحض في الايمان فيخرج خروجا كليـــا من الظلمات الى النور ، لان كل عمل قبيح و نية فاسدة و صفة ذميمة ظلام في القلب ، و كل عمل صالح و نية رشيدة وصفة حميدة نور ، و كلما تزكى القلب و تطهرالسلوك من السيئات كلما زاد القلب نورا حتى يصبح العبد من المخلصين ، كالذهب المصفى لا يشوب نور ايمانه اي ظلام ، و هذا مقام اولياء الله المقربين.

و هكذا ليس آيات الله بديلا عن سعي الانسان نفسه ، انما دورها هو رسم النهج السليم للكمال و الرقي ، و على الانسان الاجتهاد للعروج عبرها الى الكمال.

]ومن يؤمن بالله و يعلم صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا]و الرزق ما يعطى للانسان شيئا فشيئا مما يوحي بان نعيم المؤمنين في الاخرة لا ينحصر في ما يعطونهم اول مرة ، انما هو في ازدياد و تكامل يوما بعد يوم.

[12]و حيث دعتنا أكثر آيات السورة الى تقوى الله جاءت الخاتمة تعرفنا بربنا سبحانه ، لان التقوى بنت المعرفة ، فكيف اذن نزداد معرفة بربنا لكي نزداد تقوى ؟

لننظر الى الافاق من حولنا ، الى السماوات و الارض ، و الى اسمائه المتجلية في هذه الافاق . انها سبيلنا الى معرفته تعالى ، فحيثما رميت ببصرك رأيت عجيب الصنع و عظمة الخلقة ، و أنى جلت ببصرك و تعمقت بفكرك فلن تجد الا اجابة واحدة تقودك الى حقيقة التقوىو سنام المعرفة.

]الله الذي خلق سبع سماوات و من الارض مثلهن[

قيل :السبع كالسبعين كلمة تدل على الكثرة ، و قيل : ان الظاهر هو المقصود ،فهناك سبع سماوات ، فما هي السماوات السبع ؟ هل هي ما تحيط بالاقاليم السبع من الفضاء القريب ، باعتبار ان السماء هي الجهة المقابلة للارض ، فاذا كانت الارضون سبعا - حسب تقسيم الناس يومئذ - فان سماواتها ايضا سبع ، و على هذا فان الارضين السبع هي تلك الاقاليم المشهورة في ادب العرب و في عرف الذين خوطبوا بالقرآن ، و قد جاء في حديث الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - : " لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها " (١) ،ام ان السماوات السبع اشارة الى الكواكب او الى سبع منظومات شمسية او الى المجرات ؟ لعل الانسان يطلع على معاني اخرى اذا تقدم به العلم . و المماثلة بين السماوات و الارضين هنا قد تكون عددية و جنسية حيث ان الارض من رتق السماء.

]يتنزل الأمر بينهن[

"و الأمر " : سنن الله و قضاؤه و تقديراته و ما يبدو له مما يدبر به شؤون الخلق و لعل ذلك سمي أمرا لان الله و كل ملائكة على كل شيء ينفذون ارادته في الكائنات ، فهو يأمرهم من فوقهم و هم يعملون بما يريد.

و اذا نبحث عن الفلسفة الاساسية التي خلقت من اجلها السماوات و الارض ، و بالذات السماوات التي لا يطالها الانسان فاننا سنجدها ليست المتعة بالنظر اليها ، و لا ما تقوم به من دور في وجوده و حياته ، انما هي كماله المعنوي و الروحي بمعرفة ربه من خلال اسمائه المتجلية في الكون من حوله.

]لتعلموا أن الله على كل شيء قدير[

حيث تتجلى آية قدرته في الخلق العظيم للسماوات و الارض لتهدينا الى هذه(١) نهج / خ ٢٢٤.

الحقيقة.

]و ان الله قد احاط بكل شيء علما[

و آية ذلك أمره الذي يتنزل لتدبير كل شيء . و علم الانسان بقدرة الله على كل شيء و علمه المطلق و بالتالي ايمانه بذلك هو الذي يزرع في نفسه التقوى ، حيث يخشى سطوة الله القادر ، و يتحسس رقابته عليه فلا يعصيه في علن و لا خفاء.

و كلمة اخيرة : ان الانسان الذي لا يتخذ الخليقة وسيلة لتكامل معرفته و ايمانه بربه ضال عن هدف الخلقة ، او تدري كيف ؟ لان الله سبحانه قد خلق ما في الارض للانسان حتى اصبح الانسان محور الخليقة ، فهل خلقها لجسده ام لروحه ؟ ان الانسان لا يتميز بجسده عنأي حيوان آخر ، و لا فضيلة له في ذلك أبدا . اذا حكمة الخلق تكمن في روحه ، و ماذا في روح الانسان غير العقل الذي ينمو بالنظر في افاق السماوات و الارض ؟! فمن لم يتكامل عقله فانه ليس يبطل حكمة خلقه فقط ، بل و حكمة الوجود من حوله ايضا .أليس كذلك ؟

سورة التحريم
الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد ارتفعت و لا تزال راية الجدل بين المذاهب الاسلامية في شأن زوجات الرسول - صلى الله عليه وآله - فاختلفوا الى ثلاثة آراء رئيسية:

الاول : أضفى عليهن مسحة من العصمة متابعة لبعض النصوص ، كقول الله : " النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم و ازواجه امهاتهم " (١) ، و كونهن مشمولات باية التطهير و اخبار و ردت ، و لأنهن زوجات

افضل خلق الله - صلى الله عليه وآله - الذي لا يعقلان يختار لنفسه من الزوجات الا خير النساء ، و قد دعمت هذا الرأي اعتبارات مذهبية اخرى.

الثاني : و تطرف فريق الى حد الطعن فيهن لدوافع مصلحية او مذهبية ، كالمنافقين الذين نالوا بالإفك و البهتان من بعض زوجات الرسول - صلى الله عليه و آله. -

(1)الاحزاب / ٦.

الثالث :و بين هذا و ذلك اخذ فريق سبيلا وسطا ، فلا تبرير للأخطاء ، و لا تضخيم لها : و لكي يصل الباحث الى الرأي الموضوعي لا بد ان يدرس أمرين اساسيين : احدهما : تاريخ زوجات الرسول - صلى الله عليه وآله - دراسة موضوعية ، و الآخر : موقف القرآن عبر دراسة شاملة لكل ما أوردته آياته في الموضوع ، و لكن بما ان في التاريخ اختلافا و تزويرا فان القرآن يبقى هو الميزان الثابت و الفرقان الاعظم و بالخصوص في القضايا الحساسة كالموقف من زوجات سيد الرسل - صلى الله عليه و آله - ، فما هو موقف القرآن ؟

لقد سجلت الآيات القرآنية موقف الرسالة الالهية في هذه القضية ، و يكفينا ان نعرض هنا ما جاءت به سورة التحريم التي يبدو انها تحدثنا فيما تحدثنا عن هذا الموضوع كخط عام لاياتها.

- 1ففي البداية تبين ان الرسول - صلى الله عليه وآله - كان يتعرض للضغط من قبل بعض ازواجه ، حتى يضطر في بعض الاحيان ان يحرم على نفسه ما احله الله له ، فيضيق عليها طمعا في مرضاتهن (الايات ١ / ٢) ، و هاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسول و ليس به- صلى الله عليه وآله. -

- 2ان اثنتين منهن خانتا النبي بإفشاء بعض ما أفضى اليهما من الاسرار (الاية ٣. (

- 3انهن او بعضهن كمن يملن عن الحق في بعض الاحيان (تصغي قلوبهن) و يمكن ان يتبن عن ذلك الى الله ، كما يمكن ان يتمادين في الميل الى حد المظاهرة ضد - الرسول - صلى الله عليه وآله - ، و بالتالي الوقوف ضد جبهة الحق التي مثلها الله ، و أمينوحيه (جبرئيل) ، و خيرة المؤمنين ، و الملائكة الذين ينصرون النبي (الاية ٤. (

- 4ان نساء النبي لسن أفضل النساء على الاطلاق ، فهو لو طلقهن فقد يجد خيرا منهن بين الناس ممن جمعت فيهن بصورة أفضل صفات الخير و الفضيلة كالاسلام و الايمان و القنوت و التوبة و العبادة و السياحة ، (الاية ٥. (

- 5و يفصل القرآن بين الزوج و زوجته في التقييم ، لان قيمة كل انسان ما يحسنه هو لا ما يحسنه الآخرون مهما كانت الرابطة بينه و بينهم قريبة و حميمة ، كما ان مقياس القبح هو ما يقوم به الفرد من السيئات لا ما يقوم به الاخرون مهما قربوا منه ، اذن فالتقييمالموضوعي الدقيق لأي أحد بتقييمه كفرد منقطع عن اي أحد ، و هذا ما يجعل زوجتي نوح و لوط مثلا للكفار فتدخلان النار لا فرق بينهما و بين سائر الناس عند الله من جهة ، و من جهة أخرى نفس هذه الحقيقة هي التي تجعل آسية بنت مزاحم زوجة فرعون الذي ادعى الربوبية مثلا للمؤمنين عبر التاريخ ، و كذلك مريم التي احصنت فرجها و صدقت بكلمات الله و كتبه وقنتت له مع القانتين (الايات ١٠ ، ١١ ، ١٢. (

- 6و هكذا كانت سورة التحريم تدور حول علاقة الزوج بزوجته حيث ينبغي ان تكون وفق المقاييس الالهية ، فلا يجوز لاحد ان يقيم الزوجة على اساس زوجها سلبا او ايجابا ، فقد كانتا زوجتا لوط و نوح خائنتين و كانت آسية صالحة .. و لا يجوز للمرأة انى كانت ان تنشرأسرار البيت خارجه . و هكذا تتواصل آيات سورة التحريم لتكمل بصائر آيات سورة الطلاق في مراعاة التقوى في سائر ابعاد الحياة الزوجية.

تحرم ما أحل الله لك
ات من الآيات

[1]قالوا : ان رسول الله كان في بيت حفصة في يومها ، و عادت و كانت مارية القبطية تخدمه ، فذهبت حفصة في حاجة لها ، فتناول رسول الله - صلى الله عليه وآله - مارية فعلمت حفصة بذلك فغضبت و أقبلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله - فقالت : يا رسول الله هذا في يومي ، و في داري ، و على فراشي ؟!! فاستحى رسول الله - صلى الله عليه وآله - منها فقال : " كفى فقد حرمت مارية على نفسي ، و لا أطأها بعد هذا أبدا " (١) ، و على رواية الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " والله ما أقربها " (٢) ، و تكشف لنا هذه الحادثة التي ذكرها الرواة عن جانب من حياة الرسول مع زوجاته ببيان حقائق ثلاث:

الاولى : ما عليه الرسول - صلى الله عليه وآله - من عظيم الاخلاق ، اذ(١) تفسير القمي / ج ٢ عند الاية.

(2)المصدر.

كان يتنازل عن حقوقه الشخصية شريطة الا تتعارض من الناحية الشرعية مع حقوق الآخرين ، مع ما في ذلك من الحرمان و المشقة ليعيش الاخرون في راحة ، فهو بأبي و نفسي كما وصف امير المؤمنين - عليه السلام - : " نفسه منه في عناء ، و الناس منه في راحة ، اتعب نفسه لآخرته ، و اراح الناس من نفسه " (١ (، و ذلك مما يليق بمقام النبوة ؟

الثانية : ان بعض زوجات النبي - و بالذات المعنيتين بمطلع سورة التحريم - كن يمارسن ضغوطا عليه لاغراض لا مبرر لها ، بل تتعارض الاستجابة لها عمليا مع احكام الدين فتصير الحلال حراما.

الثالثة : و هكذا كان الرسول وحده الاسوة للمؤمنين ، اما من حوله فليسوا موضع تأسي الا بمقدار تجسيدهم للحق في حياتهم و اقتدائهم بشخص الرسول ، و هكذا بالنسبة الى كل رسول و كل قائد رسالي انه وحده المقياس اما من حوله فقد يكونون أبعد الناس عن مثاله و منهجه ، اليس ابن نوح كان من الهالكين ؟ اوليست زوجة نوح و زوجة لوط دخلتا النار مع الداخلين ؟ و هكذا ينبغي ان ندرس التاريخ في ضوء هذه الآية من جديد.

اما كيف تدخل الوحي في حادث التحريم و عالجه ؟ فهذا ما يجيب عنه السياق حيث يؤكد على ان تحريم النبي لما قد حرمه على نفسه (مقاربة مارية ، او لعق العسل ، او مقاربة كل نسائه) مما هو حلال في الاصل لم يكن تشريعا الهيا تنزل به الوحي ليكون حكما جاريا انماهو مبادرة شخصية في حدود الحقوق الشرعية اختارها النبي لنفسه ، لحكمة بالغة تمثلت في ابتغاء مرضاة الازواج ، و لهذا جاء الخطاب بقوله تعالى:

(1)نهج / خ ١٩٣ - ص ٣٠٦.

]يا أيها النبي [

و ربما لم يخاطبه الجليل بصفته رسولا يبلغ احكام الله و رسالته بل بصفته نبيا لكي لا يعد ايلاؤه جزء من الرسالة.

]لم تحرم ما احل الله لك[

ان التحريم هنا بمعنى الامتناع و ليس بمعنى التشريع ، قال الله تعالى في شأن موسى - عليه السلام - : " و حرمنا عليه المراضع من قبل " (١) ، و لو كان الرسول بتحريمه مشرعا لجاء التعبير (لا تحرم) بالنهي ، لانه لا مشرع الا الله و لا يجوز لاحد مهما كان ان يشرع من دونه.

فعن زرارة عن ابي جعفر - عليه السلام - قال : سألته عن رجل قال لامرأته : انت علي حرام ، فقال لي

" لو كان لي عليه سلطان لاوجعت رأسه و قلت له : الله احلها لك فما حرمها عليك ؟ انه لم يزد على ان كذب فزعم ان ما احل الله له حرام ، و لا يدخل عليه طلاقولا كفارة " (٢) و لم يحرم مشرعا الرسول ، انما امتنع عن مقاربة مارية القبطية لغاية هي ارضاء زوجاته اللاتي اثارتهن الغيرة.

]تبتغي مرضات ازواجك[

و في الآية تحذير للرسول و لكل قائد ان لا يتأثر باحد ولو كان اقرب الناس اليه ، لان الضغوط التي يوجهها المقربون للقيادة ليس بالضرورة اتية من دوافع داخلية و ان كانت تتلبس بهذا الثوب ، انما تنتقل عادة الى بيت القائد من ابعد نقطة ، و لكن عبر حلقات متواصلة حتى تبلغ القائد ، و بالخصوص في هذا العصر الذي(١) القصص / ١٢.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٦٨ نقلا عن الكافي.

تستهدف الدوائر الاستكبارية فيه محاربته و القضاء على الدين ، فليس من شك ان اجهزة المخابرات و شبكات الاحزاب الفاسدة كالشيوعية و الصهيونية و فروعها المبثوثة في أوساط الأمة كلها تسعى للتاثير على القيادات الدينية عبر وسائط عديدة ، و انها قد تؤثر حتى في مواقف بعض القيادات و ارائها و فتاويها ، فكيف ينبغي ان يتعامل القائد مع مجاميع الضغط هذه فينفي تأثيراتها السلبية ؟ ان للقائد صفتين : انسانية و قيادية ، و عليه ان يحافظ على توازن حكيم ، ففي الوقت الذي يتعامل مع زوجته و اولاده و ذوي قرباه بصفته الانسانية وبكامل عواطفه و احاسيسه عليه الا يسمح لذوي النفوذ ان يؤثروا عليه من خلالها على مركزه القيادي ، و هذا ما يشير اليه القرآن في آية التحريم.

]و الله غفور رحيم[

و ينبغي للقائد ان يتحلى بهاتين الصفتين ايضا ، ففي الوقت الذي لا يتأثر بضغوط الزوجات لا ينال اذاهن من حلمه وسعة صدره بل يغفر لهن و يرحمهن تخلقا بصفات الله و طمعا في غفرانه و رحمته.

[2]و من مظاهر غفرانه و رحمته عز وجل ان جعل للمؤمنين مخرجا يتحللون به من اليمين و آثاره المادية و المعنوية بالكفارة ، و لو كان الله يجعل تحريم الانسان على نفسه تشريعا لوقع الكثير من الناس في العسر و لتفككت الكثير من الاسر ، حيث تدعوهم الضغوط و حالات الغضب الى التحريم باليمين في احيان كثيرة.

]قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم[

قال الامام ابو جعفر - عليه السلام - : " انما حرم عليه الجارية مارية و حلف ان لا يقربها ، فانما جعل عليه الكفارة في الحلف و لم يجعل عليه في لتحريم (1) "، و هذا واضح في الآية " تحلة ايمانكم " ، فلو قال احد فلانة علي حرام دون يمين فلا هي تحرم عليه و لا تجب عليه الكفارة بخرقه لكلامه و قراره ، بل لا يكون ايلاء الا باليمين و لمدة اربعة اشهر ، فعن ابي جعفر)ع) قال : " لا يكون ايلاء حتى يحلف على اكثر من اربعة اشهر " (٢) اي بهذين الشرطين ، و الذي يظهر من النصوص ان ما كانمن رسول الله تحريم بيمين و ليس ايلاء ، لان مارية جارية لا ايلاء فيها ، فعن ابي نصر عن الامام الرضا (ع) قال : سألته عن الرجل يولي من امته ، فقال : " لا . كيف يولي و ليس لها طلاق " (٣) الا ان يكون النبي - صلى الله عليه وآله - كما قال بعض المفسرين قد حلف بان لا يقارب ازواجه جميعا بعد تحذير الله له من تحريم ما احل له ابتغاء مرضاتهم ، و الله اعلم.

و لكي يتحلل الرجل من الايمان بالايلاء او مجردة فرض الله كفارة كمخرج و كعقوبة حتى لا يعود لها مرة اخرى ، و هي في صالحه ، و هذا يدل عليه قوله سبحانه " لكم "بالرغم من ان البعض يراها كلفة و غرامة لله عليه ، فهي تزكي النفس ، و توقف الغضب عند حده . و كفارة نقض اليمين واجبة فرضها الله ، الا ان العود الى ما كان قد حرمه بها ليس متعلقا بادائها ، فلا تتكرر الكفارة بتكرار العود قبل ادائها كما هو في الظهار ، انما تجب مرة واحدة لكل يمين ، و مقدارها اطعام عشرة مساكين ، فعن ابي حمزة الثمالي قال : سألت ابا عبد الله - عليه السلام - عمن قال : و الله ثم لم يف ، فقال : " كفارته إطعام

عشرة مساكين " (٤. (

و يأتي هذا الفرض من موقع الولاية الالهية على المؤمنين.

(1)المصدر.

(2)الوسائل / ج ١٥ - ص ٥٣٨.

(3)المصدر / ص ٥٣٩.

(4)المصدر / ص ٥٧١.

]و الله مولاكم [

فالذي يفرضه هو الواجب ، و لا يجوز للمؤمنين ان يأخذوا تشريعاتهم من مصدر سواه ، لانه حيث يشرع اهل لذلك ، لاحاطته علما بكل شيء ، و لانه لا يضع حكما الا لحكمة بالغة.

]وهو العليم الحكيم[

و ايمان الانسان بهاتين الصفتين لله يبعث فيه روح التسليم و الرضى بكل ما يفرضه عليه حيث يشعر بفطرته و عقله انه يتلقى تشريعاته من لدن عليم حكيم ، بل ان ذلك يجعله لا يؤمن الا بما يتنزل من عنده ، اما ما يضعه البشر من النظم و الاحكام فانها لا تدعوا البالاطمئنان بها ، لان واضعها محدود العلم و الحكمة.

[3]و يكشف لنا الوحي بعد الكلام عن حادث التحريم الذي جاء نتيجة ضغوط بعض ازواج النبي عن صورة اخرى سلبية من تعاملهن معه - صلى الله عليه وآله - حيث يفشين اسراره الى الاخرين . الامر الذي ينطوي على خيانتين : خيانة له كزوج فالزوجة المخلصة يجب ان تكون مستودع سر زوجها و لا يليق بها اشاعته لاحد مهما كان قرابته و مكانته ، و خيانة له كنبي و قائد للامة.

]و اذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثا[

قيل انه تحريم مارية على نفسه ، و قيل انه تحدث عن التيارات السياسية و الاجتماعية التي كانت في الامة ، و عن مستقبل السلطة السياسية فيها ، وهو الاقرب و الأهم ، لان تحريم مارية لم يكن في الخفاء ، و لا يحتاج الكلام عن افشاء هكذا حديث الى التأكيد على مظاهرة الله و الملائكة و صالح المؤمنين للنبي . و في مجمع البيان قال العلامة الطبرسي (رض) : و لما حرم مارية القبطية اخبر حفصة انهيملك من بعده ابو بكر و عمر (١. (

]فلما نبأت به [

قيل ان كلا من حفصة و عائشة اخبرتا ابواهما بالامر ، اما بسبب العلاقات العاطفية المتينة بين البنت و ابيها ، او لحب التظاهر بالحضوة عند الرسول ، و هذان من اوسع الابواب التي تخرج منها اسرار الانسان الى الآخرين . و اذا كان الانباء باسرار النبي يتم بعيدا عن سمعه و نظره فانه لن يكون بعيدا عن رقابة الله الذي اخبر رسوله بالأمر.

]و أظهره الله عليه[

اي كشف له ان هذه الزوجة لم تصن سره.

]عرف بعضه و أعرض عن بعض[

مما يفصح عن معدن الرسول - صلى الله عليه وآله - حيث الاخلاق و الحكمة ، فهو لم يعاتبها على كل شيء بل اظهر جانبا من امرها و كانه يجهل الجوانب الاخرى ، و لعل ما اعرض عن ذكره كان يتسبب لو ذكره في حرج عظيم لها ، و اثار سلبية لا تحمد عقباها ، و ذلك غايةفي الحكمة لكل زوج في اسرته ، و لكل قائد تجاه امته.

]فلما نبأها به قالت من انبأك هذا[

و لعلها حينئذ كانت مرتابة في ان من اطلعته على السر هو الذي اخبر النبي - صلى الله عليه وآله - و غاب عن بالها و ايمانها انه متصل بالوحي و مؤيد من عند(١) مجمع البيان / ج ١٠ عند الاية.

الله سبحانه ، فاجابها - صلى الله عليه وآله: -

]قال نبأني العليم الخبير[

الذي يحيط بكل شيء . و موقف الرسول - صلى الله عليه وآله - تجاه زوجته التي اذاعت سره ينبغي ان يدرسه كل زوج قائد ، و يتخذه منهجا في امثال تلك المواقف و ظروفها.

[4]و يؤكد القرآن ان ما حدث من اثنتين من نسائه كان زيغا عن الحق و ميلا الى الباطل ، و انه بالتالي يحتاج الى الاصلاح و التوبة.

]ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما[

اي انكما تحتاجان الى غسل دون الانحراف ، و اصلاح الخطأ بالتوبة الى الله و الاعتذار من الرسول - صلى الله عليه وآله - لان قلوبكما قد صغت اي مالت ، و اصغى سمعه لفلان اي مال به الى كلامه . و تأكيد الله على انحراف القلب يبين ان ما حدث لم يكن خطأ عابرا، انما هو انحراف له جذور تمتد الى اعماق القلب ، بلى . ان كشف اسرار النبي ليس الا علامة على انحراف داخلي في الجذور ، و هكذا الكثير من مواقف و سلوكيات الانسان الخاطئة . انها مرة تكون سطحية و اخرى جذرية.

و يحذر الله الاثنتين من انهما لو رفضتا التوبة و تماديا في التظاهر ضد الرسول - صلى الله عليه وآله - فان العاقبة ستكون للخط الرسالي السليم لانه مدعوم بقوة لا تقهر.

]وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه و جبريل و صالح المؤمنين]أي خيرتهم و افضلهم ، و افضل كل المؤمنين هو الامام علي - عليه السلام - الذي نصر الرسول في كل معاركه و حروبه العسكرية و السياسية و غيرهما ، و لذلك جاءت بعض النصوص بهذا التأويل ، قال الامام الصادق - عليه السلام - " صالح المؤمنين هو علي بن ابي طالب عليه السلام " (١. (

]و الملائكة بعد ذلك ظهير[

قال ابن عباس : سألت عمر بن الخطاب عن اللتان تظاهرتا على رسول الله - صلى الله عليه وآله - ؟ فقال : حفصة و عائشة . اورده البخاري في الصحيح (٢. (

[5]و يحذر الله زوجات الرسول من السلوك السلبي تجاهه بان مصلحة رسالته فوق كل شيء ، و هو مستعد لتطليقهن لو عارضن الرسالة دون ان يجعل قيادته و قراراته عرضة للتأثر بالضغوط و تبعا لاهواء الزوجات و ميولهن . ثم انه لو فعل ذلك فلن تتعطل مسيرته بل ستستمر ،و سيجد بين الناس و عند الله من هو خير من زوجاته.

]عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن[

من الجهة المعنوية و المادية . و قد وجه القرآن الحديث من المثنى الى الجميع لكي يكون ما حدث عبرة للجميع ، فلا تحدثهن انفسهن بالسير على خطى الاثنتين .اما الصفات المعنوية التي ينبغي ان تكون في شريكة حياة الانسان المؤمن فهي التالية:

]مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات[

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٧٠.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ عند الاية.

من السياحة و هي الجهاد لقول رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " سياحة أمتي الجهاد " ، و الهجرة صورة من السياحة بهذا المفهوم ، و الصفات الانفة صفات متدرجة فالايمان فوق التسليم ، و القنوت فوق الايمان ، و هكذا .. و هذه الصفات هي الاهم ، وتأتي في الدرجة الثانية الصفات المادية الظاهرة:

]ثيبات و ابكارا[

[6]و بعد ان بين القرآن من الممكن للرسول - صلى الله عليه وآله - ان يجد في المجتمع زوجات خيرا من زوجاته لو طلقهن ملوحا لهن بالطلاق لو لم يتبن الى الله ، أمر المؤمنين بتحمل المسؤولية الرسالية في اطار الاسرة ، اذ يجب السعي الحثيث لانقاذ نفسه و سائراسرته من نار جهنم ، و هذه اعظم مسؤولية للمؤمن تجاه اهله.

]يا ايها الذين ءامنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا]و انها لآية عظيمة ترسم للانسان المؤمن خطوط مسؤوليته لتخرجه من اطار الفردية الى التطلعات الانسانية و الدينية الواسعة ، حيث التفكير في نجاة الاخرين و فلاحهم كجزء من المسؤولية في الحياة . و على هذا أكد ائمة الهدى في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة ، قالسليمان بن خالد : قلت للامام الصادق - عليه السلام - ان لي اهل بيت و هم يسمعون مني افادعوهم الى هذا الامر ؟ فقال : " نعم . ان الله عز وجل يقول في كتابه : " الآية " (١) ، و عن ابي بصير قال : سألت ابا عبد الله - عليه السلام - عن قول الله " الآية "، قلت : هذه نفسي اقيها فكيف اقي أهلي ؟ قال " تأمرهم بما أمرهم الله به ، و تنهاهم عما نهاهم الله عنه ، فان اطاعوك كنت قد(١) نور الثقلين / ج ٥ -ص ٣٧٢ نقلا عن اصول الكافي.

و قيتهم ، و ان عصوك كنت قد قضيت ما عليك " (١) ، و هذه الرواية تؤكد بأن الدعوة لله مسؤولية مفروضة على المؤمن في اوساط الأسرة (الزوجة و الاولاد) ، و انه يجب عليه ان يكون رسولا لربه فيها يدعوهم الى الحق و ينهاهم عن الباطل.

و لا يسقط المسؤولية عدم استجابتهم للدعوة ، فقد سئل الامام الصادق - عليه السلام - عن الآية فقيل : كيف نقيهن ؟ قال : " تأمروهن و تنهونهن " ، قيل له : انا نأمرهن و ننهاهن فلا يقبلن ؟ قال : " إذا أمرتموهن و نهيتموهن فقد قضيتم ما عليكم" (٢) ، و لعل الوقاية من النار تمر من خلال اجتناب السيئات و تركيز الصفات المشار اليها في الآية اللاحقة في النفس و الاهل . و اي نار تلك التي يدعونا الله للوقاية منها ؟

اولا : انها تشتعل باحتراق الناس و الحجارة.

]و قودها الناس و الحجارة[

فليس الناس هناك يحترقون بالنار بل يتحولون نيرانا ، لان كل شيء في جهنم ذو طبيعة نارية ، فهل يتم الاحتراق بتفاعلات ذرية في الجسم لذلك لا يتحولون رمادا بسرعة ، بل يبدل الله جلودهم كلما نضجت

ليذوقوا عذاب الهون ، ام بطريقة اخرى ؟ لا نعلم ، انما يكفيناان نتصور ذلك المنظر الرهيب فنخشى و نتقي.

و قالوا عن الحجارة انها حجارة الكبريت ، و لكن يمكن ان يكون عموم الحجارة و يكون احتراقها بتفاعلات ذرية.

ثانيا:

(1)المصدر.

(2)المصدر / ص ٣٧٣.

]عليها ملائكة غلاظ شداد[

فهم قساة التعامل مع اهل النار ، فلا ترى في شخصيتهم البشاشة و اللطف ، كما انهم اقوياء فتعذيبهم و اخذهم لا يكون الا بالشدة.

]لا يعصون الله ما أمرهم[

من قبل في تعذيب اهل النار.

]و يفعلون ما يؤمرون[

في كل زمان و على كل حال ، فلا يتصور الانسان انه قادر على اقامة علاقات خاصة معهم تثنيهم عن أمر الله تجاهه ، فانهم عباد مأمورون لله و ليسوا شركاء ، و طاعتهم له عز وجل ليس فيها ثغرة يهرب عبرها المعذب من عذاب الله . و اذا كان ثمة طريق لاتقاء غلظتهم وشدتهم و عذاب النار فهو الألتجاء الى سيدهم و التحبب اليه بالايمان و الطاعة ، و لا يتم ذلك الا في الدنيا ، فلماذا يضع البعض حجبا بينه و بين ربه باتباع الفلسفات البشرية الشركية كعبادة الاصنام و الملائكة ؟!

[7]هنا في الدنيا عندما يواجه الانسان حقيقة رهيبة او مسؤولية ثقيلة يحاول ان يتهرب منها بالخداع الذاتي ، فتراه يلتمس الاعذار و التبريرات ، و يتحصن وراء الاوهام و الظنون ، كلا .. انها لا تفيده هنالك في الاخرة شيئا.

]يا ايها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون]ومادام جزاء الاخرة هو ذات عمل الانسان في الدنيا فلا معنى للعذر اذا ، و كيف يتخلص الانسان مما هو جزء ذاته ؟ و في الاية ايحاء بان عدم استعداد الكفار للاخرة و لقاء الله نتيجة طبيعية لكفرهم بها.

[8]و ينبغي ان تكون هذه التذكرة باعثا نحو المبادرة الى التوبة في الدنيا قبل فوات الاوان ، توبة صادقة كاروع ما تكون التوبة ، فان ذلك وحده الاعتذار الذي يقبله الله.

]يا ايها الذين ءامنوا توبوا الى الله توبة نصوحا]بالندم على ما فات ، و العزم على ترك الذنب ، و اصلاح اثاره السلبية نفسية و اجتماعية و اقتصادية و .. ، و الاجتهاد في الصالحات ، هكذا سال احمد بن هلال الامام الهادي - عليه السلام - عن التوبة النصوح ماهي ؟ فكتب عليه السلام : " ان يكون الباطن كالظاهر و افضل من ذلك " (١) ، و قال الامام الصادق - عليه السلام " : - هو صوم يوم الاربعاء و الخميس و الجمعة " (٢) ، لان العمل الصالح جزء من التوبة ، و قال الامام ابو الحسن - عليه السلام - : " يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه "(٣) ، و قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - عن التوبة النصوح : " ان يتوب التائب ثم لا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبن الى الضرع . (4) "

و هذه التوبة هي التي يقبلها الله فيعفو عن سيئات الانسان بها و يدخله جنات النعيم يوم القيامة.

]عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم[

حقا : ان التائب عن صدق يرجى له ان تتحول ذنوبه من عقدة سيئة تعيق(١) المصدر / ص ٣٧٣.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ٣٧٤.

(4)عن مجمع البيان / ج ١ - ص ٣١٨ و القرطبي / ج ١٨ - ص ١٩٧.

مسيرته نحو التكامل الى دافع قوي نحو الخير و الفضيلة ، كما ان الله سبحانه يمحو من ديوانه السيئات فلا يطلع عليها احدا حتى اقرب المقربين اليه ، قال معاوية بن وهب : سمعت ابا عبد الله - عليه السلام - (الامام الصادق (يقول : " اذا تاب العبد توبة نصوحا احبه الله فستر عليه في الدنيا و الاخرة " ، فقلت : كيف يستر عليه ؟ قال : " ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ، و يوحي الى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه ، و يوحي الى بقاع الارض : اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب ، فيلقى الله حيث يلقاه و ليس شيءيشهد عليه بشيء من الذنوب " (١) ، فلا يبقى سبب يدخل به النار ، و فوق هذا كله يدخله الى رضوانه و نعيمه في الجنان.

]و يدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار[

و تأكيد الله على الجنات يزرع في الانسان المؤمن ارادة التحدي للشهوات و لزخارف الدنيا الزائلة حيث يتطلع الى النعيم الاعظم كما ونوعا في الاخرة.

]يوم لا يخزي الله النبي و الذين ءامنوا معه[

بالعذاب و المذلة بين الناس ، و لعل في الاية اشارة الى ان الله يمضي شفاعة الرسول -صلى الله عليه واله - و المؤمنين معه من ائمة الهدى و الصالحين.

]نورهم يسعى بين ايديهم و بايمانهم[

التي كدحت في سبيل الله ، اما عن النور فالاظهر فيما قيل ثلاثة اراء لا تناقض بينها ، احدها : انه العمل الصالح و الايمان يظهر في صورة نور يوم القيامة ، و الثاني : انه القرآن الذي مشى على هداه المؤمنون فهو يقودهم الى الجنة كما قادهم في الدنيا الى الصواب و السعادة ، و الثالث : انه ائمة الهدى و القادة الصالحون الذين(١) المصدر.

اتبعوهم في الدنيا ، فهم يقودونهم الى الجنان كما قادوهم الى الحق و العمل الصالح في دار الدنيا ، قال الامام ابو عبد الله (ع) : " ائمة المؤمنين نورهم يسعى بين ايديهم و بايمانهم حتى ينزلوا منازلهم " (١. (

و عندما نبحث عن الاسباب التي نجى بها المؤمنون من الخزي يوم القيامة ، و سعى لاجلها نورهم بين ايديهم ، نجد من أهمها طموحهم الكبير للكمال ، و توكلهم على ربهم ، و دعاؤهم اليه ان يغفر لهم .. هكذا يدعون ربهم:

]يقولون ربنا أتمم لنا نورنا و اغفر لنا[

و من تمام النور كمال الوعي و اصابة الحق في كل جوانب الحياة و ابعادها المختلفة ، و هناك علاقة بين دعاء المؤمنين بتمام النور و غفران الذنوب فان الخطايا في الحقيقة ظلمات معنوية تتمثل يوم القيامة ، الظلم ظلمات ، و الغش ظلمات و هكذا الكذب و الاسراف و.. ، فهم من جهة يسألون ربهم تمام النور ، و من جهة اخرى يطمحون الى النجاة من ظلمات الذنوب و الخطايا . و دون هاتين الغايتين تقف التحديات الصعبة التي تحتاج الى عزم الارادة ، و استقامة الايمان ، اللذان يستمدهما المؤمنون من ذي القوة المطلقة بالدعاء و التوكل ، اذ يعلمون ان بلوغ الغايات السامية (تمام النور ، و الغفران (يحتاج الى توفيق الله و ان تجانب سعيهم قدرته ، و هذا ما تشير اليه الخاتمة:

]انك على كل شيء قدير[

و كلمة اخيرة : ان الله سبحانه بعد الامر بالتوبة النصوح و الدعوة اليها لم يقل جزما : " يكفر عنكم سيئاتكم .. " انما اضاف " عسى " التي تفيد الترجي..

(1)المصدر / ص ٣٧٥.

فالنتيجة المترتبة قد تكون و قد لا تكون حسب المفهوم الظاهر للكلمة ، و ذلك لكي لا يتسرب الى افئدة المؤمنين الغرور و العجب فيكون الاعتماد منهم على التمنيات بغفران الله بدل السعي و العمل.

[9]و بعد ان امر الله بوقاية النفس و الاهل من النار ، و التوبة النصوح اليه عز وجل ، و بالتالي السعي للكمال ، امر النبي - صلى الله عليه واله - بجهاد الكفار و المنافقين كضرورة لتهيئة الظروف و الاسباب من اجل الوقاية و التوبة و الكمال ، و ذلك ان كثيرا من اسباب الانحراف و النقص التي يتعرض لها المؤمنون تاتي نتيجة تحرك الكفار من الخارج و المنافقين من الداخل ضد الحق و اتباعه ، فلا بد اذن من مواجهة بؤرة الفساد هذه و القضاء عليها بالجهاد لتكون الظروف ملائمة لبناء المجتمع النموذجي (المتقي ، و التائب ،و التام . (لذلك جاء الامر للنبي - صلى الله عليه وآله - بمواجهة الكفار و المنافقين.

]يا أيها النبي جاهد الكفار و المنافقين و اغلظ عليهم [أي جهادا لا هوادة فيه ، باعتبار القائد الرسالي ليس مسؤولا عن أسرته و حسب بل هو في المجتمع كالاب مسؤول ان يقي نفسه و يقيه من النار و الضلال ، فلا بد ان يعمد الى اجتثاث بؤر الانحراف عنه و مما حوله مهما كان ذلك الكافر او هذا المنافق بعيدا او قريبا.

]و مأواهم جهنم و بئس المصير[

ففي الدنيا يلقون جزاءهم بمجاهدة المؤمنين لهم ، و في الاخرة الجزاء الاوفى حيث الخلود في اسوء ما يصير اليه مخلوق من عاقبة.

[10]و بمناسبة الحديث عن زوجات الرسول الذي يحدد لنا سياق هذه السورة الموقف السليم منهن تأتي الآيات الثلاث الاخيرة لتؤكد على حقيقة هامة يجب الالتفات اليها في تقييم الناس ، و هي ان قيمة كل انسان باعماله و مواقفه هو صالحة او فاسدة ، بغض النظر عمن حوله و من ينتمي اليه . اذن لا يصح ان نفسر التاريخ و القران و المواقف تفسيرا تبريريا توفيقيا عند الحديث عن اخطاء اقرباء الانبياء نسبا او صحابة او زواجا لان ذلك يجعلنا في غموض ، فقد يكون اقرب الناس الى نبي من الانبياء مثلا للكفار كزوجتي نوح و لوط - عليهماالسلام - ، بينما يصبح اقرب الناس الى بؤر الانحراف امثال فرعون و البيئات الفاسدة مثلا للمؤمنين كآسية بنت مزاحم و مريم ابنة عمران ، دون ان يكون في ذلك اساءة الى الانبياء و الصالحين و لا احسان الى المنحرفين الذين ينتمي اليهم كلا المثلين.

]ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح و امرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا]لان الشفيع الحقيقي للانسان عمله الصالح لا القرابات و لو كانت من الانبياء و الاولياء ، و اعمالهما كانت سيئة لما انطوت عليه من خيانة لزوجيهما باذاعة السر و التظاهر لجبهة الكفر

(١) و خيانة للرسالة و القيم التي جاءا بهما ، فما نفعتهما القرابات و ما بقي لهما شيء يتميزان به عن الناس ، فالقرابة وحدها ليست ذات قيمة عند الله انما العمل ، بل ان انتماء الانسان الى اي شخص او أية جبهة لا يقاس بالحسابات المادية كالمسافة و النسب انما بنوع العمل ، و انتماء هاتين الزوجتين كان الى جبهة الكفار في الدنيا و اهلالنار في الاخرة لتجانس الاعمال لذلك لم يغني عنهما نوح و لوط شيئا.

(1)في المجمع ج 10قال ابن عباس : كانت امراة نوح كافرة تقول للناس انه مجنون ، و اذا آمن بنوح احد اخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، و كانت امراة لوط تدل على اضيافه .

]و قيل ادخلا النار مع الداخلين[

و قد اعتبر الله هاتين المراتين مثلا للذين كفروا لانهما كان يفترض ان تكونا قمة في الايمان حيث كانت تحت عبدين صالحين من الانبياء ، الا انهما اختارتا الكفر بدل الايمان رغم الظروف المساعدة ، و هذا المثل يهدينا الى ان سعي المؤمنين لوقاية اهليهم من النار ليس بالضرورة ان يؤدي الى نتيجة ايجابية ، و انه من الخطا تقييم احد كالانبياء من خلال زوجاتهم و من حولهم ، انما التقييم السليم يكون عبر اعمالهم و رسالتهم.

و لنا في الاية وقفة عند كلمة الخيانة فهي - كما اعتقد - خيانة بالمقياس الرسالي اي خيانة لحركة الرسول و مبادئه ، و ليس كما قد يتقول البعض لما فيه من عقد جنسية او لاعتماده على الاسرائيليات بانها خيانة جنسية ، كلا .. انها خيانة في رسالة النبي بدليلين:

الاول : بدلالة السياق ، فقد وقع الحديث عن الخيانة في سياق الحديث عن افشاء السر من قبل زوجات النبي ، و حينما تكلم عن زوجتي نوح و لوط ضربهما مثلا للجبهة المضادة للحق " الذين كفروا " ، ولو كانت الخيانة جنسية لضربهم مثلا للذين فسدوا او مثلاللزناة.

الثاني :لان تفسير الخيانة هنا بالخيانة الزوجية ليس يمس زوجات الانبياء و حسب بل يمس الانبياء انفسهم و يصور بيوتهم محلا للفاحشة و الدعارة ، حاشا الانبياء - عليهم السلام - (١. (

[12 - 11]و يضرب الله مثلا معاكسا للذين امنوا ، احدهما من بيت فرعون(١) و هذا ما سعى اليه الكاتب الضال سلمان رشدي في احد فصول كتابه : (الايات الشيطانية. (

الطاغية ، و الاخر من بيئة بني اسرائيل المنحرفة مريم بنت عمران.

]و ضرب الله مثلا للذين ءامنوا امرأت فرعون[

التي آمنت بنبي الله ، و تحدت اغراءات السلطة و ضغوط الطاغية زوجها في سبيل الله ، رغم تظافر العوامل المادية التي يعتبرها البعض من الحتميات ، حيث كان فرعون زوجها و كانت في ذات الوقت من رعاياه . كانت تنتمي الى بني اسرائيل الطبقة المستضعفة و المعدمة بينما كان فرعون قائد المستكبرين و المترفين ، و كانت مصالحها المادية مؤمنة عند فرعون ، فما الذي جعلها تتحداه و تواجه جبروته و سلطانه ؟ ! انه الايمان الذي جعلها تتحدى كل الظروف لتكون مثلا رفيعا يقتدي به المؤمنون عبر التاريخ ، و جبلا لا تتأثر بإغراء و لابارهاب او تضليل.

]اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة[

و هنا اشارتان لطيفتان نستوحيهما من الآية:

الاولـى :ان اعظم سبب للانحراف كانت تواجهه اسية هو غرور السلطان و الملك ، فلقد كانت زوجة لاعظم الملوك الذين عرفهم تاريخ البشرية ، الا انها انتصرت على قمة تحدي الدنيا للانسان بالرغبة في

نعيم الاخرة الذي يتصاغر امامه كل نعيم ، و لقد جاء في الاخبارانها كانت ترى قصورها في الجنة و هي موتدة تصب عليها الوان التعذيب.

الثانية : ان هذه المراة الشريفة لم يحالفها الحظ في الزوج الذي ترغب اليه امثالها من المؤمنات فطلبت من الله ان تصير الى نعم بيت الزوجية ، و كان طلب البيت بمثابة طلب من فيه ، و ماذا يطيب من البيت للمراة من دون زوج كريم ؟ و اذا كان دعاؤها بهذا المعنىفلماذا لم يصرح به في القران ؟ لعل ذلك لان الاداب الاجتماعية عند العرب (و ربما عند غيرهم ايضا) ما كانت تستسيغ للمراة العفيفة أن تطلب زوجا .

و مما يؤكد هذه الفكرة الروايات التي بينت انها تصبح زوجة لرسول الله - صلى الله عليه واله - في الجنة ، فقد اثر عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه دخل على خديجة - عليها السلام - و هي في مرض الموت فقال لها " : بالرغم منا ما نرى يا خديجة ، فاذا قدمت على ضرائرك (اي اللاتي هن ازواج الرسول كما خديجة) فاقرئيهن الســلام " ، فقالت : من هن يا رسول الله ؟ فقال : " مريم بنت عمران ، و كلثم اخت موسى ، و آسية امرأة فرعون " ، و توحي بهذه الحقيقة ايضا بقية الآية:

]و نجني من فرعون و عمله[

فكانت ترفض البقاء في ظله ، و يهدينا قوله سبحانه : " و عمله " الى فكرة هامة هي ان الانسـان المؤمن قد ينجو بالهجرة او بسقوط النظام الفاسد من اذى الظالمين المباشر ، لكنه قد لا ينجو من اعمالهم ، فاذا به يصبح ظالما مثلهم و يعمل الفواحش و يقعفي الفساد ، لذلك ينبغي الدعاء للنجاة من الظلمة و من الظلم.

]و نجني من القوم الظالمين[

اما المثل الثاني للمؤمنين فهي مريم ابنة عمران - عليها السلام - فانها رغم انحراف بني اسرائيل بعد موسى و شياع الفاحشة بينهم تحدت الانحراف فحافظت على عفتها و طهارتها.

]و مريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها[

و لا ريب ان الارحام المحصنة و الفروج العفيفة و الحجور الطيبة الطاهرة ستكون منطلق الاجيال الصالحة ، و موضع تجلي روح الله.

]فنفخنا فيه من روحنا[

و برزت عظمة مريم - عليها السلام - في تصديقها بكلمات الله و كتبه ، و لعل كلمات الله هي انبياؤه كعيسى بن مريم ، لان الانبياء لسانه في خلقه و ينطقون بوحيه و كلماته ، او هـي البصائر الالهية البارزة التي من الصعب التصديق بها ، اما الكتب فهي الرسالات.
و لقد جعلت مريم نفسها مصداقا للحق الذي جاء به الانبياء و انطوت عليه كتب الله .

]و صدقت بكلمات ربها و كتبه و كانت من القانتين[

و القانتون هم المثابرون بالدعاء الى الله المسلمون له مما يؤكد روحانيتها و تبتلها الدائم . و نستوحي من الاية تاكيد للروايات التي قالت بانها تكون من زوجات رسولنا الاكرم - صلى الله عليه وآله - في الآخرة حيث وعده الله فيما وعده بالزوجات القانتات التيهي منهن.

و قد يكون معاني التصديق بكلمات الله و قنوتها انها بلغت مرحلة العصمة ، حيث ان الانسان بين امرين : بين الاستجابة لنداء الباطل و كلماته ، او التصديق بالحق و اتباع ندائه و مناديه ، و اذا كان الانسان جادا في اتباع الحق تمايز في داخله نداء الشيطان المنبعث من شهواته و وساوس نفسه الامارة بالسوء و همزات شيطانه الرجيم تمايز عن نداء الرحمن المنبعث من عقله و وجدان نفسه اللوامة و الهامات ربه عبر ملائكته الكرام.

و هذا أحد وسائل الوحي الذي هو نقر في القلب ، و الذي من امثلته ما الهمت أم موسى - عليها السلام - ان تلقي بولدها في اليم.

و هذه الايات الثلاث تهدينا الى حقيقة رئيسية هي ان الانسان قادر على الاستقلال بارادته و قراره و عمله مهما كانت الظروف مساعدة او معاكسة لما يختاره لنفسه ، فالكفر و الايمان يبدآن من داخل الانسان و ليس من الظروف و العوامل المحيطة ، و بالتالي يمكن القول ان هذه الآيات بما ضربته من الامثال تنسف الفلسفات الضالة القائمة على اساس الايمان بالحتميات اقتصادية او اجتماعية او وراثية او .. او .. فيما يتصل بقرار الايمان و الكفر في حياة الانسان ، فهذه اسية بنت مزاحم و مريم ابنة عمران تحديتا الظروف و الضغوط و امنتا بالله ، بينما كفرت زوجة نوح و لوط رغم العوامل الايجابية و المساعدة على الايمان ، و اذا كانت هذه البصيرة صادقة في المراة فان صدقها بالنسبة الى الرجل اوضح و اجلى اليست المراة ضعيفة امام الرجل ؟

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في اصول الكافي عن ابي جعفر (الباقر) عليه السلام قال : " سورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر ، و هي مكتوبة في التوراة سورة الملك ، و من قرأها في ليلة فقد اكثر و اطاب و لم يكتب من الغافلين ، و اني لاركع بها بعد عشاء الاخرة وانا جالس ، وان والدي - عليه السلام - كان يقرؤها في يومه و ليلته ، و من قراها اذا ادخل عليه ناكر و نكير من قبل رجليه قالت رجلاه : ليس لكما الى ما قبلي سبيل قد كان هذا العبد يقوم علي فيقرا سورة الملك في كل يوم و ليلة ، و اذا اتياه من قبل جوفه قال لهما : ليس لكما الى ما قبلي سبيل قد كان هذا العبد اوعاني سورة الملك ، و اذا اتياه من قبل لسانه قال لهما : ليس لكما الى ما قبلي سبيل قد كان هذا العبد يقرا بي كل يوم و ليلة سورة الملك. "

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٧٨

الإطار العام

لعل زرع الخشية من الله بالغيب هو المحور الذي تتصل به كل ايات سورة الملك ، التي هي بداية انعطافة كبيرة في السياق القرآني نحو البصائر التي تنزل بها الوحي في الجزئين الاخيرين ، و اللذان يتالفان في الاكثر من السور المكية التي تذكر باصول الاسلام كالايمان بالله ، و بالرسول و الرسالة ، و بالاخرة.

- 1ففي مطلع السورة يتجلى الله العظيم باسمائه الحسنى) تبارك ، الملك ، و القدير ، و الخالق ، و العزيز ، و الغفور ، و الرحمن (لان المعرفة السليمة بالله تضع الانسان المخلوق بوجدانه و عقله و كل حواسه امام الله الخالق سبحانه ، مما تمنحه الخشية منه عزوجل . و لا ريب ان خشية الانسان من ربه تكون بقدر معرفته به . أولم يقل تعالى : " انما يخشى الله من عباده العلماء " ؟؟ (١) . و لكي تكون المعرفة بتلك الدرجة نجد السياق يمزج بينهما و بين تعريف الانسان باعظم الاهداف التي(١) فاطر / ٢٨ .

خلق من اجلها " ليبلوكم ايكم احسن عملا " فليس في منهج الاسلام اذن معرفة لا تقود الى العمل الصالح ، بل ان احسن الناس عملا اكثرهم معرفة بربه.

و يزداد الانسان معرفة بربه كلما جال ببصره و بصيرته في الآفاق من حوله ، ففيها تتجلى اسماء الخالق

(قدرته و عظمته و تعاليه ..) و بالذات اذا كر ببصره مع عقله المرة بعد الاخرى ، في مظهر الخلق وجوهره ، و في صلة بعضه ببعض ، حيث يتجلى له ربه و جماله الذي عكس بعض اثاره في الكون بمظهره و جوهره و نظامه المتقن الذي لا يعتوره تفاوت و لا فطور . الايات (١ / ٥. (

- 2و لان الكفر من الحجب التي تمنع المعرفة بالله و من ثم خشيته بالغيب جاءت الآيات تذكر الكافرين بعذاب الاخرة ، و تحذرهم من التكذيب بالنذر ، كوسيلة لهز ضمائرهم و اخراجهم من غرور الكفر و غفلته ، اذ تضعهم امام صور من عذاب الخزي في جهنم التي تكاد تتفجر من الغيظ ، و بصورة تجعل ذلك الغيب المستقبلي شهودا لمن يسمع او يعقل ، مما يزرع خشية الله في النفس ، فهنالك تحوط الكافرين الحسرة ، و يغمرهم الندم على ما فرطوا في جنب الله و ما صاروا اليه من سوء العاقبة ، و لا يملك احدهم الا الاعتراف بذنوبه دون ان يجدمبررا يتملص به من المسؤولية او يستر به الفضيحة ، و انى له ذلك و شهادة الله محيطة بكل شيء و هو عليم بذات الصدور ؟ ! و كيف لا يعلم اللطيف الخبير بخلقه ؟ ! الايات (٦ / ١٤. (

- 3ثم ياتي السياق على الافكار الشركية فينسفها نسفا ، لانها تدعوا الانسان الاعتماد على الانداد المزعومين ، و الاعتقاد بانهم قادرون على تامينه و حمايته و رزقه من دون الله ، باعتبارهم شركاء او شفعاء او انصاف آلهة يؤثرون على مشيئته سبحانه ، الامر الذي يجعله لا يخشى ربه عز وجل . الآيات (١٥ / ٣٠. (

و بناء على الحقائق الثلاث المتقدمة يمكن القول بان قوله سبحانه : " ان الذين يخشون ربهم الغيب .. " هي الاية التي تفصح بجلاء عن المحور الاساسي في هذه السورة المباركة.

تبارك الذي بيده الملك

هدى من الآيات

لكي يزرع القران خشية الله في القلوب يذكرنا بايات الله و اسمائه ، لان المعرفة أساس الخشية ، فهي التي تظهر للانسان عظمة ربه و انه اهل التقوى ، و تجعله يراه ببصائر قلبه عبر آياته و افعاله ، فمن خلال سنة الموت و الحياة يتحسس خلقه الاشياء ، و ملكه لها، و قهره اياها ، و من خلال النظر في انظمة الكائنات يتجلى له قدرته و حكمته ، و انه ليكل بصره فيعود خاسئا حسيرا دون ان يرى ثغرة في خلق الله و تدبيره ، مما يعزز لديه الايمان به عز وجل كلما كر ببصره و بصيرته في الكائنات . و حيث يسمو البشر بنفســه و عقلهالى آفاق المعرفة يحضر ذلك الغيب امامه حضورا يبعثه على الخشية.

ثم يذكرنا الله بجهنم التي أعدها للكافرين و كيف انها من شدة حرارتها ذات شهيق ، بل تكاد تتفجر من الغيظ غضبا على أعداء الله ، و ان الوسيلة للخلاص منها هو سماع النذر و الايات و استثارة العقل على اثرهما في الدنيا ، لان تقصير الانسان في ذلك هو اعظم الذنوب التي لا يجد مفرا دون الاعتراف بها في الاخرة ، و كيف لا يعترف و تحوطه شهادة الله النافذة ؟!

بينات من الايات

[1]في اول كلمة من سورة الملك يطالعنا اسم من اعظم اسماء الله و هو تبارك و الذي يقول عنه (و عن اسمين اخرين يماثلانه في العظمة) الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " ان الله تبارك و تعالى خلق إسما بالحروف غير منعوت ، و باللفظ غير منطق ، و بالشخص غير متجسد ، و بالتشبيه غير موصوف ، و باللون غير مصبوغ ، منفي عنه الاقطار ، مبعد عنه الحدود ، محجوب عنه حس كل متوهم ، مستتر غير مستور ، فجعله كلمة تامة على اربعة اجزاء معا ليس منها واحدا قبل الآخر ، فاظهر منها ثلاثة اسماء لفاقة الخلقاليها ، و حجب واحدا منها ، و هو الاسم المكنون المخزون بهذه الاسمـــاء الثلاثة التي اظهرت ، فالظاهر هو : الله ، و تبارك و سبحان) و في رواية : و تعالى) لكل اسم من هذه اربعة اركان ، فذلك اثنى عشر ركنا ، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا اليها " (١. (

و ربما بسبب عظمة الاسماء الثلاثة التي اظهرها الله لخلقه نجد ائمة الهدى ينعتون عادة ربهم بها ، فما تكاد تقرا حديثا عن الله الا يقولون فيه : قال الله تبارك و تعالى .. فما هو معنى " تبارك " ؟

إن أهم و اظهر معاني هذا الاسم العظيم الخير الكثير المستمر الذي يتصل في مقام الخالق بتواتر نعمه

على الكائنات و تتابع الائه ، التي لولاها ما استمرت و لزالت(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٤ - ص ١٦٦.

و تلاشت السماوات و الارض و ما بينهما ، كما يتصل في مقام الخليقة بانها في حالة نمو و تكامل مستمر ، لان خالقها يعطيها بركة تلو اخرى ، مما يدل على ان مسيرة الخلق تصاعدية . و ما التوسعة التي يضيفها الخالق للسماوات حينا بعد اخر و التي اشار اليها بقوله : " و السماء خلقناها بايد و انا لموسعون (1) " الا مظهر لبركات الله ، و في القرآن أشارات الى هذا المعنى اليك بعضها :قال تعالى و هو يتحدث عن الرسالة ، " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " (٢) ذلك لان الفرقان نعمة تتواصل و خير يستمر و عطاء لا ينقطع من الدنيا و الى الاخرة . اذا فهو تجعل لاسم ربنا " تبارك " ، و قال في معرض حديثه عن انشاء الانسان من طور الى آخر حتى سواه كاملا بنعمة العقل : " ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين " (٣) ،و قال في سياق بيانه لنعمه التي في السماء و بركاته : " تبارك الذي جعل في السماء بروجا و جعل فيها سراجا و قمرا منيرا " (٤. (

و هكذا يكون اسم " تبارك " الركن الاخير من اربعة اركان جعلها الله لاسمه الاعظم ، و هو يشير الى صفات فعله ، الفعال لما يريد ، الجواد ، الكريم ، المنان ، المتفضل ، الوهاب ، الخالق ، البارىء ، المصور ، و هو صانع كل مصنوع ، و خالق كل مخلوق ،و رازق كل مرزوق ، و مالك كل مملوك ، و راحم كل مرحوم ، و ..و..

أما الأركان الثلاثة فان واحدا منها مخزون عند رب العزة ، بينما الثاني هو : (الله) الذي يشير الى صفات الذات ، و الثالث هو : (تعالى او سبحان) الذي يشير الى صفات الجلال.

(1)الذاريات / ٤٧.

(2)الفرقان / ١.

(3)المؤمنون / ١٤.

(4)الفرقان / ٦١ (و لقد مر في مطلع سورة الفرقان تفصيل في بيان هذا المعنى من تبارك فراجع. (

]تبارك الذي بيده الملك[

فالملك الحقيقي بيده وحده تعالى ، لانه الباقي بعد فناء كل شيء ، و لانه وحده القادر على التصرف في ملكه بصورة مطلقة ، اما ما يملكه الخلق فمالكيتهم له محدودة بقدر ما منحهم الله ، فمتى شاء زاده او نقص منه او سلبه و حوله الى غيرهم.

و هذه الاية تفتح افاقنا على وجود اوسع من الارقام الفرضية التي يقدرها العلماء و الفلكيون ، بل اوسع مما للانسان المقدرة على تخيله مهما ذهب بعيدا ، و انى له تصور ملك الله و هو بيد قادرة على كل شيء و تمده بالبركة بعد البركة ؟!

]وهو على كل شيء قدير[

و كفى دلالة على ان الملك بيده تعالى و انه صاحب القدرة المطلقة ان ينظر الانسان الى الوجود من حوله و ما فيه من ايات القدرة و العظمة ، و كيف انه مسير وفق نظام دقيق وضعه الله له لا يخرج عنه ، و لا ترى فيه ثغرة او نقصا او فطورا.

ولقد وردت رواية عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - في بيان جوانب من معاني اسماء الله الحسنى نذكر بعضها للفائدة : " و لما تسمى بالملك اراد تصحيح معنى الاسم لمقتضى الحكمة ، فخلق الخلق و امرهم و نهاهم ليتحقق حقيقة الاسم و معنى الملك (و يظهر من هذه

الكلمات ان الشرائع من مظاهر اسم الملك الالهي) و الملك له وجوه اربعة : القدرة (على التصرف في الملك بمطلق التصرف) ، و الهيبة (و هي انعكاس لقـــدرة المـالك علـى المملوك) ، و السطوة (بأخذ المملوكين بالقوة و البطش حين المخالفة . فسبحان من لا يعتدي على اهل مملكته بسطوته (، و الامر و النهي (تشريعيا و تكوينيا) (١. (

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٩٣ ، ص ٤١ - ٤٢.

[2]و من اظهر ايات ملك الله ، و اظهر ايات قدرته : الموت و الحياة ، و قد اختلف في معناهما هنا الى رأيين : احدهما : انهما ظاهرتا الموت و الحياة اللتان تطبعان آثارهما على كل شيء ، سواء الماديتين كموت الانسان و حياة الارض بالزرع ، او المعنويتين كالهدبو الصلاح في مقابل الضلال و الفساد ، و الآخر : انهما اشارة الى تقسيم الكائنات الى اشياء جامدة و ذات حياة.

]الذي خلق الموت و الحياة[

و قد اشار الامام الباقر - عليه السلام - الى المعنيين فقال : " الحياة و الموت خلقان (من) خلق الله ، فاذا جاء الموت فدخل في الانسان لم يدخل في شيء الا و خرجت منه الحياة " (١) و الذي يظهر لي ان الموت هنا بمعنى انفصال الحياة من كائن حي كما تفيد الرواية ، و بما ان معرفة الحياة بصورة اجلى تتحقق بمعرفة الموت فانه قدم الموت على الحياة ، و لا اعتقد ان ما قاله بعض المفسرين و الفلاسفة من ان الموت سابق للحيـــاة صحيحـا ، لان الانسان قبل خلقه و وجوده لا يقال له ميت ، و كيف يقال للعدم ميت ؟! منهنا جاء في الحديث المروي عن الامام الباقر - عليه السلام - : " و ان الله عز وجل خلق الحياة قبل الموت " (٢) و قد يكون تقديم الموت على الحياة في الاية لحكمة اخرى هي ان قدرة الله تتجلى بالموت حيث لا يجد سبيلا لتحديه و لا مفرا من سطوته.

كذلك جاء في الدعاء الماثور : " و قهر عباده بالموت و الفناء " (٣. (

و يضع الله الانسان امام سنة الموت الحتمية ، و فرصة الحياة ، و يذكره في نفس(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٧٩.

(2)المصدر نقلا عن اصول الكافي.

(3)مفاتيح الجنان / دعاء الصباح.

الوقت بالهدف الذي خلق هو كما خلقا من أجله ، الا و هو الابتلاء لاستخراج معدن كل فرد و استظهار خبايا شخصيته ، و مع ان الموت من مفرات الابتلاء الا ان الابتلاء اكثر و اعظم تجليا بالحياة .. بل لا يكون الا اثناء الحياة ، و لذلك تأخر ذكر الحياة على الموت لتكون هذه الكلمة لصيقة بكلمة الابتلاء.

]ليبلوكم أيكم أحسن عملا[

إذن يجب على الانسان و هو يعيش فرصة الحياة ان لا يضل عن هذا الهدف الكبير ، بل يقاوم كل عوامل الانحراف و الغفلة عنه ، و يسخر كل قدراته المعنوية و المادية للفلاح و الفوز فيه ، بان يجعل عمره مزرعة لاحسن العمل.

فما هو أحسن العمل ؟ انه ما اخلص فيه الانسان النية ، و اتقن الاداء ، و تحدى به هوى نفسه و اهواء القوى الشيطانية في مجتمعه ، و كان العمل نفسه من اشرف الطاعات و اعظمها ثوابا عند الله ، هكذا روي عن النبي (ص) انـه قال في تفسير الآية : " أيكـــماحســـن عقـلا ، و أورع عن محارم الله ، و اسرع في طاعة الله " (١) ، و قال : " اتمكم عقلا ، و اشدكم لله خوفا ، و احسنكم فيما امر الله و نهى عنه نظرا " (٢) ، و قال الامام الصادق - عليه السلام " : -ليس يعني اكثركم عملا ، و لكن اصوبكم عملا ، و

انما الاصابة خشية الله ، و النية الصادقة " (٣. (

و قوله : " ليبلوكم " لا يعني انه تعالى لا يعلم بخلقه ، بل ليتحقق ذلك العلم في عالم التكوين و يطلع الناس انفسهم على معادنهم ، و يعقلون جزاء الله انه بعدل لا بظلم ، قال الامام علي بن موسى الرضا - عليه السلام - : " خلق خلقه ليبلوهم

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٠.

(2)المصدر.

(3)تفسير البرهان عند الآية.

بتكليف طاعته و عبادته لا على سبيل الامتحان و التجربة لانه لم يزل عليما بكل شيء " (١. (

و لعل اظهر تاويل لهذه الاية هم الانبياء و الرسل و ائمة الهدى من اهل بيت الرسول ، حيث انهم جميعا كانوا الاحسن عملا بين خلق الله ، فهم - على هذا -ابرز الحكم الالهية للخلق . اليس قد اظهرت البلايا انهم القمم المضيئة ، و الذرى المتسامية ؟ و ان الله مااختارهم و لا اصطفاهم الا بعلم و حكمة ، و ما جعلهم سادات البشر و امراء الصالحين من عباده الا لانهم السابقون في طاعة الله.

و قد قدر بعضهم في الاية كلمة فقالوا : الاصل هو " : ليبلوكم فينظر ايكم " ، و لا أرى لهذا الافتراض و اشباهه مبررا في كتاب الله ، فالآية اعمق بلاغة بوضعها مما لو اضفنا اليها شيئا ، لاننا نفهم منها انه تعالى يصنع الصالحين في رحم الابتلاء ، بل ان خلق الانسان يكون ناقصا لو لم يأت الى الدنيا و يبتلى فيها . و هكذا تكون الآية مظهر من مظاهر اسم " تبارك " حيث تظهر بركة الله بأجلى صورها و شواهدها في الصفوة من عباده المؤمنين الصالحين ، الذي يتجاوزون في سبيله كل الجاذبيات السلبية و العقبات الكاداء ، و يسمون بانفسهم الى آفاق الفضيلة ببركة الايمان به عز وجل و بنعمة العقل التي وهبها لهم ، و لذلك جاء في الاخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - في قوله : أيكم أحسن عملا " قال " : احسن عقلا " (٢. (

و لان الانسان يفلح تارة و يخطىء اخرى وهو يواجه الأبتلاءات ، او يتعنت احيانا على الحق ، جاءت خاتمة الاية لتسوقه نحو اهدافه في مسيرة العمل بمعادلة متوازنة كفتها الاولى الخوف و كفتها الاخرى رجاء رحمة الله و غفرانه ، و ذلك من(١) المصدر.

(2)المصدر.

خلال تعريفه باسمين لربه من اهم ما ينبغي له التعرف عليهما .. فلا يسترسل مع الرجاء المفرط ، و لا يصير فريسة للقنوط.

]وهو العزيز الغفور[

يأخذ بعزته العاصين المذنبين ، و يغفر لمن يتوب ، فمن احسن العمل غفر له ، و من أساء عذبه . ثم اننا نهتدي من هذه الخاتمة ان للابتلاء هدفا اخر غير استظهار معدن الناس ، وهو الجزاء.

[4 - 3]ثم تأخذ الآيات بأبصارنا وبصائرنا الى بديع خلقه الكائنات ، فاننا اذا امعنا النظر فيها و القينا نظرة الى السماء التي تمتد مدى ابعد من ادق النواظير و اعظمها التي اخترعها الانسان بما لا يقدر بشر على تخيله .. و اعظم من حجم السماوات ذلك النظام المتناهي في الدقة الذي يحكمها على ما فيها من المنظومات و المجرات الهائلة ، فسنقرا في الافاق أسماء ربنا الجليل . ان التفكر في خلق الله يوقف الانسان امام حقيقة بديعة هي متانة الحق و التدبير في كل مفردات الكون و اجزائه ، و النظرة السليمة

التي ينبغي ان نسلكها ليست التي تقف بنا عند ظواهر الاشياء ، بل التي تحملنا من الظاهر المشهود الى الباطن المحجوب ، و من معرفة المخلوق الى معرفة الخالق انشأه و ابدع له النظام الذي يسير عليه.

]الذي خلق سبع سماوات طباقا[

قالوا : يعني بعضها فوق بعض ، كما قال الله : " لتركبن طبقا عن طبق " (١) و يبدو ان التطابق هنا بمعنى الدقة في التكامل و التناسق ، من باب المطابقة و الموافقة ضد التناقض و التنافر ، و ان دل ذلك على شيء فانما يدل على دقة(١) الانشقاق / ١٩.

النظام الحاكم في الكون و مدى قدرة خالقه و عظمته ، فانك مهما بحثت و اجهدت نفسك فلن تجد ثغرة و لا عيبا في خلق الله.

]ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت[

أي ثغـرات و تناقضات ، فان التفاوت بمعنى الاختلاف ، و الاختلاف يعني التناقض ، قال تعالى : " افلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا " (١) و قد ذكر اسم " الرحمن " هنا عند الحديث عن نظام الخليقة لانذلك من اعظم تجليات رحمته عز وجل . اترى لو كان النظام الكوني متناقضا هل كانت الحياة ممكنة او ميسرة ؟! كلا .. و اننا مهما تفكرنا في الخلائق فاننا نجدها محكومة بنظام التكامل المتقن ، فالشمس تختلف عن القمر و لكن احدهما يكمل مسيرة الآخر ، بل يقوم بدور محـدد بحـيث لا تنتظم مسيرته الا بـه ، بلـى . قـد نـزعم انهما متنـاقضان لان احـدهمـا (الشمس) نار مشتعلة و الاخر (القمر) نور هادىء و لكن احدهما وجه للثاني.

و اللطيف في التعبير القراني عند هذه الاية انه حدثنا في المطلع عن السماوات السبع ، و لكنه عندما نفى وجود التناقض نفاه عن كل خلق الله ، و ذلك ان الانسان قد يسلم بان خلقا من خلقه تعالى كالسماوات محكم و متقن ، و لكنه يشك في وجود هذه الحقيقة عندما يتفكر في خلق اخر ، فاذا به يتساءل : و لماذا خلق الله الذباب و الميكروبات المهلكة ؟ لماذا الزلازل التي يذهب ضحيتها الالوف من البشر ؟

و لكن عليه اولا : ان يقيس ما يعرفه من خلق البشر بما لا يعرفه ، و ثانيا : ان يعالج شكه باليقين ، فلا يسترسل مع وساوس الشيطان ، بل يظل باحثا عن الحقيقة حتى يكتشفها . لذلك ياتي الخطاب الالهي الكريم يدعو كل فرد فرد من ابناء(١ (النساء / ٨٢.

البشر للنظر و التفكر في خلق الله ، و دراسة الظواهر المختلفة ، لاننا كلنا مسؤولون عن معرفة الحقيقة و الوصول الى درجة اليقين من الايمان بالله ، و يقول:

]فارجع البصر هل ترى من فطور[

و الى جانب البصر ينبغي ان يعمل الانسان بصيرته ايضا ، فان العين نافذة القلب على الحياة . و لعل الفرق بين كلمتي " تفاوت و فطور " ان التفاوت يكون بين خلق و خلق اخر ، و هو منفي لان كل خلائق الله يكمل بعضها بعضا فهي منسجمة مع بعضها ، اما الفطـور فيكون في ذات الخلق الواحد بين اجزائه ، و ليس في خلق من خلقه تعالى ثغـرة.

و انه لعجيب قول ذلك الدكتور الالماني بخنر : " بما اننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب من ابعد نقطة اكتشفناها في الفضاء و الى اقرب جرم الينا ، لم نجدها شاذة عن النظام الكوني ، فليس لنا الحاجة الى افتراض وجود الله " (١ . (سبحانه الله كيف عمي قلبه و لم يعرف ان وجود النظام دليل على من نظمه و هيمن على اجرائه ؟!

نعم لو ثمة تناقض او تنافر في نظام الكون لامكن افتراض ان الصدفة هي التي اوجدته ، او ان هناك الهة متعددة شركاء في الربوبية يتناقض الكون بتناقض ارائهم و تدبيرهم ، و لكننا لا نرى شيئا من ذلك ، فما هي الا حقيقة التوحيد الخالص اذن . و ليست مشكلـــة الدكتور بخنر الا واحدا من امرين : فاما ان يكون جاحدا معاندا لم يرد التسليم للحق ، و اما ان يكون قد اخطا في منهج البحث و الدراسة لظواهر الكون ، بحيث انه جعل المزايا العلمية المجردة هدفا من بحثه فلما وجدها توقف عندها ، و هذا خلاف المنهج السليم الذي يامر بهالعقل و الدين

(1)الفكر الاسلامي مواجهة حضارية - للمؤلف / ص ١٨٨.

و الذي يدعو الى تجاوز ظواهر الامور الى بواطنها.

ان الانسان لا يستطيع ان يصنع شيئا الا و فيه ثغرة ، و لكنك لا تجد و لا بعضا من فطور في خلق الله ، و انى يكون ذلك و هو الرحمن ، الذي لا يريد لخلقه عناء و لا نصبا ؟ اترى لو كانت الشمس تتغير من موقعها هل نستطيع العيش على هذا الكوكب ؟! و هل يمكن لنا الحياة على الارض لو انعدم الاوكسجين او تلاشى قانون الجاذبية ؟! كلا .. اذن فذلك من رحمة خالقنا و تلطفه بنا سبحانه.

بلى . قد ينظر الانسان الى خلــق الله و يتفكــر فيه فيزعــم ان وجــود اللوزتيـن - مثلا - ثغرة في خلق الانسان ، الأمر الذي دعى بعضهم قبل سنين معدودات الى اقتلاعهما بعيد الولادة ! او يسمي عضوا داخله بالزائدة الدودية ، و تسود هذه الافكار بين الناس بلفي الاوساط العلمية ايضا ردحا من الزمن ، و لكنه بعد ان يتقدم العلم يكتشف خلاف تلك المزاعم ، و يتبين له ان اعتقاداته السابقة كانت ظنونا سببها الجهل و التسرع في الحكم . لذلك يدعو القران للتفكر و النظر في الامور بامعان مرات عديدة:

]ثم ارجع البصر كرتين [

و اكثر من ذلك ، و ابحث بكل ما تستطيع عن تناقض و ثغرات في خلق الله ، بل افترضه ذلك ثم حاول ان تثبت وجوده ، فهل ستجد الى ذلك سبيلا ؟ كلا .. و انما ستصل الى حقيقة واحدة هي التي اشار اليها القران : " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " عند تفكركفي اي خلق من خلقه تعالى ، حتى.

]ينقلب إليك البصر خاسئا و هو حسير[

و الخاسىء المطرود المبعد ، و تقال هذه الكلمة للكلب و الخنزير ، قال صاحب المنجد : الخاسىء من الخنازير و الكلاب المبعد المطرود ، لا يترك ان يدنو من الناس (١) و كان الانسان حينما يجول ببصره يبحث عن عيب في خلق الله يطرد بلسان حال الخلائق ، و كأنها تقول له : اخسا اننا خلق الرحمن الحكيم العليم فلن تجد فينا نقصا ، حيث يقال خسأ و خسوء البصر : كل واعيا (٢ (، وهذا المعنى قريب ايضا لان الباحث سوف يتعب و يشقى دون العثور على عيب ، و كيف يعثر على شيء ليس بموجود ؟! و يؤيد هذا القول قوله تعالى " : ينقلباليك البصر " فهو يتعب و يكل من النظر الى الخلائق فلا يعود الى ذلك مرة اخرى .. بل يرجع صاحبه منهكا دون نتيجة.

اما الحسير فقيل : المحقر ، و قيل : من اشتدت حسرته و ندامته على امر فاته (١) ، وهما محتملان الصحة . . و هناك معنى قريب جدا من الاية هو العاري من الحسر : الرجالة فـي الحرب يحسرون عن وجوههم و رؤوسهم ، او يكونون لا درع عليهم ، و يقال : ارض عارية المحاسر اي لا نبات فيها (٤) و ان الانسان ليعود ببصره و بصيرته من رحلة البحث عن التفاوت او الفطور في خلق الله و هما مجردان عاريان من اي دلالة و نتيجة تثبت ذلك.

قال أمير المؤمنين (ع " : (فمن فرغ قلبه ، و أعمل فكره ، ليعلم كيف اقمت عرشك ، و كيف ذرات خلقك ، و كيف علقت في الهواء سماواتك ، و كيف مددت على مور الماء ارضك ، رجع طرفه حسيــرا ، و عقله مبهورا ، و سمعه والها ، و فكره حائرا " (٥. (

(1)المنجد مادة خسا.

(2)المصدر.

(3)المصدر - مادة حسر.

(4)المصدر.

(5)نهج البلاغة / خ ١٦٠ - ص ٢٢٥.

و لنا في الاية الرابعة وقفة عند معنى " كرتين " ، فلماذا قال الله : " ثم ارجع البصر كرتين " ؟ و الاجابة:

- 1للتأكيد على ضرورة ان يركز الانسان في بحثه و دراسته ، فلا يحكم على شيء من نظرة واحدة عابرة ، انما يجب ان يدرس اموره مرات عديدة ثم يقول رأيه ، فقد يكون في مرته الاولى غفل عن بعض الجوانب و المعطيات ، او لم يفكر تفكيرا كافيا.

- 2ان المعرفة السليمة قد لا تتاتى الا بالمقارنة بين الاشياء ، فينبغي للدارس ان يراجع ببصره و فكره مرتين ، مرة يرجع الى ما يريد معرفته و التحقيق في شانه ، و اخرى يرجع الى ما يشابهه او يناقضه للمقارنة.

- 3ان دراسة الشيء دراسة شاملة تتم بدراسة جانبين فيه :الجانب المادي الظاهر ، و الجانب المعنوي الباطن ، و يحتاج الباحث ان يكر مرة ببصره لملاحظة الجانب الاول ، و كرة اخرى يرجع بها الى الجانب الثاني منه.

- 4لكي يرقى الانسان في معارفه سلم التكامل فهو بحاجة الى اعادة النظر في ما توصل اليه سابقا بهدف نقده او تكميله من خلال نظرة تفكر جديدة ، لاحقة بعد السابقة و هكذا.

[5]و مما يؤكد حاجة الانسان الى اعادة النظر في معارفه ان هناك جملة من الافكار و الاعتقادات الخاطئة (الاساطير) ينطوي عليها فكره لا تتصحح الا بكرات اخرى جديدة يرجع فيها البصر و البصيرة ، و من بينها تصوره المتصل بنظام السماء انه فيه ثغرات تنفذ منهاالشياطين الى الملا الاعلى فتطلع على اقدار الله ، و زعمه بان النجوم هي مراكز الاقدار و ان لكل فرد نجما يخصه اذا مات سقط ، و على ذلك فسروا ظاهرة الشهب و النيازك ، و مضى القول : (نجمي لا يوافق نجمك) . و القران يشير الى تلك التصورات و يصححها حيث يقولتبارك و تعالى:

]و لقد زينا السماء الدنيا بمصابيح[

و هي النجوم التي تعتبر لاهل الارض قناديل الليل ، اذ تهتدي بها السفن التي اضلتها العواصف عن مسارها و تضيء درب الراعي الساري بغنيماته ليلا في صحراء بعيدة ، كما تناغي المستلقي تحت السماء في الليالي الصافية . و لكن متانة الخلقة تربط بين تلك الزينة والاضاءة و بين حراسة السماء في تلك النجوم ، فهي كما تزين السماء و تضيء لاهل الارض كذلك تقصف الشياطين رجما فلا يستطيعون العبث بمقدرات الكون ، و لا حتى استراق السمع لمعرفة تلك المقدرات.

]و جعلناها رجوما للشياطين[

و هذه الاية تنسف زعم الجاهلين بان الشياطين قوى خارقة و عالمة بأقدار الله لانها تخترق السماوات و تصل الى الاعلى ، الامر الذي جعل البعض يشرك بهم ، و يتبعون الكهنة باعتبارهم وسائط بين الشياطين و بين الادميين ، فان النجوم ليس كما يتصورون بل هي زينة ومصابيح و رجوم ، و ان الشياطين ليسوا كذلك لانهم يرجمون.

و لعل هذه الاية تؤكد متانة النظام الكوني و هيمنة الله من زاويتين:

الاولى :ان مانراه من الشهب و النيازك ليست مجرد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم و الشموس في الفضاء نتيجة عوامل و قوانين فيزيائية بحتة و من دون هدف ، انما تنفلت من مواقعها بارادة الله ولاهداف محددة من بينها رجم الشياطين.

الثانية :ان النظام الكوني نظام متقن ، و هو بالرغم من وجود العوامل المضادة التي تحاول خرقه كالشياطين فانها لا تؤثر في مسيرته و نظمه ، و ان مصير كل محاولة لخرقه هو الفشل . و هذه الحقيقة تعطي الانسان الاطمئنان و الامن حيث يشعر انه يعيش في كون منظم ومحروس.

و يؤكد ربنا في خاتمة الآية بان ما هو اعظم من جزاء الرجم الدنيوي للشياطين هو ذلك العذاب المعد لهم في الآخرة.

]و أعتدنا لهم عذاب السعير[

و يدل هذا المقطع على ان الشياطين مخلوقات مكلفة و مختارة و مسؤولة حيث تجري عليهم سنة الجزاء.

[6]و بعد ان انتهى الفصل الاول الذي استهدف زرع الخشية من الله بالغيب من خلال معرفته بالشهود و من خلال تعريفه نفسه بالآيات ، يبدا السياق القراني فصلا اخر لا ينفك عن الاول ، بل يلتقي معه في ذات الهدف ، حيث تذكرنا الآيات التالية بعذا جهنم و جزاء اللهللكافرين.

]و للذين كفروا بربهم عذاب جهنم[

ان الكفر بالله من قبل الانسان هو الاخر كعمل الشياطين خرق لنظم الله مما يستوجب العذاب . و لهذه الاية صلة متينة بالاية الثانية في السورة التي بينت بان حكمة الخلق استظهار معدن الانسان بالابتلاء ، و الكفر و العذاب صورة لفشل الانسان في القيام بدوره و واجبه الذي خلق من اجله ، فيتردى في الجحيم.

]و بئس المصير [

و المصير من الصيرورة اي ما يصير الانسان نفسه اليه.

و يلاحظ في هذه السورة تأكيد الله على اسم الرحمن اربع مرات (في الآية الثالثة ، و التاسعة عشر ، و العشرين ، و التاسعة و العشرين) ، و كانه تعالى يريد ان يؤكد بانه انما خلقنا ليرحمنا لا ليعذبنا و لكننا نحن الذين نختار العذاب لانفسنا بارادتنا حينمانكفر به ، فان ما يصير اليه الانسان من العقاب نتيجة كفره لا لان الله سبحانه يريد له بئس المصير .. و بماذا يكفر و يمارس الكفر ؟ انه يكفر بخالقه و رازقه و واهبه الحياة و كل ما يملك ، و يمارس عناده له بنعمه .. بنعمة المال و القوة و الصحة و السمع و البصرو .. و .. ؟ و لعل هذا ما توحي به كلمة " بربهم " اي به و بوسيلة نعمه.

[9 - 7]و يفصل القرآن القول في موضوع العذاب مبينا بعض صفات جهنم و احوال اصحابها حينما يلقون فيها ، لعلنا نتحسس ذلك الغيب ، و نخشى سطوة الله .. فما هي صفات جهنم ؟

اول صفة لها انها - كما الحفرة او الوادي - ذات قعر سحيق ، و قد يكون اول عذاب يواجهه أهل جهنم فيها هو الالقاء من الاعلى الى الاسفل ، فعن الامام الصادق - عليه السلام - عن الرسول - صلى الله عليه واله - عن جبرئيل قال:

"و إن جهنم اذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاما " (١) و يعلم الله كم هم يقاسون في هويهم من

ألوان العذاب ؟!

]اذا ألقوا فيها[

و بناء الفعل هنا للمجهول يدل على انهم يلقون مكرهين في النار ، و في(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٤٧٧ .

النصوص اشارة الى ذلك ، قال الامام الصادق - عليه السلام - : " و الذي نفسي بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط " (١. (

]سمعوا لها شهيقا[

و من انواع العذاب ما يسمعه الكافرون حين هويهم في جهنم من عظم شهيقها . و الشهيق هو اخذ الهواء الى داخل الرئة ، و كأن النار يومئذ تعطى قدرة هائلة على الجذب فتسحبهم الى جوفها بشهيق ذي صوت مرعب اعظم بملايين المرات من الرعد القاصف.

وصفة ثالثة لجهنم انها تفور.

]و هي تفور[

و للفوران معنيان : احدهما : الغليان بارتفاع ما في الاناء لشدة الحرارة ، و في المنجد : (فارت القدر : غلت و ارتفع ما فيها) (٢) و جهنم يومئذ تتداخل السنتها و تتموج بما يشبه فوران الماء في القدر لشدة حرارتها ، و الثاني : الغضب ، و يقال فار فائره ايثار ثائره و هاج غضبه (٣) و كلا المعنيين مجتمعان في هذه الكلمة القرآنية ، فان النار يومئذ تفور كالقدر غضبا.

]تكاد تميز من الغيظ[

إنها أعظم من ملايين القنابل النووية التي تنفجر مرة واحدة ، حتى تكاد(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٨ نقلا عن مجمع البيان.

(2)المنجد مادة فور.

(3)المصدر.

تنفجر و يمتاز بعضها عن بعض لولا مشيئة الله ! و الغيظ الذي يكاد يفجرها هو انعكاس لغضب الله على الكافرين في واقع جهنم ، و الاية توحي بان النار لها شعور يوم القيامة ، و ليس من شيء يدعوها للغيظ اعظم من عصيان اصحابها لربهم عز وجل!

و يأبى الله سبحانه الا ان يظهر عدالته حتى لاولئك الذين تسير بهم الاقدار الى قعر جهنم فاذا بملائكته يسألونهم عن سبب وصولهم الى هذا المصير البئيس ، لكي لا يدخل النار احد و في قلبه ذرة من شك بانه سبحانه قد ظلمه ، و لكي يصير اهل النار الى العذاب و همفي اعظم ما تكون الملامة لانفسهم على ما فرطوا في جنب الله و في الاعداد لتلك الدار الآخرة.

]كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير]يحذركم من معصية الله و من هذه النار.

]قالوا بلى قد جاءنا نذير[

فالحجة اذن بالغة عليهم ، و اسباب الهداية الى الحق و الوقاية من العذاب و أهمها المنذر و الانذار كانت

متوافرة . فعن الامام الصـادق - عليه السلام - انه سأله رجل : لاي شيء بعث الله الانبياء و الرسل الى الناس ؟ فقال : " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، و لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير و نذير ، و ليكونوا حجة الله عليهم . الا تسمع الله عز وجل يقول حكاية عن خزنة جهنم ، و احتجاجهم على اهل النار بالانبياء و الرسل : " الايتين. (1) "

و حيث إنتفى التقصير عن الله المعذب ثبت على الطرف الاخر و هم الكافرون(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨١.

المعذبون ، فما هو خطؤهم الفظيع الذي ادى بهم الى بئس المصير ؟ انه التكذيب بالنذر.

]فكذبنا و قلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير]و في الآية بيان لثلاثة ذنوب كبيرة اقدم عليها الكفار:

الاول : تكذيبهم الحق في داخل انفسهم و عدم استجابتهم له.

الثاني :انهم بادروا للهجوم المضاد ضد القيم الرسالية التي جاء بها المرسلون و ائمة الحق محاولين سحب الشرعية (انها من عند الله) عنها ، بتصنيفها في خانة القيم البشرية للتحلل من مسؤولية الالتزام بها ، و ذلك ان الملزم للانسان هو الحق الذي يتصل باللهفقط.

الثالث : اتهام النذر المصلحين بألوان التهم في محاولة لاسقاط شخصيتهم و ضرب قيادتهم في المجتمع ، و من أبرزها اتهامهم بالضلالة من خلال قيمهم الفاسدة و ثقافتهم الخاطئة.

و كلمة " قلنا " تدل على انهم يحاربون الرسالات و القيادات الرسالية بالاعلام المضلل الذي يحكي ثقافتهم و مواقفهم الجاهلية ، و الانسان قادر على القول للآخرين و التعبير عما يريد بوسائل شتى ، كاللسان و الفن و..

[11 - 10]و غاب عن الكفار انهم هم الضالون ، و ان ورائهم يوما تنتصر فيه الحقيقة و تظهر رغم انف اعدائها ، يوما يفصل فيه القول ، و يخسر هنالك المبطلون ، يوما يشهد فيه الانسان على نفسه و يعترف بذنبه.

]و قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير]فالانسان إذن يحدد موقفه و مصيره في الدنيا ، فهو الذي يختار الحق او الباطل ، و ينتمي الى حزب الله او حزب الشيطان ، و بالتالي يسلك طريق الجنة او النار ، و هذه الحقيقة تكون في اجلى صورها يوم القيامة اذ يلاقي كل واحد مصيره الذي هو نتيجة مباشرة لاختياره و عمله في الدنيا ، و كفى بهذا البيان الالهي داعيا للناس الى التفكر في مستقبلهم الابدي.

وفي هذه الآية اشارة لطيفة تتصل بمعارف الانسان ، فهو اما يكون تابعا لعاقل فيسمع منه ، و اما ان يكون بنفسه قادرا على الاهتداء الى الحق و الاجتهاد في المعرفة فيعقل ، و اما ان يكون ضالا كهؤلاء الكفار الذين كانوا يسمعون و لا يعقلون ، بعلمهم بهذه الحقيقة في الدنيا و باعترافهم بها في الآخرة . و اشارة اخرى تهدينا الى انهم كانوا شيئيين يقيمون الامور بالمظاهر المادية ، فكانهم يعيشون في الدنيا بابصارهم فقط و بطونهم و .. اما الاسماع و العقول فانها معطلة ، و الحال ان قيمة الانسان بعقله .. ولو انهم كانوايستفيدون من عقولهم لما ضلوا ، لان العقل يوافق الحق (١٠٠ %) قال الامام الصادق - عليه السلام " : - من كان عاقلا كان له دين ، و من كان له دين دخل الجنة " (١) و قال - عليه السلام - : " العقل ما عبد به الرحمن ، و اكتسب به الجنان " (٢) و قال الامام علي - عليه السلام - : " هبط جبرئيل على ادم - عليه السلام - فقال : يا ادم اني امرت ان اخيرك واحدة من ثلاث فاخترها و دع اثنتين ، فقال له آدم : يا جبرئيل و ما الثلاث ؟ فقال : العقل و الحياء و الدين ، فقال آدم - عليه السلام - : اني قدأخترت العقل ، فقال جبرئيل للحياء و للدين : انصرفا و دعاه ، فقالا : يا جبرئيل انا أمرنا ان نكون مع العقل حيث كان ، قال : فشأنكما ، و عرج " (٣) و قال رسول الله(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٢.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

-صلى الله عليه وآله - : " انما يرتفع العباد غدا في الدرجات و ينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم " (١) و ما كان الكفار يعقلون فهم لا ينالون شيئا ، بل يتسافلون في دركات العذاب . و ان اغفال الانسان لدور العقل لهو اعظم الذنوب ، لانه الذي تتفرع عنه كل معصية و خطيئة ، و هذا ما يكتشفه اهل النار يوم القيامة.

]فاعترفوا بذنبهم[

و كيف لا يعترف البشر لله بذنبه و له الحجة البالغة عليه ، و كل شيء يشهد عليه حتى جوارحه ؟! و ربما نهتدي من كلمة " فأعترفوا " - باضافة ايحاءات السياق - ان الكفار يرفضون الحق و هم يعلمون في قرارة انفسهم انهم يختارون الباطل الا انهم لا يعترفون بذلك في الدنيا.

]فسحقا لأصحاب السعير[

اي ليكن جزاؤهم ان يسحقوا بالعذاب و بالاقدام ،و السحق : هو دق الشيء اشد الدق (٢) حتى يصير جزئيات صغيرة في مثل الرمل و الطحين او انعم من ذلك ، و قيل : هو الابعاد عن رحمة الله (٣) و المعنيان متحدان لان السحق في الاخرة بالمعنى الاول نتيجة لطرد الله الكافر من رحمته.

[14 - 12]و يصل السياق الى محور السورة حيث التاكيد على خشية الله بالغيب ، فان الايات التي عرفتنا على جانب من عظمة ربنا في مطلع السورة ، و هكذا التي حدثتنا عن عذاب الكافرين و بعض احوالهم يوم القيامة ، و كذلك بقية الآيات حتى خاتمة سورة الملك و التي تنسف افكار الشرك بالله و مزاعم المشركين..

(1)المصدر.

(2)المنجد / مادة سحق.

(3)المصدر.

انها كلها تهدف رفعنا الى مستوى خشية ربنا بالغيب.

]ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة[

لما سبقت منهم من سيئات و خطيئات.

]و أجر كبير[

و ذلك لان خشية الله بالغيب من الحسنات الكبيرة التي تذهب السيئات و تضاعف الصالحات . فما هو معنى الخشية بالغيب ؟

الجواب انها خوف الله بالمعرفة الايمانية ، و ليس نتيجة العوامل المادية التي يعانيها الانسان ، و يلمس اثارها في الدنيا .. فتارة يلتزم الواحد منا باحكام الله و يطبق رسالته لان الحكم بيد اوليائه الذين يجرون حدوده و احكامه ، فهو لا يقدم على السرقة و لاالزنى لان الحاكم سوف يقطع يده و يجلده او يرجمه بالحجارة ، و تارة يستجيب لله لمعرفته و ايمانه بالاخرة ، و انه تعالى يعذب العصاة بالنار ، فاذا بذلك

العامل الغيبي الذي لا يراه ببصره و لكنه يعاينه ببصيرته يعكس الخوف من الله في كل كيانه.

و من المعارف التي تبعث في النفس روح الخشية من الله هي معرفة الانسان برقابته المطلقة تعالى على كل شيء و علمه به ، لا فرق بالنسبة اليه بين السر و الجهر ، لان هذه المعرفة تجعل من الغيب حاضرا في وعي البشر و سلوكه .

]و أسروا قولكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور]أي مطلع على النوايا الباطنية التي تنطوي عليها نفوس الناس ، و تصدر عنها الاقوال و الافعال في مرحلة متأخرة عن تكونها . و هذا المستوى من المعرفة اذا سمى إليه الانسان فانه ليس لا يقترف الذنب في المجتمع و لا بعيدا عن اعين الناس وحسب ، بل لا ينجس صدره بنية سوء أبدا ، لانها هي الآخرى يعلمها الله . و هذه اكبر ضمانة للالتزام بالنظام ، و قد اثبتت الاحصاءات ان ثمانين بالمائة من حوادث الاجرام التي تقع في العالم ناشئة من اعتقاد المجرم بانه قادر على الفلت من الرقابة و الجزاء ، لان الحاكم مهما بلغ فهو بشر مثله محدود القدرات اطلاعا و مجازاة ، و لكن هل يصدق ذلك بالنسبة الى الله سبحانه ؟ كلا .. و القرآن ينسف ادنى تصور بهذا الاتجاه اذ يقول متسائلا:

]ألا يعلم من خلق و هو اللطيف[

الذي ينفذ علمه الى أدق الاشياء و اخفاها.

]الخبير[

العالم علما شاملا و كاملا بخلقه ، و اذا كان الخبير من البشر يعلم بدقائق ما يصنعه من الاجهزة فكيف بالخالق المطلق العلم ؟ ! اذن فلا تحاول ايها الانسان ان تخادع نفسك ، و لا تسمع لنداء الشيطان الذي يحاول تغريرك و الايحاء لك بانك بعيد عن الانظار فتمارسالخطيئة.

وهناك رواية في معنى " الخبير " ماثورة عن الامام علي بن موسى الرضا - عليه السلام " : - و اما الخبير الذي لا يعزب عنه شيء و لا يفوته ، ليس للتجربة و للاعتبار بالاشياء ، فعنـد التجربـة و الاعتبار علمان لولاهما ما علم ، لان من كان كذلك كان جاهلا (قليل العلم و محدود المعرفة) ، و الله لم يزل خبيرا بما يخلق ، و الخبير من الناس المستخبر عن جهل المتعلم ، فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنى " (١) فنقول : ان الله خبير كما نقول ان فلانا من الناس خبير ، فالتسمية واحدة ، و لكن معنى خبرةالله يختلف عن معنى خبرة الناس.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٣.

إن الكافرون إلا في غرور

هدى من الآيات

ان الفلسفات الشركية التي تربط ظواهر الكون و نظمه بالقوى المزعومة من دون الله هي المسؤولة عن مشي الانسان مكبا على وجهه ، ضالا عن الحقيقة ، و هي التي تحجب عنه نور الخشية من ربه ، و تصنع في نفسه هالة من الأمن و الاطمئنان الكاذب ، الأمر الذي يسوقه نحوممارسة المعصية و مخالفة النظام الحق دون وازع او ضابط ، و يسقط من عنده قيم الشرائع و العهود . أوليست الخشية روح الالتزام بالنظام ؟

بلى . ان الشرك و الاعتقاد بالانداد هو الذي يترك الانسان لا مسؤولا ، فاذا به لا يخشى من مخالفة الحق ، و لا يرى ضرورة للشكر على النعم ، لانه يزعم ان الله خلق الوجود و قدر نظامه ثم فوض الى الناس امورهم ، او فوضه الى الانداد ثم اعتزل ، او ان هناك قوىالشركاء التي تنصرهم من دونه تعالى فتقاوم قدرته و مشيئته سبحانه ، فإذا منع رزقـه عنهم رزقتهم ، وإذا غار ماؤهم جاءتهم بماء معين غيره .. و يعالج القرآن هذا الضلال (الغرور و العتو و النفور) ببصيرتين:

الاولى :بصيرة التوحيد ، و ان الله وحده الذي بيده الأمر و القدرة التامة ، و يذكر القرآن بهذه الحقيقة

بصورة تكون فيها آيات الدرس الأخير من سورة الملك تفسيرا لأية محورية في السورة هي الآية الاولى :
" تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. "

الثانية : حقيقة البعث و الجزاء ، ذلك ان جزء كبيرا من شرك الانسان و عدم إحساسه بالمسؤولية نتيجة لكفره بالآخرة او شكه فيها ، فلا بد ان يعلم بانه منشور محشور . و عندما يذكر القرآن بهذه الحقيقة يعيدنا الى أية محورية أخرى في السورة هي الآية الثانية:
"ليبلوكم أيكم أحسن عملا. "

بينات من الآيات

[15]لم يكن الناس يعرفون في عصر نزول القرآن أبعاد نعمة الحياة على الارض كما يعرفون اليوم ، و ان الارض تختلف من جهات كثيرة عن سائر الكواكب الاخرى من حيث القوانين الطبيعية التي تحكمها ، فجاء القرآن ليفتح أفقهم على معرفة هامة و هي : ان الكوكب الذييعيش على وجهه كسائر الكواكب الأخرى يشبه كرة تدور في هذا الفضاء الرحب و لكنه يختلف عنها في كونه مهيأ من جميع الجوانب لحياته عليه . و كان حري بالانسان وهو ينشد غزو الفضاء و ركوب الكواكب الأخرى ان ينطلق من هذه الآية الكريمة.

اما هدف القرآن من بيان هذه الميزة للارض التي نعيش فوقها فليس ان يضيف الى العلم معرفة و حسب ، بل هنالك هدف أبعد من ذلك .. و من دونه لا تكون معارف البشر ذات قيمة حقيقية ، ألا وهو تعريفه بربه ، فانه لو تفكر مليا لعرف ان توفير الارض لحياة البشر آية منآياته عز وجل . بلى . ربما يفكر البعض في ذلك و لكنك تجدهم يضلون باجابات لا رصيد لها من الصحة فاذا بهم يشركون بالله ، فاما القدماء فكانوا يتصورون ان الاصنام او الشياطين هي التي صنعت ذلك ، و اما المعاصرون فقالوا انها الصدفة !! ولكن القران يذكر الانسانبالحقيقة التي اركزت في فطرته ، و يجد اصداءها حينما يستنير عقله ، فينقذه من ضلالات الجهل و الشرك ، إذ يقول:

]هو الذي جعل لكم الارض ذلولا[

اي مذللة ميسرة لكم كالحصان المستراض او البقرة المستالفة ، حيث جعل نظامها و ما فيها لصالح الانسان طعما و شرابا و هواء و زينه و ما اشبه مما يحتاجه و ينفعه كالليل و النهار و الشمس و القمر .. الخ.

و تذليل الله للارض انعكاس لاسم " تبارك " حيث ان ذلك من بركته و رحمته.

]فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه[

و قوله تعالى : " فامشوا " ليس مجرد امر تشريعي يوجب السعي ، بل هو أمر تكويني ، إذ لو لم يقدر الله المشي لما كان أحد يستطيع المشي حتى في مناكب الارض . و المنكب مفرد مناكب وهو مجتمع رأس الكتف و العضد ، و ناحية كل شيء و جانبه ، يقال : سرنا في منكب من الارض او الجبل اي في ناحيته ، و المنكب من الارض الطريق (١) وكان القرآن حينما امر بالمشي في مناكب الارض شبهها(١) المنجد / مادة نكب.

بالانسان ، رأسها الجبال و مناكبها السفوح و السهول و ما دون القمم العالية الوعرة التي يصعب المشي فيها . و حينما نمشي فاننا ليس فقط نحصل على الرزق بل و نزداد معرفة ايضا .و هناك علاقة بين فعلي الأمر " امشوا " و " كلوا " ذلك ان رزقنالا يمكن ان يمشي الينا بل لابد ان نسعى اليه بانفسنا ، و هذه هي القاعدة السليمة التي يجب علينا ان نتبعها في الحياة لنمارس مسؤوليتنا فيها و نصل الى اللقمة الحلال و المرضية عند الله ، إذن فليس في الدين دعوة للخمول و الكسل و التطفل على الاخرين ، كما يصورهالبعض ، انما هو صورة لسنن الحياة الواقعية التي لا يمكن لاحد الوصول الى اهدافه و اغراضه إلا من خلالها ومن أهمها سنة السعي و الكدح.

ثـــم تنسف الآية الكريمة في خاتمتها كل القيم المادية التي تفسر الحياة تفسيرا شيئيا ، و تحصر مسؤولية الانسان في الوجود في مساحة ضيقة و تافهة ، فاذا بها تنزل به الى واد سحيـــق و

طموحـات ضالة ، و كأنه يشبه الانعام خلق ليأكل ليعيش بلا هدف ! كلا..
ان الانسان له ان يتعلم من الحياة و الطبيعة من حوله درسا اساسيا ، فلينظر الى ما حوله هل يجد شيئا خلق بلا هدف ؟ فما هو هدفه ؟ دعه يبحث عن هدفه فانه سيجد هدفه أعظم من مجرد الأكل و الشرب و التلذذ ، كلا .. ان له تطلعا أسمى و طموحات اكبر .. مثلا يتطلع كل انسان لملك الارض و الخلود في الحياة هل يتحقق له ذلك في هذه الحياة ؟ كلا .. و هكذا يهتدي الانسان الى الايمان بالاخرة ، و بعبارة موجزة : سيواجه الحقيقة التي تطرحها الآية في خاتمتها:

]و إليه النشور [

و تنطوي هاتان الكلمتان على مجمل حقائق الايمان حيث الايمان بالاخرة ، و التسليم لله عز وجل نفسيا بالايمان و عمليا باتباع رسله و مناهجه . و عندما نتأمل في ترابط أجزاء الآية الكريمة ببعضها نكتشف حقيقة هامة و هي ان على الانسان ان يضع هدفه و يفكر في مستقبله الأبدي و هو يمارس الحياة بكل صورها ، أكلا و شربا و سعيا في طلب الرزق . و من ضرورة الأكل و الشرب الحياتية يجب عليه ان يتحسس حاجاته و هو يمضي الى مصيره ، و من ارتكاز الحصول على الرزق على السعي (او بتعبير الآية المشي) يجب ان يعرف بان وصوله الى غاياته في الاخرة هو الاخر يرتكز على السعي ، و ان خير الزاد في ذلك السفر الطويل لهو التقوى.

الأكل و الرزق في الآية أعم من ظاهرها ، فالأكل صورة من صور الاستهلاك ، و الرزق هو عموم ما يحتاج الانسان اليه ، و الآية بمجملها توحي بان الارض خلقت مذللة في بعض الجوانب و لكن الله يريد للانسان ان يذللها كلها بسعيه ، و بالرغم من انه لا يقدر على تذليلكل شيء فيها لتصبح الارض جنة الفردوس لانه يتنافى مع حكمة خلق الانسان فيها ألا وهي الابتلاء ، فإنه قادر على تطوير حياته الى الافضل أبدا.

[17 - 16]و كمـا ينبغـي للانسان ان ينتفع من تذليل الارض له و يتحسس اسم " تبارك " مـن هذه الرحمة الإلهية عليه ، كذلك يجب عليه ان يستشعر قدرة الله على كل شيء ، و انه لو شاء لسلب تلك البركة منه فاذا بتلك الارض المذللة تصبح كالفرس الجامحتمور مورا ، او يحدث تغييرا في النظام الكوني فاذا بالسماء التي تحميها تستحيل منطلقا لعذاب مصوب لا طاقة للارض و سكانها به . و تذكر هذه الحقيقة مهم لأمرين:

الأول : انها الى جانب تنعم الانسان ببركات الله و رحماته التي في الطبيعة تعطيه توازنا نفسيا و عقليا و عمليا يسوقه نحو المسيرة الصحيحة في الحياة ، فلا تبطر به النعم و تضلله عن أهدافه . فانه متى وصل الانسان الى اليقين بقدرة الله عليه سلم له أمره و اتصل به و خضع له ، و هذه من أعظم أبعاد الخشية منه تعالى.

الثاني : انها تجتث من نفس الانسان جذور الشرك ، لكي لا يأمن مكر الله ثم يعصيه اعتمادا على الشركاء المزعومين (كالشياطين و الاصنام و الملائكة بانهم قادرون على مقاومة قدرة الله و منع مشيئته) او استرسالا مع رحمته تعالى.

]ءأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي تمور]اي تموج و تضطرب كما يمور البحر ، و ذلك باحداث انهيارات أرضية و زلازل ، او بتغيير النظام الارضي مرة واحدة مما يفقدها توازنها بصورة رهيبة ، وفي الآية إشارة الى ذلك بكلمة الخسف التي تعني التغيير و التبديل باتجاه سلبي.

]أم أمنتم من في السمآء أن يرسل عليكم حاصبا[

و في التساؤل بـ " أم " تلويح بالنهي عن ان يأمن أحد مكر الله لما فيه ذلك من دواعي المعصية و الاسترسال ، و الحاصب حجارة العذاب المتقدة نارا ، و قوله تعالى " من في السماء " في الايتين محمول على احد وجوه ثلاثة : فاما هو كناية عن تعاليه سبحانه ، و اما لان في السماء عرشه الذي تصدر منه أوامره عز وجل ، و اما يكون اشارة الى الملائكة التي تنفذ أمر الله و مشيئته في الحياة.

و نتساءل : ما هي العلاقة بين تحذير الله للناس من الكفر به و تهديده بتحطيم النظام الكوني لو كفروا ؟ و الجواب : لانه تعالى (كما بين في الاية الثانية) انما خلق الوجود الحي و الميت لاجل الانسان ، فاذا

افسد البشر حكمة وجوده بطلت حكمة الوجود الذي حولهايضا.

و ما تحمله آيات الله من الانذار لا تستوعبه إلا قلوب المؤمنين فاذا هم يخشون ربهم بالغيب ، اما الكافرون و المشركون فهم في غفلة عنه لانهم محجوبون بالجهل و الشرك عنه ، و ذلك لانهم ماديون لا يرون إلا الأمور الظاهرة ، ذلك لان العقل هو الذي يهدي الانسانالى الباطن من خلال الظاهر ، و الى الغيب عبر الشهود ، و هو معطل لديهم ، كما انهم لا يسمعون الموعظة من العقلاء ، هكذا تراهم يعترفون في الاخرة ، و اليهم يوجه القرآن هذا التحذير المبطن:

]فستعلمون كيف نذير[

حينما تخسف بهم الارض و يحل عليهم العذاب في الدنيا ، او في الاخرة حيث العذاب المقيم و الأليم ، هنالك يعرفون حقيقة النذير.

[18]و لكن القرآن لا يكتفي بالمستقبل الغائب دليلا على حقائقه بل و يستدل عليها بالشواهد الظاهرة ، لكي لا يبقى لبشر ما يبرر له الكفر و الزيغ ، و لتكون له الحجة البالغة ، فما هو الدليل على عذاب الله و قدرته على صنع ما يشاء ؟

لندرس التاريخ البشري فهو خير معلم للانسان ، حيث يهديه الى سنن الله و آيات معرفته ، و نحن حينما نتتبع حوادثه فسنجد الكثير من الامم و المجتمعات التي ذهبت ضحية كفرها و فسوقها عن أمر الله ، فذاقت ألوانا من العذاب لا يستوعبها فكر بشر لهولها و فظاعتها.

]و لقد كذب الذين من قبلهم[

فـــأين قرى لوط المؤتفكة ؟ و أين فرعون و قومه ؟ انك لن تجد غير اجابة واحدة : انهم دحروا و بادت حضاراتهم لانهم لم يخشوا ربهم و يتبعوا رسالاته و رسله.

]فكيف كان نكير [

فكيف كان العذاب المنكر الذي لم يكونوا يحتسبوه و الذي نزل بساحتهم من عند الله سبحانه ؟!!

و يحتمل هذا المقطع معنى آخر غير المنكر الفظيع إذا تصورنا القرآن يتساءل : كيف إذن تنكرون ، و الشواهد ظاهرة ، و الآيات قائمة ؟

[19]و يلفت القـــرآن الانظار و الافكار الى مشهد الطيور و هي تطير في الفضاء ، ليثير عقولنا نحو دراسة هذه الظاهرة التي تحكي تذليل الله السماء للطيور برحمته ، و تكشف عن مئات القوانين العلمية التي تفيد الانسان في حياته و حضارته . فلماذا لا يتساءل ماهي القوانين الفيزيائية التي يمكن في ضوئها الطيران ؟ و لماذا لا يبحث عن الاسبـاب و العوامل التي تجعل الطائر يسبح في الفضاء دون ان يقع على الارض ؟ و أهم من ذلك كله لماذا لا يحاول ان يتصل قلبه بروح هذا العالم ليراه آية واضحة من آيات ربه العظيم ؟

]أولم يروا الى الطير فوقهم صافات و يقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن]و الصف هو بسط الجناحين بينما القبض هو جمعهما الى الجسم ، و لعل في الآية اشارة بهاتين الكلمتين الى نوعين من الطيور : أحدهما صفه أكثر من قبضه ، و الآخر العكس ، والى أيهما نظر الانسان تجلت آيات رحمة الله ، و لكنها أظهر عند رؤية ما يصف منها ، و ربما لذلك تقدم ذكره على الذي يقبض .. و انما يكون طيران الطيور مظهر لرحمة الله لانه تعالى لو لم يذلل لها الفضاء بالنظام الذي يسمح لها بالطيران لما كانت تجد سبيلا الى ذلك فهو الذي يمسكها ، و لانها بالطيران تستطيع الهرب من الأخطار.

ولعل كلمة " فوقهم " في الآية تثير الانسان نحو التحدي فيسعى ليكون قادرا على الطيران ، و ما كان الانسان ليكتشف اسرار الطيران لو لم يكن يدرس هذه الظاهرة الكونية و يطلع على قوانينها فاذا به يصنع مختلف وسائل الطيران.

]أنه بكل شيء بصير[

فهو يعطي كل خلق من خلقه القدرات و الصفات ما يتناسب معه و مع دوره في الحياة ، حتى يكون كل شيء في نفسه و حسب هدفه كاملا قد منحه ربه كل ما يحتاج ، و ذلك يؤكد الحقيقة التي تعلنها الآية : " انه بكل شيء بصير " يتبصر حقيقته و دوره و الهدف من خلقه و تناسب هذا الخلق مع سائر خلقه سبحانه.

و نحن يجب ان نهتدي اليها حينما نشاهد طائرا يطير و قد جعل كل شيء مناسبا لحركته فـــي الفضاء : حجمه ، أجنحته ، تركيبة بدنه ، طعامه و شرابه ، و توالده و تكاثره ، هذا ما نعرفه و سائر البشر ، اما العلماء و المتخصصون الذين يدرسون حياة مخلوقات الله جامدةاو متحركة فهم كلما ازدادوا معرفة بها ازدادوا ايمانا بدقة صنعه عز وجل.

تعالوا نستمع الى الامام جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - يحدث رجلا من شيعته (المفضل بن عمر (عن الدقة في خلقة الطير و الحكمة في صنعه:

"تأمل يا مفضل الطائر و خلقته فانه حين قدر ان يكون طائرا في الجو خفف جسمه و ادمج خلقه ، فاقتصر به من القوائم الاربع على اثنتين ، و من الاصابع الخمس على اربع ، و من منفذين للزبل و البول على واحد يجمعهما ، ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه ان يخرقالهواء كيف ما أخذ فيه ، كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء و تنفذ فيه ، و جعل في جناحيه و ذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران ، و كسي كله الريش ليداخله الهواء فيقله ، و لما قدر ان يكون طمعه الحب و اللحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الاسنان، و خلق له منقار صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجح من لقط الحب ، و لا يتقصف من نهش اللحم ، و لما عدم الاسنان و صار يزدرد الحب (اي يبتلعه و يسرع الطيران (صحيحا و اللحم غريضا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغني به عن المضغ ؛ و اعتبر ذلكبان عجم العنب و غيره يخرج من اجواف الانس صحيحا ، و يطحن في اجواف الطير لا يرى له أثر ، ثم جعل مما يبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فانه لو كانت الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم لاثقلته وعاقته عن النهوض و الطيران ، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاللأمر الذي قدر ان يكون عليه" ..

تأمل ريش الطير كيف هو ؟ فانك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقاق قد ألف بعضه إلى كتأليف الخيط الى الخيط و الشعرة الى الشعرة ، ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا و لا ينشق لتداخله الريح فيقل الطائر اذا طار ، و ترى في وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته ، و هو القصبة التي هو في وسط الريشة ، وهو مع ذلك اجوف ليخف على الطائر و لا يعوقه عن الطيران " (١. (

[20]و لا شك ان ذلك الجهل بواقع الحياة هو جهل بآيات الله سبحانه ، مما يدعو الانسان الى التكذيب بالحق و الكفر بربه ، و بالتالـي ان يشرك به الانداد المزعومين ، ظنا منه بانه قادر بواسطتهم على الفرار من سلطان الله القاهر و على التهرب من مسؤولية الحق ، الأمر الذي يجعله يعيش في الحياة من دون قيد او ضابط ، و لكن القرآن ينسف هذه الافكار و المزاعم من جذورها مبينا بانها ليست سوى نشوة من الغرور الجامح.

]أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن[

(1)بحار الانوار / توحيد المفضل / ج ٣ - ص ١٠٣.

و " من دون الرحمن " تتسع الى معنيين هما:

- 1الضد .. و عليه تنصرف الآية الى الشركاء الموهومين و القوى التي يغتر بها الكافرون كالمال و

السلطة فانها كلها لا تنصرهم ضد الله ، و لو نصرتهم جدلا فهي لا تنفعهم شيئا.

- 2او تكون الآية منصرفة الى الشفعاء فانهم كذلك لا يمكن ان يشفعوا لاحد من دون أذن الله و رحمته ، فلماذا يجعل الانسان بينه وبين ربه حجبا و وسائط ، وهو قادر على الاتصال بمصدر الرحمة و النصر ؟!

ان الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء و الأولياء ليسوا بدائل عن طاعة الله ، و عن الدعاء اليه مباشرة ، بل هم وسائل و سبل الى الرحمن سبحانه.

]ان الكافرون إلا في غرور[

و الغرور هو الوهم . اترى كم هو مغرور ذلك الغبي الذي يزعم انه قادر على مقاومة الانفجار النووي بيمينه ؟! بلى . قد يزخرف القول و يخادع نفسه و لكنه عند مواجهة الحقيقة يكتشف انه انما كان في غرور محيط ، و اننا نرى اليوم مدى الغرور الذي فيه قوى الاستكبار العالمي ، لما تملك من ترسانات الاسلحة ، و القدرة الاقتصادية ، و لكن أين هذا كله من قدرة الله المطلقة حتى يبارزونه عز وجل و يدعون انهم سوف ينتصرون على الحق ؟!

و عادة لا يكتشف الغرور الا بعد فوات الأوان عندما يصطدام الانسان بالحقيقة المرة حيث لا ينفعه شيئا.

و نتسائل : ألم يكن من الأنسب أن يذكر هنا أسماء العزة و القوة بدل اسم "الرحمن " حيث ان السياق سياق التحدي ، و لكننا عند التدبر نهتدي الى اشارة لطيفة في ذكر اسم " الرحمن " فكان القرآن يقول للانسان بان مصالحك الحقيقية تجدها عند صاحب الرحمة ، فلماذا تتخذ الشركاء من دونه ؟!

عندما تضيق مذاهب الحياة اين نلجأ . او ليس الى رحاب رحمة الله ؟ و حينما تتوالى المصائب و النكبات الى من نجأر . أوليس الى حصن الرحمن ؟

[21]و انه لثابت فطريا و عمليا لذوي العقول انهم انما ينتصرون على المشاكل و التحديات بفضل الله ، و لا يلمسون أثرا لقوى أخرى تنصرهم و يستعينون بها عند الشدائد سواه سبحانه ، و عندما تحبس السماء غيثها هل يقدر الشركاء المزعومون ان ينزلوه ؟ كلا .. ألاترى كيف يجار الانسان عندما يحبس رزقه الى ربه ، تبعه الى ذلك الفطرة ، و يحثه العقل ؟!

]أمن هذا الذي يرزقكم أن أمسك رزقه[

و يبدو ان الرزق هو ارضية الاكتساب ، فلولا ان الارض خصبة و المياه متوفرة هل يمكن للزارع ان يكتسب منها شيئا ؟ ! و لولا ان البلد يكون فيه معادن و منابع هل يمكن للصناعي ان يطور صناعته او يستخرج نفطا او ذهبا او حجرا كريما ؟!

و هكذا يتقلب البشر في رزق الله يكتسب منه معاشه فان انعدم الرزق لم يبق معاش ، و لكن بالرغم من وضوح هذه الحقيقة ترى الكفار يصرون على الكفر و الغرور.

]بل لجوا في عتو و نفور[

لج و لجاجة : عند في الخصومة ، و تمادي في العناد الى الفعل المزجور عنه ، و لج في الأمر : لازمه و أبى ان ينصرف عنه (١) اصرارا ، و العتو : الاستكبار الذي يجاوز الحد ، و القلب يقسو فلا يلين ، و الظالم يطغى و يتجبر (٢) ، و النفور : يعني التباعد و نفرالظبي و غيره شرد و ابتعد ، و الانسان اعرض عن الشيء و صد (٣) ، و في كلمة " نفور " تشبيه للكفار بالحمير و الدواب (٤ (اذ تمادوا في معاندة الحق مع وضوحه ، و اصروا على لزوم الباطل مع زهوقه ، و تجاوزوا الحد في الاستكبار ، و ركبوا التباعد عن الحقشرودا و إعراضا و صدودا.

[23 - 22]و كيف لنا ان نتصور مسيرة من كان في غرور و لجاجة من العتو و النفور عن الهدى و الحق ، ألا كمن يمشي مرسلا نظره الى الارض لا يرى أمامه ، او كمن على بصره غشاوة يتخبط و لا يهتدي

سبيلا أفهل يستوي هو ومن يبصر أمامه و ينتفع بجميع حواسه وهو على صراط مستقيم ؟!

]أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم]و للكب معنيان - حسبما قالوا - : أحدهما الذي ينظر الى الارض و هو يمشي ، و الثاني من لف على وجهه شيئا يقال تكبكب في ثيابه إذا تلفف بها ، و المكب على وجهه الذي لـــف عليه شيئا ، و السوي الذي يمشي بكامل حواسه و امكاناته و وعيه فهو السوي ، قال تعالى:
"آيتك ألا تكلم النـــاس ثلاث ليـــال سويـــا " (٥) اي كاملة ، و قال : " فستعملون من اصحاب الصراط السوي و من اهتدى " (٦) اي الصراط(١) المنجد مادة لج.

(2)المصدر مادة نفر بتصرف.

(3)المصدر بتصرف.

(4)قال تعالى : " كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة " المدثر. 51 - 50 /

(5)مريم / ١٠.

(6)طه / ١٣٥.

السليم ، و ان الكافرين لا يمشون في الحياة بكامل حواسهم و وعيهم ، و ليس أدل على ذلك من انهم معطلة اسماعهم عن تلقى المواعظ ، و عقولهم عن وعي الحق و استيعابه كما وصفوا انفسهم و كما وصفهم ربهم في قوله : " لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها " (١) و يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى في الآية اللاحقة مفسرا معنى المكب:

]قل هو الذي أنشأكم و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة قليلا ما تشكرون [قيل : انكم لا تشكرون إلا قليلا ، و قيل : ان المعنى لا يشكرون منكم إلا قليل ، و كلا المعنيين صحيح . و ان للشكر بالنعم جانبين:

الاول : ان لا يستخدم الانسان نعم الله عليه في معصيته ، فيسمع بإذنه ما حرمه عليه كالغيبة و الكذب و الغناء ، او ينظر بعينه ما هو محضور كاعراض الناس و عوراتهـــم ، او يجعل فؤاده عشا للشيطان فيملأه بالظنون و النوايا السيئة و الأفكار الضالة .. و هكذا.

قال الامام الصادق - عليه السلام " : - شكر النعمة اجتناب المحارم " (٢) ، و قال الامام علي - عليه السلام " : - شكر كل نعمة الورع عما حرم الله " (٣. (

الثاني : ان يسخر ما أنعم الله به عليه في طاعته و إعلاء كلمته ، بأن يجعله وجوده و كيانه في طاعته و خدمة الحق و أهله ، و محاربة الباطل و أعداء الله ، فيستمع بإذنه علوم الحق و مواعظ الصدق ، و يوظف بصره في النظر الى آيات ربه و كتابه ، (1)الاعراف / ١٧٩.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٧١ - ص ٤٠.

(3)المصدر / ص ٤٢.

يصير فؤاده وسيلة لمعرفة الحق و التفكر فيما ينفع به رسالته و نفسه و الناس ، و هكذا سائر النعم و الهبات الإلهية.

وإذا فعل الانسان ذلك يكون شاكرا ، و لا يتم الشكر الا بمعرفة المنعم و التوجه اليه به ، فان الانسان عرضة للشرك في الشكر ايضا ، لذلك جاءت بداية الآية توجهنا الى المنعم وانه أهل الشكر ، وعلى هذه

الحقيقة أكدت النصوص المستفيضة عن ائمة الهدى ، قال الامام زين العابدين علي بن الحسين - عليه السلام - : " الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، و اسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة ، لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه ، و توسعوا في رزقه لم يشكروه ، و لو كانوا كذلك لخرجوا من حدودالانسانية الى حد البهيمة ، فكانوا كما وصف في كتابه : " إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا " (١) و قال الامام الحسن العسكري - عليه السلام " : -لا يعرف النعمة إلا الشاكر ، و لا يشكر النعمة إلا العارف " (٢) و أوحى الله تعالى الى موسى - عليه السلام - : " يا موسى اشكرني حق شكري ، فقال : يا رب كيف اشكرك حق شكرك و ليس من شكر اشكر به إلا و أنت أنعمت به علي ؟ ! فقال يا موسى شكرتني حق شكري حين علمت ان ذلك مني " . (٣)[٢٤ [27 - و عند التفكير في الآية (٢٣) و الآية (٢٤) نجدهما تجيبان على أهم الاسئلة المصيرية التي تخطر على بال كل انسان : من الذي أوجدني و وهبني ما أنا فيه من النعم ؟ و من الذي ذرأنا في الارض ؟ ثم ماذا بعد الدنيا ، و الى أين تسير بنا الاقدار ؟ هذه الاسئلة و أمثالها تؤكد ان معرفة الخالق مسالة فطرية ملحة عند كل انسان ، وهي ان لم يجب عليها الاجابة السليمة فسوف يظل الانسان حائرا لانها(١) الصحيفة السجادية الدعاء الاول.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٨ - ص ٣٧٨.

(3)المصدر / ج ١٣ - ص ٣٥١.

أسئلة مصيرية ترسم اجابة كل واحد عليها شخصيته (فكره و سلوكه و علاقاته (كما تحدد مستقبله.

و حيث ان القرآن متنزل من رب الانسان الذي خلقه و يعلم ما توسوس به نفسه و ذات صدره ، فان آياته جاءت واقعية و شفاء لما في صدره ، و علاجا لكل قضاياه و مسائله ، و ان هذه الآيات بحق تعبر عما في ضمير كل بشر و حاشا لله و هو الرحمن اللطيف بعباده ان يدعهم في حيرة من هذه الاسئلة الخطيرة فيضلون كفرا و شركا ، و هكذا قال ربنا سبحانه:

]قل هو الذي ذرأكم في الارض و اليه تحشرون[

و ليست الصدفة او الطبيعة او القوى المزعومة من دونه سبحانه ، و الذرأ هنا بمعنى الخلق و النشر ، فانه تعالى خلقنا في الارض و نشرنا في أقطارها ، قال الله : " و جعلوا له مما ذرأ من الحرث و الانعام نصيبا " (١) اي مما خلق و بث ، و قال : "و ما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه " (٢) اي خلق و وزع ، و ذرأ الحبوب في الارض فرقها و بذرها . و الحشر هو الجمع ، و السؤال :هل خلق الانسان في الارض ليعود اليها بعد الموت دون هدف و مسؤولية ؟ كلا ..انما هي مرحلة في دورته الحياتية التي لا تنتهي، فقبل ان يذرأ في الارض في عالم الذر ، و بعد هذه الدنيا يبدأ رحلة الى عالم البرزخ ثم عالم الحشر و الجزاء حيث يلاقي مصيره الأبدي ، ومادامت بداية الانسان من الله و نهايته اليه و مصيره بيده فما أحوجه ان يوظف وجوده في هذه الارض و نعم الله عليه من أجل حشرسعيد في الآخرة.

وما أعظم ذكر الاخرة و الحشر في قلوب الصالحين ، و حسب ما يقول الامام علي(١) الانعام / ١٣٦.

(2)النحل / ١٣.

-عليه السلام - : " و لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في ابدانهم طرفة عين أبدا " (١) ، و لكنك ترى الضالين الذين حجبهم الكفر و الشرك عن رؤية هذه الحقيقة يستهزؤون بها فيذهبون فرصتهم الوحيدة فـي بحـوث عقيمة تافهة ، فيتساءلون -مثلا - عن موعد الساعة.

]و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[

و اسئلة أخرى تافهة كقولهم : كيفي يحي الله الموتى ؟ و انك حين تدرس خلفياتها و أهدافها في نفوسهم تجد انهم لا يريدون بها معرفة الحقيقة ، انما مجرد الجدل و العناد . أوليسوا يبحثون عن تبرير

للتملص من مسؤولية الالتزام بالحق ، و اتباع القيادة الرسالية في الحياة ، و الهرب من وخز الضمير و نداء الفطرة ؟ إذن لابد ان يكفروا بالآخرة لان الايمان بها قمة الشعور بالمسؤولية ، و لكن هل يغير انكارهم للحقيقة الواقعية شيئا ، فلا تقع الساعة و يصبح الداعية اليها كاذبا لو كفروا بها ؟ كـلا .. فلينكر أحد حقيقة الموت، و ليكذب من يذكره بها ، فهل يبقى خالدا الى الأبد و يصير المذكر كاذبا ؟ و سؤال آخر : هل ان عدم علم الانسان بلحظة موته - مثلا - ينفي حقيقة الموت ؟ فلماذا يعتبر الجاحدون عدم أخبار الرسول - صلى الله عليه وآله - لهم بموعد الساعة دليلا على انتفائها و كذب المؤمنين بها ؟

]قل إنما العلم عند الله[

و هنا نتساءل : لماذا تأتي هذه الاجابة كلما تحدى الكفار الرسول بالسؤال عن موعد الساعة ، أوليس الافضل ان يطلعه الله عليها فيجيبهم و ينتصر عليهم في الجدال ؟

(1)هكذا وصفهم امام المتقين علي بن ابي طالب في الخطبة ١٩٣ من نهج البلاغة .

و الجواب : هنا أسباب تكشف عن جانب من الحكمة الالهية ، تبرر عدم الاجابة على سؤالهم تبريرا موضوعيا واقعيا ، هي:

اولا :لان من عظمة الساعة (ساعة الموت و القيامة) و أثرها في الانسان يكمن في أنها مستورة ، مما يدعوه لاجتناب الباطل و اتباع الحق في كل لحظة من حياته خشية ان تحل به الساعة فيها فيلقى ربه على معصية . و إلا لكان الناس يسترسلون في الباطل و يزعمون انهم سوف يتوبون قبل موتهم بساعة!

و قد أشار الامام الصادق - عليه السلام - الى ذلك بقوله : " ثم (لو) عرف ذلك وثق بالبقاء و انهمك في اللذات و المعاصي ، و عمل على انه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في اخر عمره ، و هذا مذهب لا يرضاه الله من عباده و لا يقبله " (١. (

ثانيا : ان الكافر الذي أركس في الغرور و العتو و النفور عن الحق لا يغير فيه اخبار أحد له بموعد الساعة ، بل لا يصدق أحدا لو أخبره ولو كان مصيبا ، لان مشكلته انه لا يؤمن بالاساس وهو الساعة . فهب ان الرسول - صلى الله عليه و آله - قال له انك تموت بعدخمسين يوما ، او ان الساعة تقع بعد ألف عام ، فهل يصبح من المتقين ؟ كلا .. اذ ان سؤاله ليس بهدف معرفة الحق و التسليم له عند ظهوره ، انما لمجرد الجدال و المعاندة.

ثالثا : ان الرسول و كل داعية الى الحق ليس مسؤولا ان يجاري الناس و بالذات الملحدين منهم في كل شيء ، و يجيب على كل سؤال ، فان الاسئلة لا تنتهي ، و لو انه ينصب نفسه للرد و المجادلة فسوف يضيع الكثير من وقته و جهوده في أمور لا طائل منها و لا فائدة دونان يصل الى ما يريد ، و بالخصوص ان من بين

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٦ - ص ٣٨.

الناس من هو بارع في صناعة السؤال و الذي لا يهدف من ورائه إلا الجدل الفارغ ، انما مسؤولية المؤمن الرسالي ابلاغ رسالة الله الى الناس بأمانة و وضوح.

]و إنما أنا نذير مبين[

و تهدينا خاتمة الآية الى حقيقتين في منهجية الدعوة السليمة الى الله:

الأولى :ان على الفرد الرسالي التحرك وفق ما ترسمه له رسالته و توحي به أهدافه في الحياة ، دون ان يلتفت كثيرا الى ما يثيره الآخرون أعداء و منافسين و جاهلين من اشكالات و اسئلة و ملاحظات تافهة ، لانه لو التفت الى ذلك فلن يصل الى اهدافه.

الثانية : ان التواضع للحق مسالة مهمة في الدعوة ، فاذا سئل عما لا يعلم يجب ان يقول لا أعلم .. وإلا أصيبت مقاتله كما يقول الامام علي عليه السلام ، فليس العيب ان يعترف الانسان بالجهل انما العيب الكبير ان يقول ما لا يعلم . فهذا سيد البشر على عظمته يجيب و قد سئل عن الساعة التي لا يعلم ميعادها : " إنما العلم عند الله " و إنما للحصر ، فليس من أحد يعلم بميقات وعد الله غيره ، و لا يكتفي القرآن بهذه الاجابة بل يضع الكافرين أمام آثاره المريعة عندما يحين أجله فتساء وجوههم ، و يعلمون الى حد اليقين حقا بالآخرة وصدق الرسول ، و يشهدون وقوعه الرهيب ، يوم لا ينفع نفس ايمانها لم تكن آمنت من قبل.

]فلما رأوه زلفة[

أي وقد اقترب منه الموت ، او عندما تظهر للناس علامات الساعة و آياتها كزلزلة الارض ، هنالك يكتشفون فظاعة خطئهم ، فيتحسرون و يندمون على ما فرطوا في جنب الله في أنفسهم ، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد انما تعلوهم آثار الهوان و العذاب حتى تظهر على وجوههم التي طالما صدوا بها عن الحق.

]سيئت وجوه الذين كفروا[

أي أساءها شيء او أحد كالملائكة الذين هم خزنة جهنم ، و لا ريب ان تلك الآثار التي تظهر على وجوههم يؤمئذ و تسوؤهم هي بأعمالهم السيئة و عقائدهم الخاطئة . قال في المنجد : ساء الأمر فلانا أحزنه ، أو فعل به ما يكرهه (1)و كذلك يصنع بالكافرين.

]و قيل هذا الذي كنتم به تدعون[

و لكلمة " تدعون " في هذه الآية معنيان:

الأول :الإدعاء بمعنى الزعم و التكذيب ، اي تتحدثون بشأنه مما لم يكن في قلوبكم ، قال ابن عباس : اي تدعون الاباطيل به ، و لا ريب ان الكافرون حينما كانوا يستعجلون وعد الله ما كان هدفهم البحث عن الحقيقة بل كان مجرد الانكار و الجدال ، و لعل في الآية إشارة الى حقيقة واقعية وهي ان كثيرا من عقائد الكفار و مواقفهم الضالة و هكذا اعمالهم السيئة كانت متأسسة على جحود الآخرة (وعد الله) ، فكأن انكارها وسيلة مزاعمهم و ادعاءاتهم.

الثاني :الادعاء بمعنى المبالغة في الدعاء ، حيث يقال لهم من قبل الله ان هذه الساعة هي الوعد الذي كنتم تكفرون به ، و تطالبون مستعجلين وقوعه . مما يكشف عن مدى جحودهم و استبعادهم للساعة.

وهذا القيل و أمثاله عذاب نفسي الى جانب العذاب المادي ، و قد يكون أشد أثرا منه ، لما ينطوي عليه من الاستهزاء و التبكيت و إثارة للحسرة في نفوسهم.

[28]و بعد حديث الآخرة يأمر الله رسوله ان يبين للكافرين خاصة و للناس(١) المنجد مادة ساء.

عامة مجموعة من البصائر ذات الأثر المهم في ايمان الانسان و واقعه في الحياة .

]قل أرأيتم إن إهلكني الله ومن معي أو رحمنا[

و للهلاك في القرآن معنيان : أحدهما : الموت و الفناء ، قال تعالى : " و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك ما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا " (١) اي حتى إذا مات ، و الآخر : الموت بالعذاب و الدمار ، قال تعالى : " و ما كنا مهلكي القرى إلا و أهلها ظالمون " (٢) و تهدينا هذه الآية الى الحقائق التالية:

- 1ان الكفار عادة ، ما يتهربون من مسؤولية الحقائق الالهية بتحويل قضية الرسالة الى صراع شخصي بينهم و بين الرسول ، و كأن الرسالة قضية تهم النبي لذاته و أنه يبحث عن مصلحته الذاتية لذلك فهو يخوض الصراع مع الذين لا يؤمنون بها .و هذه الآية تبين سفه هذا الرأي و تذكر بان الرسالة في البدء قضية بين الانسان و ربه و ما الرسول إلا واسطة بينهما ، و عبد من عباد الله ان شاء أهلكه و ان شاء رحمه ، وقد حذر النبي شعيب - عليه السلام - قومه من الدخول في هذا النفق فقال : " و يا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكممثل مآ أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد " (٣. (

- 2و تحذر الآية من الفهم الخاطىء للشفاعة سواء الاولياء او شفاعة الشركاء المزعومين ، بزعم انهم قادرون على منع الله عما يشاء او التأثير على قراره ، الأمر الذي يدعو الانسان الى الاسترسال في الانحراف و اللامسؤولية . و ذلك ببيان ان لله(١) غافر / ٣٤.

(2)القصص / ٥٩.

(3)هود / ٨٩.

وحده فيما يريد ، فهو بيده ان يهلك الرسول و يعذبه او يرحمه لو شاء . و هكذا تنسف الآية الأفكار الضالة في الشفاعة ، حيث يقول النبي محمد - صلى الله عليه وآله - و هو أقرب الخلق الى الله و أعظمهم عنده و هو الموعود بالشفاعة انه لا يملك من الله شيئا ، فكيف بمن هو دونه من الاولياء الصالحين ؟ و كيف بالشركاء الموهومين ؟!

]فمن يجير الكافرين من عذاب أليم[

فالكافر إذن معذب لا محالة لان الشفاعة و الشركاء الموهومين لا يملكون له من الله شيئا.

قال البعض : انها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم ببقاء الرسول هاديا و مبشرا و نذيرا (١) و يبدو ان ذلك مستوحى من قوله سبحانه : " وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. "

[19]و بعد التخويف و التحذير يفتح القرآن على القلوب باب الرجاء بذكر اسم الرحمن حتى لا تصاب باليأس و القنوط.

]قل هو الرحمن آمنا به[

و يبدو أن في الآية اشارة لطيفة الى ان الله لا يهلك الرسول - صلى الله عليه وآله - ومن معه انما يرحمهم ، لانه الرحمن وقد آمنوا به و أطاعوه بالتوكل عليه وحده.

]و عليه توكلنا [

(1)تفسير الفرقان / ج ٢٩ - ص ٥٣.

و لا يخيب من توكل على الرحمن ، فانه سيكون حسبه ، يفيض عليه من بركاته و رحماته ، و يجيره من

العذاب و الهلاك . اما الكفار و المشركون فقد ضلوا ضلالا مبينا حينما كفروا بربهم و بالآخرة ، و اعتقدوا بالأنداد المزعومين و اعتمدوا عليهم ، وإذا كانوا يجهلونمدى ضلالتهم ، او استطاعوا ان يخفوها عن الآخرين ، فان الحقيقة ستظهر جلية في المستقبل ، و سيفتضحون امام الناس عند الجزاء ، بالرغم من انهم يتهمون المؤمنين و القيادة الرسالية بالانحراف و يحاولون ان يقنعوا الرأي العام بذلك.

]فستعلمون من هو في ضلال مبين[

[30]و يختم السياق سورة الملك مثيرا الخشية من الله بما يؤكد انه وحده الذي بيده الملك و انه على كل شيء قدير و انه الرحمن ، و يحذر بانه قادر على الذهاب بمائهم الذي ترتكز عليه الحياة ، فلا أحد حينئذ يقدر على ان ياتيهم بماء ، أترى لو جعل الله الماء أجاجا من الاساس بحيث لا يصلح للشرب و الزراعة ، او لا يمكن تفكيك اجزائه و تحليته ، او قرب موقع الشمس حتى تبخرت المياه جميعا ، هل استمرت الحياة عليها ، و من أين كانوا يأتون بالماء ؟

]قل أرءيتم إن أصبح مآؤكم غورا[

و الغور : القعر و العمق من كل شيء ، و غار الماء : ذهب في أعماق الارض و اختفى فلا تصل اليه يد الناس . و ان وقع هذا الانذار في الوسط الذي تنزلت فيه يومئذ (شبه الجزيرة العربية) حيث يعز الماء ، و في تلك العهود حيث الانسان لم يكتشف بعد وسائل التنقيب عن الماء و حفر الآبار العميقة ، لا شك انه كان عظيما ، ولا يزال و لن يزال كذلك عند أولي الألباب من المؤمنين الذين يعرفون ربهم و قدرته المطلقة ، فهم يخشونه دائما و يخافون سطواته ، و يدركون الإجابة علىقوله تعالى:

]فمن يأتيكم بماء معين[

انها النفي القاطع الشامل الأبدي : لا أحد يا رب العالمين لان الله وحده هو الرحمن و المالك و القادر الذي لا يغلب . و قد قال المفسرون في معنى " معين " انه الماء الذي من كثرته يظهر على وجه الارض و يرى بالعين ، فهو معين ، خلافا للغائر الذيشح و اختفى ، و قيل : هو الماء الجاري من العيون.

وقد اعطى أئمة الهدى - عليهم السلام - بعدا عميقا للآية بتأويلها في إمام الحق ، بانه الماء بما يحمله من رسالة الله و الهدى للناس ، أوليس الماء عصب الحياة و عمادها ؟ كذلك الإمام ، لانه يحيي اتباعه ببصائر الوحي و بالهدى الى الحق في حياتهم . أوليسالكفر و الضلال موتا ؟

قال الامام الصادق - عليه السلام - : " هذه نزلت في الامام القائم ، يقول : ان أصبح إمامكم غائبا عنكم لا تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات و الارض ، و حلال الله و حرامه ؟ " (١) ، و قال الامام موسى الكاظم - عليه السلام - : " اذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون ؟. (2) "

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٧.

(2)المصدر.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة ن و القلم في فريضة او نافلة آمنه الله عز وجل من ان يصيبه فقر أبدا ، و أعاذه الله إذا مات من ضمة القبر "نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٧.

الإطار العام

يبلغ الصراع بين الرسالات الإلهية و الجاهلية أوجه في القيادة ، و استقامة النبي و اتباعه تحسم الموقف لصالح الوحي . من هنا جاءت فاتحة السورة في عظمة الرسالة و الرسول ، و انعطفت سريعا نحو رفض القيادات الجاهلية ، و بالذات تلك التي تقوم بقيمة الثـروة، و تبين الآيات الستة عشر الأولى مفارقات القيادتين ، فبينما الرسول مقام نعم الله ، وله عنده أجر لا ينقطع ، و هو على خلق عظيم ، و تتجلى آيات حكمته على كل أفق ، ترى القيادات الجاهلية تتشكل من كل دجال حلاف مهين ، يستهزأ بالناس يفرق بينهم ، و هو مناع للخير معتد أثيم .. قد أغلق منافذ قلبه دون أي شعاع من نور الحق ، فإذا تليت عليه آيات الله قال إنها أساطير الأولين.

و لابد ان يبقى التمايز بين الفريقين قائما أبدا ، فلا يجوز ان يداهن الرساليون مثل هذه السلطات الفاسدة التي تستعد لتقديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنة.

و يمضي السياق في قصة أصحاب الحقل الذين منعوا المساكين حقهم فأهلك الله زرعهم ، لعلها تكون عبرة لأصحاب الثروة فلا يطغون بها ، و لكي يعلموا أن هذا العذاب اشارة الى العذاب الأكبر في الآخرة.

وفي الايات ٣٤ 41 / يبين السياق عمق الفجوة بين المتقين و المجرمين ، و ينسف أساس تفكير المبطلين بانهم شرع سواء مع المتقين ، لان العقل يرفض ذلك ، ولا حجة لهم بذلك لا من كتاب مدروس ولا عهد من الله ، ولا كفيل و لاشركاء ، و يحذرهم الله من يوم القيامة الذي لا ينفع فيه عمل او ندم ، و يبين ان أموالهـم قد تكون لعنة عليهم ، لان الله يستدرجهم بها ، و يملي لهم بكيده المتين.

و ان بعضهم يخشى من اجر يعطيه ازاء الرسالة ، كلا .. بل الرسالة تنفعهم في دنياهم .. و ينهي السياق هذا الحديث بانهم لا يعلمون الغيب فكيف يتشبثون بافكارهم ؟ و ينعطف نحو الرسول و كل رسالي يتبعه ان يصبر (حتى يحكم الله (، و لا يكون كصاحب الحوت الذي استعجل في الدعاء على قومه ، فلولا ان نعمة من الله تداركته لكان ينبذ بالعراء (بعد التقام الحوت له) و هو مذموم ، و لكن الله اجتباه بنعمته فجعله من الصالحين.

و تختم السورة بان الذين كفروا يكادون يزلقون الرسول بابصارهم التي يتطاير منها شرر البغض و الحسد و ذلك حينما يسمعون الذكر ، و يتهمون الرسول بالجنون خشية تأثرهم به و من شدة عداوتهم له ، بينما هو ذكر للعالمين يذكرهم بالله و اليوم الآخر ، و لو اتبعوهلكان شرفا لهم و مجدا.

و بهذا تنتهي سورة القلم التي فصلت بين خطي العلم و الجهل على صعيد الفكر و في صميم الحياة حقا .

و لا تطع كل حلاف مهين

هدى من الآيات

بالادلـــة الدامغة يفند السياق تهمة المكذبين ، ثم يحذر النبي - صلى الله عليه وآله -و من خلاله كل قائد مؤمن من التأثر بقوى الضغط ، سواء الظاهرة منها التي تكذبه جهرا او المنافقة التي لا يهمها سوى مصلحتها الشخصية.

ثم يفضح القرآن فئة المنافقين ببيان صفاتهم السيئة ، كالمبالغة في الحلف ، و المشي بالنميمة ، و منع الخير عن الآخرين ، وإذ يولي الوحي هذا الاهتمام بفضحها بالتركيز على بيان صفاتهم تفصيليا فلأنها الأبلغ أثرا على المؤمنين بحكم سريتها ، و تؤكد الآية (١٤)على حقيقة اساسية و هي ان جذر تلك الصفات السيئة يكمن في الافتتان بالمال و الاتباع ، محذرا المسلمين من مغبة الفتنة بالثروة و الاولاد.

ثم ينعطف السياق نحو قصة اصحاب الجنة مثلا سيئا لاولئك الذين افتتنوا بزينة الحياة الدنيا ، إذ استكبروا على الحق ، و تعالوا على المساكين ، إلا أنهماكتشفوا خطاهم فتابوا الى ربهم " قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين " بل قالوا : اننا تجاوزنا الحد فطغينا . و اننا نجد في هذه القصة دعوة للمترفين الى التوبة و الحذر من مغبة الافتتان بزينة الدنيا لان ذلك ينتهي الى عذاب الدارين.

بينات من الآيات

[1]اختلفت اقوال المفسرين في معنى " ن " فقائل انها الحوت لقوله تعالى في هذه السورة : " و لا تكن كصاحب الحوت " و قوله : " وذا النون إذ ذهب مغاضبا (1) " ، و قائل انها اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه الأقدار الإلهية ، و رويذلك مرفوعا الى النبي ، حيث ذكر انه لوح من نور ، و استدلوا من الآية على هذا الرأي بذكر القلم ، و قيل : هي الدوات التي منها يأخذ القلم مداده ، و في الدر المنثور و التفسير الكبير انها اشارة لاسم الرحمن باعتبـــارها من حروفه ، و قيل : هي من أسماء رسول الله - صلى الله عليه وآله. -

وقـد سئـل الامام الصادق - عليه السلام - عن " ن " ما هي ؟ فقال : " ... و أما " ن " فكان نهرا في الجنة ، أشد بياضا من الثلج ، و أحلى من العسل ، قال الله تعالى عز وجل له : كن مدادا ، فكان مدادا " (٢ (، و الذي اعتقده بالاضافة الى ما سبق و ان بينا في شأن الحروف القرآنية المقطعة ان تفسير " ن " يتسع لبعض ما ذهب اليه المفسرون ، و لكن يبقى علمه عند الله و الراسخين فيه لما علمهم إياه من المعاني و التأويلات.

و اختلف في القلم ما هو ؟ فقالوا : انه القلم الذي يكتب أقدار الله في اللوح المحفوظ ، قال الامام الصادق - عليه السلام - (يعني الله) : " ثم أخذ شجرة(١) الانبياء / ٨٧.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٨.

فغرسها بيده ، ثم قال : و اليد القوة و ليس بحيث تذهب اليه المشبهة ، ثم قال لها :كوني قلمـــا ، ثم قال له : اكتب ، فقال له : يا رب و ما اكتب ؟ قال : ما هو كائن الى يوم القيامة ، ففعل ذلك " (١) ، وفي حديث آخر قال لسفيان الثوري : " فنون ملك يؤدي الى القلم و هو ملك ، و القلم يؤدي الى اللوح و هو ملك ، و اللوح يؤدي الى اسرافيل ، و اسرافيل يؤدي الى ميكائيل ، و ميكائيل يؤدي الى جبرئيل ، و جبرئيل يؤدي الى الأنبياء و الرسل صلوات الله عليهم " (٢. (

و يبدو لي ان معنى القلم يتسع لمصداقها المعروف عند الانسان ، باعتبار القلم وسيلة لنقل العلم و تثبيته بالكتابة ، و العلم قيمة اعتمدها الوحي ، فيكون القسم بالقلم كوسيلة للعلم كاشفا عن عظمته لانه يرفعه الى مرتبة سائر الحقائق التي اقسم الله بها في القرآن ، وإذا كان الانسان يستمد قوة لحديثه بالقسم و المقسم به فان كلام ربنا يعطي ما يحلف به قيمة و شأنا ، فنحن إذن نعرف عظمة القلم لان ربنا اقسم به.

و هكذا نستوحي من هذا القسم دور القلم في منح المؤمنين الكرامة و العزة و فتح افاق العلم ، و ان علينا ان نملك ناصية القلم إذا أردنا امتلاك ناصية الحياة ، و قد قال ربنا سبحانه : " علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم (3) " و يدل على ذلك القسم بما يسطر القلم (وهو العلم. (

]ن و القلم و ما يسطرون[

قالوا : يعني الملائكة الذين يكتبون بالقلم اقدار الله في اللوح ، اي قسما باليراع(١ (نور الثقلين / ج ٥ - ص . 388

(2)المصدر.

(3)العلق / ٤ - ٥.

و بما يكتبه سطرا بعد سطر ، او بما يسطره من العلوم الحقة ، فان العلم هو الآخر عظيم و حري ان يقسم به ، و هكذا يأتي قسم القرآن بالقلم و العلم تمهيدا لتفنيد تهمة الكهانة و السحر و الشعر من رسالة الله . و ليعلم الناس ان العقل و الوحي صنوان ، و ان الرسالة والعلم كجناحي طائر تحلق به الانسانية عاليا ، و ان ما يتقوله ادعياء الدين بان العلم ليس منه هراء ، و ما يزعمه ادعياء العلم بانه

يتنافى مع الدين ضلال بعيد .. فها هو الكتاب يشيد بالعلم و بما يكتب به.

و نستوحي من كل ذلك ان موقع القلم هو خدمة الدين و العلم لا تضليل الناس او استعبادهم ، و لا يكون ذلك إلا إذا تسلح به المؤمنون و بادروا للانتفاع به قبل الجبارين و مرتزقتهم السفلة.

[2]و يربط الوحي بين حقيقة العلم الذي يسطره القلم و حقيقة الرسالة ، و قد ظهرت هذه الصلة مرة أخرى في سورة العلق عند قوله تعالى : " إقرأ و ربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم " (١) فما هي العلاقة بين الأمرين ؟

ان هذا الربط يكشف بصيرة مهمة و هي علاقة العلم بالايمان ، و بتعبير آخر علاقة العقل بالوحي ، ذلك ان العقل هو الذي يذكرنا بالوحي و يهدينا اليه ، كما ان الوحي هو الذي يستثير العقل و يستخرج كوامنه و يوجه مسيرته نحو الحق . و ان من يتعلم و يقرأ تجارب العقل البشري عبر التاريخ لا ريب يهتدي الى ان الرسالة الالهية ليست جنونا ، و لا القـــاءات الشيطان ، و لا أساطير الأولين ، و انها لا يمكن ان تتنزل إلا من رب العالمين ، لو أنصف الحق من نفسه و قصد سواء السبيل . إلا ان المكذبين يكيلون التهم الباطلة التي يرفضها كل عاقل ليبرروا رفضهم للحقيقة ، و تهربهم من المسؤولية التي تفرضها . ثم هل اكتفوا بذلك ؟ كلا .. لقد حاولوا(١) العلق / ٣ - ٥.

التأثير على الرسول ليداهنهم في بعض قيم الرسالة بما يحفظ مصالحهم و يحولها الى طائفة من الطقوس الخفيفة الفارغة عن قيم الحق و التقوى و العدل و الاجتهاد ، فقالوا له ما قاله الطغاة لكل مصلح و داعية حق عبر التاريخ . قالوا : إنك لمجنون . لماذا ؟ لان القيم التي تؤمن بها و تسعى لنشرها تتنافى و قيم النخبة المستكبرة التي تتحكم بمصائر الناس ، ثم جندوا لنشر هذه الدعايات امكانياتهم المادية و المعنوية ، و هكذا استهدفوا هزيمة المصلحين نفسيا لعلهم يتنازلون عن بعض قيمهم.

و امام الهجمة التي يشنها اولئك المضللون ضد الرسول و الرسالة يقف الوحي مسددا للرسول - صلى الله عليه وآله - و لكل الرساليين عبر التاريخ و مدافعا عن قيم الحق حيث يؤكد القرآن أن ما يزعمونه ما هو إلا كذب و افتراء ، و ذلك بالتذكرة بالبصائر التالية:

اولا : ان الرسالة التي يحملها الرسول و يدعو اليها نعمة إلهية لا يدانيها جنون ، لانها حيث يدرسها الانسان و يتدبر معانيها يجدها قمة العقل ، بل هي متقدمة بخطوات كثيرة على مسيرة العقل البشري لانها من عند رب العقول.

]ما أنت بنعمة ربك بمجنون[

لان المجنون هو الذي سلب الله عقله ، بينما قد أنعم الله على رسوله بالوحي الـــذي يكمل العقل ، و كيف يكون من يحمل للبشرية نور الحكمة و العلم و البصيرة مجنونا ؟!

ان الرسالة التي تنظم حياة الانسان الشخصية و الاجتماعية ، و الاقتصادية ، و السياسية و .. و .. ، و تنطوي على أسرار الوجود ، و تكشف للبشرية السنن الالهية ، و الأقدار التي تسير الخليقة ، وما أمر الخالق به من خير وما نهى عنه من ضر وسوءو شر ! بل و تتجاوز هذه الحياة الى المستقبل الابدي البعيد لتحدثنا عن العالم الآخر و ما فيه من حساب و جزاء ، و تبين تفاصيل دقيقة متناسبة و عقل الانسان و أحاسيسه ، فهل يمكن ان تكون هذه الرسالة طيشا و من يحملها الى الناس مجنونا ؟!! و هل يتسنى لغير المجنونو المكابر ان يتجاهل حقيقة الرسالة التي هي نعمة و نور و يزعم بانها جنون و نقمة و ظلام ؟! و لعلنا نستشف من قوله سبحانه " أنت " بأن الذي لا يكتشف الفرق بينهما لهو المجنون حقا و ليس أنت يا رسول الله.

و عند التأمل في قول الله : " بنعمة ربك " نهتدي الى فكرتين : الاولى : ان عظمة النبي - صلى الله عليه واله - ليست بذاته فهو بشر كسائر الناس ، و انما عظمته برسالة ربه (نعمة الله عليه) ، و قد قدم ربنا السبب (نعمته (ربما لبيان انه ليس هناكسبب آخر غير الرسالة استمد منه النبي عظمته و

بلوغه كمال العقل ، و الثانية : ان اضافة النعمة الى الله سبحانه ينفي نفيا شديدا مزاعم الكفار بانه قد تلقى الوحي من الجن " فقد جاؤوا ظلما و زورا " (١. (

[3]ثانيا : ان النتائج و المعطيات العظيمة التي وصل اليها الرسول في الدنيا و التي ستكون له في الآخرة اظهرت بجلاء ان الرسالة وحي ، و ان النبي اعظم الخليقة ، و ان جهلهم هو الذي جعلهم لا يفرقون بين العظمة و الجنون ، و لا بين رسالة الغيب و أساطير الأولين . كيف ذلك ؟

ان الكفار و المشركين كانوا يعدون الرسول - صلى الله عليه وآله - مجنونا لانه ينشد التغيير الحضاري الجذري و الشامل ليس لمجتمع شبه الجزيرة العربية فقط بل للبشرية كلها ، فيوحد المجتمع المتمزق بالتناحر ، و المختلف بالاديان ، و يرقى به(١) الفرقان / ٤.

الى قمة التقدم الحضاري السامقة ، و ينتصر على أعدائه الأقوياء و الكثيرين وهو اليتيم العائل .. و ما الى ذلك من الاهداف العظيمة . كانوا يعدونه مجنونا لانه يطلب المستحيل الذي لا يخطر ببال بشر و لا خياله ، ولكن القرآن جاء و نسف هذه المزاعم مؤكدا بأن النبييبلـــغ ما يريد بإذن الله ، كما قال في سورة الضحى : " و لسوف يعطيك ربك فترضى " (١) و كما قول في هذه السورة:

]و ان لك لأجرا غير ممنون[

اي غير مقطوع ، فهو أجر متواصل يزداد مع الزمن ، و ما توسع الامة التي بناها -صلى الله عليه وآله وسلم - إلا جزء من ذلك الأجر و دليلا عليه ، فكيف وفي الآخرة ما هو أعظم اذ يعطى من قبل الله الوسيلة و الشفاعة و أعلى درجات الجنة و الثواب ؟ ان بلوغ الرسول- صلى الله عليه وآله - أهدافه التي تراءت لهم بانها مستحيلة أوضح دليل على عقلانيته و سلامة رسالته التي حققت اهدافه باتباعها ، لان وصول الانسان الى أهدافه يحتاج الى معرفة بسنن الحياة و قوانينها.

و كلمة أخيرة نقولها في الآية هي : ان تأكيد الله للنبي و كل رسالي يتبعه بأن له أجرا غير ممنون يصنع في الانسان المؤمن روح التعالي على إغراءات الدنيا التي يقدمها الأعداء و التي قد يثني الافتتان بها الرساليين عن أهدافهم الربانية فيداهنون فيها.

[4]ثالثا : و آية آخرى لعظمة الرسول - صلى الله عليه وآله - اخلاقه العظيمة التي فاق بها عظماء البشرية و هم النبيون و الصديقون مما يكشف مدى كمال عقله و عظيم حلمه و واسع علمه و نفاذ بصيرته.

(1)الضحى / ٥.

]و انك لعلى خلق عظيم[

و كفى بعظمة اخلاقه ان يصفه رب العالمين بالعظمة ، و كيف لا يكون كذلك وقد أدبه الله حتى قال - صلى الله عليه وآله - : " لقد أدبني الله فاحسن تأديبي " و قال الامام الصادق - عليه السلام - : " ان الله عز وجل أدب نبيه فاحسن أدبه ، فلما أكمل له الأدب قال : " و انك لعلى خلق عظيم " (١. (

ومن تأكيد الله ان الرسول " على " خلق عظيم يتبين انه - صلى الله عليه وآله - ما كان يتكلف الاخلاق ، و لا كانت عرضية تأتي و تزول ، بل هي سجايا و ملكات اختلطت بكيانه فلا تفارقه و لا يفارقها ، و ذلك من أفضل ما يصير اليه بشر في الاخلاق . وإنمابلغ النبي تلك العظمة و المكانة الرفيعة لانه جسد الدين في حياته ، قال الامام الباقر - عليه السلام - في قول الله " : الآية " : " هو الاسلام " (٢) ، و قال : " على دين عظيم " (٣) ، إذن فالطريق الى العظمة موجود في القرآن ، ومن أرادها فانها ثمرة تطبيقه.

و حيث ندرس حياة حبيب الله - صلى الله عليه وآله - فاننا نهتدي الى ان من أعظم أخلاقه وما يمكن

لانسان ان يبلغه هو سعة الصدر ، التي كانت آلته للرئاسة بعد الاسلام ، و وسيلته التي استوعب بها الناس في الدين ، و ملك قلوبهم .. و فيهم العدو الحاقد ، و الجلفالصلف ، و الكافر الجاهل ، و المشرك الضال و .. و .. ، و إنها لأهم ما يحتاجه المصلحون من الاخلاق ، و لذلك مدحه رب العالمين بها و ثبت ذكرها بالذات في كتابه من دون سائر الاخلاق فقال : " ولو كنت فظا غليظ(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٩.

(2)المصدر / ص ٣٩١.

(3)المصدر / ص ٣٩٢.

القلب لا نفضوا من حولك " (١) ، و روى البرقي عن احد الائمة - عليه السلام " : - ان الله تبارك و تعالى أدب نبيه فأحسن تأديبه ، فقال : " خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين " فلما كان ذلك أنزل الله " إنك لعلى خلق عظيم (2)"، و هذه بعض اخلاقه - صلى الله عليه وآله - : " كان رسول الله حييا لا يسأل شيئا إلا أعطاه " (٣) ، و كان يقول لاصحابه : " لا يبلغني أحد منكم عن اصحابي شيئا ، فاني أحب ان أخرج اليكم و أنا سليم الصدر " (٤) ، و "كان أجود الناسكفا ، و أكرمهم عشرة ، من خالطه فعرفه احبه " (٥ (، "وكانت له إذا شرب الماء ثلاثون سنة ، و ليس من خلق حسن إلا وكان الاسوة فيه - صلى الله عليه وآله - " (٦) " بحيث اعترف له بذلك العدو و الصديق ، و المسلم و غيره " (٧. (

[5]رابعا : و يبقى المستقبل دليلا فصلا يكشف عن الحقيقة للجميع ، و هنالك يتبين العاقل و المجنون ، فهل هو أبو لهب و أعداء الرسالة الذين خلدوا باللعنة ، أم الرسول - صلى الله عليه وآله - و أتباعه الصادقون ؟

]فستبصر و يبصرون[

باعتبار كل المقاييس المادية و المعنوية عندما يأتي المستقبل بالحقيقة.

(1)آل عمران / ١٥٩.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٨٩ نقلا عن بصائر الدرجات.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ١٦ - ص ١٣٠.

(4)المصدر.

(5)المصدر.

(6)راجع المصدر من / ص ١٩٤ الى ص ٢٩٤.

(7)راجع كتاب المئة الاوائل للدكتور مايكل هارت.

] [6]باييكم المفتون[

اي المجنون (١) ، لان افتتان الانسان بأي شيء دليل اتباعه لغير العقل ، فان العاقل لا ينهزم في الابتلاءات و عند الفتن ، انما يتجاوزها و ينتصر عليها ، و هو المضلل المصدود عن الحق (٢) . فالمعنى انكم ستبصرون في المستقبل بمن هو مجنون و من هو عاقل ، اوتكون الباء بمعنى في فيكون المفهوم انكم سوف ترون في أيكم سكن الشيطان (المفتون عن الحق) فاعماه عن رؤيته ، و فتنه مثله عنه . و بالتالي سيظهر الطرف المحق الذي يتلقى الهدى من ربه وهو الرسول ، و ان الرسالة ليست من

القاءات الشيطان كما يزعم الجاهليون ، بلمواقفهم المعادية لها و للنبي و بهتانهم العظيم . و يبدو لي ان الباء هنا ضرورية و ليس كما قال بعض المفسرين انها زائدة ، و ذلك لان الجنون حقيقة معنوية لا يمكن ان يبصرها الانسان بذاتها ، و انما يبصرها من خلال الدلالات و العلائم الموحية بوجوده ، فهو يبصر بالواسطة ، و لعله لذلك جاءت الباء في الكلمة " بأيكم " كما جاءت في قوله تعالى : " و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين " (٣) لان الشجرة لا تثمر دهنا و انما تثمر ثمرة فيها الدهن.

و نستوحي من الآية ان المنهج السليم لتقييم الأمور معرفة عواقبها ، لان الانسان في بادئ الأمر و مع المتغيرات قد يدخله الريب و التردد في استصدار حكمه الأخير على الأمور ، و لكنها حينما تستقر في مستقبل الزمن يرى بوضوح تام الموقف الواقعي الحق منها.

(1)المنجد مادة فتن.

(2)المصدر.

(3)المؤمنون / ٢٠.

إذا الاحباطات الآنية التي يواجهها المؤمنون في مسيرتهم و انطلاقا من هذه البصيرة لا ينبغي ان تبعث فيهم اليأس او التشكيك في صحة خطهم و سلامة قيادتهم ، فان المستقبل مهما طال الزمان و رغم الظواهر السلبية في صالحهم وفي صالح رسالتهم ، لأنهم يتبعون الحق.

[7]ومع ان هذه من القواعد الاساسية التي يجب على الرساليين اعتمادها في تحركهم ، إلا أنهم يستمدون مناعتهم بالحق ، و ايمانهم بسلامة الخط من الايمان بالله ، فليس المهم عندهم ان يكونوا في نظر الآخرين أصحاب حق ، او ان يكشف لهم واقع الدنيا عن هذه القضية، انما الأهم أن يكونوا عند الله من المهتدين ، ذلك أنهم لا ينفعهم ثناء أحد إذا كانوا عند الله من الضالين ، كما لا يضرهم شيء لو كانوا عنده من أهل الهداية . و ان الرساليين اذا ما تمسكوا بهذه الأصل فلن يتأثروا بالضغط او الاعلام المضاد ، و لن ينال أحد منقناعتهم قيد شعرة.

]ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين [و السؤال : كيف يكتشف الانسان واقع انتمائه هل هو الى فريق الضالين أم الى فريق المهتدين ؟ و بتعبير آخر : كيف يصل المؤمنون الى القناعة التامة و الراسخة بأنهم أهل الحق ؟

و الجـــواب علـــى ذلك : ان لله في هذه الحياة سبيلا واحدا هو الصراط المستقيم (الحق) الذي يتجسد في رسالة الله و في القيادة الرسالية و خطها السليم ، فمن اتبع رسالته و دينه ، و سلم لقيادة الحق (الرسل و ائمة الهدى الذين يمثلون امتدادا حقيقيا لهم عبر التاريخ) و انتمى لخطهم ، فهو من المهتدين ، وإلا فهو من الضالين.

و نهتدي من الآية الكريمة الى ان هناك علمين هما : علم الانسان عبر عقله ، العقل الذي يتجلى في المستقبل ، و علم الله الذي يكشفه الوحي ، و ان الانسان قد يعجز عن تمييز الاشياء بعقله ، بينما علم الله يجليه له تماما.

[13 - 8]و يمضي بنا السياق الى محور أساسي في السورة عندما يبين الموقف السليم الذي يجب على القيادة الرسالية اتخاذه من قوى الضغط ، التي تحاول التأثير على القائد و تجيير قراراته و مواقفه في صالحها ، بتطويعه لخدمة اغراضها من حيث يدري او لا يدري ، و عادة ما تكون تلك القوى من المترفين أصحاب المال و القدرة الاجتماعية أو السياسية أو هما معا في المجتمع.

و يتوجه الوحي بالنهي الى القائد بالذات ، لان قوى المترفين المستكبرة تسعى لافساد المجتمع و نظامه السياسي ، من خلال إفساد جهازه الديني و السيطرة عليه ، لان السيطرة عليه تجعلهم اسرع

نفاذا في المجتمع ، كما توفر لفسادهم غطاء شرعيا . و هم يتسللون الى الجهاز الديني و يؤثرون عليه بسلاح المال ، حيث يجعلونه يعتمد على أموالهم التي يقدمونها خمسا و زكاة و تبرعا او هدية و رشوة . و ان هذه الحقيقة تظهر بـــوضـــوح حينما ندرس مسيرة الجهاز الديني عبر التأريخ وفي كل المذاهب و الأديان تقريبا ، فالقوى المترفة هي التي حولت الاحبار الى جماعة يكنزون الذهب و الفضة و أداة طيعة في أيدي أصحاب المال و السلطة . كما ان التحليل المتأني لكثير من الصراعات التي كانت تدور بين القيادات الدينية و المترفين يؤكد بان سببها يكمن في رفض القيادات الدينية لهم و لسيطرتهم على الناس ، فهذا السامري و من حوله بعض اصحاب المال في مجتمع بني اسرائيل يبغون على موسى - عليه السلام - لانه وقف ضد مطامعهم و محاولاتهم الخبيثة في تطويع الدين لصالح شهواتهم و أهوائهم .

و موقف القرآن يبدو موقفا عنيفا و واضحا في تحذير الرسول -صلى الله عليه وآله - من المترفين ، لان خطرهم عظيم و عادة ما يكون متسللا ، بعيدا عن التحديات و الضغوط المباشرة الحادة ، فقد يظهر احدهم لدى القوة الدينية بمظهر التقوى و التاييد فاذا به يصارعالاخرين على الصف الاول من الجماعة ، و يبذل الاموال التي تخدم الجهاز الديني و مشاريعه في المجتمع و لكن ليس لوجه الله و تقربا منه ، و لا عن قناعة بالقادة الدينيين أبدا ، بل لحاجة في نفسه هي ان يستغلهم لمصالحه و اهوائه ، اقتصادية او سياسية او اجتماعية ،باعطائهم الخط السياسي و الاجتماعي الذي يناسبه من جهة ، و باستخراج الفتاوي التي تخدم اغراضه من جهة ثانية.

و تقسم الآيات قوى الضغط المترفة الى فريقين:

الفريق الاول : المكذبون الذين لا يؤمنون بالرسالة ولا بالرسول ، كالطواغيت الذين يجاهرون بالتكذيب ، و كالقوى المستكبرة التي في عصرنا هذا ، فهم أشبه ما يكونون بالكفار ، ولا ريب ان لهؤلاء اطماعهم تجاه الامة الاسلامية ، و بالتالي فهم يسعون للتأثير علىقيادة المجتمع الاسلامي الدينية و تطويعها.

انهم -كما الفريق الثاني - لا يسعون في البدء للقضاء على الجهاز الديني انما يحاولون الابقاء عليه ممسوخا و مفرغا من محتواه الرسالي ، لكي يركبونه مطية الى مصالحهم.

]فلا تطع المكذبين[

و يفضح القرآن خبثهم المتمثل في خطة المسخ و الافراغ التي يتبعونها ، مبينا أنهم يسعون لتغيير بعض القيم و مواقف القيادة لصالحهم بمقايضة الدين الحق بأموالهم ، وكان قضية الحق كالتجارة تقبل البيع و الشراء . فيجب ان تكون القيادة الدينية (لكي تفشل المترفين في مرامهم) على مستوى رفيع من تقوى الله فلا تخدعها زخارف الدنيا عن الحق ، و ايضا في مستوى عال من الوعي السياسي و الحنكة الإدارية و الفطنة الاجتماعية ، و مستوى من الوعي يكشف مكرهم مهما كان خفيا و محكما ، و لذلك جاءت النصوص الدينية مؤكدة على هذين الأمرين.

]ودوا لو تدهن فيدهنون[

يبدو ان اصل معنى المداهنة جاء من وضع الدهن على الشيء لكي يلين جانبه و يكون مطواعا ، و المعنى انهم يطمعون لو انك يا رسول الله تطيعهم في التنازل عن بعض القيم الإلهية و المواقف فيبادرون هم بالتنازل عن بعض مواقفهم منك و من الرسالة ، كما فعل من قبل بعض أحبار اليهود و النصارى.

و ما اكثر ما تتعرض القيادات الرسالية لهذه اللون من الضغط الماكر ، فما احوجها لتقوى الله . و لا ريب ان أعظم مداهنة يسعى المترفون لايقاع القيادات الدينية فيها هـــي فصل الدين عن السياسة لكي يتسنى لهم التلاعب بمقدرات الشعوب بصورة أفضل ، و لكي تبقى سلطتهم في مامن من ثورة المجتمع ، باعتبار ان ربط الدين بالسياسة يبعثه نحو الثورة للتحرر و التغيير.

و يتأثر الانسان بالمداهنة عبر احد عاملين : الاول : الافتتان بحطام الدنيا الذي يقدمه المترفون ، و الثاني : تغيير قناعة القائد بالقيمة التي يداهن فيها فيتنازل عنها بحثا عما هو أفضل منها ، و لذلك فان المستكبرين يوظفون جانبا كبيرا من إمكاناتهم الاعلامية لتحقيق هذا الهدف ، بمحاربة قناعات الرساليين

ليس في المجتمع و حسب بل في داخل أنفسهم ايضا ، فمثلا تراهم يوحون عبر اعلامهم المضلل بان المجاهدين الذين يسعون للاصلاح الشامل ارهابيون ، و يضربون على هذا الوتر طويلا لعلهم يجدون تجاوبا عند بعض المجاهدين فيغيروا من خططهم بما

لا يتنافى و مصالح المستكبرين ! كما كانوا أيام رسول الله - صلى الله عليه وآله - حيث كانوا يسمونه مجنونا لانه اراد تغيير الواقع و الانسان تغييرا جذريا ، طمعا في هزيمته نفسيا ثم تنازله عن ذلك الهدف العظيم.

و من الجدير ذكره هنا ان من أسباب تحريف الديانة المسيحية و اليهودية في التاريخ ان القيادة الدينية تأثرت بعاملين : احدهما الخوف من المترفين الجبارين ، و الآخر الرغبة في استقطاب المزيد من الجماهير في ظل حماية الدولة ، مما دعاهم الى المداهنة بحذف بعضالقيم و الاحكام التي في الانجيل و التوراة ، و ادخال بعض الافكار و الاحكام التي تتوافق مع اهواء الناس ، و نسوا ان ما بقي لم يعد دين الله ، بل دين الجبارين ، و انهم بذلك اصبحوا خدما في بلاط السلاطين و ليسوا منقذين لعباد الله المحرومين!

الفريق الثاني : المنافقون في المجتمع المسلم ، الذين يتمسكون بقشور الدين ، كالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء و المنكر ، و الصوم الذي لا يورث تقوى و لا يعطي صاحبه احساس بألم الفقراء ، و الانفاق المحفوف بالرياء و حب السمعة ، و هكذا الممارسات التي فرغتمن محتوياتها الاصلاحية ، و هؤلاء لا ريب يكذبون بكثير من الحقائق الإلهية كالجهاد ، و حرمة الاستغلال ، و يودون لو تداهنهم القيادة الرسالية ، و لكنهم لا يجهرون بذلك . و ما يبدو من الآيات التي تبين صفاتهم ان أهم هدف يسعون لتحقيقه من تزلفهم للجهاز الدينيفي الامة ان يجعلوه مقمعا في أيديهم يضربون به الاخرين ، كالمحرومين المستضعفين و المصلحين المغيرين افرادا و جماعات ، و السبب انهم لا يريدون الا مصلحتهم ، كما انهم اول من يعارض الاصلاح و التغيير ، ذلك ان وجود الانظمة الفاسدة و المنحرفة عن الحق عامل اساسيفي استغلالهم للطبقة المحرومة و وصولهم الى مآربهم المادية . فما هي صفات هذا الفريق ؟

- 1المبالغة في الحلف الى حد الاحتراف ، من أجل إعطاء كلامهم قيمة شرعية و من ثم التأثير به على موقف القيادة و رأيها ، بالذات و ان للايمان اعتبار عظيم عند المؤمنين ، و لا يعني ذلك ان المترفين من هذا الفريق يقتصرون على مجرد الحلف ، فهم يكذبون و ينمقون الكلام بشتى الوسائل ، و ما الحلف الا واحدا منها ، و على القائد ان يحذرهم.

]و لا تطع كل حلاف مهين[

و يبدو ان كلمة " مهين " من الهوان و الضعة حيث ان الحلاف انما يلجأ الى ذلك كونه حقيرا في نفسه و عند الناس ، و انطلاقا من ذلك يحس على الدوام و يظن ان كلامه لن يعطى اعتبارا و قيمة عند الآخرين ، الأمر الذي يلجؤه الى المبالغة في الايمان ليصطنع قيمة لكلامه بها لعله يكون مقبولا.

و عادة ما يحاول الوضعاء الذين تمكنت من أنفسهم عقدة الحقارة ان يوصلوا أنفسهم بمراكز القوى في المجتمع دينية و سياسية و اقتصادية و اجتماعية ليغطوا على ضعتهم و يجبروا نقصهم ، و انك لو فتشت في أجهزة القمع و التجسس الطاغوتية فلن تجد إلا أمثال هؤلاء.

- 2الهمز و المشي بالنميمة في المجتمع ، و بالخصوص عند القيادة ، و ذلك لأهداف ثلاثة:

الاول :لكي يبقوا هم في المجتمع الشخصية الافضل ، فتجدهم يسقطون شخصيات و يضعفونها بتقليل قدرهم عند القيادة و تلصيق التهم ضدهم ، و لقد ثبت في علم النفس ان اصحاب عقدة الهوان و الحقارة تنمو فيهم روح الانتقام من المجتمع ، و يسعون لكي يكون مجتمعا ساقطامثلهم فلا يحسبون شاذين.

الثاني : فصل القيادة عن المجتمع حتى تظل أذنا صاغية لهم وحدهم فتكون قراراتهـا و مواقفها لصالحهم فقط ، بل لا يريدون احدا سواهم يتصل بمركز القوة في الامة ، لتكون لهم اليد الطولى فيها . و

لانهم عادة ما يكونون من الطبقة المستكبرة المترفة فانه يهمهم ان يوجدوا فاصلة بين الامة و بين القيادة لكي يبقى الناس فريسة لسياساتهم الاستغلالية و المنحرفة دون علم من القيادة يدعوها للتدخل ضدهم.

الثالث : ضرب القوى الاصلاحية و المنافسة ، فانى ظهرت بوادر الاصلاح تصدوا لها ، و سودوا الصفحات بالتقارير المضللة التي لا تحوي سوى الطعن و الكذب على الآخرين ، و ملأوا بيت القيادة و أذنها بالشائعات المغرضة و بالتهمة و البهتان ، و كل ذلك ليصير القائدمقمعا في يدهم يضربون به يمينا و شمالا هذا العالم و ذلك الثائر و تلك الحركة الرسالية.

]هماز[

قيل : الهماز هو المغتاب ، و في المنجد : الطعان العياب النخاس (١) و قال صاحب البرهان : لكن في الصحاح همزه اي دفعه ، و قوس همز اي شديدة الدفع للسهم ، و في النهاية : كل شيء دفعته فقد همزته ، و في سورة المؤمنين : " اعوذ بك من همـزات الشياطيـن " اي وساوسهم و نخساتهم و غمزاتهم (٢) و اضـاف مجمع البيان قائلا : و الأصل فيه الدفع بشدة اعتماد ، و منه الهمزة حرف من الحروف المعجمة فهي نبرة تخرج من الصدر بشدة اعتماد (٣) ، و يبدو لي ان الهماز هو الذي يثير الناس و يستحثهم و يحركهم ضد الآخرين بالكلام او الفعل ، و آلة الهمز حديدة

(1)المنجد مادة همزة.

(2)تفسير البرهان / ج ٤ - ص ٣٤٠.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٣١.

في مؤخر خف الرائض ، او عصا في راسها حديدة تنخس بها الدابة (١) فتستثار لتحث المشي . و ما اكثر ما جر المترفون بهمزهم القيادات عبر التاريخ الى مواقف و آراء راح ضحيتها الابرياء و الصالحون . و لعل من وسائل همزهم النميمة التي يبالغون فيها وفي المشي بها بينالناس كما تمشي جراثيم الاوبئة بالمرض .

]مشاء بنميم[

فأنى ما حل و ارتحل حمل معه داء التفرقة ، و النميمة هي نقل كلام الناس على بعضهم عند بعض مما يميت الالفة و يحيي الفتنة ، و هي بذلك تعد من أعظم الذنوب و اخطرها لانه يهدد وحدة الامة و صفاء اجوائها ، و الى هذه الحقيقة وردت الاحاديث الاسلامية : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " يا علي كفر بالله العظيم من هذه الامة عشـــرة (منهم :) العياب و الساعي في الفتنة " (٢) ، و قال - صلى الله عليه وآله - : " ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال " المشاؤون بالنميمة ،المفرقون بيـــن الأحبـة ، الباغون للبراء العيب " (٣ (، و قال الامام الصادق - عليه السلام - : " ثلاثة لا يدخلون الجنة : السفاك للدم ، و شارب الخمر ، و مشاء بنميمة " (٤. (

- 3منع الخير عن الغير و الاعتداء عليهم و ممارسة الإثم ، و هذه كلها من الصفات اللصيقة بالمنافقين إذ أنهم يريدون الخير لانفسهم فقط ، لذلك يقفون أمام أي محاولة من قبل القيادة للاصلاح ، و يمنعونها بالتعويق و التثبيط عمليا و بالرأي ، فليس من صالحهم ان يعم الرفاه الاقتصادي كل أفراد المجتمع ، و ان تزال(١ (المنجد مادة همز.

(2)كتاب الموعظ للشيخ الصدوق / ص ١١.

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٣.

(4)الخصال / ص ١٨٠.

الطبقية ، لان قوتهم الاجتماعية و الاقتصادية قائمة على معادلة الاستكبار و الاستضعاف ، و الغنى و الفقر ، و بعبارة : على دماء الآخرين و حرمانهم.

]مناع للخير[

و تتسع الكلمة الى مصاديق كثيرة منها ان هؤلاء حينما يتحلقون حول القيادة يعلمون على حصر اعتمادها فيهم ، و سد الابواب أمام أية كفاءة سياسية أو إدارية أو إقتصادية ناشئة . و أعظم خير يمنعونه ائمة الهدى ان يأخذوا مواقعهم الشرعية في المجتمع .. وقد أشارالقمي في تفسيره الى ما ذكرنا مؤولا فقال : (الخير أمير المؤمنين) (١. (

و لا يكتفي المنافقون بمنع الخير عن الآخرين ، بل يتمادون في غيهم الى حد الاعتداء على حدودهم و حقوقهم ، ماديا بضربهم إذا كانوا منافسين أو معارضين ، و باستغلالهـم إذا كانوا من المحرومين ، و معنويا بالتهم المغرضة و تشويه سمعتهم و .. و..

]معتد أثيم[

و لأثيم تفسيران : الاول : بالنظر للكلمة كشيء مستقل فيكون المعنى انهم في حدود علاقتهم مع الغير يتصفون بمنع الخير و الاعتداء ، و في حدود أنفسهم يتصفون بمخالفة احكام الله (الإثم) كشربهم الخمر و ظنهم السوء و الحقد و الحسد ، و بصورة مبالغة كما و نوعا، لان أثيم صيغة مبالغة من الإثم.

و الثاني : بالنظر الى الكلمة متصلة بما قبلها " معتد " و في ذلك معان منها :ان اعتداءهم لا يقوم على الحق ، فهناك تجاوز على الآخرين بالحق كالذي أمر الله به في(١) تفسير القمي / ج ٢ عند الآية.

قوله : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " (١) ، و هناك تجاوز بالباطل و الإثم ، و منها : ان اعتداءهم ليس عرضا بل هو من طبيعتهم و متجذر في نفوسهم التي جبلت عليه ، فما هو إلا مظهر يعكس ما انطوت عليه انفسهم من الإثم العريض ، ومنها : انهم حين يعتدون يوغلون في الاعتداء بالمبالغة في آثامه.

و إنه لثابت علميا و عمليا ان المعتدي لا يعتدي في الواقع الخارجي و يتجاوز الحدود حتى يكون قد تجاوز الحدود في داخل نفسه ، و اسقط اعتبار الحق و الاخرين قبل ذلك في نفسه و تفكيره . فلإعتداء هؤلاء فلسفة تتأسس عليها حياتهم حيث انهم لا يعترفون بوجود حقيجب الالتزام به و احترامه و بوجود حدود و قوانين تفصل بين الناس.

- 4وكما تتداعى صفات الخير في الصالحين تتداعى صفات الشر في المفسدين ، فهم يبداون من الحلف و لكنهم لا ينتهون عند الاعتداء و الإثم بل يتسافلون بعد ذلك الى صفات سيئة أخرى.

]عتل بعد ذلك زنيم[

فما العتل و ما الزنيم ؟

الف : العتل ، قالوا : انه شخص عظيم الجثة ، قبيح المنظر ، ناقص الخلقة.

ولعـل ما ذهب اليه المفسرون كان بسببين : أحدهما : بالنظر الى تأويل الآية في) الوليد بن المغيرة) و اتخاذه مقياسا لصفاته المعنوية و المادية السيئة ، و الآخر:

(1)البقرة / ١٩٤.

استلهامهم هذا المعنى من الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - لما سئل عن العتل الزنيم : " هو الشديد الخلق ، الشحيح ، الأكول الشروب ، الواجد (شديد الحب) للطعام و الشراب ، الظلوم للناس ، الرحيب الجوف " بيد ان هذه الصفات - حسبمايبدو - ليست مقصودة بذاتها ، بل هي في حقيقتها كنايات عن صفات معنوية او مقارنات معها تتصل باخلاق الانسان ، و الشاهد على ذلك ما جاء في اللغة من جذر هذه الكلمة حيث نقرأ في اللغة : عتله : جذبه و جره ، يقال عتله الى السجن اي دفعه بعنف (١) ، و قال الله يـأمر خزنة النار بعذاب الأثيم : " خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم " (٢) اي القوه بـدفع و عنــف ، و العتل الجافي الغليظ (٣) ، و في بعض الروايات قال رسول الله (ص " : (رحب الجوف ، سيء الخلق ، أكول ، شروب ، غشوم ، ظلوم (٤) ، و عن ابن مسكان عن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي عبد الله الصادق - عليه السلام : - ما معنى قول الله عز وجل : " الاية " ؟ قال : " العتل العظيم الكفر " (٥ (، و الذي يبدو لي ان الكلمة تتسع الى الكثير من صفات الشر و الباطل ، و لا يكون الانسان عتلا حتى يعظم انحرافه كما قال الامام الصادق (ع) ، و تتداعى فيه الصفات السيئة تسافلا نحو الحضيض ، و ذلك ما يشير اليه السياق القرآني حيث جعل (العتل) من آخر الصفات ، و قال مبينا انها تأتي بعد اجتماع كثير من الصفات السيئة في الانسان " بعد ذلك " فهي غاية الشر، و مجمع الاخلاق الدنيئة.

باء : الزنيم .. هو اللصيق و المزنم اللاحق بقوم ليس منهم ولا هم يحتاجون اليه(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٤ عن المجمع.

(2)الدخان / ٤٧.

(3)المنجد مادة عتل.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ عند الآية.

(5)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٤ نقلا عن عيون الأخبار.

فكأنه فيهم زنمة (١) ، و سمي الدعي زنيما لانه شاذ عن المجتمع و لا ينسجم معه فكانه من غير جنسه ، و لعل هذه الكلمة تتسع للعملاء الدخلاء على المجتمع الاسلامي ، و المتصلين باعدائه العاملين لمصالحهم ، و ما اقرب المنافقين من حقيقة الكلمة . اوليسوا في الامةوليسوا منها و لا معها ؟

و كلمة أخيرة نقولها في الآيات : ان نهي الله عن الطاعة للذين مر ذكرهم هو نهي عن اتخاذهم بطانة للقيادة و اعضاء في جهازها الديني و السياسي لما في ذلك من اخطار عظيمة على واقع الامة و مستقبلها ، و على مسيرة القيادة الفكرية و الايمانية و السياسية ، و مكانتها الجماهيرية في المجتمع.

[14]و يبين السياق جذور الصفات السيئة عند المنافقين و هما اثنان:

الاول :الافتتان بالدنيا . و قد ذكر الاموال و الاولاد من زينة الدنيا لانهما غاية ما فيها ، و المال لا يقصد به الدينار و الدرهم بل هو كل ما يملكه الانسان من حطامها و المال رمزه ، كما ان الاولاد لا ينحصرون في الابناء من الصلب و حسب بل هم كل اتباع المترفيـن ، و الاولاد أقرب المصاديق في التبعية و الطاعة ، و هذا ما أكده الله في قوله : " المال و البنون زينة الحياة الدنيا " (٢) ، و افتتان الانسان بهما يعني حبه للدنيا و " رأس كل خطيئة حب الدنيا " (٣) ، كما قال الامام الصادق (ع) ،او كما قال رسول اللـه (ص) : " حب الدنيا أصل كل معصية و أول كل ذنب " (٤. (

(1)المنجد / مادة زنم.

(2)الكهف / ٤٦.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٣ - ص ٧.

(4)تنبيه الخواطر / ص ٣٦٢.

]ان كان ذا مال و بنين[

يعني ان أصل صفات المنافقين و المترفين الذين نهى الرسول عن طاعتهم و التي ذكرها القرآن في الآيات السابقة (الحلف و المهانة و الهمز و النميمة و منع الخير و الاعتداء و الإثم و العتالة و الزنامة) كلها بالافتتان بالدنيا (المال و البنين) . اذن فطريقتكامل اخـــلاق الخيـــر في شخصية الانسان ، و بالتالي التسامي الى قمة الفضيلة السامقـة (اعني التوحيد (لا يكون الا بتجاوز فتنة الدنيا باموالها و بنينها . و ليس تجاوز الفتنة بنبذ المال و الاتباع ، لانها حينما يحسن البشر التصرف فيهما يكونان خير معين لهعلى الرقي في سلم الكمال الاخلاقي و الايماني ، ففي الحديث الشريف عن النبي (ص) : " نعم العون على تقوى الله الغنى " (١) ، و عن الامام الصادق (ع) : " نعم العون الدنيا على الآخرة " (٢) ، اوليس العوز سبب التبعية ، و الحاجة تؤدي الى الذل ؟

و نهتدي الى فكرة أخرى هامة حينما نربط هذه الآية بنهي القيادة عن طاعة المترفين ، و هي : ان القائد قد ينخدع هو الآخر بما عندهم من حطام الدنيا (اموالا و اتباعا) فيطيعهم او يداهنهم طمعا فيهما او خشية منهما ، و يجب عليه ان يتجاوز هذه العقبة بالتوكلعلى ربه و الرغبة فيما عنده.

[15]الثاني : نبذ رسالة الله وراء ظهورهم . و ما هي رسالة الله ؟ انها الحق و الفضيلة ، و حيث رفضوها و اتبعوا اهوائهم و شهواتهم فقد اختاروا الباطل على الحق ، و الرذيلة على الفضيلة.

]إذا تتلى عليه ءاياتنا قال أساطير الأولين[

(1)فروع الكافي / ج ٥ - ص ٧١.

(2)المصدر / ص ٧٢.

أي انها قيم رجعية لا تنسجم مع الواقع المعاصر فهي أساطير تشبه ما يسطره الأولون بخيالاتهم من القصص البعيدة عن واقع الحياة و حقائقها ، و هذه من طبيعة الانسان حينما يتكبر و يعاند لا يبحث عن صحة الفكرة ، ولا كونها حقا أم باطلا ، و انما يبحث قبل ذلك وبعده عن التبرير بغض النظر عن سلامته .. فالمهم ان يقدم عذرا مبررا ، و لكن هل درس المترفون رسالة الله دراسة موضوعية عقلانية اوصلتهم الى هذا الحكم ، ام انهم وجدوها لا تتفق مع اهوائهم ، و وجـدوا الرسول لا يداهنهم ولا يطيعهم فقالوا ذلك ؟ بلى . انهم ربطوا الرسالة بمصدر بشري (الاولين) و لم يربطوها بالله حتى يهربوا من مسؤولية الحق ، و لكن هل يصير الحق باطلا بمجرد ان يقول احد انه اسطورة او باطل ؟ كلا .. و هكذا لا تغير اباطيل المترفين من حقيقة الرسالة شيئا أبدا ، و دليل ذلك أنهم لن يفلتوا من الجزاء.

[16]بل سيتأكد لهم يوم الجزاء ان الرسالة حقائق واقعية عندما يجازيهم الله و يعذبهم ، و هذا ما يوضح لنا العلاقة بين قول المترفين ان الرسالة أساطير الاولين و بين قول الله مباشرة:

]سنسمه على الخرطوم[

و الوسم : العلامة التي يعرف بها الشيء ، و يقال للكي وسما لان العرب كانت تحمي حديدة تكوي بها الدواب لتكون فيها علامة مميزة ، و الميسم هو آلة الوسم ، وان المترفين ليكوون يوم القيامة بمياسم خزنة النار ، التي تترك عليهم علامة يعرفهم بها الخلائق فيفتضحون و يعيبونهم على افعالهم و ذنوبهم

الدنيئة . و قد نستوحي من هذه الآية ان الانسان و حتى المترف لا يعترف و هو يمارس الذنب كالهمز و النميمة و منع الخير انه على الباطل ، بل يخفي لحقيقة بشتى الوسائل و المبررات عن الآخرين ، و لذلك كان من جزائه في الآخرة الفضيحة بالوسم على الخرطوم ، فما هو الخرطوم ؟

في المنجد : خراطيم القوم ساداتهم و أبرزهم ، يسمى بذلك الأنف ، و يستعمل خصوصا للفيل (1)، و قيل للأنف خرطوما لان الوجه أبرز ما في الانسان ، و الأنف أبرز ما في الوجه ، و ربما وصف القرآن أنوف المترفين بالخراطيم (أنوف الافيال الطويلة) لانهم عادة مايشمخون بها على الناس استطالة و تكبرا ، حتى لتكاد تطول لو أمكنها . و قد تمحورت كنايات العرب عن التكبر حول الأنف ، و يقولون : شمخ بأنفه ، و أرغم الله انفه ، و آتي برغم أنفه (٢) ، وحيث يعذبهم الله بالوسم على أنوفهم فذلك اهانة لهم باعتبارها مقياس العزةو التكبر ، يقال : أعز الله أنوفهم إذا رفع القوم شأنا . ولعل الكلمة تتسع الى اللسان الذي يحلفون به ، و يهمزون به ، و ينمون ، و يمنعون الخير ، و يحاربون به الرسول و الرسالة ، و ما الى ذلك من سائر المعاصي التي يلعب اللسان فيها دورا رئيسيا ، و انما يطيل الله أنوفهم أو ألسنتهم في الآخرة لتستوعب بمساحتها قدرا أكبر من العذاب.

قصة أصحاب الجنة

[20 - 17]و يشبه القرآن واقع المترفين مذكرا بقصة اصحاب الجنة ، لانهم كهؤلاء افتتنوا بزينة الحياة الدنيا فاتبعوا الاهواء و خالفوا الحق و استكبروا على المحرومين ، لولا انهم بعد طائف من الله عليها اكتشفوا خطاهم و بادروا الى التوبة خشية العذاب الأكبرفي الآخرة . قال ابن عباس : (انه كان شيخ كانت له جنة ، و كان لا يدخل بيته ثمرة منها و لا الى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه ، فلما قبض الشيخ و ورثه بنوه - و كان له خمسة من البنين - فحملت جنتهم في تلك(١) المنجد / مادة خرط (١٢) بتصرف.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ عند الاية.

السنة التي هلك فيها أبوهم حملا لم يكن حملته من قبل ذلك ، فراحوا الفتية الى جنتهم بعد صلاة العصر ، فاشرفوا على ثمرة و رزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم ، فلما نظروا الى الفضل طغوا و بغوا ، و قال بعضهم لبعض : ان أبانا كان شيخا كبيرا قد ذهب عقله و خرف فهلموا نتعاهد و نتعاقد فيما بيننا ان لا نعطي أحدا من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئا ، حتى نستغني و تكثر اموالنا ، ثم نستأنف الصنعة فيما يستقبل من السنين المقبلة ، فرضي بذلك منهم اربعة و سخط الخامس ، و هو الذي قال تعالى : " قال أوسطهم ألم أقللكم لولا تسبحون. "

فقال لهم أوسطهم : اتقوا الله و كونوا على منهاج أبيكم تسلموا و تغنموا ، فبطشوا به فضربوه ضربا مبرحا ، فلما أيقن الأخ انهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لامرهم ، غير طائع ، فراحوا الى منازلهم ثم حلفوا بالله ان يصرموه إذا اصبحوا و لم يقولوا ان شاء الله ، فابتلاهم الله بذلك الذنب ، و حال بينهم و بين ذلك الرزق الذي كانوا اشرفوا عليه) (١. (

و لعل في القصة اشارة الى أنه تعالى أجرى نفس السنة على المترفين او طالهم منه شيء من العذاب في الدنيا ، و فـــي رواية أبي الجارود عن الامام الباقر (ع) تأكيد لذلك ، قال : " ان أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي اصحاب الجنة " (٢) ، وإذا لم يكنأهل مكة باجمعهم فلا أقل مصاديق الآيات السابقة كالمغيرة و آخرين ممن نزلت في شأنهم يومذاك . قال تعالى:

]إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة[

أي اختبرناهم بالثروة بمثل ما اختبرنا اصحاب المزرعة ومادامت السنن الإلهية في(١) تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣٨١.

(2)المصدر / ص ٣٨٢.

الحياة واحدة فيجب إذن ان يعتبر الانسان بالآخرين سواء المعاصرين له او الذين سبقوه ، و ان يعيش في الحياة يتلمذ فانها مدرسة و أحداثها خير معلم لمن أراد و ألقى السمع و أعمل الفكر وهو شهيد ، و بهذه الهدفية يجب ان نطالع القصص و نقرأ التأريخ ، فهذه قصة أصحابالجنة يعرضها الوحي لتكون أحداثها و دروسها موعظة و عبرة للانسانية.

و القرآن في عرضه لهذه القصة الواقعية (١) لا يحدثنا عن الموقع الجغرافي للجنة هل كانت في اليمن او في الحبشة ، ولا عن مساحتها ، و نوع الثمرة التي اقسم اصحابها على صرمها ، لان هذه الأمور ليست بذات أهمية في منهج الوحي ، إنما المهم المواقف و المواعظ والاحداث المعبرة سواء فصل العرض او اختصر و أوجز.

]إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين[

أي اول الصباح ، و خلافا لعادة الفلاحين الذين يصرمون بعد طلوع الشمس ، و ذلك لكي لا يعلم المساكين بالامر فيحضرون طلبا للمعونة ، و يظهر انهم تعاقدوا على ذلك ليلا . و الصرم اصله القطع ، يقال : تصارم القوم اذا تقاطعوا و هجر بعضهم بعضا ، و سيف صارم يعنيشديد القطع ، و الرجل الاصرم الذي قطع طرف أذنيه ، و صرم النخل اذا قطع عروقها .. ولعل في الآية اشارة الى نوع شجرة الجنة بانه مما يصرم كالنخل و العنب و ليس مما يحصد كالحنطة او يجنى كالفاكهة . و القسم هو غاية العزم و الاصرار . و لعلهم انما تحالفوا و تعاقدوا لكي لا ينفرد بعضهم باعطاء شيء للفقراء او افشاء سر مؤامرتهم حيث يبدو ان بعضهم كان مخالفا لمثل هذه العملية وهو أوسطهم.

(1)اقول واقعية لان بعض المفسرين و الذين درسوا القصص القرانية حاولوا تصويرها بانها قصص خيالية و همية وضعها الله لتكون وسيلة لافكار القرآن ، و ليس في ذلك مقدار من الصحة.

]و لا يستثنون [

و تنطوي هذه الآية على معنيين : أحدهما : الاستثناء بمعنى أخذ مشيئة الله و المتغيرات بعين الاعتبار ، فانه نهى سبحانه ان لا يعلق احد عزمه و قراره بمشيئته فقال : " و لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله (1) " و هذه حقيقة علمية واقعية ان الانسان العاقل حينما يخطط لأمر ما يجب ان يضع في فكره الاحتمالات الممكنة التي قد يواجهها في المستقبل ، و لقد أثبتت التجارب العلمية ما نعايشه يوميا من احتمالات الخطأ و مخالفة ما نخططه عما يقع فعلا ، مما يكشف أمرين : الأول : جهلنا بكل الحقائق التي قد تقع ، و الثاني : ان هناك ارادة فوق القوانين و الانظمة الواقعية يمكن ان تخرقها و تخرب الحسابات و الخطط في أية لحظة بحيث لا يملك الانسان الا الاستسلام لها ، او يكون قد استعد للأمر سابقا و وضع الخطط المناسبة ، و تعرفنا البصائر الاسلامية بتلك الارادةانها مشيئة الله عز وجل .. يقول الامام علي - عليه السلام - : " عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، و حل العقود ، و نقض الهمم " (٢) ، و ما اكثر البحوث الفلسفية التي تفتح هذه الآية آفاقها أمام المتدبر ، و التي خاض فيها المفسرون و الفلاسفة.

الثاني :الاستثناء بمعنى الاقتطاع و العزل من الثمر للفقراء و المساكين . و لقد أغفل أصحاب الجنة قول " إلا أن يشاء الله " كما عقدوا العزم بالايمان المغلظة ان لا يعطوا و لا فقيرا واحدا شيئا مما يصرمون ، و لكن هل أفلحوا في أمرهم ؟ كلا..

]فطاف عليها طائف من ربك و هم نآئمون[

(1)الكهف / ٢٣ - ٢٤.

(2)نهج البلاغة / حكمة ٢٥٠.

قبل حلول موعدهم الذي تعاقدوا على ان يهبوا فيه للصرم (اول الصباح) ، و ما يدريك لعلهم ناموا اول الليل طمعا في الجلوس مبكرين . بلى . ان الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ما كان ليغفل عن تدبير خلقه و إجراء سننه في الحياة ، فقد اراد ان يجعل آية تهديهم الى الايمان به و التسليم لأوامره حيث أمر بالاستثناء (إنشاء الله) و بالانفاق على المساكين ، و ان يعلم الانسان بان الجزاء حقيقة واقعية وانه نتيجة عمله.

و الطواف هو المرور بالشيء و حوله ، و الطائف الذي يقوم بذلك الفعل ، و لقد قال المفسرون انه العذاب ، وقد يكون تأويله بالريح المدمرة ، او طوفان الرمل ، او الماء العاتي ، او الجراد تأكل الثمر و كأنها تصرمه ، و لعل الاخير أقرب الاحتمالات .. يقال : طافالجراد إذا ملأ الأرض كالطوفان (١. (

]فأصبحت كالصريم[

و كأن أحدا سبقهم إلى صرمها ، و هكذا يواجه مكر الله مكر الانسان فيدعه هباء منثورا " و مكروا و مكر الله و الله خير الماكرين " (٢) ، و اذا استطاعوا ان يخفوا مكرهم عن المساكين فهل استطاعوا ان يخفوه عن عالم الغيب و الشهادة ؟ كلا .. و أرسل الله طائفة ليثبت لهم هذه الحقيقة ، و ربما جعله ليلا " و هم نائمون " لتكون القضية اعمق أثرا حيث يعلمون ان الجزاء من جنس العمل ، فكما أنهم أخفوا مكرهم عن اولئك كذلك أخفى الله مكره عنهم فما جعلهم يعاينونه.

[33 - 21]و لان من طبيعة الانسان انه سريع الانتباه من الرقاد عند انتظار أمر هام ، فانهم كانوا - فيما يبدو - ايقاظا قبيل الصبح.

(1)المنجد / مادة طاف.

(2)ال عمران / ٥٤.

]فتنادوا مصبحين[

نادى بعضهم بعضا ، و اجمعوا بالفعل على ضرورة التبكير في الذهاب الى الجنة و صرمها ، و استحث بعضهم بعضا.

]أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين[

أي إذا كنتم تريدون الوقت الانسب للصرم من دون استثناء فلا انسب من الغدو ، وهو السعي أول الصبح . و أصل الحرث من قلب الارض بآلة الحراثة ، و حرثكم يعنون الذي اتعبتم انفسكم حتى حرثتموه ، و في ذلك استثارة للذات ، بأنكم الذين اجهدتم انفسكم و حرثتم الارضو زرعتموها و ناضلتم منذ البداية حتى اثمرت .. فأنتم وحدكم إذن الذين يجب ان يكون لكم النتاج لا يشارككم فيه أحد من الناس.

]فانطلقوا وهم يتخافتون[

في سرعة متانية محفوفة بالحيطة و الحذر من الفضيحة ، لكي ينجزوا المهمة لو أمكنهم قبل استيقاظ المساكين و رواحهم الى حوائجهم . و التخافت نقيض الجهر و الاعلان فهو التسار ، و يبدو انهم يدعون بعضهم الى المزيد من الكتمان و التخفي . او كانوا في اثناء انطلاقهم الى الصرم يتناجون الحديث و التآمر . و عملوا المستحيل من أجل همهم الشاغل الذي تخافتوا به طيلة الطريق الى جنتهم ، و هو إخفاء الأمر على المعوزين حتى لا يسألوهم شيئا مما يصرمون.

]أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين[

و المسكين هو المعوز الذي لا يملك حتى قوت يومه ، و الآية تدل على مدى شحهماذ لا يريدون ان يتعطفوا و لا على واحد ولو كان من احوج الناس ! و أكدوا على ذلك اليوم بالذات لانه يوم الصرم و القسمة ، فلا يضرهم ان يدخل المساكين بعده اذ لا ثمر ولا قسمة ، و الآية تعكس ظاهرة كانت شائعة في ذلك المجتمع و هي ان المساكين و المعوزين يدخلون المزارع و البساتين في مواسم الجني و الحصاد و الصرم ، و لعلهم كانوا يحاولون التعرف على اليوم الذي يبادر فيه الملاك الى ذلك فيطوفون عليهم في حقولهم طمعا في المساعدة و الاعانة ، و لعل والد الاخوة الخمسة (اصحاب الجنة) الذي توفى و أورثهم إياها كان قد عودالمساكين على المعونة يوم الصرم من كل عام ، وقد أخذ اصحاب الجنة ذلك بعين الاعتبار في خطتهم و احتاطوا للأمر بحيث انهم من الناحية الظاهرية ما أغفلوا شيئا.

]و غدوا على حرد قادرين[

في ظنهم اذ احكموا خططهم و كيدهم من كل الجوانب . و اختلف في معنى الحرد فقيل :هو القصد (١) ، فالمعنى غدوا على قصدهم الذي قصدوا اي الصرم و المنع قادرين عند انفسهم ، و قيل : الغضب (٢) ، و قيل : المنع ، و قيل : الجد (3)، و يبدو لي انه المنع المقصودالجاد و المشرب بالحقد و الغضب على المساكين و النفور منهم . و انما تصوروا أنفسهم قادرين على ذلك لانهم أخذوا بكل الاسباب التي من شأنها إيصالهم الى الهدف ، و غاب عنهم - بسبب ترفهم و ضعف ايمانهم - ان قدرة الله المطلقة فوق كل شيء ، و انه وحده الذي لا يمنعهمانع . و مشوا نحو جنتهم و كلهم ثقة بأن ما أرادوه سوف يتحقق.

]فلما رأوها قالوا إنا لضالون[

(1)في مجمع البيان و الكشاف و تفسير البصائر عند الآية.

(2)المنجد / مادة حرد.

(3)في الدر المنثور عند الآية.

عن الحق ، و ان شيئا لا يصير إلا أن يشاء الله ، و انه يعلم حتى السر ، و ان في الانفاق في سبيل الله خيرا عظيما و بركة ، و قيل : ضالون اي اننا ضيعنا الطريق و صرنا الى غير جنتنا إذ لم يصدقوا انفسهم ان الارض التي تركوها أمس بأفضل حالة قد تحولت الى بلقعفزعموا انهم قد ضلوا الطريق الى ارضهم الى غيرها ، و لكن كيف يضيع الانسان ارضه ؟! كلا .. إنها أرضهم بعينها ، وإنهم ضالون عن الحقيقة و ليسوا ضالين عن جنتهم ، وإنهم حرمهم الله بمشيئته و حكمته.

]بل نحن محرومون[

و ثمة علاقة بين ضلالهم و حرمانهم و هي ان بلوغ الانسان تطلعاته و أهدافه المعنوية و المادية متصل بالمنهج الذي يتبعه في الحياة ، فحينما يخطىء اختيار المنهج أو يضل عن المنهج الصحيح فإنه بصورة طبيعية مباشرة سيحرم ليس من معطياته المعنوية بل حتى الماديةمنها ، و هـذا ما وقع فيه أصحاب الجنة ، و في الحديث قال الامام الباقر - عليه السلام - : " ان الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق " (١ (.

و نستوحي من الآية بصيرة أخرى و هي : انهم اهتدوا الى ان الحرمان الحقيقي ليس قلة المال و الجاه بالمسكنة ، و انما الحرمان و المسكنة قلة الايمان و المعرفة بالله بالضلال.

و هكذا أصبح الحادث المريع بمثابة صدمة قوية ايقظتهم من نومة الضلال و الحرمان ، و بداية لرحلة العروج في آفاق التوبة و الإنابة ، والتي أولها اكتشاف الانسان لخطئه في الحياة . و هكذا نهتدي الى ان من أهم الحكم التي وراء أخذ الله(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٥ نقلا عن الكافي.

للناس بالبأساء و الضراء و ألوان من العذاب في الدنيا هي تصحيح مسيرة البشر ، بإحياء ضميره و استثارة عقله من خلال ذلك ، كما قال تعالى : " فأخذناهم بالبأساء و الضراء لعلهم يتضرعون " (١) .. فما أحوجنا نحن المسلمين ان نتأمل قصة هؤلاء الاخوة الذيناعتبروا بآيات الله و راجعوا أنفسهم بحثا عن الحقيقة لما رأوا جنتهم وقد أصبحت كالصريم ، فنغير من انفسنا ليغير الله ما نحن فيه ، اذ ما اشبه تلك الجنة و قد طاف عليها طائف من الله بحضارتنا التي صرمتها عوامل الانحطاط و التخلف.

ولو انهم استمعوا الى نداء المصلحين لما ابتلوا بتلك النهاية المريعة .. و هكذا كل امة لا تفلح إلا إذا عرفت قيمة المصلحين الثائرين ، فاستمعت الى نصائحهم ، و استجابت لبلاغهم و إنذارهم . و لهذا الدور تصدى اوسط أصحاب الجنة ، فعارضهم في البداية حينما ازمعوا و اجمعوا على الخطيئة ، و ذكرهم لما أصابهم عذاب الله بالحق ، وحملهم كامل المسؤولية ، و استفاد من الصدمة التي أصابتهم في إرشادهم الى العلاج الناجح.

]قال أوسطهم[

و هو يذكرهم و يلومهم ، و يرشدهم في ان واحد:

]ألم أقل لكم لولا تسبحون[

أي أن التسبيح هو السبيل لعلاج الضلالة و الحرمان ، فهو إذن ليس كما يتصور البعض مجرد قول الواحد سبحان الله ، انما هو شريعة نظام و منهجية حياة ، تتسع لعلاج كل انحراف و مشكلة لدى الانسان ، و هدايته الى الحق و الصواب في كل(١) الانعام / ٤٢.

ميـــدان و جانب ، حيث انه بالتسبيح يقدس المرء ربه فلا ينسب الذنب اليه و إنما الى نفسه ، ولهذا يأتي التسبيح عند الاعتراف بالذنب ، مثل قوله سبحانه في قصة ذي النون و على لسانه " : سبحانك إني كنت من الظالمين " و الذي ذهب اليه البعض من تفسير للتسبيح هنا بانه الاستثناء (بالعطاء للمساكين ، و قول إنشاء الله) او التوبة بعد الذنب صحيح و لكنه من المصاديق و المفردات التي الى جانبها الكثير مثيلاتها.

و تتساءل : من هو اوسطهم ؟

قال اكثر المفسرين انه اوسطهم في السن ، و ذلك ممكن الا ان الاقرب للمعنى انه أعدلهم و أرجحهم عقلا ، ذلك ان السن في مثل هذه القضية ليس بذي اهمية حتى يذكر ، و الى ذلك ذهب ابن عباس و قد ساله سائل : يا ابن عباس كان اوسطهم في السن ؟ فقال : لا بل كان اصغر القوم سنا و كان اكبرهم عقلا ، و اوسط القوم خير القوم ، و الدليل عليه في القرآن انكم يا أمة محمد خير الأمم ، قال الله " :و كذلك جعلناكم أمة وسطا " (١) ، و انما يكتشف الانسان الطريق السوي باعتداله في العقل و البصيرة لا بمقدار عمره ، و حيث كان اخوهم هذا صاحب بصيرة نافذة فقد سبقهم الى معرفة الحق و نصحهم ، و قرأ النتائج المستقبلية قبل وقوعها ، و كذلك يكون اولوا الالباب من القادة الصالحين.

و من موقف اوسط اصحاب الجنة نهتدي الى بصيرة هامة ينبغي لطلائع التغيير الحضاري و قادته ان يدركوها و ياخذوا بها في تحركهم الى ذلك الهدف العظيم ، و هي : ان المجتمعات و الامم حينما تضل عن الحق و تتبع النظم البشرية المنحرفة تصير الى الحرمان ، و تحدث فيداخلها هزة عنيفة (صحوة) ذات و جهين : احدهما:

(1)تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣١٨.

القناعة بخطأ المسيرة السابقة ، و الآخر : البحث عن المنهج الصالح ، و هذه خير فرصة لهم يطرحوا فيها الرؤى و الأفكار الرسالية و يوجهوا الناس اليها . و انها لظروف أمتنا الاسلامية التي جربت اليمين و اليسار و تعيش الان مخاض العودة الى الخيار الإلهي الاول بروح عطشة لتلقي الرسالة و الطاعة لحملتها و القادة اليها . و كذلك وقف أصحاب الجنة من أوسطهم و دعوته للعودة الى الحق:

]قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين[

فالقيم الإلهية اذن صحيحة لا خطأ فيها لانها تتنزل من عند الله صاحب الكمال المطلق ، انما الخطأ و الداء في الانسان الذي يظلم نفسه بالانحراف عن الحق .و كذلك ينبغي للامة الاسلامية ان تقيم واقعها و هي تبحث عمن هو المسؤول عن تخلفها ، هل الاسلام أم المسلمين ؟

و هكذا سبحوا ربهم لكي لا يلقوا بمسؤولية خطئهم على الاقدار ، لان ذلك كان يعيق انطلاقتهم نحو التغيير و الاصلاح.

]فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون[

يلقي كل واحد المسؤولية على غيره ، و هذه من الطبائع البشرية ان يدعي الانسان المكاسب و يتهرب من التبعات و النكسات ، و على ذلك مضى المثل : " الهزيمة يتيمة و للانتصار ألف أب " ، و لكن اصحاب الجنة تجاوزوا هذه العقبة ايضا ، و اعترفوا جميعهم بالمسؤولية ايمانا منهم بانها الحقيقة الواقعية ، و السبيل النافع الوحيد للتغيير الجذري الشامل.

]قالوا يا ويلنآ إنا كنا طاغين[

أي الويل (العذاب) لنا و بسببنا اذ طغينا ، و الطغيان اعظم من الظلم لانه تجاوز الحد فيه ، و هكذا يجب ان يعترف الانسان (فردا و امة) بحجم الخطيئة الواقعي دون تصغير يدعو الى التبرير ، و لا تضخيم يبعث روح اليأس من الاصلاح ، بل اعتراف الشجعان الذي ينفخ في النفوس روح التوبة النصوح الى الله ، و رجاء المتطلعين الى الاصلاح و الخير.

]عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها[

في الدنيا و الآخرة.

]إنا الى ربنا راغبون[

و بالرغبة الى الله يتجاوز الانسان فتنة الدنيا و أسرها الذي يقع فيه بالرغبة الطاغية اليها.

وفي نهاية القصة يضع القرآن أمامنا أعظم المواعظ و العبر التي تهدي اليها و هي :ضرورة ان يتخذ الانسان حوادث الدنيا و أحداثها علامة و آية هادية لما في الآخرة.

]كذلك العذاب و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون]قيل :يعني لو كانوا يعلمون عذاب الآخرة ، و هو صحيح ، و الاقرب منه ان صاحب البصيرة و العلم يعرف وهو في الدنيا بايمانه و بصيرته ان ما في الآخرة أعظم حينما يرى العذاب في الدنيا . و هنا يتضح الفرق بين صاحب البصيرة الذي يرى الحقائق بعقله (كاوسط اصحابالجنة) و بين أصحاب الجنة الذين اهتدوا لعظمة عذاب الآخرة بما وقعوا فيه من الويل الدنيوي ، او يكون ضالا فلا يهتدي رغم الآيات و المواعظ.

و لعلنا نستوحي من عموم القصة ان بعضا من المكذبين و المترفين الذين كانوا في محيط الرسول انذاك ترجى لهم التوبة و الهداية كاصحاب الجنة ، بالذات و ان الله في الآيات القادمة يدعو النبي - صلى الله عليه وآله و سلم - ان لا يتعجل كصاحب الحوت في الحكم علىقومه بل يصبر لحكم الله الذي سيظهر في

المستقبل فقد يتوبون كما تاب قوم يونس - عليه السلام - و من هذه الفكرة يجب على الدعاة ان يستمدوا سعة الصدر و كظم الغيظ اذ يواجهون الرفض و العناد في طريق نشر الرسالة بين الناس.

فاصبر لحكم ربك

هدى من الآيات

في هذا الدرس تعالج الآيات اسباب التكذيب بالرسالة و التهرب من مسؤولياتها ، و هي:

اولا :الأمنيات الباطلة التي تحلم بتساوي الناس في الجزاء ، الأمر الذي يبرر للمترفين عدم التصديق بالرسالة و العمل بمضامينها و تحمل المسؤولية في الحياة ، ولماذا يكلف الانسان نفسه ما دام الجزاء واحدا ؟

و القرآن بعد ان يؤكد على عظيم ثواب المتقين و شديد عذاب المجرمين ، يسفه الحكم الباطل لدى البعض بتساوي الفريقين عند الله ، وذلك بأدلة وجدانية لابد للانسان السوي من التسليم لها.

ثم تبين الآيات بان جزاء الآخرة ليس إلا تجسدات واقعية لاعمال الانسان التي اختارها بتمام وعيه و إرادته في الدنيا ، لذلك لا يستطيع احد سجودا يوم يكشف عن ساق الجد رغم الدعوة الإلهية له الى ذلك ، و تغطي وجهه الذلة . لماذا ؟ لانه أعرض عن السجود وقد كانفي سلامة مادية و معنوية في الدنيا ، وان هذه الحقيقة تبعث في وجدان المؤمنين روح المسؤولية التي يعمقها الوحي بتحذير الانسان من انه لو كذب بهذا الحديث فسوف يستدرجه من حيث لا يعلم ، الأمر الذي يصير به الى سوء العذاب ، ولا يكون له في الآخرة من خلاق ، و ذلك من متين كيده عز وجل الذي يحسبه المترفون خيرا.

ثانيا : الموقف الخاطىء من الرسالة و الاعتقاد بانها مغرم ، لما فيها من مسؤولية و بالذات واجب الانفاق المفروض على أصحاب الثروة ، و انها لكبيرة على المترفين الذين اسرتهم الاموال و يتضاعف حرصهم كلما فتح الله لهم ابوابا من الدنيا و أملى لهم.

ثالثا : البطر الذي يجعل الانسان لا يشعر بالحاجة الى الرسول و الرسالة ، بل قد تراه يزعم انه قد أعطي الغيب بيده ! الآية (٤٧. (

و هذه الاسباب الثلاثة ذاتها تجعل الحركة التغييرية في أوساط المترفين وفي ظل هيمنتهم حركة بطيئة و صعبة مما يوجب على كل مصلح رسالي أخذها بعين الاعتبار ، فيصبر لحكم ربه ، مستقيما على رسالته لا يتراجع عنها ، و لا يصاب بردة فعل سلبية قد تقوده الى تكفيرمجتمعه او هجرته ، كما فعل النبي يونس بن متى - عليه السلام - الذي يئس من التغيير فدعى على قومه فابتلي بالسجن في بطن الحوت ، فانه يجب على كل رسالي الصبر في طريق الرسالة وان كان المكذبون يكادون من الحقد و البغض يزلقونه بأبصارهم ، و يمارسون ضده حربا إعلامية شعواء سلاحها الشائعات و التهم و الدعايات المغرضة ، الآيات . (51 / 48)

و كما يجب ان يستقيم الداعية على اهدافه الربانية دون يئس من اصلاح الناس ، كذلك يجب ان لا يفقد ثقته برسالته فيشكك نفسه في قيمها لعدم تجاوب الناس معه او لاعلام المترفين و المتسلطين ضدها .

بينات من الآيات

[38 - 34]بعد التحذير من العذاب في الدنيا و من العذاب الاكبر في الآخرة يرغبنا السياق في الجزاء الحسن الذي اعد للمتقين دون سواهم ، و ذلك بالتأكيد على انه لا يشمل كل من هب و دب ، لان للجزاء الإلهي مقاييس دقيقة حيث يتناسب بنوعه و قدره و درجات الناسالايمانية و أعمالهم الصالحة.

]ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم[

ولم يقل (جنات نعيم) لان الألف و اللام يجعلان الكلمة اوسع معنى ، فبينما يدل قولنا : (نعيم) على جزء منه يتسع النعيم لتمام المعنى مما يتناسب و معالجة السياق لموضوع الترف حيث يسمو

بالمؤمنين عن فتن الدنيا و يفتح أمامهم أفقا من النعيم الذي لا ينتهيعند حد و لا زمان فتتصاغر عنده الدنيا ، فلا يجدون ضيرا لانها زويت عنهم ، لان الآخرة خالصة لهم ، كما قال تعالى " :قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " (١) ، و بهذا تتعادل الصورة في اذهان المتقين بانهم ان لم يملكوا في الدنيا من متاعها فالآخرة خالصة لهم.

و ببيان هذه الحقيقة ان الجنات للمتقين يمهد القرآن لإبطال أماني المجرمين بتساويهم مع المؤمنين في الجزاء ، و تلك الاماني عامل من عوامل تكذيب المترفين(١) الاعراف / ٣٢.

الرسالة يعالجها القرآن الكريم في هذا السياق ، و هي التالية:

اولا : الأمنيات الباطلة بالتساوي في الجزاء مع المؤمنين.

هل يتساوى الصالح و الطالح ؟ كلا .. انه مرفوض عند كل عاقل.

]أفنجعل المسلمين كالمجرمين[

و المسلم هو الذي سلم نفسه لله بتطويعها وفق أوامره . و السؤال : لماذا قدم المسلمين على المجرمين بينما يفترض العكس باعتبار السياق ينفي مزاعم المجرمين بأنهم متساوون مع المتقين في الثواب ؟ و لكن المتدبر حينما يمعن النظر يهتدي الى لطائف بلاغية لترتيبالكلمات في الآية:

- 1انه تعالى في نهاية قصة اصحاب الجنة اكد حقيقة العذاب وأنه في الآخرة أكبر ، مما يرجح كفة الرهبة في النفس ، فجاءت الآيتان (٣٤ / ٣٥) لتحقيق المعادلة عند المؤمنين بالتأكيد على ان لهم جنات النعيم ، و انهم لا يعذبون كالمجرمين ، و يرفع الله رجاء المتقين الى اقصاه حينما ينفي تساوي المجرمين مع المسلمين الذين هم أقل شأنا من المؤمنين فكيف بالمتقين الارفع درجة حتى من المؤمنين ؟ و من جانب آخر يزيد من يأس المجرمين من الثواب حينما لا يفسح مجالا حتى لمجرد الاحتمال بأنهم يمكن ان يتساووا مع المسلمين بتقديمهم في الآية (المجرمين كالمسلمين) و جعل مدارها حول الثواب بدل العقاب ، فان الآية على حالها تجعل العذاب مسلما به للمجرمين و يبقى التساؤل عن مصير المسلمين هل يتبعونهم فيه ام لا ؟

- 2ان الجزاء في واقعه ذات العمل الذي يقوم به كل انسان خيرا او شرا ، و لو انه سبحانه أعطى للمجرمين جنات النعيم كما يعطي المسلمين له لكان الأمر من أحد جهاته جعلا لهم كالمجرمين ، و كانهم لم يعملوا ما يتميزون به عنهم ، بل وكأنهم عملوا أعمالهم الإجرامية التي ساوت المصير و الجزاء بين الفريقين ، و هذا ما ينكره كل عاقل سليم ، و يستنكره السياق:

]مالكم كيف تحكمون[

يعني على أي أساس و منهج ؟ و لا يملك المترفون المجرمون أمام هذا المنطق إلا التسليم له و نبذ الأمنيات الباطلة بالعودة الى الحق و تحمل المسؤولية في الحياة كضرورة وجدانية و عقلية . وإنه ليضعهم أمام واحدة من اجابتين : فاما ان يحكموا بالتساوي ، و هذا مايرفضه كل عاقل ، وإما ان يحكموا بالاختلاف وأن الثواب للمسلم و العذاب للمجرم (كما يحكم العقلاء) فلابد إذن ان يضربوا بظنونهم عرض الحائط ، ثم كيف يتمنون على ربهم ذلك الحكم الجائر و هو المنزه عن الظلم و الجهل ؟ وما اظهر تسفيه هاتين الآيتين لبعض الفلسفات الصوفية المفرطة في الرجاء ، التي يستبعد دعاتها ان يعذب الله أحدا من الناس وهو الرؤوف الرحيم ، بل و يفسرون آيات العذاب القرآنية على أنها لمجرد التخويف و سوق الناس نحو العمل بالحق ليس إلا!!

إن أماني المترفين بالتساوي مع المؤمنين عند ربهم من العوامل الخطرة التي تدعوهم الى التكذيب بالحق و الحياة اللامسؤولة ، و التي تعيق فيهم اي سعي جاد ، بل و تبعث فيهم أسباب الإجرام . وأي قيمة تبقى للاحكام و الحدود الإلهية إذا كفر الانسان بحقيقة الجزاء و بانه من جنس العمل ؟! وأي حافز للالتزام بأوامر الله ، و الإرتداع عن نواهيه يظل إذا كفرنا بالآخرة او فصلنا بينهما وبين الدنيا ؟! ولذلك

يتصدى السياق حتى الآية (٤٥) للرد على تلك الأماني و الظنون .. و هكذا بعد ان اوضح بأنها لا تستند الى أي دليل وجدانيولا عقلي ينفي استنادها الى الوحي المصدر الثاني للعلم الحق ، بل حتى الى كتاب معتبر لدى العقلاء.

]أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون]و الكتاب الذي يدرسه الانسان هو العلم الثابت الذي يعتمده منهجا في الحياة فيعكف على دراسته بالبحث لفهمه و تطبيق ما فيه ، و ليس ثمة كتاب إلهي ولا حتى بشري معتبر لدى الناس يساوي في قوانينه و قيمه بين البري ء و المجرم مهما اختلفت الكتب البشرية و القوانين الوضعية في تحديد مصاديق المجرم ، لان الكتاب الذي يخالف كل قيم العرف لن يكون مقبولا عند الناس ، و اذا يحكم المترفون بالتساوي عند الله بين المجرم و المسلم فانما ينطقون من الأهواء و الأماني التي لا اعتبار لها عند العرف العام.

و هذه الاية تستثير فطرة الانسان و وجدانه و تستشهد بما تعارف عليه الناس على اختلاف مذاهبهم و قومياتهم ، كما الآيات القرآنية الأخرى التي تفرق بين المسلمين و المجرمين كالآية (٣٥) ، و بين الجاهل و العالم (١) ، و بين الأعمى و البصير (٢) ، و بين أصحابالجنة و أصحاب النار (٣. (

و الآية (٣٨) تكشف عن حقيقة يمكن لكل انسان ان يلمسها في واقع المترفين المستكبرين السياسي و الاجتماعي ، و هي انهم لا يريدون ان تحكم شريعة او نظام قانون أنى كان نوعها ، فحتى الدستور الذي يضعونه بانفسهم ، و حسب القياسات التي يختارونها لحكمهم تراهم يتهربون منه ، و لا يرضون به حكما بينهم و بين الناس . لماذا ؟ لان ذلك الدستور مهما كان ظالما و منحرفا لابد ان ينطوي على نسبة(١) الزمر / ٩ " قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون. "

(2)فاطر / ١٩ " وما يستوي الأعمى و البصير. "

(3)الحشر / ٢٠ " لا يستوي أصحاب النار و أصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون. "

من القيم حتى يكون مقبولا عند العرف العام ، وتلك النسبة تدين طائفة من تصرفاتهم فلا يريدونها ، و هكذا كانت مخالفة حكم العقل و القانون من أظهر سمات المجرمين ، كما ان تحكيم الهوى و الشهوات من أعظم بواعث الجريمة.

و لعلنا نهتدي من ذلك الى ان من عظمة الاسلام ان فيه قيما اساسية ثابتة لا يمكن تبديلها و تحويلها ، بل ان تبقى هي الميزان في المجتمع ، و هذه القيم لا يعطي الله لاحد (من رسوله و امام او حاكم شرعي او دولة) الحق في خرقها تحت اي عنوان ، و لأي سبب بالغما بلغ ، و الحكمة في ذلك انها فوقهم جميعا ، و ان دورهم هو التنفيذ و ليس التشريع ، كما ان الرسالة تفقد مصداقيتها و قيمتها لو بدلت فيها هذه القيم ، بلى . ان المصلحة العامة قد تقتضي تغيير بعض القوانين و لكن ضمن اطار قانوني معين.

[43 - 39]و بعد ان نفى السياق اي شاهد من عقل او نقل (كتاب) يؤيد مساواة المسلمين و المجرمين ، ينفي ان تكون للمجرمين ايمان على الله تقتضي برائتهم من النار و تحللهم عن أية مسؤولية تجاه أعمالهم.

]أم لكم ايمان علينا بالغة[

و الايمان البالغة اما بمعنى التامة من جميع جهاتها و شروطها ، نقول : بلغ الصبي اذا تمت رجولته و استوى ، او بمعنى الايمان التي لا تنقض و التي تتصل..

]الى يوم القيامة[

و تقضي ان يكون الأمر كما يقولون بضرس قاطع ان لهم براءة من العذاب.

]إن لكم لما تحكمون[

فأنتم مفوضون من قبل الله ؟! و هذا لا دليل عليه ، فلو كانت ثمة يمين حلف بها الله فانها ستكون في رسالته و الحال ان فيها ايمان مناقضة بان يملأ جهنم من المجرمين ، و لعل قوله تعالى " الى يوم القيامة " يهدينا الى انهم في الظاهر يحكمون رقاب الناس في الدنيا و لكن الوضع يختلف تماما في الاخرة إذ لا تبقى لهم أية سلطة ، فهنالك الولاية لله الحق و له الحكم ، بل في الدنيا ايضا ليس بالضرورة ان يكون لهم ما يتمنون و يحكمون ، لانهم لا يقدرون على شيء إلا بإذن الله القاهر فوق عباده.

بلى . هناك وعد عند الله للمؤمنين بالمغفرة و الجزاء الحسن إذا ماتوا مؤمنين ، و ليس الى يوم القيامة دون شرط او قيد . و ما يتوهمه بعضهم من ان السلطان ظل الله في الارض ، او انه يعفى عن مسؤوليات افعاله ، لا يعدو مجرد تمنيات تفرزها الاهواء ، و هي تتبخرعند الحجة العقلية . من هنا يتحدى السياق ان يملك احد الشجاعة على تبني ذلك القول و الدفاع عنه و المجادلة بشانه.

]سلهم أيهم بذلك زعيم[

و الزعيم : الكفيل الذي يقوم بالأمر و يتصدى له ، و منه زعيم القوم ، و لا احد يتكفل هذا الأمر لانه لا يعتمد على دليل منطقي ، انما ينطلق من الخيال و الظن ، و هذه الآية تتشابه و قوله تعالى : " فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا " (١. (

و يمضي السياق قدما في تسفيه الزعم الواهي بتساوي المجرمين مع المسلمين ، حيث ترى كثيرا من المجرمين و المذنبين يتكلون على الشركاء و الأنداد ، و يزعمون بأنهم ينقذونهم من جزاء أفعالهم المنكرة ، و يزعمون بأنهم يستطيعون التأثير على(١) النساء ١٠٩.

حكم الله بحكم الشراكة معه في الملك و التدبير ، سبحانه ، و هكذا تراهم يعتقدون بالشفاعة الحتمية التي تقتضي نجاتهم من العذاب يقينا بفعل تأثير الآلهة الصغار كالاصنام و الملائكة و الجن و الاولياء الذين يتوهم البعض انهم يتقاسمون الله الربوبية سبحانه و تعالى.

]أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين]و المشركون حينما يعودون الى وجدانهم ، او عند المواجهة العلمية بالجدال او الواقعية حيث يجازي الله الناس ، يعرفون ان لا حول للشركاء ، و انهم انما يخدعون أنفسهم و يخادعون الآخرين إذ يتظاهرون بعقيدة الشرك ، ولقد رأينا كيف أفحم نبي الله إبراهيم - عليهالسلام - المشركين في عصره عند المجادلة ، "قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون * فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون *ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم و لما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " (١. (

و في هذه النهاية القوية يتضح لنا انه تعالى في الآية (٤١) من سورة القلم إنما طالبهم بأن يأتوا بشركائهم استثارة لوجدانهم و عقولهم للتحقيق في زعم الشركاء ، باعتبار ان بطلانه لا يحتاج الى أكثر من ذلك ، فهناك مزاعم كثيرة يسترسل معها الانسان و يعتبرهامسلمات بل مقدسات و لكن بمجرد عرضها على عقله و وجدانه و التفكير فيها بجد يتبين له مدى سخفها ، و انما كانت هذه المسلمات تستمد قوتها من التمنيات و من الغفلة و الجهل.

وإذا كان الانسان قادرا على فضح باطل الشركاء بالوجدان و العقل في الدنيا(١) النساء ٦٢ - ٦٧.

فان كذب كل مزاعمهم و ظنونهم الباطلة يتبين بأجلى صورة في الآخرة.

]يوم يكشف عن ساق[

و للكشف عن الساق تفاسير أهمها:

الف :قيل انه ساق العرش يكشف الله عنه يوم القيامة ، و قال الامام الرضا - عليه السلام - : " حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا " (١. (

باء :و أوغل البعض في الوهم إذ قالوا انه ساق الله سبحانه عما يصفون ، و رووا عن النبي - صلى الله عليه وآله - انه قال : (يكشف الله عز وجل عن ساقه (و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن منده عن ابن مسعود .. قال : عن ساقيه تبارك و تعالى.. وضعفه البيهقي (٢) ، و يبدو ان ذلك من افكار المجسمة التي تسربت الى الثقافات الدينية لدى بعض المسلمين ، كما اختلطت مع الافكار المسيحية من قبل . و قد رد الفخر الرازي ردا مفصلا على هذه الخرافة في التفسير الكبير (٣. (

جيم : وقد يكون الكشف عن الساق كناية عن انه يوم الجد و الشدة ، وفي المجمع عن القتيبي : أصل هذا ان الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج الى الجد فيه يشمر عن ساقه ، فاستعير الكشف عن الساق في موضع الشدة .. تقول العرب : قامت الحرب على ساق ، و كشفت عن ساق يريدون شدتها .. قال الشاعر : قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا و القوس فيها وتر(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٥.

(2)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٥٤.

(3)التفسير الكبير عند الآية في المجلد ٣٠.

عرد (١. (

دال :و يمكن القول انه كناية عن تجلي اصول الحقائق ، و انما استخدم القرآن الكشف عن الساق لان ساق الشيء اصله ، و على هذا قيل ساق الشجرة . و يوم القيامة هو يوم الكشف عن أصل الحقائق فهنالك يكشف للناس الحق الأصل و أعمالهم ، قال علي ابن ابراهيم : يوم يكشف عن الأمور التي خفيت (٢) ، و لعلنا نلمس تلويحا الى هذا المعنى في قوله تعالى : " لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " (٣) . اذن فيوم القيامة هو يوم سقوط الحجب عن الحقيقة ليراها الناس كما هي ، و هل ترى الساق إلا حينمايكشف عنها ما يمنع الرؤية عنها ؟

و كذلك يتضح للمجرمين بطلان حكمهم بالتساوي مع المسلمين ، و انه ليس من كتاب يؤيد ذلك ، و لا يمين بالغة قطعها الله على نفسه لصالحهم ، و لا شريك موجود فينفعهم يوم القيامة ان لم يكتشفوا ذلك بأنفسهم في الدنيا ، فيهتدوا للحق ، و يسلمون لله بدل ممارسة الجريمة حيث الفرصة قائمة لا تزال ، و الا فان شيئا من ذلك لا ينفعهم قيد شعرة في الآخرة لانها دار جزاء لا عمل فيها.

]و يدعون الى السجود[

دعوة تشريعية يوجهها منادي الحق يومئذ ، و تكوينية يفرضها هول الموقف و عظمة تجليات الحقيقة ، و هنالك يستجيب المؤمنون لربهم بطبيعة التسليم التي كانوا عليها في الدنيا ، و بفعل الخشية من مقام الله ، بل لا يملك أحد من أهل المحشر(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٣٩.

(2)تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣٨٣.

(3)ق / ٢٢.

إلا الاستجابة لدعوة الحق لولا انه تعالى بحكمته يمنع المجرمين من ذلك.

]فلا يستطيعون [

جاء في الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " تبقى أصلابهم طبقا واحدا " (١) اي فقارة واحدة ، و في نور الثقلين عن الامام الرضا - عليه السلام - " تدمج اصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود " (٢) ، و بالاضافة الى هذا المعنى الظاهري تتسع الآية لمعنى أعم وهو ان المجرمين لا يملكون يوم القيامة أية حرية ، ليعلموا ان ليس لهم ما يتخيرون ولا ما يحكمون كما كانوا يظنون ، و ليسوا كوضعهم في الدنيا حيث أطلقوا العنان لأهوائهم فلم يراعوا حلال الله و حرامه ولا حقا و باطلا ، و بالذات اولئك الذين تسلطوا على رقاب الناس فتمادوا في الجريمة طغيانا و ظلما.

و يصور لنا القرآن حالهم حيث الهوان الظاهر على جوارحهم و وجوههم ، و الذلة الباطنة التي تكاد تقتلهم ارهاقا في المحشر . وقد شمخوا بأنوفهم حتى كادت تستطيل مثل الخرطوم ، و استكبروا و بالغوا في التظاهر بالعزة في الدنيا لأنهم في أيديهم المال و السلطة وحولهم الاتباع.

]خاشعة أبصارهم [

مرسلة الى الاسفل لا يرفعونها بين الناس لما هم فيه من ذل الموقف الذي لا يستطيعون معه حتى النظر الى الآخرين.

]ترهقهم ذلة[

(1)الكشاف / ج ٤ - ص ٥٩٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٥.

أي تغشاهم و تعلو و جوههم ذلة ، و يحتمل ان يكون المعنى أي تحملهم الذلة مالا يطيقون من الأذى المعنوي ، و تتعبهم كما تتعب الكلاب الصيد ، يقال : أرهقه أي حمله على ما لا يطيق ، و حكمة الله في منع المجرمين عن السجود بعد أمرهم به فضيحتهم في المحشر حيث يمتاز بامتحان السجود المسلم عن المجرم ، قال قتادة ذكر لنا ان النبي - صلى الله عليه وآله - كان يقول : " يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون ، و بين كل مؤمن منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود " (١) ، و بذلك يعرف الناس حقيقته ، حيث ان الآخرة في حقيقتها انعكاس لاعمال الانسان في الدنيا ، و بالتالي فان التمايز في الجزاء هناك هو صورة للتمايز في الاعمال و الصفات هنا في الدنيا ، و هذا يعمق المسؤولية في النفوس ، و يدفعها باتجاه التسليم لربها و استغلال فرصة الدنيا لمستقبل الآخرة.

]وقد كانوا يدعون الى السجود و هم سالمون[

معنويا و ماديا بحيث لم يكن عندهم عذر يبرر عدم تسليمهم لدعوة الله سوى اتخاذهم الهوى الها من دونه عز وجل ، و لعلنا نستوحي من الآيتين (٤٢ - ٤٣) فكرة هامة تتصل بسلوك الانسان في الدنيا ، و هي : انه حينما لا يستغل نعم الله عليه كالصحة و الغنى فانها قد تسلب منه فيفوته الانتفاع بها ، او يسلبه الله توفيق الطاعة بسبب تماديه في المعصية و الجريمة حتى يصل به الأمر انه قد يفكر في التوبة و الاستجابة لدعوة ربه و لكنه لا يوفق لذلك لانه قد طبع على قلبه.

[45 - 44]و لان المترفين يعتبرون تتالي النعم عليهم دليلا على رضاه تعالى عنهم ، فيتمادون في التكذيب بالرسالة و محاربة الرسول اعتمادا على ذلك ، جاءت الآيات تؤكد بأن الحقيقة عكس ذلك تماما لان الله يكيد لهم عبر خطة حكيمة ،(١) الدر المنثور / ج ٦ عند الآية.

وأي كيد أعظم من ذلك الذي يحسبه الانسان خير و هو شر و بيل ، و ينطوي على حرب مباشرة بين الخالق العظيم الجبار شديد العقاب و بين المخلوق الحقير الضعيف المسكين يمشي اليها برجله و يقع في فخاخها بغتة ؟!!

]فذرني و من يكذب بهذا الحديث[

يعني الرسالة التي هي حديث الله الى الانسان ، ومن الرسالة حديث الآخرة و العذاب ، وما أخوف هذه الآية للمكذبين ان يبارزهم رب العزة مباشرة ، وما أسوء مصير من لا تبقى بينه و بين ربه رحمة!

و ما أرجى هذه الآية في نفس الوقت للرساليين الذين يواجهون تحديات المترفين في مسيرتهم الجهادية ، فانها تثلج صدورهم و تزرع فيها الاطمئنان و السكينة بأنهم منتصرون و محميون لان الله يدافع عنهم ، وان الله سيدمر المكذبين بدعوتهم الصادقة و المعارضين لها ،ان خطة الحرب الإلهية ضدهم تمر خلال كيد متين) قوي لا يستطيع أحد تحديه و الانتصار عليه ، و محكم لا يجد الطرف الآخر ثغرة ينفذ فيها حينما يواجهه) بحيث يدخل هو كعنصر فعال ضد نفسه دون ان يعلم ومن حيث لا يتوقع.

]سنستدرجهم من حيث لا يعلمون[

في المنجد : تدرج الى كذا تقدم اليه شيئا فشيئا ، و استدرجه صار به من درجة الى درجة وحدعه (١) ، وفي هذه الآية اشارة واضحة الى انه تعالى يجعلهم يتقدمون للوقوع في المكيدة من خلال نقاط ضعف عندهم ، هم قاصرون عن وعيها ، بحيث يصيرها الله عاملا يستحثهم للوقوع في عذابه . ومن أهم نقاط ضعفهم ما أترفوا فيه

(1)المنجد مادة درج بتصرف.

من الاحوال و الاتباع الذي يزيد لهم فيه ليطغوا في الدنيا و يأتوا يوم القيامة لاخلاق لهم.

]و أملي لهم ان كيدي متين[

وكلما أترفهم الله ظنوا ذلك دليلا على رضاه عنهم ، و ان مسيرتهم سليمة ، فيتمادون في الانحراف و لا يعلمون ان الاملاء كيد متين ضدهم ، " فذرهم في غمرتهم حتى حين * أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون " (١)، " ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لانفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما و لهم عذاب مهين " (٢) ، و الاملاء هو الزيادة في النعم و الإمهال في الأخذ ، و لماذا يستعجل الله وهو لا يفوته أحد وله الأولى و الآخرة ؟

و في النصوص تحذير من حالة الاستدراج الذي يأتي نتيجة لاسترسال الانسان ، قال الامام الصادق - عليه السلام - : " إذا أحدث العبد ذنبا جدد الله له نعمة فيدع الاستغفار فذلك الاستدراج " (٣) و قال - عليه السلام - : " إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا فأذنب ذنبا تبعه بنقمة و يذكره الاستغفار ، و اذا أراد الله عز وجل بعبد شرا فأذنب ذنبا تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و يتمادى به ، و هو قول الله عز وجل : " سنستدرجهم من حيث لا يعلمون " بالنعم عند المعاصي " (٤ (، و في رواية : "ان رجلا من بني إسرائيل قال : يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني ؟! فـأوحى الله الى نبي زمانهم ان قل له : كم من عقوبة لي عليك و أنت لا تشعر ، ان جمود عينيك و قساوة قلبك استدراج مني و عقوبة لو عقلت "، وفي(١) المؤمنون / ٥٤ - ٥٦.

(2)آل عمران / ١٧٨.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ عند الآية.

(4)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٧.

الكشاف قال الزمخشري : قيل : " كم من مستدرج بالاحسان اليه ، و كم من مفتون بالثناء عليه ، و كم

من مغرور بالستر عليه " (١. (

ثانيا : الاعتقاد بان الرسالة مغرم.

[46]و ثمة مرض عضال يستولي على قلوب المترفين يدعوهم للتكذيب بالرسالة و الرسول و كل حركة اصلاحية في المجتمع و هو شعورهم الخاطىء بان الاستجابة لها و اتباع المصلحين مغرم يخالف مصالحهم و من طبيعة رؤوس الأموال و أصحابها الجبن . و لكن هل الرسالة جاءت لتأخذ منا شيئا أم جاءت لتعطينا الكثير وفي مختلف جوانب الحياة الفردية و الاجتماعية و الحضارية ؟

بلى .قد يتصور الانسان حينما يلاحظ برامج الانفاق التي تفرضها رسالة الله و تدعو القيادات الرسالية اليها ان الاستجابة لذلك مغرم ، و لكن البصيرة النافذة تناقض ذلك تماما ، فان المجتمع حينما تحكمه القوانين الإلهية سوف ينمو اقتصاديا و حضاريا لصالح الناسو حتى لصالح اصحاب الثروة ، لما في الرسالة من برامج لتنميتها و تدويرها . و ليس أدل على ذلك من دراسة تجربة مجتمع الجاهلية المتخلف في شبه الجزيرة العربية و مقارنتها بواقع الاسلام حينما آمنوا بمناهجه و كيف تطورت حياتهم ، فلماذا إذن يكذب المترفون ؟!

]ام تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون[

و المغرم في التجارة الخسارة او ما يعطى من المال على كره (٥) ، و التجارة التي يـدل الرسول الناس عليها لا خسارة فيها ، بلى هي مشتملة على أرباح الدنيا و الاخرة ، كما انه (ص) لا يسأل أحدا أجرا على تبليغ الرسالة لانه)ص) (و كذلك كل قيادة رسالية) انما يبلغ لوجه الله لا يريد جزاءا ولا شكورا ، ولا يطالب بمال ولا منصب ،(١) المنجد مادة غرم.

إنما لأجر الله عز وجل الذي وعده و كل مصلح مخلص فقال : " و إن لك لأجرا غير ممنون " كما مر في مطلع السورة.

نعم .ان دعوة الرسول (ص) خالصة من أي تطلع نحو حطام الدنيا ، فلا مبرر يدعو المترفين للتكذيب به أو التشكيك في سلامة رسالته ، و حيث يتثاقلون عن اتباعه فلمرض في صدورهم.

ثالثا : البطر.

[47]ان المترفيـــن ينظـرون الى الحياة و يقيمون كل شيء فيها من خلال المادة) المال و الثروة) و كانها كل شيء ، و ما دامت في ايديهم فإنهم لا يحسون بالحاجة الى العلم او القائد العالم الذي يهديهم الى الحق ، و يرشدهم في جوانب الحياة المعنوية ، و القرآن ينفي ذلك فيتساءل مستنكرا:

]أم عندهم الغيب فهم يكتبون[

كلا ..ان علم الغيب يختص بالله ، وإذا أخرجه الله فهو إما في رسالاته وإما عند رسله الذين يرتضي ، لانهم وحدهم الذين يتصلون به عبر الوحي . و الذي يريد اتصالا بالغيب فلا طريق له اليه الا بالتصديق بالرسالة و الرسول " و ما كان الله ليطلعكم على الغيب و لكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله و رسله " (١) ، و المترفون يكذبون بهما فكيف يدعون علم الغيب ؟!

إن علم الغيب عند الله وهو وحده الذي يستطيع ان يكتبه بالقلم على لوح الاقدار ، لأنه لا يتبع الظن او التخمين . أما البشر فإنهم ولو ادعوا ذلك(١) آل عمران / ١٧٩ و لقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق مفصل للترف و المترفين.

)كالمنجمين و الكهنة) فهم لا يثبتونه بمثل الكتابة باعتباره لا قطع به . و ان المترفين ليدعون علم الغيب حيث يظنون في أنفسهم بان أموالهم باقية وسوف تزداد في المستقبل ، و لا يدرون لعلها في

علم الله تزول ، قال تعالى " : أفرايت الذي كفر بآياتنا و قاللأوتين مالا و ولدا * اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول و نمد له من العذاب مدا " (١. (

وما داموا لا يملكون ناصية العلم فهم بحاجة ماسة الى مصادره (الرسالة) و ما تكذيبهم بهما إلا دليل على ما هم فيه من العتو و الجحود.

[50 - 48]و الاسباب الثلاثة التي مر ذكرها تجعل الحركة التغييرية في اوساط المترفين تواجه تحديات صعبة من شأنها ان توحي للبعض بان التغيير مستحيل البتة ، و في ذلك خطران على المصلحين:

الاول : خطر التراجع عن المسيرة ، كنتيجة طبيعية لليأس من الوصول الى الاهداف المنشودة من الحركة التغييرية ، او لا أقل التنازل عن بعض القيم و التطلعات ، و الاستسلام للتحديات المضادة ، و مـــن ثـم المداهنة فيها ، و الى ذلك أشار الله في قوله : "فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و ضائق به صدرك ان يقولوا لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك إنما أنت نذير و الله على كل شيء وكيل " (٢. (

الثاني :خطر اليأس من الناس ، مما يؤدي الى اعتزالهم و الانطواء على الذات ، و من ثم إصدار حكم الكفر عليهم مما يفقد المصلحين الفاعلية التغييرية.

و هكذا يحتاج الرساليون الى مزيد من الصبر في مواجهة تكذيب المترفين . الصبر(١) مريم / ٧٧ - ٧٩.

(2)هود / ١٢.

كصفة نفسية تعطيهم روح الاستمرار و الاستقامة على طريق الرسالة.

]فاصبر لحكم ربك[

أي ان ذلك ليس أمرا شاذا ، بل هو من القوانين و السنن الطبيعية التي حكم الله بها ان تكون في المجتمعات ، و معرفة هذه الحقيقة من شأنه ان ينفخ روح الصبر و الاستقامة في نفوس المصلحين فلا يستعجلون النتائج او يكفرون المجتمع ، ولا حتى يكونون كيونس بن متى -عليه السلام - الذي زرعت تحديات قومه في نفسه الغيظ و الغضب لرسالة ربه فدعا عليهم بالهلاك.

]و لا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم[

قـــال الامام الباقر - عليه السلام - " اي مغموم " (١) ، و في تضاعيف الآيتين (49 - 48)تحذير للمؤمنين من ان عدم الصبر لحكم الله ليس لا يخدم الرسالة فقط ، بل و يضر بهم أنفسهم ، كما أضر بيونس - عليه السلام. -

]لولا ان تداركه نعمة من ربه[

فسبحه و اعترف ان النقص كان فيه اذ تعجل بالدعاء على قومه ، و لم يصبر لحكم ربه فظلم نفسه ، و ليس في تدبير الله ولا في حكمه.

]لنبذ بالعراء و هو مذموم[

من قبل ربه او عند قومه و عبر التاريخ بسبب موقفه ، و نبذ الله له بالعراء يدل على عـــدم رضاه عنه ، و لكنه تعالى تداركه بنعمة منه معنوية حيث تاب اليه ، و مادية حيث أخرجه من بطن الحوت و أنبت عليه شجرة من يقطين تظله عن ذلك العراء.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٩٩.

]فاجتباه ربه فجعله من الصالحين[

و الاجتباء هو الاختيار و الاصطفاء ، وقد بين الله ذلك حتى لا تصير قصة يونس -عليه السلام - مع قومه سببا للطعن فيه ، و النيل من شخصيته . و الآية تهدينا الى ان الانسان بعد الخطيئة و التوبة يمكن ان يسمو بنفسه الى مقام يجتبيه ربه ، فيصيره في عداد أئمةالصلاح و التقوى ، كما تهدينا عموم قصة يونس الى ان الله يمتحن الرساليين بعناد أقوامهم ليرى هل يصبروا لحكمه أم لا.

و هذا جانب من القصة نقلها العياشي في تفسير بالتفصيل : عن الامام الباقر - عليه السلام - قال : " كتب امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - قال : حدثني رسول الله - صلى الله عليه و آله - ان جبرئيل حدثه ان يونس بن متى بعثه الله الى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، و كان رجلا تعتريه الحدة ، و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم ، و انه اقام فيهم يدعوهم الى الايمان بالله و التصديق به و اتباعه ثلاثا و ثلاثين سنة ، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه الا رجلان : اسم أحدهما روبيل و الآخر تنوخا، و كان روبيل من اهل بيت العلم و النبوة و الحكمة ، و كان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل ان يبعثه الله بالنبوة ، و كان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العبادة و ليس له علم ولا حكم ، و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوت منها ، و كان تنوخا رجلاحطابا يحتطب على رأسه و يأكل من كسبه ، و كان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل و حكمته و قديم صحبته ، فلما رأى ان قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر ، و عرف من نفسه قلة الصبر ، فشكا ذلك الى ربه ، و كان فيما شكا ان قال : يا رب انك بعثتني القومي و لي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم الى الايمان بك و التصديق برسالتي و أخوفهم عذابك و نقمتك ثلاثا و ثلاثين سنة فكذبوني ، ولم يؤمنوا بي و جحدوا نبوتي و استخفوا برسالتي ، وقد توعدوني و خفت ان يقتلوني ، فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون ، فأوحى الله الى يونس : ان فيهم الحمل و الجنين و الطفل و الشيخ الكبير و المرأة الضعيفة و المستضعف المهين و أنا الحكم العدل ، سبقت رحمتي غضبي ، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك ، و هم يا يونس عبادي و خلقي و بريتي في بلادي و في عيلتي ، أحب ان أتأناهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم ، و انما بعثتك الى قوم لتكون حيطا عليهم ، تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم ، و تتأناهم برأفة النبوة ، فاصبر معهم باحلام الرسالة ، و تكون لهم كهيئة الطبيب المداوي العالم بمداواة الدواء ، فخرجت بهم و لم تستعمل قلوبهم بالرفق ، و لم تمسسهم بسياسة المرسلين ، ثم سألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك ، و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه ، و أحسن صحبة ، و أشد تأنيا في الصبر عندي ، و أبلغ في العذر ، فغضبت له حين غضب لي ، و أجبته حين دعاني ، فقال يونس : يا رب انما غضبت عليهم فيك، و انما دعوت عليهم حين عصوك ، فوعزتك لا أنعطف عليهم برأفة أبدا ، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم إياي ، و جحدهم نبوتي ، فأنزل عليهم عذابك فانهم لا يؤمنون أبدا ، فقال الله : يا يونس انهم مائة الف او يزيدون من خلقي ، يعمرون بلادي ، و يلدون عبادي ، و محبتي أن أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم و فيك ، و تقديري و تدبيري غير علمك و تقديرك ، و أنت المرسل و أنا الرب الحكيم ، و علمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم ما منتهاه ، و علمك فيهم ظاهر لا باطن له ، يا يونس قد أجبتك الى ما سألت، أنزل العذاب عليهم ، وما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي ، و لا احمد لشأنك ، و سيأتيهم العذاب في شوال في يوم الاربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس ، فأعلمهم ذلك ، فسر يونس ولم يسؤه و لم يدر ما عاقبته " (١. (

[52 - 51]و بعد ان يأمر الله نبيه (و عبره كل داعية رسالي) بالصبر لحكم(١) تفسير العياشي / ج ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠.

الله ، مشيرا الى قصة صاحب الحوت النبي يونس و تجربته مع قومه ، و محذرا له من الوقوف كموقفه في هذا الجانب ، يوصل الكلام بذلك الأمر ، مؤكدا على الصبر في طريق الرسالة ، مهما كانت التحديات المضادة و الضغوط مدعاة للتخلي عن الرسالة او ردات الفعل العشواء ضد المكذبين و الكافرين.

]و ان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر]أي اصبر لحكم ربك بالرغم من ذلك ، و الزلق من الانحراف ، قال صاحب المنجد : ازلقه : ازله و أبعده عن مكانه و نحاه ، و زلقت القدم : لم تثبت ، و الفرس أجهضت و ألقت ولدها قبل تمامه ، و الارض الزلقة : الملساء التي لا شيء فيها (١) ، و لا تثبت عليها قدم.. فيزلقوك إذن بمعنى يزلون قدمك عن مسيرة الحق ، سواء بالمداهنة التي يودها

المكذبون او بالمواجهة و التحدي.

و لقد ذهب أكثر المفسرين الى ان معنى الإزلاق بالابصار هو الحسد الذي يؤثر في الانسان بصورة غيبية ، و نقلوا عن الرسول - صلى الله عليه وآله - : " ان العين تدخل الرجل الى القبر ، و الجمل الى القدر " و قوله يعوذ الحسنين " : أعيذكما بكلماتالله التامة ، و أسمائه الحسنى كلها عامة ، من شر السامة و الهامة ، و من شر كل عين لامة ، ومن شر حاسد إذا حسد " (٢) ، و قد يكتشف البشر أسرار ظاهرة الحسد اذا تقدموا في العلم و دراسة الحالات النفسية ، و لكن الاقرب من هذا المعنى انها كناية عن المواقف الحاقدة التي تعبر عنها نظراتهم الحادة كالسهم النافد و كحد الحسام المرهف . و نحن من هذه الظاهرة البصرية يجب ان ننطلق لمعرفة ما وراءها و ما تعبر عنه من الضغوط ، و المواقف النفسية و الاجتماعية و السياسية للكفار ضد(١) المنجد مادة زلق.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٠٠.

كل قيادة رسالية تنشد التغيير ، و بالذات إعلامهم الموبوء بمختلف الدعايات و التهم الباطلة.

]و يقولون إنه لمجنون[

و قولهم هذا يعبر عن ذلك الفيض الذي امتلأ به قلوبهم و الموقف الذي أظهرته ابصارهم ، و هكذا كلمات القرآن يفسر بعضها بعضا ، فقوله سبحانه " يزلقونك بأبصارهم " يفسر قوله سبحانه : " و يقولون انه لمجنون " ، فعبر أبصارهم الحادة و كلماتهم النابية يريدون أبعادك عن الصراط المستقيم.

و اليوم و مع تطور الوسائل الاعلامية ينبغي ان يتوقع كل مصلح رسالي ان يواجه المزيد من الضغوط في مسيرته ، و بالتالي عليه ان يصبر في نفسه ، و يستقيم في حركته و عمله لوجه الله و تسليما بقضائه و حكمه ، فأنى كانت الضغوط و التهم لا يمكنها ان تغير من الواقع شيئا ، فهل يصبح العاقل مجنونا و الذكر أساطير الأولين بمجرد ان يقول الكافرون ذلك ؟ كلا .. لان الحقائق لا تتغير بقول المكذبين المنكرين ، و ان الدارس للقرآن لا يمكنه إلا التسليم بانه رسالة من الله الى الناس.

]وما هو إلا ذكر للعالمين[

و الذكر في مقابل الغفلة و النسيان ، و قد سمي القرآن بذلك لانه يذكر البشر بربهم و بالحق في جوانب الحياة المختلفة ، بل و يكشف لهم من أسرار الوجود و قوانينه ، و يذكرهم بعقولهم التي تستثيرها آياته ، فهو الذي يحافظ على مسيرة الانسان مستقيمة على الفطرة و الحق و نحو الهدف السليم دون غفلة او انحراف " إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم ان يستقيم. (1) "

(1)التكوير / ٢٧ - ٢٨.

و حينما يكون القرآن ذكرا للعالمين (و ليس لقوم النبي وحده) يتبين انه يتجاوز البيئة الجاهلية الضيقة و الموبوءة بتلك الدعايات التافهة ، و يتسامى فوق تلك الحواجز التي وضعها الجاهليون حول أنفسهم ، و مجرد هذا التجاوز يدل على ان القرآن ليس وليد تلك البيئة ، و ان النبي ليس مجرد حكيم عظيم أفرزه ذلك المحيط ، بل هو رسول الله رب العالمين . ترى كم هي المسافة شاسعة بين قولهم انه مجنون و بين الحقيقة ؟

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله (ع) قال : " اكثر من قراءة " الحاقة " فان قراءتها في الفرائض و النوافل من الايمان بالله و رسوله ، لانها إنما نزلت في أمير المؤمنين - عليه السلام - و معاوية ، و لم يسلب قارءها دينه حتى يلقى الله عز وجل "تفسير نور الثقلين - ج ٥ - ص ٤٠١

وفي مجمع البيان ، باسناده عن جابر الجعفي ، عن أبي عبد الله (ع) قال : " اكثروا من قراءة الحاقة في الفرائض و النوافل ، فان قراءتها في الفرائض و النوافل من الايمان بالله و رسوله ، و لم يسلب قارءها دينه حتى يلقى الله "مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٤٢

الإطار العام

ثلاث آيات غرر في هذه السورة ترسم معالمها ، و تحدد - فيما يبدو لي - إطارها : فاتحتها : " الحاقة " ، و عند الخاتمة : " و انه لحق اليقين " ، و أوسطها "انه لقول رسول كريم " ، و حين ينفتح القلب على أشعة السورة يلامس الحقيقة - كل حقيقة و كل الحقيقة - بلا حجاب ، و كذلك سور القرآن جميعا هي الجسر بين الانسان و الحقيقة ، يتجاوز المتدبرون فيها كل الحواجز ، و لكن كل سورة تسقط عنا حاجزا.

و سورة الحاقة - كما آيات أخرى مبثوثة في كتاب ربنا العزيز - تسقط حاجز التهاون ، ذلك ان الانسان بطبعه يعيش الغفلة عن الحق ، و التهاون فيه ، و عدم الجدية في التعامل معه ، و اتخاذ أمره بسذاجة بل و بسفاهة . كلا .. انه حق و للحق ثقله ، و للحق اقتداره ،و للحق حقيقته و طاقته التي تثبته و تجعل مخالفيه في حرج عظيم . ألم تسمع بقصة عاد و ثمود و فرعون و قوم نوح و المؤتفكات ماذا حدث بهم حينما اتخذوا موقف اللاهي عن الحق فصارعوه كيف نزلت بهم القوارع فتركتهم صرعى ؟!

أوتدري ما الحكمة في ذلك العذاب العريض ؟ لكي يذكرنا (فلا نبقى سادرين في غياهب الغفلة) و لكي تعيه أذن واعيه.

و تتجلى الحقيقة بكل جلالها و عظمتها في يوم القيامة ، و حين نتصور أهوالها نزداد وعيا بها في الدنيا ايضا.

و أصعب المواقف واشدها جدية وهولا عند استلام الكتاب المصيري ، فمن أوتي كتابه بيمينه فطوبى له ، و من أوتي بشماله فيقول من فرط حسرته : ياليتني لم أوت كتابيه ، و يقول : ياليتها كانت القاضية.

انها عاقبة المتهاونين الذين لم يكونوا جديين في وعي الحقيقة ، وفي الايمان بالله و الحض على طعام المساكين.

و يقسم القرآن بكل حقيقة نبصرها و كل حقيقة قائمة و لكن لا نبصرها بأن القرآن حق ، و هو قول رسول كريم.

و انه بالتالي ليس خيالات باطلة ولا ظنون كاهن.

و تتجلى حقانية الرسالة في شدة الله الجبار مع من يخالفها ، بل و مع المرسل بها لو افترض التقول عليه ببعض الاقاويل ، فانه ليأخذ منه باليمين ثم ليقطع منه الوتين.

و يبدو ان من يتهاون في شأن الحق او يكذب به او لا يعيه او لا يوقن به حق اليقين .. يبدو انه لم يعرف ربه الذي يضمن الحق و يجريه بقوته الشديدة و قدرته الواسعة ، لذلك فنحن بحاجة الى تقديس الله و تنزيهه حتى نقترب من معرفته و معرفة الحق به ، و لعله لذلك اختتمت السورة المباركة بقوله سبحانه : " فسبح باسم ربك العظيم. "

و تعيها أذن واعية

هدى من الآيات

الحق و الجزاء توأمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فانما تحكم الحياة مجموعة من القوانين و السنن التي وضعها و أجراها الله فيها فهي مخلوقة بالحق ، و لانها كذلك فان الجزاء واقع لانه حق ، و ايمان الانسان بالحق مرهون بمدى ايمانه بالحساب و الجزاء ، اذ لاتعني الدعوة للايمان به شيئا ولا تعكس استجابة في النفس لولا ذلك ، وهكذا جاء التعبير القرآني عن كفر ثمود و عاد ببيان كفرهم بالجزاء (القارعة) مع أنهم كذبوا ايضا بالرسل ، لان الكفر بالجزاء يساوي الكفر بالحق.

و في هذا المحور تنتظم ايات الفصل الاول من سورة الحاقة في سياق التأكيد على حقيقة الجزاء في الحياة ، كقضية تشريعية و تكوينية ، تتصل بالحق اتصالا متينا ، ففي مطلعها و حتى الآية الثانية عشرة يبين لنا صورا من الجزاء الذي حل بالأقوام السالفة نتيجة تكذيبهم بالحق و اتباعهم الباطل ، كدلالات واقعية على هذه السنة الإلهية ، و كآيات هادية الى الجزاء الأكبر في الآخرة.

و لكن تبقى (الواقعة (أجلى آيات الجزاء و الحق معا بالنسبة للانسان ، حيث ينفخ في الصور ، و تحدث التحولات الكونية الهائلة و المفزعة ، و تتجلى الملائكة المقربون يحملون عرش الله ، و يعرض يومئذ الناس بكيانهم و أعمالهم لا تخفى منهم خافية ، و لعله لذلكجاءت تسمية القيامة في هذه السورة بالحاقة .. باعتبارها ذات وجهين : يتصل الاول بالجزاء التي هي عرصته و أعظم آياته ، و يتصل الثاني بالحق ، إذ هي جزء لا ينفك من أعظم حقائق الوجود ، و لقد سماها ربنا في نهاية الدرس بالواقعة للمبالغة في التأكيد على انها حقيقة واقعية لابد ان تقع ، ومن ثم فان التكذيب بها لا ينفيها ولا يمنع وقوعها أو حتى يغير أجلها.

و تبقى الآية " لنجعلها لكم تذكرة و تعيها أذن واعية " محورا في هذا السياق بل في سياق السورة كلها ، إذ لا تدرك غور الآيات بما تتضمنه الحقائق إلا تلك القلوب الزاكية التي صيرها الايمان و العلم أذنا لوحي الله و آياته.

بينات من الآيات

[3 - 1]ان الايمان بالآخرة - و كما أكدنا مرارا - حجر الأساس في الايمان بسائر القيم و المبادىء ، ولذلك لا تكاد تخلو سورة قرآنية من التأكيد عليها ، بل وإن الحديث بشأنها ترهيبا و ترغيبا أصبح السمة الأساسية للجزئين الأخيرين (تبارك و عم) المكيين فيالاغلب عدا سور (الانسان ، الزلزلة و النصر) ، وإذ يوليها الرب هذا الاهتمام فلعلمه بموقعها في بناء شخصية الانسان.

و الذي يتتبع حديث القرآن عن الآخرة يجد انه عبر عنها بعدة أسماء تختلف في ظاهرها و بعض مضامينها ، كان يكون كل اسم يعبر عن جانب او مرحلة زمنية منها ، إلا ان هدفها واحد لا يتجزأ ، وهو زرع الايمان بالآخرة و تعميقه في النفوس لتتبصر من خلالها بسائر الحقائق . و هنا تطالعنا أولى الآيات باسم من أسماء القيامة و عبر بلاغة فائقة ، تهتز لها القلوب ، و تقشعر منها جلود المؤمنين.

]الحآقة[

و للمفسرين أقوال كثيرة في معنى هذه الكلمة ، و لماذا سميت القيامة بها ؟ و أبرزها التفسيرات التالية أولا : اللازمة الواجبة الوقوع ، قال تعالى " : و لكن حق القول مني لأملان جهنم " (١) أي وقع فاوجبته ، و قال : أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنتنقذ من في النار " (٢) أي وجب و لزم ، ثانيا : المحيطة ، جاء في المنجد : حاق بهم العذاب : نزل و أحاط ، و الحيق : ما يشتمل على الانسان و يلزمه من مكروه فعله ، قال تعالى " و لا يحيق المكر السيء إلا بأهله " (٣) أي لا يقع و يحيط إلا بهم ، وقال : " ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون " (٤) يعني وقع و أحاط.

و الذي يبدو لي من معنى الكلمة بالاضافة الى ما تقدم : انها الحق الذي يقع فيكشف عن الحقائق و يظهرها ، كما قال الله : " و يريد الله ان يحق الحق بكلماته " (٥) يعني يثبته و يظهره و يجعل الغلبة له على الباطل . ونحن إذا عرفنا بأن أكثر الناس محجوبون بألوان الأغطية عن معاينة الحق فسنهتدي بسهولة الى معنى " الحاقة " إذ هي التي تكشف عن الانسان غطاءه ، و تجعل بصره حديدا يرى الحقائق ، حقيقة ما جاءت به الأنبياء و الكتب الإلهية ، و حقيقة نفسه و أعماله ، هل هو من أصحاب

الحق " اليمين " أم من أصحاب الباطل " الشمال " ؟ و حقيقة(١) السجدة / ١٣.

(2)الزمر / ١٩.

(3)فاطر / ٤٣.

(4)هود / ٨.

(5)الانفال / ٧.

مصيره ..و القيامة ليست تجعل الحق حقا فهي المحقة ، لان الحق و الباطل شيئان واقعيان لا تصنعهما الاحداث ، انما دورها الكشف عنه ، و سوق النفوس الى التسليم له ، حيث تنسف بأحداثها المريعة كل الحجب عن قلبه وعينه ليرى الحق ، كما قلنا في معنى يوم التغابن ، فإنه ليس بيوم يتغابن فيه الناس ، وإنما يكشف عنه ، و يؤكد ربنا عظمة القيامة وهذه الصفة منها إذ يقول:

]ما الحآقة[

انها أمر عظيم ماديا ، حيث الوقائع الكونية المهولة ، و معنويا بآثارها في النفوس - كل النفوس - و كيف لا ترهب الانسان الضعيف تلك الأحداث الفظيعة التي أشفقت منها السماوات و الارض ، و كيف لا يخشى و هو يلاقي ربه ، و يرى عمله ، و يمضي الى مصيره الأبدي ؟!

ان الحاقة ليست كلمــة تقال ، فهذه الحروف عنوان لأمر عظيم ، تتزلزل به الارض ، و تمور السماء ، و تسجر البحار ، و تتلاشى الجبال ، و " تذهل كل مرضعة عما أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سكارى وما هم بسكارى و لكن عذاب الله شديد . " وتساؤل القرآن بـ " ما " يأتي في سياق التعظيم و التذكير و التحذير و الإلفات ، و لا يقف عند ذلك بل يضيف:

]وما أدراك ما الحآقة[

و هذه الآية تفيد التعظيم ، كما تبين ان أحدا لا يدرك حقيقة القيامة ، وقد يعلم بعض المجملات عنها : بأنها حق ، وأن من أحداثها زلزلة الارض ، و حشر الناس ، و دك الجبال ، و لكنه لا يعلم ميقاتها ، كما لا يملك أدوات يتمكن بها وعي أحداثها العظيمة.

[8 - 4]إذن فكيف نؤمن بالحاقة ؟

إننا لسنا مطالبين بمعرفة دقائق القيامة و تفصيلات و قائعها ، فإذا عجزنا عن ذلك كفرنا بها . كلا .. انما يكفي لكي يأخذ الايمان بهــا دوره في حياتنا ان نسلم بأصل وجودها ، و كونها حقا لازما مفروضا من قبل الله عز وجل .. و ان نظرة معتبرة الى التاريخ تهدينا الى ذلك ، حيث ان كل ما حل بالاقوام الاولين صورة مصغرة عن سنة الجزاء التي تتجلى بكامل حجمها و معناها يوم القيامة ، و الدراسة الموضوعية لحضاراتهم و بالذات عند منعطف النهاية و الدمار تكشف بوضوح ان حركة التاريخ ليست عفوية تدور في الفراغ ، بل هي محكومة بقوانين و سنن ومن أبرزها - على صعيد الأمم - سنة الجزاء و يضرب القرآن أمثلة على ذلك رابطا بين دمار الاقوام بالعذاب و تكذيبهم بالحق.

]كذبت ثمود و عاد بالقارعة[

و ثمود قوم صالح (ع) بينما عاد قوم هود (ع) ، و القارعة التي تقرع الناس ، و أساس القرع في اللغة هو الضرب ، يقال : قرعت الباب اذا دقت و ضربها ضارب ، و قرعته بالعصا : اي ضربته ، و سواء كانت القارعة

هي الواقعة التي قرعت حياتهم في الدنيا ، أو الآخرة التي سوف تقرع الدنيا عند الساعة ، فأصلها واحد وهو الجزاء ، و حيث ندرس حياة عاد و ثمود نجد انهما كذبوا ليس بالجزاء و حسب ، بل كذبوا بالرسل و الرسالات و سائر آيات الله ، و لكنهم في الحقيقة انما انطلقوا الى كل ذلك التكذيب العريض و الشامل من خلال التكذيب بالجزاء و بالذات الآخرة ، الأمر الذي دعاهم بالاضافة الى التكذيب بالحقائق الأخرى الى الطغيان في الانحراف ، و ممارسة الذنوب ، و هذه نتيجة طبيعية للتكذيب بالجزاء ان يتحلل البشر من قيود المسؤولية و حدودها.

و لكن هل بقيت ثمود و عاد على التكذيب بلا رادع ؟ كلا..

]فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية[

وفي الطاغية قولان قريبان من المعنى:

الاول :انها الصيحة التي أرسلها الله عليهم ، فجعلتهم غثاء خامدين ، و سوى بها بيوتهم ، و سميت بالطاغية مبالغة في وصف عظمتها ، و اشارة الى أنها جاءت خارج السياق المعتاد للظواهر ، و زائدة عن حد القوانين الطبيعية فإنا نقول :طغى الماء : إذا تجاوز الحد، و فاض به النهر.

الثاني : و لعلها اسم لحالة الطغيان ، قال تعالى : " كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله و سقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها " (١) ، و الذي يبدو ان الكلمة تعبر عن المعنيين في ان واحد ، و نهتدي منها ان الجزاء الإلهي حكيم للغاية ، فهو من جنس العمل و بحجمه.

]وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية[

أي ريح باردة و ذات صوت ، جاء في المنجد : الصرصر من الرياح : الشديدة الهبوب او البرد ، و صرصر الرجل : صاح شديدا ، و سمي الصرصور بذلك لانه يصيح صياحا رقيقا في الليل (٢. (

وأما العاتية ففيها أقوال : أحدها أنها التي خرجت عن أمر الملائكة الموكلين(١) الشمس / ١١ - ١٥.

(2)المنجد مادة صر.

بالريح)الخزنة) بان أوحى الله لها مباشرة ان تهلكهم بلا واسطة ، و الآخر : أنها التي لا قبل لاحد بمواجهتها و مقاومتها ، فهي تعتو على كل أحد و كل وسيلة ، قال الزمخشري : شديدة العصف و العتو ، أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة ، من استتار ببناء ،او التجاء بجبل ، او اختفاء في حفرة . (1)و المعنى الاصيل : أنها التي بلغت من الشدة ما تجاوزت به القوانين و المقاييس الطبيعية ، و بكيفية لا يمكن للبشر تصورها ، لان أصل العتو هو الخروج عن الحد ، قال تعالى : " و كأين من قرية عتت عن أمر ربها و رسله (2) " ، و قال : " فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة " (٣) ، وإنما جعل الله الريح عاتية على عاد لكي يعكس عتوهم عن أمره عز وجل ، فإنه لو أراد أحد تصوره في عالم التكوين فسيجده تماما كالريح الصرصر حينما تتجاوز الحد المتعارف ، بل هي أعظم من ذلك لان رياح الشهوات العاتية في الحقيقة هي التي دمرتهم ، ولم تكن الريح الظاهرة إلا تجسيدا و عاقبة لها.

]سخرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوما[

فهي لم تأتهم صدفة بسبب نحس أو تغير كوني خارج عن الحساب و السنن ، إنما جاءت الريح بإرادة إلهية سخرتها ، و كذلك ينظر المؤمنون الى الاحداث و يحللونها ، أما غيرهم فإنهم لا تفيدهم عبرة ، لانهم يفسرونها بالصدفة او بتغيرات مبتورة تعكس جهلهم أو تجاهلهم ،ولا يفكرون بعقولهم التي لو استثاروها لهدتهم الى يد التدبير التي تهيمن على الخليقة!

قال الفخر الرازي :وذلك لان من الناس من قال : ان تلك الرياح انما اشتدت لان اتصالا فلكيا نجوميا

اقتضى ذلك ، فقوله : " سخرها " فيه اشارة الى(١) الكشاف / ج ٤ - ص . 599

(2)الطلاق / ٨.

(3)الذاريات / ٤٤.

نفي ذلك المذهب ، و بيان ان ذلك انما حصل بتقدير الله و قدرته ، فانه لولا هذه الدقيقة لما حصل التخويف و التحذير عن العقاب (١) ، و الكلمة نفسها تنفي الوهم بأن العاتية هي التي خرجت عن التقدير و التدبير ، كذلك تجاوز الخطر عن النبي هود و الذين آمنوا معه)
حيث كانت تمر عليهم كالنسيم (دليل على أنها كانت مسخرة مدبرة.

و نتساءل : لماذا لم يجعل الله الريح لحظة واحدة وهو قادر على إهلاكهم بها ؟ ربما صيرها الله سبع ليال و ثمانية أيام (قالوا : من صباح الاربعاء الى مساء مثله من قابل) (٢) لانه أبلغ أثرا في نفوس المعذبين حيث المدة أطول ، كما انه أفضل موعظة في قلوب المؤمنين و المعاصرين لهم ، و أشد تحذيرا للاحقين ، و لعل في ذلك إشارة عبر التاريخ الى مدى تحصنهم و أسباب البقاء التي كانت في حضارتهم ، قال الطبرسي في مجمع البيان : الحسوم : المتوالية ، مأخوذة من حسم الداء بمتابعة الكي عليه ، فكأنه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم ، و قيل : هو من القطع ، فكأنها حسمتهم حسوما ، أي اذهبتهم و افنتهم ، و قطعت دابرهم (٣) ، و سمي السيف حاسما لانه يحسم الأمر و يقطعه)و يقطع المضروب به) (٤. (

]فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[

أي في تلك الأيام و الليالي ، أو في قراهم ، و حيث وقعوا صرعى فهم أشبه ما يكون بجذوع النخل المنتشرة على الارض و الخالية بالنخر من داخلها فهي لا تنفع(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٠٤.

(2)كذلك في النصوص.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٤٤.

(4)التحقيق في كلمات القرآن / مادة حسم.

لبناء و لا لغيره (١) و المنظر صورة للحديث الشريف : " من أبدى صفحته للحق هلك (2) " ، و الآخر " من صارع الحق صرع " (٣) ، و إنها لعاقبة كل من يكذب بالحق و يتنكب عن طريقه.

و اللطيف في تعبير القرآن مخاطبته المباشرة " فترى " للرسول (ص) و من خلاله كل تال للآيات ، وذلك ان الله لا يريد من نقل القصص مجرد المعرفة او التسلية ، بل يريد من سامعها الاتعاظ و الاعتبار ، و الذي يتم بتخيل القصص و مشاهدها و الحضور في احداثها و خلفياتها ، و بعبارة أخرى : ان يكون نفسه شاهدا عليها ، ولا شك ان القلب و العقل أعظم شهادة و حضورا ، و الانسان قادر على الحضور بهما ، و رؤية حتى الماضي و المستقبل ، فالخطاب هنا موجه للاذن الواعية ، ثم يؤكد ربنا بالتساؤل : ان قوم عاد أهلكوا جميعا ، فلم يبق منهم أحد.

]فهل ترى لهم من باقية[

قيل :لم يبق لهم أثر من نفس و غيرها ، و قيل : بل المعنى لا ترى من نفس باقية فقط (٤) و هكذا حصروا الهلاك في النفوس لقوله تعالى عن قوم عاد " : فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم " (٥) ، وهذا هو الأقرب.

إذن فتكذيبهم بالقارعة لم يغير من الحقائق الواقعية شيئا ، بل قرعتهم في الدنيا قبل الآخرة ، و نحن

الذين نقف على أخبار الاقدمين يجب ان نتخذها حاقة تكشف لنا عن سنة الجزاء ، و من ثم حقيقة الساعة و القيامة و البعث (الآخرة. (

(1)مربيان مفصل في معنى " اعجاز نخل خاوية " في الاية ٢٠ من سورة سورة القمر فراجع.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٠ - ص ١٠٧ عن الامام علي (ع. (

(3)المصدر / ج ٧٧ - ص ٤٢٠.

(4)الدر المنثور و الكشاف و الرازي.

(5)الاحقاف / ٢٥.

[10 - 9]و يضع السياق صورا أخرى تكشف عن ذات الحقائق : هيمنة الله على الحياة ، و سنة الجزاء ، و الآخرة .. وإنما يكثر القرآن الأمثال لكي لا تبقى عندنا ذرة شك او شبهة ان تلك الحوادث كانت صدفة ، و بالتالي لكي يتعمق في نفوسنا الايمان بالله و الجزاء.

]و جاء فرعون و من قبله و المؤتفكات بالخاطئة[

أي بالقيم و الاعمال البعيدة عن الحق و الصواب ، كالظلم و العلو و الشرك و ادعاء الربوبية ، وقد اختلف في الذين قبل فرعون الى قولين : أحدهما : أنهم الأمم و القرون التي سبقته و أهلكها الله ، و الآخر - و هو صحيح ايضا : - ان فرعون كان حلقة من نظام سياسيكان يحكم مصر ، و الذين قبله يعني الحلقات الأخرى منه ، قال الامام الباقر (ع) في قوله : " و جاء فرعون " : " يعني الثالث و من قبله الأولين " (١) ، و الى ذلك تشير الاثار و الدراسات العلمية للتاريخ السياسي لمصر (٢) ، و ربما الأولى الجمع بين الرأيين ، و القول بأن " من قبله " تشمل كل من كان قبل فرعون من ملوك مصر و غيرهم.

و اما " المؤتفكات " فهي قرى لوط التي جعل الله عاليها سافلها جزاء شذوذهم الجنسي ، و مشيتهم المقلوبة في الحياة ، حيث كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، و انما خص الله قوم لوط بالذكر مع شمول " من قبله " لهم لانهم من اظهر شواهد الانحراف ، و لعل أعظم الخطيئات التي جاءت بها تلك الاقوام هي اتباع المناهج و القيادات المنحرفة ، و من ثم التكذيب برسالات الله و رسله.

(1)البرهان / ج ٤ - ص ٣٧٥.

(2)راجع كتاب (مدخل في علم السياسة) لمؤلفه بطرس غالي وزير داخلية مصر الاسبق ، و مدرس العلوم السياسية في جامعة القاهرة.

]فعصوا رسول ربهم[

كنتيجة مباشرة لذلك . و ماذا يعني عصيان الرسول ؟ انه الانحراف عن الحق و السنن الطبيعية في الحياة ، و محاربة الله .. و هل ينتهي ذلك إلا الى الانحطاط و الهلاك ؟!

]فأخذهم أخذة رابية[

و أصل الرابية :الزيادة ، و يسمى ما ارتفع من الارض رابية لانه في حقيقته زيادة فيها بالارتفاع ، وأما الأخذة الرابية فهي : اما التي زادت على غيرها من عذاب الله و أخذه ، او التي نمت و تعاظمت بسبب

تراكم الخطيئات ، و هذا قريب ، و فيه دلالة على انه تعالى أملى لهم و أمهلهم ليزدادوا إثما ، فيزيدوا بأنفسهم غضب الله عليهم في الدنيا و الآخرة.

[11]و يذكرنا القرآن بأعظم ما شهده تاريخ البشرية من الجزاء الإلهي ، و هو ذلك الطوفان الذي تفجرت به ينابيع الارض ، و انفتحت ابواب السماء بماء منهمر ، فابتلع اليابسة كلها في عصر نوح (ع) ، و لكنه في نفس الوقت يوجهنا الى لطف الله بالبشرية كلها حيث حفظوجودها بحملها في السفينة ، هذه الآية التي يهدينا التفكير فيها و بصورة مسلمة الى ان سنة الجزاء ليست صدفة ، انما هي تحت هيمنة الله الحكيم في تدبيره.

]إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية[

أي السفينة التي تجري على الماء ، و طغيان الماء : زيادته عن المعتاد و عن حاجة الناس و النبات اليه ، و يقال للبحر : طغى : إذا تجاوز على اليابسة ، وفي الدر المنثور عن ابن عباس ، و سعيد بن جبير ، قال : طغى على خزانه فنزل ، و لم ينزل من السماء ماء إلابمكيال أو ميزان إلا زمن نوح (ع) فإنه طغى على خزانه ، فنزل من غير كيل ولا وزن (١) ، و أخرج بن جرير عن الامام علي (ع) قال : " لم تنزل قطرة من ماء إلا بمكيال على يدي ملك ، إلا يوم نوح فإنه أذن للماء دون الخزان فطغى على الخزان فخرج " (٢) ، ولايعني ذلك انه لا مكيال ولا وزن معلوم له عند الله ، كلا .. وإنما المعنى أن الله لا ينزل الامطار إلا عبر حسابات دقيقة ، تتناسب مع حاجات الخلق ، أما في الطوفان فقد أمر السماء و الارض أن تتفجر ماء ما تستطيعان.

و لم يقل الله : (حملناهم) يعني الذين ركبوا السفينة مع نوح ، بل قال : " حملناكم " موجها الخطاب للبشرية جمعاء ، لانها يوم الطوفان كانت منحصرة فيهم ، و ليس الناس بعدها إلا نسل اولئك ، فنحن معنيون بالحمل ايضا ، إذ لولا السفينةلما كنا الان موجودين.

[12]و بعد العرض الموجز لقصة الطوفان في آية واحدة يوجهنا القرآن الى العبرة الهامة منها ، و التي يقتضي الاشارة اليها ، و هي : ان بقاء السفينة و نجاة ركابها في ذلك الطوفان المروع اية الهية عظيمة ، تذكرنا بكثير من الحقائق الايمانية ، إذا كانت ثمة أذنواعية تستوعب ما تذكر به.

]لنجعلها لكم تذكرة[

و ان مرورا سريعا بآية (الجارية) يذكرنا بهيمنة الله على الوجود ، و سنة الجزاء ، و لطف ربنا ، و دور الايمان به ، و اتباع رسله و رسالاته في نجاة الانسان ، و فضل الأنبياء على البشرية .. و هكذا الكثير من الحقائق التي من شأنها زراعة تقوى الله

(1)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٠.

(2)المصدر / ص ٢٥٩.

و تعميقها في النفس ، و ما أحوج البشرية ان تدرس هذه الآية لتتذكر بها لتتجنب الاخطاء ، و تبني الحياة السعيدة ، إلا أننا لا نعيرها اهتماما ولا جزء من تفكيرنا ، بل نمر عليها مرور الغافلين اللاأباليين ، وكأنها مجرد قصة خيالية او قصة تروى للتسلية.

بلى . ان الآيات و الحقائق كما الماء و الكائنات الأخرى تحتاج الى وعاء يستوعبها ، و لكن من جنس آخر .انه القلب المزكى بالايمان و العرفان هو وحده و عاؤها ، و ان في قصة الاعدام الجماعي للبشرية بالطوفان لدرسا يجب ان يبقى نصب أعين الناجين ، يعمق فيهم الخشية من ربهم ، و يحيي ضمائرهم ، و يستثير عقولهم باتجاه الحق أبد الدهر.

]و تعيها أذن واعية[

أي تعي التذكرة . ومن وصل هذه النهاية بالشطر السابق للآية نهتدي الى أن المسيرة الطبيعية للبشرية هي مسيرة التقدم ، حيث تتراكم خبراتها و تجاربها عبر الزمن ، مما يزيد وعيها و معارفها و ايمانها ، هذا إذا كانت من الناحية المعنوية سليمة و ذات أذن واعية ،أما إذا لم تصل بنفسها الى مستوى القدرة على عقل الحقائق و استيعابها فإنها لن تتقدم الى الامام ، بل ستهوي في ذات المزالق التي دفع فيها السابقون ، و ستواجه ذات المصير . بلى . ان تلك القصص نداءات موجهة الينا لا يسمعها الصم ، وقال تعالى " أذن "لأن السمع هو نافذة المعرفة الانسانية على التاريخ ، و وصفها بـ " واعية " لكي يهدينا بأن منهج القرآن في بيان الحق و التذكير به منهج كامل لا نقص فيه ، فإذا لم يستوعبه الانسان أو لم يقبله فان الاشكال فيه ، لان أذنه غير واعية ، و ليس في رسالة الله ، ولا شك ان المقصود هو ما وراء الأذن و ليست الأذن بذاتها ، لانها ليست وعاء للعلم بل وسيلة موصلة الى وعائه وهو القلب ، و من أهم شروط استيعاب الحق:

ا - جعله هدفا و محورا ، مقدما على كل اعتبار آخر ، فمتى وجده سلم له.

ب -الطهارة من الحجب التي تمنع اتصال القلب به كالغفلة و الجحود ، ومن أبرزها الافكار و المواقف المسبقة ، وذلك ان القلب لا يمكن ان يستوعب الحق و الباطل معا ، فهو إما يكون وعاءا للحق وإما يكون وعاءا للباطل ، و لابد ان يطرد الباطل من القلب حتى يستوعب الحق.

د - ان تكون قدرة الاستيعاب كبيرة ، و ذلك ان بعض الحقائق عظيمة لا يستوعبها كل قلب ، بل تختلف درجات المعرفة بالحقائق باختلاف القدرات العلمية و الايمانية عند الانسان .. و جاء في الحديث الشريف عن الامام علي (ع) : " اعلموا ان الله سبحانه لم يمدح من القلوب إلا أوعاها للحكمة ، ومن الناس إلا أسرعهم الى الحق " (٢) ، و قال (ع) : " ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها " (٢. (

و لقد اجتمعت هذه الشروط و غيرها في شخص امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع (فاستوعب رسالة الله ، و أصبح أعرف الناس بعد النبي بها ، و لذلك أجمع الرواة و المفسرون على تأويلها فيه (ع) كأعظم مصداق للأذن الواعية .. قال الامام علي (ع) يخاطب اصحابه و خاصته: " إلا وإني مخصوص في القرآن باسماء احذروا ان تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم - الى ان قال - : وأنا الأذن الواعية " (٣) ، و قال النبي (ص) يخاطب عليا (ع) : " دعوت الله - عز وجل (1)-غرر الحكم.

(2)نهج حكمة / ١٤٧.

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٠٢ نقلا عن معاني الأخبار.

ان يجعلها أذنك يا علي " (١) و في تفسير القرطبي روى مكحول : ان النبي (ص (قال عند نزول هذه الآية : " سألت ربي ان يجعلها أذن علي " قال مكحول : فكان علي (رض) يقول : " ما سمعت من رسول الله (ص) شيئا قط فنسيته إلا و حفظته " (٢) أيما كنت أنساه وما كنت إلا أحفظه . وعن الحسن نحو ذكره الثعلبي ، قال : لما نزلت " الآية " قال النبي (ص) : " سألت ربي ان يجعلها اذنك يا علي " قال علي : " فما نسيت شيئا بعد وما كان لي ان أنسى " (٣ (، و انما طلب النبي ذلك من الله لانه يعلم بأن عليا هو الامتداد الحقيقي له و لخطه ، فلابد ان يستوعب رسالته .. و تتسع الآية لمصاديق أخرى و بدرجات متفاوتة ، إذ أن كل أذن واعية هي مصداق لها.

ان التاريخ معلم للبشرية ، و يجب ان تتلمذ في مدرسته ، لان ذلك هو السبيل للتقدم و السعادة في الدارين ، فهي لو درست تاريخها و تفكرت في حوادثه و منعطفاته فسوف تهتدي الى الحق في كل صعيد و جانب من الحياة .. تهتدي الى ربها لان التاريخ كله آيات موصلة البالايمان به ، و تهتدي الى الكثير من السنن و القوانين و الحقائق الحضارية التي من شأنها لو وعتها ان تتجنب الأخطاء و الأخطار ، و تجد طريقها الى المجد و الفلاح.

[14 - 13]ثم ينعطف السياق للحديث عن الآخرة لأنها الحاقة العظمى ، و أجلى صورة لسنة الجزاء في الوجود .. وإن الأذن الواعية ليتذكر صاحبها بحوادث التاريخ ، و ما لقيته الاقوام في الدنيا عن الجزاء الإلهي فيعي بذلك حقيقة الآخرة ،(١ (المصدر.

(2)القرطبي / ج ١٨ - ص ٢٦٤.

(3)المصدر ذكر ذلك و ذكره الكشاف ، الرازي ، فتح القدير ، الدر المنثور ، شواهد التنزيل للحسكاني ، أسباب النزول للنيسابوري / عند تفسير الآية فراجع.

و انها حقا لأذن واعية تلك التي تعاين الغيب من خلال الشهود ، و تتسع آفاقها لرؤية المستقبل عبر الحاضر ، فلا تفاجئ بالواقعة ، ، إنما تأتي مستعدة لتجاوز عقبتها بزاد التقوى و ذخيرة العمل الصالح . بلى . ان الواعين يعيشون في الدنيا ولكن ارواحهم في الآخرة ، بل إن حضورها في قلوبهم أعظم من حضور الدنيا ، فتراهم لا يغفلون عنها لحظة واحدة ، و حيث ينقل لهم القرآن مشاهد منها فكأنها قائمة بين أعينهم و قلوبهم ، كما وصفهم صاحب الأذن الواعية الامام علي (ع) بقوله : فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعا ، و تطلعتنفوسهم اليها شوقا ، و ظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، و ظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم و أكفهم و ركبهم ، و أطراف أقدامهم ، يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم (1) "، و كل ذلك ينعكس على سلوكهم في الحياة.

ولقد جاءت الآية (12)مؤكدة على دور الآذان الواعية بين الحديث عن تاريخ الاقوام السالفة) الآيات / ٤ / ١١) ، و الحديث عن الآخرة (الآيات ١٣ / ١٨) في هذا الدرس و امتدادها حتى الآية (٣٧) في الدرس اللاحق ، لأنها وحدها القادرة على استيعاب مواعظ التاريخ و آياته ، و الايمان بحديث الوحي عن الآخرة و وعيه ، فحقائق الغيب - سواء غيب التاريخ أو غيب الآخرة - حقائق كبيرة ، بحاجة الى أذن مرهفة تنفذ بسمعها من الآيات الى ما تهدي اليه ، و قلب واسع كبير يحتمل أن يكون وعاء لها.

]فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة[

و يبدو انها النفخة الثانية لانها التي يقوم فيها الناس للحساب و الجزاء ، قال(١) نهج البلاغة / ج ١٩٣ - ص ٣٠٤.

تعالى " :و نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " (١) ، وما يؤكد أنها الثانية ان السياق هو سياق الحديث عن الجزاء ، مما يستلزم الكلام عن النفخة الثانية التي يكون الجزاء بعدها ، و نقرأ هنا بعض الاخبار عن أئمة الهدى في شأن النفخ في الصور ، قال الامام علي (ع) : " و ينفخ في الصور فتزهق كل مهجة ، و تبكم كل لهجة ، و تذل الشم الشوامخ ، و الصم الرواسخ ، فيصير صلدها سرابا رقراقا ، و معهدها قاعا سملقا (مستويا) فلا شفيع يشفع ،و لا حميم ينفع ، و لا معذرة تدفع " (٢) ، وفي صلاته على حملة العرش قال الامام زين العابدين : " و اسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن ، و حلول الأمر ، فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور " (٣) ، وعن وهب بن منبه عن الامام الصادق (ع) قال : " خلق الله الصور من لؤلؤة في صفاء الزجاجة ، ثم قال للعرش : خذ الصور ، فتعلق به ، ثم قال : كن ، فكان اسرافيل ، فأمره ان يأخذ الصور فأخذه ، و به ثقب بعدد كل روح مخلوقة ، و نفس منفوسة ، لا تخرج روحان من ثقب واحد ، وفي وسط الصور كوة (فتحة) كاستدارة السماء و الارض ، و اسرافيل واضع فمه على ذلك الكوة ، ثم قال له الرب تعالى : قد وكلتك بالصور فأنت للنفخة و للصيحة ، فدخل اسرافيل في مقدم العرش ، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش ، و قدم اليسرى ، و لم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به) " (4وفي رواية " : مخافة ان يؤمر بالصيحة قبل ان يرتد اليه طرفه ، كأن عيناه كوكبان دريان . (5) "

(1)سورة الزمر / ٦٨.

(2)نهج البلاغة / ج ١٩٥ - ص ٣١٠.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ٥٩ - ص ٢١٧.

(4)المصدر / ص ٢٦١.

(5)المصدر / ٣٦٢.

وهو لا يحتاج حتى يهلك الأحياء بالنفخة الأولى و يبعثهم قياما بالثانية الى أكثر من مجرد نفخة واحدة ، لما أعطاه الله من القدرة العظيمة . قال العلامة الطباطبائي : وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة الى مضي الأمر ، و نفوذ القدرة ، فلا وهن فيه حتى يحتاج الى تكرار النفخة (١. (

ويا لها من نفخة صاعقة مخيفة ، لا تذهب بالانفس و حسب بل تزلزل الكائنات و كأنها ترليونات الترليونات من القنابل النووية التي تنفجر في دفعة واحدة ، فتدمر الكون و نظامه ، بحيث تخرج الارض عن مدارها ، و تستأصل الجبال الراسية من فوقها ، ثم يدكها الله ببعضها.

]وحملت الارض و الجبال فدكتا دكة واحدة[

و أصل الدك هو الهدم ، يقال : دك الجدار إذا هدمه و سواه مع الارض ، ولا ندري هل يضرب الله اجزاء الارض و الجبال ببعضها بتركيز الجاذبية تركيزا هائلا بين أجزائهما ، أو برفعها تماما مما يسبب تلاشيها ، أم يضرب الجبال بالارض و العكس ، أم يرطمهما معا بكوكبآخر ؟ المهم انهما يتداكان .. وفي الآية إشارة الى حقيقة علمية جيولوجية : إذ لم يقل الله : " و حملت الارض "فقط ، باعتبار ان الجبال جزء منها ، و ذلك لأنها في الواقع كيانات شبه مستقلة ، جعلها الله فيها ، فنصبها و أرساها أوتادا للارض (٢) ، فهيكما الشجرة لها هيكلها و جذورها الضاربة في التخوم .. كما نهتدي الى ان الارض تكون مستوية بالدك يوم القيامة ، و لذلك خص القرآن الجبال بالذكر لأنها الزوائد المرتفعة على سطحها.

و يتزامن بعث الناس للحساب مع تلك الأحداث الكونية الرهيبة لكي تتجلى(١) الميزان / ج ١٩ - ص ٣٩٧ .

(2)راجع الآيات : الغاشية / ١٩ ، النازعات / ٣٢ ، النبأ / ٧.

لهم قدرة الله ، و تتساقط عندهم كل الحجب و التبريرات هنالك ، بل في الدنيا ايضا لمن يؤمن بالآخرة و يعي آياتها.

[17 - 15]و بعد ان يصور لنا القرآن مشهدا من القيامة يؤكد بأنها أعظم الوقائع التي تمر بالانسان ، لانها تدمر الكائنات ، و تسوق الانسان الى مصيره الأبدي.

]فيومئذ وقعت الواقعة[

و التعـريف بالألف و اللام يعظمهـا فـي ذهـن السامع ، و يؤكد بأن للانسان معها عهدا أودعه الله في فطرته ، فهي ليست نكرة للبشـر السـوي .. و ان فـي تسميتهـا) القيامة) بالواقعة يأتي للتأكيد باللفظ على كونها حقيقة لابد من حصولها ، فكون الشيءالواقعي في الغيب ، و يفصل الانسان عنه الزمن المستقبل لا ينفي أصل وجوده ، وهذه مسلمة فطرية و عقلية ، و كأن الآية تقول : بأن تكذيبكم أيها البشر بالآخرة لن يغير شيئا فيها ، ولا في ما يتصل بها من الاحداث ، فهل يمنع تكذيبنا - مثلا - من تأثير نفخة اسرافيل في الارض و الجبال ؟ كلا ..

و يوصلنا كتاب الله بالغيب ، إذ يضع أمامنا مشهدا آخر من مشاهد الواقعة و هو انشقاق السماء المحبوكة و المتينة الخلق الى حد تكون فيه واهية كالخرقة البالية التي تصير رمادا أو هباء.

]و انشقت السماء[

المحبوكة التي لا فروج فيها ولا ضعف.

]فهي يومئذ واهية[

اي شديدة الضعف و قليلة التماسك ، ليس في هيكلها وحسب بل في جزئيات كيانها ، مما يجعلها تتبدل شيئا آخر كالمهل أو الدهان كما قال الله : " يوم تبدل الارض غير الارض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار " (١) ، و هكذا لا تبقى السماء سقفا محفوظا يمنع عن الارض النيازك و الأخطار.

و مشهدا آخر عظيم هو منظر الملائكة على الأرجاء و الملائكة الثمانية العظام الذين يحملون عرش الله فوقهم.

]و الملك على أرجائها[

اي اطرافها و نواحيها ، قالوا : بان الضمير عائد الى السماء التي تشقق و تصير قطعا و أجزاءا على كل واحدة منها ملائكة كثيرون.

]و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[

من أعظم ملائكة الله ، و ربما أعظمهم على الاطلاق ، و لفوقهم تفسيران : أحدهما : فوقهم بالمسافة ، و الآخر : فوقهم بالمرتبة ، فالثمانية يحملون العرش من أركانه و معهم من الملائكة من يحملونه من اطرافه الأخرى ، او ان الثمانية لهم الرئاسة على بقية الملائكة فهم فوقهم مرتبة ، و بهذا نجمع بين الروايات القائلة : بانهم ثمانية ، و القائلة : بأنهم أكثر من ذلك.

قال الامام علي بن الحسين (ع) في صفة خلق العرش : " له ثمانية اركان ، على كل ركن منها من الملائكة مالا يحصي عددهم الا الله - عز وجل - يسبحون الليل و النهار لا يفترون " (٢) ، و قال الامام الصادق (ع) : " ان حملة العرش(١ (ابراهيم / ٤٨.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٠٤.

اربعة :أحدهم على صورة ابن ادم يسترزق الله لبني ادم ، و الثاني : على صورة الديك يسترزق الله للطير ، و الثالث : على صورة الأسد يسترزق الله للسباع ، و الرابع : على صورة الثور يسترزق الله للبهائم ، و نكس الثور رأسه منذ عبد بنو اسرائيل العجل ، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية " (١. (

و لقد خاض بعض المفسرين في مواضيع لا داعي لها ، و اختلفوا مع بعضهم في عدد الملائكة و اشكالهم ، و هي بحوث لم نكلف بها ، بينما توجه أئمة الهدى - عليهم السلام - للرد على الافكار المادية التي حاول أصحابها إثبات معتقداتهم التجسيدية و التشبيهية من خلالالفهم الخاطىء لهذه الآية الكريمة ، حيث شبهوا عرض الله بعروش السلاطين التي يتربعون عليها . تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا.

قال سلمان المحمدي : سأل بعض النصارى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال له : أخبرني عن ربك أيحمل ؟ فقال (ع " : (ربنا جل جلاله يحمل ولا يحمل " ، قال النصراني : و كيف ذلك و نحن نجد في الانجيل : " و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية " ؟ فقال علي (ع) : " ان الملائكة تحمل العرش ، و ليس العرش كما تظن كهيئة السرير ، و لكنه شيء محدود مخلوق مدبر ، و ربك - عز وجل - مالكه ، لا انه عليه ككون الشيء على الشيء ، و أمر الملائكة بحمله يحملون العرش بما أقدرهم عليه " قال : النصراني صدقت رحمك الله (٢. (

و قال الامام الرضا (ع) : " و المحمول ما سوى الله ، و لم يسمع أحد آمن بالله و عظمته قط قال في دعائه : يا محمول " فقال له أبو قره : فانه قال : " و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية " ؟ و قال : " الذين يحملون العرش " ؟! فقال أبو

(1)المصدر.

(2)المصدر نقلا عن كتاب التوحيد.

الحسن)ع) : " العــرش ليس هو الله ، و العرش اسم علم و قدرة ، و عرش فيه كل شيء ، ثم أضاف : الحمل الى غيره ، خلق من خلقه لأنه استعبد خلقه بحمل عرشه و هم حملة العلم " (١. (

و العرش هو رمز الهيمنة و السلطان و العلم ، و الموضع الذي يتجلى فيه علم الله و قدره و قضاؤه و أمره للملائكة ، الذين هم بدورهم يمضون ما يؤمرون به ، و لعل أهم حكمة لخلق العرش انه تعالى قد أوكل الى الملائكة إنفاذ مقاديره و تدبيره للخلق ، و هو الذي لايحده مكان ما كان لهم ان يتصلوا به ، و كيف يتصل المخلوق المحدود بالخالق لولا خلق الأسماء و الأشياء كالبيت الذي يكون مركز عبادته ، و العرش الذي يكون مركز إدارته للكائنات و هيمنته.

و قد أولت بعض النصوص الحملة فـي خير خلــق الله قال الامام الصــادق (ع) : " حملة العرش ثمانية اربعة منا و اربعة ممن شاء الله " (٢) ، وفي حديث آخر : " حملة العرش ثمانية : اربعة من الاولين و اربعة من الآخرين، فأما الاربعة من الأولين:
فنوح و ابراهيم و موسى و عيسى ، و اما الاخرون : فمحمد و علي والحسن و الحسين - عليهم السلام - و معنى " يحملون " يعني العلم " (٣. (

وإذا كان الظاهر ان الملائكة هم الذين يحملون العرش فان الباطن هو اولئك الذين خلقت الملائكة لأجلهم وهم الصفوة من عباد الله . أليس قد خلق الأشياء لأجل الانسان ، و أي انسان أعظم من الانبياء و الاوصياء ؟

[18]و أعظم مشهد في القيامة هو عرض الناس للحساب و الجزاء ، لأنه أشد(١) المصدر / ص ٤٠٥.

(2)المصدر / ص ٤٠٦

(3)المصدر.

رهبة ، حيث يلقى الانسان حسابه و مصيره الأبدي ، ولأنه الهدف الأساسي من وراء كل احداثها و مشاهدها المرعبة.

]يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية[

وإذا كانت لا تخفى عند الحساب و الجزاء و لا حتى واحدة من الاعمال التي أخفاها الانسان و قام بها في السر ، فكيف بالظاهر منها ؟ فالحساب إذن دقيق ، لأنه يتأسس على علم الله المحيط بكل شيء ، و بالحساب يوم القيامة يتجلى عدل الله و لطفه و غضبه و علمه ، قال رسول الله (ص) : " لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله حتى يسأله عن أربع خصال : عمرك فيما أفنيته ؟ و جسدك فيما أبليته ؟ و مالك من أين اكتسبته وأين وضعته ؟ وعن حبنا أهل البيت " (١) ، و يعرض اعمال العباد ليظهر الحق جليا ، كما تتأكد القارعة و الواقعة بوقوعها ، و لذلك سميت القيامة بالحاقة.

و كلمة أخيرة:

اننا نلاحظ في القرآن أنه لا يكاد يتحدث عن التاريخ و مصير الاقوام السالفة إلا و يوصل ذلك بالحديث عن الآخرة ، فما هو السر في ذلك وما هي العلاقة بينهما ؟

- 1لان الاسلام لا يريد للانسان ان يعيش لحظته الراهنة فقط ، إنما يعيش الحاضر على ضوء الماضي و المستقبل معا ، فيتحرك من حيث انتهى الآخرون ، و يتعظ بتجاربهم لبناء حياة سعيدة في الحاضر ، وفي نفس الوقت يخطط و يعمل لكي يربح المستقبل.

- 2ولأن الآخرة كما التاريخ غيب لا سبيل للانسان الى معرفته إلا بالآيات(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٧ - ص ٢٥٩.

و الآثار الدالة عليه ، و الذي يكفر بالآخرة لأنه لا يعاينها بذاتها كالذي يكفر بالتاريخ لأنه لم يعاصر أحداثه ، مع ان الأدلة قائمة تهدي اليه.

- 3و يتشابه التاريخ مع الآخرة في كون الاثنين عرصة تكشف عن سنة الجزاء الحاكمة في الحياة ، و هيمنة الله عليها ، و تمايز المؤمنين عن سواهم ، و هكذا الكثير من الحقائق ، بل ان التاريخ هو الآية المادية العظمى التي تهدي الى الايمان بالآخرة و الجزاء.

و انه لحق اليقين

هدى من الايات

يأتي كل انسان الى الدنيا و امامه طريقان و فرصة واحدة : طريق الحق الذي ينتهي به الى الجنة و النعيم ، و طريق الباطل الذي ينتهي به الى النار و العذاب ، و اما الفرصة فهي عمره الذي يفنيه في احد الطريقين ، فاما يختار الجنة و يسعى لها سعيها او العكس ، فالدنيا وحدها هي دار الابتلاء و العمل و حيث تقع الواقعة و يعرض للحساب فانه لا يملك تبديلا و لا تحويلا ، لان الآخرة دار الحساب و الجزاء فقط .

وفي الدرس الاخير من سورة الحاقة يضعنا القرآن وجها لوجه أمام هذه الحقيقة مؤكدا بأن هناك عاقبتين و فريقين ، فاما العيشة الراضية في الجنة التي هي نصيب اصحاب اليمين ، و اما تصلية الجحيم جزاء لاصحاب الشمال . و بعد ان يبين في الاثناء بأن المصير في الآخرة متأسس على موقف الانسان و عمله في الدنيا يوجهنا ربنا الى رسالته الحقة الصادقة باعتبارها الصراط المستقيم و النهج الذي يقود الى الفوز و الفلاح يوم القيامة ، مدافعا عنها ضد ضلالات اعدائه و اعداء رسوله الذين قالوا بانها شعر تارة و كهانة تارة اخرى جحوداو استكبارا ، و انها لتذكرة للمتقين و حسرة على الكافرين ، و انه لحق اليقين ، فسبحان الله عما يصفون و يشركون.

بينات من الآيات

[19]بعد عرض الناس للحساب تظهر حقيقتهم ، و تتعين مصائرهم على أساسها في ظل الهيمنة المطلقة للحق ، و لعله لذلك سميت القيامة بالحاقة ، فاما ان يكون الحق مع الانسان فيقوده الى الفوز بالجنة ، و اما ان يكون ضده فيسوقه الى بئس المصير في جهنم . و يكشف لنا القرآن عن غيب الآخرة ليضعنا امام مصيرين لا ثالث لهما بعد ان وضعنا في اجواء القيامة و احضر مشاهدها في قلوبنا لكي نختار احد الاثنين ، و بالطبع نرى السياق القرآني يرجح لنا بعرضه الحكيم خيار أصحاب اليمين.

]فأما من أوتي كتابه بيمينه[

مما يعني فوزه بالجنة و الرضوان ، لان اليمين رمز ذلك ، و كناية عن اليمن و البركة و الخير.

]فيقول هآؤم اقرءوا كتابيه[

قال العلامة الطبرسي " هاؤم " أمر للجماعة بمنزلة هاكم (و اضاف :) بمنزلة خذوا ، و انما يقول ذلك سرورا لعلمه بانه ليس فيه الا الطاعات ، فلا يستحي ان ينظر فيه غيره (١) ، و قال الرازي : دل ذلك على انه بلغ الغاية في السرور فأحب ان يظهره لغيره حتى يفرحوا بما ناله (٢) ، و لعل خطابه موجه لإخوانه من أصحاب(١) مجمع البيان / ج ١٠ عند الآية.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

الجنة ، و بالخصوص ائمة الحق الذين ينصبهم الله موازين للامم عند الحساب ، كما قال تعالى : " يوم ندعوا كل اناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا " (١. (

قال الامام الصادق (ع " : (كل أمة يحاسبها إمام زمانها ، و يعرف الائمة أولياءهم و اعداءهم بسيماهم ، وهو قوله تعالى : " و على الاعراف رجال يعرفون " و هم الائمة " كلا بسيماهم " فيعطوا اولياءهم كتابهم بيمينهم ، فيمروا الى الجنة بلا حساب ، و يعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا الى النار بلا حساب ، فاذا نظر اولياؤهم في كتابهم يقولون لاخوانهم : " الآيتان ١٩ / ٢٠ " (٢. (

و كتاب المؤمنين الذي سجلت فيه صالحاتهم هو جوازهم على الصراط الى الجنة ، و شهادتهم في الإنتماء الى الصالحين و الابرار ، و تسجيل الله لهذه اللقطة " اقرؤوا كتابيه " يأتي للتأكيد على ان أحدا لا يدخل الجنة من دون ثمن ، بل إن الله خلق كل واحدو أعطاه الإرادة و الإختيار بأن يكتب بنفسه حياته و مستقبله المصيري ، و صفحات الانسان التي يتألف منها كتابه هي ساعات عمره التي يكتب فيها ما يشاء من الاعمال التي تحدد مصيره في الآخرة ، وفي الخبر النبوي انه : " يفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره اربعة و عشرون خزانة (عدد ساعات الليل و النهار) فخزانة يجدها مملوءة نورا و سرورا ، فيناله عند مشاهدتها من الفرح و السرور ما لو وزع على أهل النار لادهشهم عن الاحساس بألم النار ، وهي الساعة التي اطاع فيها ربه ، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة ، فيناله عند مشاهدتها من الفزع و الجزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمها ، وهي الساعة التي عصى فيها ربه ، ثم يفتح له خزانة(١) الاسراء / ٧١.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٠٧.

أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره و لا ما يسوؤه ، و هي التي نام فيها ، او اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا ، فيناله من الغبن و الأسف على فواتها حيث كان متمكنا من ان يملأها حسنات ما لا يوصف " (١) ، اما المتقون الذين لا يفترون عن طاعة الله و يذكرونه دائما وعلى كل حال " قياما و قعودا و على جنوبهم " فان اكثر صفحات كتبهم تتــألق بنور الأعمال الصالحة التي يستبشرون بها ، و يدعون الاخرين لقراءتها يوم القيامة.

[20]و يؤكد الله ان الايمان بالجزاء (الآخرة) أصل كل خير ، و أساس كل عمل صالح في حياة المؤمنين ، فهو الدافع الذي يقف وراء الصالحات ، و الجامع المشترك بينها كلها ، و هذه الحقيقة تتضح لو قمنا بعملية استقراء دقيقة لحياة واحد من أصحاب اليمين ، الذينيعلن الواحد منهم هذه الحقيقة في صفوف المحشر يومئذ.

]إني ظننت أني ملاق حسابيه[

ولا يقول : سأعرف أو سأعلم حسابيه ، لان الانسان على نفسه بصيرة فهو الذي يكتب كتابه بنفسه .. إذن فهو يعلم بحسابه ولو بصورة مجملة ، فكيف و المؤمنون يحاسبون انفسهم ؟ انما يريد سألاقي من يحاسبني وهو الله و سأجازى ، لان ما بعد الحساب هو المقصود لذاته . والمعنى ان كل ما تقرؤونه في الكتاب من الصالحات هو ثمرة لشجرة الايمان بالآخرة ، و نبتة جذرها يعود الى ذلك.

وفي معنى الظن اختلفت تعابير المفسرين ، فقال الزمخشري و تابعه الفخر الرازي : اي علمت ، و انما أجري الظن مجرى العلم لان الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات و الاحكام ، و يقال : " أظن ظنا كاليقين ان الأمر كيت(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٧ - ص ٢٦٢.

و كيت " (١) ، و هو ضعيف ، لان فيه تضعيف لكون الظن هنا بمعنى العلم و اليقين الذي ذهب اليه اغلب المفسرين وهو الأقرب و دلت عليه النصوص ، قال الامام علي (ع) وقد سأله رجل عما اشتبه عليه في القرآن : ((و أما قوله : " إني ظننت أني ملاق حسابيه " ، و قوله : " و تظنون بالله الظنونا " فان قوله : "

إني ظننت أني ملاق حسابيه " يقول : إني ظننت أني أبعث فأجاب ، وقوله للمنافقين : " و تظنون بالله الظنونا " فهذا الظن ظن شك ، و ليس الظن ظن يقين ، و الظن ظنان : ظن شك و ظن يقين ، فما كان من أمر معاد من الظن فهو ظن يقين ، وما كان من أمر الدنيا فهو ظن شك " (٢. (

و يبدو لي ان الظن في هذه الآية مرحلة متقدمة من العلم و اليقين ، لانه بمعنى الاستحضار و التصور ، فإن المؤمنين المتقين ليركزون الفكر في أمر الآخرة و يتخيلون مشاهدها الغيبية قائمة في الشهود أمام أعينهم ، فتارة يتصورون الجنة و ما فيها من النعيم ، و أخرى يتصورون النار وما فيها من شديد العذاب ، مما يزرع فيهم الخوف و الرجاء ، بل و يرون الجنة و النار بكل وضوح في الاعمال الدنيوية.

وان يقين المؤمنين بوجوب الحساب يجعلهم يتحركون في الحياة على أساس ذلك ، فإذا بهم يحاسبون أنفسهم و يسعون جهدهم ان تكون صحائفهم منورة بالصالحات ، فلغتهم في الحياة لغة رياضية ذات حسابات دقيقة في علاقاتهم ، و أوقاتهم ، و جهودهم ، و إنفاقهم و .. و..

[23 - 21]و يبين الوحي جانبا من نعيم كل صاحب يمين فيقول:

]فهو في عيشة راضية[

(1)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٠٣.

(2)التوحيد للصدوق / ص ٢٦٧.

اي كاملة لا يعتريها نقص ولا عيب ، فإن الرضى لا يحصل إلا إذا وجد الاحساس بالكمال و عدم النقص ، و كون المؤمن في عيشة راضية دليل على بلوغه قمة الرضى لأن رضى المحيط و العيشة جزء من رضاه و يعززه ، فليس ثمة في محيطه شيء ولا أحد غير راض يبعث في نفسه عدمالرضى و الراحة النفسية ، فنعيم الجنة و حورها و كل شيء فيها ليفرح بالمؤمن و يرضى به.

وفي الآية فكرة عميقة و هي : ان المؤمن أين ما حل يحبه المحيط ، و تستأنس به الحياة ، لانه مبارك أين ما كان ، يرضى عنه الناس و الحيوان و النبات و حتى الارض و الجمادات التي تربطه بها رابطة ، فهو يخدم الناس و يتعب نفسه من أجلهم ، و يرفق بالحيوان ، و يرعى النبات ، و يصلح الارض ، و يستخدم كل شيء في طاعة ربه و لإهدافه المحددة ، مما يسبب شعورا داخله بالرضى ، و يضفي جو الرضا على ما حوله ، بينما الكافر العكس من ذلك تماما ، نفسه ساخطة ، و كل شيء ساخط منه ، لان علاقته ليست سليمة بما حوله.

قال الرسول (ص " : (الناس اثنان : واحد أراح ، و آخر استراح ، فأما الذي استراح فالمؤمن إذا مات استراح من الدنيا و بلائها ، و إما الذي أراح فالكافر إذا مات أراح الشجر و الدواب و كثيرا من الناس " (١) ، فهم غير راضين به ، و لا مستأنسين لوجوده، بعكس المؤمن الذي ترضى به عيشته حتى إذا مات تأثر له و حزن عليه كل شيء ، حتى جاء في الاخبار انه : " ما من مؤمن يموت في غربة من الارض فيغيب عنه بواكيه ، إلا بكته بقاع الارض التي كان يعبد الله عليها ، و بكته أثوابه ، و بكته أبواب السماء التي يصعدبها عمله ، و بكاه الملكان الموكلان به " (٢) ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فالنصوص كثيرة و مستفيضة تحدثنا عن(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٦ - ص ١٥١.

(2)المصدر / ج ٦٧ - ص ٦٦.

رضى الجنة و نعيمها حتى الفاكهة و الطير و القصور بسكانها من المؤمنين ، فقد جاء في الروايات ان الفاكهة تخاطب ولي الله ان كلني قبل هذه و تلك ، و ان الطير بعد ان يأكله يعود سويا فيطير في الجنة فرحا يفتخر على سائر الطيور قائلا : من مثلي وقد أكل مني ولي الله ؟ (١. (

و فكره أخرى نفهمها من الآية وهي : ان المؤمن لفي عيشة راضية حتى في الدنيا بسبب تسليمه لما يقسمه ربه له فيها ، و بسبب تطلعه الى الآخرة و نعيمها ، فلا يسأم من فقر ، و لا تعكر صفو عيشه مصيبة ، قال الامام الصادق (ع) : " ما من مؤمن إلا وقد جعل الله له من ايمانه أنسا يسكن اليه ، حتى لو كان على قمة جبل " (٢ (، و لرضاه في الدنيا لله فانه يجعله في كمال الرضى معنويا و ماديا في الآخرة.

]في جنة عالية[

في درجتها و مقامها المعنوي ، و في ارتفاعها فان خير الجنان منظرا و ثمرا ما نبت على الروابي و ما كان شجرها عاليا رفيعا مما يزيدها روعة و ظلالا ، ولكن علو الجنة ليس بالذي يجعل ثمارها لا تطالها الأيدي ، كلا .. انما هي أقرب ما تكون ثمرة من قاطفها و جانيها.

]قطوفها دانية [

بحيث لا يحتاج المؤمنون لبذل جهد و عناء من أجل جنيها و أكلها ، و للدانية بالاضافة الى معنى القرب (من الدنو) معنى النضج و البلوغ ، فهي مقتربة من حين قطافها و قطعها من شجرتها.

(1)المصدر راجع المجلد الثامن عن الجنة و نعيمها.

قال رسول الله (ص) : " من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه و هو متكىء ، و ان الانواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله كلني قبل ان تأكل هذا قبلي " (١. (

[24]و هنالك يدعى المؤمنون الى مأدبة الله ، و المشتملة على ما لذ و طاب من أنواع الأكل و الشراب التي لا يعلمها إلا هو عز وجل.

]كلوا و اشربوا هنيئا[

لا ينغصه عيب فيه ولا سبب خارجه ، وإنما يبعث الهناء بمنظره (هو و آنيته و مائدته) و بطعمه اللذيذ و فوائده الجمة . وفي الدعوة بفعل الأمر " كلوا و اشربوا " إشارة الى فكرتين : الأولى : الإباحة ، فكل شيء هناك مأكول و مشروب حلال مباح للمؤمنينلا حرام فيه ، و الثانية : ان الله يعطي أصحاب الجنة القدرة الواسعة على الإستلذاذ بنعيمها فهم يستطيعون الأكل و الشرب كلما شاؤوا لا يمنعهم مانع ، قال رسول الله (ص) : " و الذي نفسي بيده ان الرجل منهم ليؤتى قوة مئة رجل في الأكل و الشرب و الجماع " (٢. (

ولأن منهج الرسالة يهدف اصلاح الانسان فهو لا يذكر قصص التاريخ ولا مشاهد القيامة إلا و يوجد رابطا بينه و بينها ، ليحدد لنا الموقف السليم تجاه ما يذكره ، كما سبق و ان قلنا : بأن القرآن يريدنا ان لا نعيش اللحظة الراهنة فقط ، إنما نعيش الحاضر على ضوءالماضي و المستقبل .. كذلك يبين الوحي ان نعيم الجنة نتيجة للعمل الصالح في الدنيا.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٢١٦.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٤٦.

]بما أسلفتم في الأيام الخالية[

و بهذا ينسف الأماني و الظنون الكاذبة ، و يضع الانسان أمام المسؤولية . وقد ذهب أكثر المفسرين الى القول بأن " أسلفتم " تعني الصيام ، و استشهد الدر المنثور بقول الله في حديث قدسي : " يا أوليائي ! طالما نظرت اليكم في الدنيا و قد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، و غارت أعينكم ، و جفت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، و كلوا و اشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية " (١) ، و التفت الفخر الرازي الى معنى لطيف للكلمة فقال : و الإســلاف في اللغة تقديم ما ترجو ان يعود عليك بخير فهو كالإقراض ، و منه يقال : أسلف في كذا إذا قدم فيه ماله (٢. (

و الذي أراه ان الصيام أحد مفردات الإسلاف ، أما الكلمة فهي عامة تتسع لكل الصالحات كالانفاق و الجهاد و الصلاة و .. التي هي ثمن الجنة بعد فضل الله و : " شتان ما بين عمليــن : عمل تذهب لذته و تبقى تبعته ، و عمل تذهب مؤونته و يبقى أجره) "
(3، و ذلك هو الفرق بين اصحاب النار و اصحاب الجنة.

[27 - 25]و يمضي السياق قدما في تصوير جزاء الكفار الذين تعطى كتبهم في شمالهم دلالة على الشؤم و سوء المصير ، و ذلك لتتوازن معادلة الخوف و الرجاء في ذهن الانسان و يسمو بنفسه في آفاق القرب من الله ، يدفعه الرجاء للمزيد من العمل الصالح ، و يردعه الخوف عن محارم الله و اقتراف السيئات .

]و أما من أوتي كتابه[

(1)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٢.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

(3)نهج البلاغة / حكمة ١٢١.

الذي اختطه و ألف ما فيه بنفسه.

]بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه[

و تعكس هذه الآية مدى الفارق بين الاثنين : الاول الذي يكاد يطير فرحا بكتابه ، و يدعو الاخرين لقراءته حتى يشاركوه السرور ، و الاخر الذي ليس لا يدعو الاخرين لقراءة كتابه بل يتعذب هو خجلا و حسرة مما فيه ، الى حد يتمنى لو ذهب به الى العذاب دون ان يقرأكتابه.

قال الفخر الرازي : و اعلم أنه لما نظر في كتابه يذكر قبائح افعاله خجل منها ، و صار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار ، فقال : ياليتهم عذبوني بالنار و ما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي ، حتى لا أدفع هذه الخجالة ، و هذا ينبهكعلى ان العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني (١) ، و الى مثل هذا ذهب اكثر المفسرين . ثم يضيف القرآن بلسان حال اصحاب الشمال قائلا :

]ولم أدر ما حسابيه[

مما يدل على وجود ثلاثة انواع من العذاب : عذاب الفضيحة بين الناس و الذي يحل باصحاب الجحيم فور إعطائهم كتبهم بشمالهم مما يعرفهم لأهل المحشر بأنهم من الخاسرين المعذبين ، و العذاب النفسي (بالخجل و الندم) الذي يحل بالنظر في صحائفهم المسودة بالقبائح والسيئات التي اكتتبوها لانفسهم ، و العذاب الذي يتلقونه عند ورودهم النار ، و لذلك فانهم يتمنون لو ان موتتهم الدنيوية كانت النهاية ، فلا بعث ولا حساب ولا جزاء بعدها.

(1)التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

]ياليتها كانت القاضية[

و القاضية التي ينتهي بها كل شيء . و حينما تدقق النظر في الآيات قد تهتدي الى حقيقة لطيفة و ذلك من تكرار صيغة التمني على لسان اصحاب النار (الآيات (27 / 25وهي : ان من أهم أسباب الخسران هو التمني الذي يعتمد عليه الكافر بدلا عن العمل و السعي ، و الذيلا يغير في الواقع شيئا ، لا في الدنيا ولا في الاخرة .. وإنه قادر على النجاة من سوء العاقبة و الجزاء و الانتقال من اصحاب الشمال الى اصحاب اليمين و لكن عبر السعي و العمل ، و ليس بالتمنيات الخادعة التي يلوكها بلسانه حتى في عرصة القيامة.

[30 / 28]و حيث ان القيامة - كما سبق و بينا - سميت بالحاقة لكونها تحق الحق (تظهره و تغلبه) فان اصحاب الشمال الذين حجبهم ضلالهم عن معرفة الحقائق و التسليم لها في الدنيا تزيل حوادث الاخرة و أهوالها الغشاوة التي على قلوبهم فيرون الحق بكل وضوح و جلاء ، و يكتشفون أخطاءهم الفادحة التي طالما أصروا عليها و حسبوا أنهم يحسنون بها صنعا . و تبرز هنا المفارقة الرئيسية بين المؤمن الذي لا يفاجئه البعث و الجزاء ، باعتباره كان حاضرا عند هذا الغيب و هو في الدنيا " إني ظننت أني ملاق حسابيه " ، و بينالآخر الذي كذب بالآخرة ، و وجد نفسه أمام حقيقتها يومئذ فاكتشف أخطاءه في وقت لا تنفع المعرفة و لا ينجي الايمان . ومن أفدح الأخطاء التي يقع فيها الانسان ، و بالتالي يدخل بسببها اكثر الناس نار جهنم ، هو الاعتماد على المال ، و الحال أنه لا ينفع أحدا في الآخرة ، لان العمل الصالح وحده زاد النجاة و الفلاح فيها.

ان المال بذاته لا يغني ، وإنما ينفع إذا عمل به أعمال خير و صلاح بالإنفاق في سبيل الله .. ولم يفعل ذلك أصحاب الشمال لأنهم كفروا بالحساب و الجزاء.

و الآية توجهنا الى معنى لطيف للغنى فهو لا يتحقق بوجود المال و كثرته ، إنما بأدائه دوره ، و هدفه في الحياة ، فأصل الغنى من ارتفاع الحاجة ، و مع ان المال يقضي للمترفين و المخدوعين بعض الحاجات الظاهرية ، و تستطيل به أيديهم الى كثير من بهارج الدنيا و زخارفها ، إلا ان ذلك لا يعد غنى إنما الغنى حقا يكون بانقضاء الحاجات الحقيقية للبشر ، و أهمها رضى الله و الزحزحة عن النار التي لم يوظف اصحاب الشمال و بالذات المترفون منهم أموالهم من أجل قضائها.

]ما أغنى عني ماليه[

و لقد بينت أحاديث أئمة الهدى المعنى الأصيل للغنى ، قال الامام علي)ع) : " الغنى و الفقر بعد العرض على الله " (١) ، و جاء رجل الى الامام الصادق (ع) فشكى اليه الفقر ، فقال : " ليس الأمر كما ذكرت ، وما أعرفك فقيرا " ، فقال : و الله يا سيدي ما اسبنت (ما عرفت) ، و ذكر من الفقر قطعة و الصادق (ع) يكذبه ، الى أن قال (ع) : " خبرني لو اعطيت بالبراءة منا مائة دينار كنت تأخذ ؟ " قال : لا ، الى ان ذكر ألوف الدنانير ، و الرجل يحلف انه لا يفعل ، فقال له : "من معه سلعة يعطى هذا المال لا يبيعها هو فقير ؟ " (٢) ، و العمل الصالح و الولاية هما اللذان يبقيان مع الانسان و يغنيانه يوم القيامة ، و ليست الأموال التي تفنى أو يرتحل عنها خالي اليدين.

و يضيف القرآن على لسان من يؤتى كتابه بشماله قوله:

]هلك عني سلطانيه [

(1)نهج البلاغة / حكمة ٤٥٢.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٦٧ - ص ١٤٧.

و لعل من أسباب تقديم الحديث عن المال على الحديث عن السلطان ان المال هو طريق الانسان للسلطة و الحكم و الهيمنة في أغلب الأحيان . وفي معنى السلطان ذهب اكثر المفسرين القدماء و الجدد الى انه الحجة ، باعتبارها تعطي صاحبها الحق و الهيمنة ، و تجعل الاخرينيسلمون له ، قال القمي " : سلطانيه " اي حجته ، و مثله الدر المنثور و الكشاف و التبيان ، و زاد الرازي بقوله : ضلت عني حجتي حين شهدت على الجوارح بالشرك (١) ، وما أرجحه ان تصرف الكلمة الى عموم السلطان ، بينما (الحجة) من مصاديقه ، و هناك مصداقان أساسيان آخران نجد الإشارة اليهما:

الاول : السلطان بمعنى الهيمنة الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية التي عادة ما ترافق المال و الثروة عند المترفين ، فتزيدهم بعدا عن الحق و غرورا ببقائها ، فإنها تسلب بالموت و في الاخرة بصورة أشمل ، وقد أشار الى هذا المصداق العلامة الطبرسي بقوله : " سلطانيه " اي ملكي و تسلطي على الناس (٢) ، وما أحوج الحكام و المترفين الى استحضار ذلك المشهد في أذهانهم لعله يدعوهم الى العدل و توجيه السلطة في مرضاة الله عز وجل .. و ان الآيتين " ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه " لهما ايضا لسانحال كل طاغية و حاكم قرعته يد القدرة و الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

الثاني : السلطان بمعنى الإرادة ، إذ ان الوجه البارز من الكلمة هو الهيمنة التي تجعل إرادة المتسلط ماضية و نافذة ، وهذه هي الاخرى تسلب بكل ما تؤدي اليه الكلمة من معنى ، لان السلطة هنالك للحق ولمن تمسك به.

(1)راجع التفاسير المذكورة عند الآية.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٤٨.

و تؤكد الاية اللاحقة هذا المعنى حيث يأتي أمر الله لملائكة العذاب بوضع الأغلال على أعدائه كرمز لسلبهم الحرية ، فلا يستطيعون حتى حراكا وهم يعذبون وإنه ليقطع عليهم تمنياتهم و ملامتهم لأنفسهم بنقلهم الى عذاب النار.

]خذوه فغلوه[

"فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ، و لا تنفعه قبيلته " ، قال رسول الله (ص) : " ثم تجيء صحيفته تطير من خلف ظهره فتقع في شماله ، ثم يأتيه ملك يثقب صدره الى ظهره ، ثم يفتل شماله ، ثم يقال له : إقرا كتابك ، قال : فيقول : أيها الملك ! كيف أقرأ و جهنم أمامي ؟ قال : فيقول الله : دق عنقه ، و اكسر صلبه ، و شد ناصيته الى قدميه ، ثم يقول خذوه فغلوه فيبتدره لتعظيم قول الله سبعون ألف ملك غلاظ شداد ، فمنهم من ينتف لحيته ، ومنهم من يحطم عظامه ، قال : فيقول : أما ترحموني ؟ قال : فيقولون : يا شقي كيف نرحمك ولا يرحمك أرحم الراحمين ؟ أفيؤذيك هذا ؟ فيقول : نعم أشد الأذى ، قال : فيقولون : يا شقي و كيف لو قد طرحناك في النار ؟ قال : فيدفعه الملك في صدره دفعة فيهوي سبعين ألف سنة " (١) ، و قال أمير المؤمنين (ع) : " وأما أهل المعصية فخذلهمفي النار ، و أوثق منهم الأقدام ، و غل منهم الأيدي الى الأعناق ، و ألبس أجسادهم سرابيل القطران ، و قطعت لهم منها مقطعات من النار " (٢) ، و لعمري ان أمر الله بالأخذ ليخص بالذات الطغاة من الحكام الذين تسلطوا على رقاب الناس فراح ضحية لأوامرهم بالسجن و التعذيب و القتل الكثير من الأبرياء و الصالحين .. وقد ذكر صاحب الكشاف (انها نزلت في أبي جهل) لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس (٣. (

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٨ - ص ٣٢٠.

(2)المصدر / ص ٢٩٢.

(3)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٠٤.

[37 - 31]و بعد ان يغل المجرمون تؤمر الملائكة بواحدهم ان تصليه بالنار.

]ثم الجحيم صلوه[

ومن طبيعة الانسان انه يهب للدفاع عن نفسه او الهرب عند مواجهة الخطر ، اما المجرمون الذين تغل أيديهم و أرجلهم فانهم يقاسون عذاب جهنم و عذاب الاغلال في نفس الوقت ، و ذلك من أشد ألوان العذاب ان يصطلي الواحد بالنار ولا يجد سبيلا للخلاص و المقاومة.

قــال الرازي عن المبــرد :أصليته النار إذا أوردتــه إياهـا (١) ، و قال القمي : (اي) اسكنوه (2)، و يبدو لي أن أصل الإصطلاء من الصلة و الوصول ، و " صلوه " ، اي اجعلوا النار واصلة اليه كأكثر ما يكون وصولها لاحد و اتصالها به كيفا و زمنا ، و قيل صلة الرحم لان المراد العلاقة الحميمة المتصلة فلا انقطاع فيها.

]ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه[

اي طولها سبعــون ذراعا ، و الذراع ما يساوي ١٨ بوصة × ٧٠ = ١٢٦٠ بوصة ، و هذا الطول كاف لتلتف السلسلة على جميع اجزاء البدن ، فكيف و بعض المفسرين يعتبر السبعين للمبالغة ، كقول الله : " ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " (٣) ؟!

و قد ذهب البعض الى أنها سبعون ذراعا ولكن من أذرع الملائكة الطويلة التي لا نعلم قياسها ، و قيل بأن الحلقة الواحدة منها ما بين الرحبة في الكوفة و مكة ، و نحن(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

(2)القمي / ج ٢ عند الآية.

(3)راجع الكشاف و التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

لا نخوض في هذا الأمر بل نورد حديثا عن السلسلة مرويا عن الامام الصادق (ع (قــال : " لو ان حلقة واحدة من السلسة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا ذابت الدنيا من حرها " (١) ، و يحتمل انها سلسلة عظيمة تمتد في كل جهنم إلا أن لها أذرعا طول الواحد منها سبعون ذراعا يسلك كل مجرم في أحدها)و الله العالم) . اما كيف يسلكون فيها ؟ فهناك احتمالان:

الاول :انها تخترق أبدانهم ، كأن تدخل من أفواههم و تخرج من أدبارهم و تخرق بها أبدانهم من كل ناحية ، فأصل السلك من إدخال الشيء في الشيء ، كإدخال الأبرة في الخيط ، و كذلك ينظم فيه الخرز و نحوه ، و يقال دخل السلك العسكري أي انسلك في الجندية (٢. (

الثاني : انه يطوق بالسلسلة و تلف عليه فكأنه يسلك فيها ، قال الزمخشري في الكشاف : أي تلوى عليه حتى تلتف عليه أثناؤها (٣. (

و قبل ان ننطلق مع الآيات في بيانها للذنوب الاساسية التي صارت بهم الى ذلك العذاب المقيم نقف عند اللهجة القرآنية المتفردة بها هذه السورة ، أعني إضافة الهاء في الكلمات : (كتابيه ، حسابيه ، ماليه ، سلطانيه) وما هو وزنها من الناحية اللغوية ؟

لقد اختلف المفسرون و القراء أمام هذه الظاهرة القرآنية فقيل:

- 1ان الهاء للسكت و الإستراحة ومن ثم يجب الوقف عندها بين الآيات(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٠٩.

(2)المنجد مادة سلك.

(3)الكشاف / ج ٤ عند الآية.

لتصح القراءة و لتثبت الهاء ، ثم ترى البعض قد أوجب الوقف معتبرا الهاء جزء من القرآن لا يجوز حذفه بالوصل عند القراءة ولا بغير ذلك.

- 2و قال البعض : انها جعلت لنظم رؤوس الآي ، و ذلك مما لا يليق نسبته لكلام الله عز وجل ، لانه كما تؤكد الآية (٤١) " وما هو بقول شاعر " ، لان الشاعر يعتبر القافية أصلا فإذا عجز من نظمها تخبط في النحو و الصرف ، و المعنى من أجل حفظها واحدة، و حاشا لله ان لو أراد النظم ان تعجزه القوافي ، ثم من قال ان القرآن يلتزم بالقافية في سوره و آياته ؟ فهذا قوله تعالى " : للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة و الروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبر جميلا *إنهم يرونه بعيدا * و نراه قريبا * يوم تكون السماء كالمهل * و تكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما " (١. (

- 3و الذي يبدو لي ان الهاء ليست زائدة حتى تحذف بالوصل في القراءة ، و انها لم توضع لنظم نهايات الآي ، و ليست اضافتها خارجة عن لغة القرآن (العربية) التي أنزل بها ، ولقد أخطأ أولئك الذين حاولوا تقييم كلام الله بشعر العرب و كلامهم ، و يجب ان لا يدعونا عجزنا عن ادراك بعض المعاني القرآنية الى افتراضات بعيدة ، على ان للصيغة)كتابيه ، حسابيه) إيحاءا نفسيا قد يبلغه الباحثون في يوم من الأيام .وما يهمني التأكيد عليه أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا ، فالموقف السليم عند العجز عن فهم الآيات هو الاعتراف بالجهل و التواضع للحق لا الخوض فيما لا نعلم أو الطعن في كلام الله.

و نعود الى الآيات الكريمة ، و نستمع الى صفات اصحاب الشمال ، فما هي ؟

الأولى : عدم الايمان بالله.

(1)المعارج / ٢ - ١٠.

]إنه كان لا يؤمن بالله العظيم[

و عندما كفروا بالله العظيم استحقوا جزاء الضعف من العذاب . لماذا ؟

أولا :لان الله عظيم انتشرت آيات قدرته و جلاله في كل شيء ، فكيف جاز لهم الكفر به مع ذلك ؟ ثانيا : ان الذنب يزداد قبحا حينما يكون عصيانا لرب عظيم.

ولقد عبر أئمة الهدى عن هذه الحقيقة بقول الامام السجاد - عليه السلام - : " لا تنظر الى الذنب ، و لكن أنظر الى من عصيت " (١ (، فكيف و ان عدم الايمان بالله أصل كل خطيئة و ذنب ؟ ان عـــدم الايمان جذر كل فساد و ضلال و فاحشة و زيغ ، فمن كفر بالله أشرك به ، لان من لا يؤمن بالله سيتبع غيره و يتأله اليه بشرا أو حجرا أو هوى نفس ، ومن لم يؤمن بالله ضل ضلالا بعيدا ، لانه لم يتبع رسالته فتراه يتخبط في ظلمات الباطل ، ومن كفر باللهأوغل في الفواحش بغير حساب حيث ان الايمان هو الذي يحجز البشر عن الزيغ و يردعه عن المعاصي.

وقد وصف القرآن ربنا بالعظمة هنا لأمرين : أحدهما : لكي لا يظن أحدا بأنه تعالى حينما يعذب المجرمين بذلك العذاب الغليظ الذي وصف آنفا في الآيات (٣٠ - ٣٢) أو ما سيأتي بيانه في الآيات (٣٥ - ٣٦) فانه يظلمهم ، كلا .. ان الجزاء يبقى أبدا أقل من الذنب ، الثاني : ربما لكي نهتدي الى ان مشكلة الكثير من

اصحاب الشمال و ربما كلهم ليس محض الكفر بالله ، و لكن مشكلتهم عدم الايمان بأسمائه الحسنى و صفاته المثلى ، كما قال تعالى : " ما قدروا الله حق قدره إن الله(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٧٣ - ص ١٥٤.

لقوي عزيز " (١ (، فاشركوا بالله أو آمنوا بصفات تعالى ربنا عنها : جسدوه أو زعموا انه مغلول اليدين أو أنه - سبحانه - ظالم للعبيد او هازل في الوعيد أو ما أشبه و كان ذلك مساوقا لعدم الايمان به رأسا ، و هذه كلها جرتهم الى واد سحيق من الانحراف و الضلالفي الدنيا و العذاب في الآخرة.

من هنا نستطيع القول بأن حقيقة التسليم و العبودية لله عز وجل تتأسس بصورتها السليمة على المعرفة بعظمته من خلال آياته و أسمائه الحسنى ومن ثم استشعار عظمته في القلب.

الثانية : و ثمة صفة سيئــة اخرى عند اصحاب الشمال تتصل بعلاقتهم مع عباد الله ، وهي عدم قضاء حوائجهم بل عدم الحث على قضائها.

]ولا يحض على طعام المسكين[

فهو يرتكب ذنبين عظيمين : أحدهما : الامتناع عن الانفاق على المحتاجين الذين فرض الله لهم حقا في أموال الناس ، و الآخر : تركه لواجب الأمر بالمعروف ، و الأخير نتيجة طبيعية للأول ، ذلك ان الذين يبخلون بأموالهم على الناس يتمنون ان يكون المجتمع مثلهم حتىيبرروا موقفهم.

و للمتدبر ان يتصور مدى صلافة من لا يحض على طعام المسكين و انعدام العاطفة و الوجدان عنده ، حيث يرى مس الجوع و الحاجة عند اضعف طبقة اجتماعية ثم لا يبالي بالأمر ، و لا يتحمل المسؤولية ، مع وجود أمر الله بالانفاق ، و كون ما عنده من نعمه و فضله الذي يأتمن عليه خلقه.

و لقد ربط الاسلام بين الايمان بالله و النفع لعباده و كأنهما صنوان لا ينفكان ،(١) الحج / ٧٤.

قال رسول الله (ص) : " أحــب عباد الله الى الله جل جلاله أنفعهم لعباده ، و أقومهم بحقه " (١) ، جاء في حديث قدسي ان الله عز وجل قال : " الخلق عيالي ، فأحبهم إلي ألطفهم بهم ، و أسعاهم في حوائجهم " (٢) ، و حيث ننعم الفكر في العلاقة بينالكفر بالله وعدم الحض على طعام المسكين نهتدي الى ان المعنيين بالآيتين لا خلاق لهم في الآخرة ، و لذلك يعذبون دون رحمة ، لانهم لا ايمان لهم بالله يدعوهم الى العمل الصالح من الزاوية الدينية ، و لا انسانية تدعوهم الى الاحسان ، فقد يكون الانسان كافرا بالله او مشركا و لكن تبقى فيه بقية من الانسانية تحثه على بعض الخير ، فهو ان لم يخفف عنه العذاب لايمانه فسوف يخفف عنه لانسانيته ، حيث لا يضيع الله أجر المحسنين.

و اذا آمنا بهذه الفكرة في ضوء الايمان بأن الجزاء الأخروي صورة لعمل الانسان و اختياره في الدنيا فان تعامل اصحاب الشمال الصلف مع عيال الله المساكين فيها هو الذي يحدد نوع تعامل الله معهم يوم الجزاء . قال الزمخشري : دليلان قويان على عظم الجرم في حرمانالمسكين : أحدهما : عطفه على الكفر و جعله قرينة له ، و الثاني : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم ان تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ؟ (٣)[فليس له اليوم هاهنا حميم [

و هو القريب الذي يهتم بالانسان و يحامي عنه ، فأمثاله من المجرمين مشغولون بأنفسهم عن غيرهم ، وأما المؤمنون فانه عدوهم وهم اعداؤه لكفره بالله ، ومن يجرأ(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٧٧ - ص ١٥٢.

(2)اصول الكافي / ج ٢ - ص ١٩٩.

(3)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٠٥.

على الشفاعة لمن غضب الله العظيم عليه ؟؟ و لعل للآية ظلالا يتصل بعلاقات الانسان الاجتماعية ، و انه ينبغي ان يبحث عما يدوم منها و ينفعه في الدارين ، فان لاصحاب الشمال اخلاء كثيرين و اصدقاء بالخصوص المترفين و اصحاب السلطة منهم و لكنهم لا يحمونهم و لا حتى يسألون عنهم يوم القيامة ، " الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين " (١. (

أما طعامهم فان المجرمين يكادون يموتون جوعا لانهم لا يجدون طعاما ، و حيث يمض بهم الجوع و يطلبون ما يأكلونه يؤتى لهم بطعام هو لون من أشد العذاب.

]ولا طعام إلا من غسلين[

قال القمي : عرق الكفار (٢) لأنه غسالة أبدانهم ، و في الدر المنثور عن ابن عباس : أظنه الزقوم ، و في خبر آخر : (هو) الدم و الماء الذي يسيل من لحومهم (٣) أثر التعذيب ، و في التبيان : و قال قطرب يجوز ان يكون الضريع هو الغسلين ، فعبر عنه بعبارتين (٤)، ولعل أقرب المعاني ما يخرج من أبدانهم من جراحة أو أنه يتصف بمجموعة الصفات السيئة التي يمكن ان يحويها الطعام الرديء لونا و رائحة و مذاقا ، و لعل النفي بـ " لا " يوحي بأن اصحاب الشمال لا يجدون الطعام بسهولة ، بل يبقون مدة طويلة يتضورون جوعا، وإذا جيء لهم بطعام فإنه لا يكون إلا من " غسلين " ، وهذا يتناسب مع موقفهم من المساكين في الدنيا ، حيث كانوا لا يشعرون بجوعهم و عوزهم ، فهم بذلك يذاقون عذاب الجوع مما يكشف لهم مدى قبحهم إذ لم يطعموا المساكين ولم يحضوا على إطعامهم.

(1)الزخرف / ٦٧.

(2)تفسير القمي / ج ٢ عند الآية.

(3)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٣.

(4)التبيان / ج ١٠ - ص ١٠٦.

ان الجزاء في الاخرة هو الصورة الحقيقية لعمل كل انسان في الدنيا ، فهو في الواقع الذي يطعم نفسه هناك ما يقدمه هنا ، فالمؤمنون يأكلون من قطوف الجنات العالية بما أسلفوه من الصالحات ، و المجرمون يأكلون طعام الغسلين بما قدموا من الخطيئات و المعاصي.

]لا يأكله إلا الخاطئون[

فهم إذن كما وصف الله : " انما يأكلون في بطونهم نارا " (١) حيث يمارسون الخطيئات ، و لكنهم - و قد عميت بصائرهم عن الحق - لا يرون ذلك إلا في الآخرة حين تقع الحاقة و تكشف الحجب عن كل حق كشفا معنويا و ماديا.

[41 - 38]و في الفصل الاخير من هذه السورة التي سميت بالحاقة يوجهنا الله الى كتابه العظيم الذي يذكر بها و يسبقها في الهداية الى الحق و إحقاقه ، و كأن السياق يقول لنا بأن القرآن حاق لانه كالحاقة يجلي كل الحقائق . كما انه تعالى آخر الحديث عن أصحاب الشمال على الحديث عن أصحاب اليمين ليكون لصيقا بكلامه عن كتابه ، و ذلك لأن الحديث عن اصحاب النار سوف يستثير في السامع السؤال عن النهج الذي فيه الخلاص من غضب الله و عذابه ، و الفوز باجر اهل اليمين و عيشتهم الراضية.

]فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون[

و التمهيد لأي حديث بالقسم أو بالإشارة للقسم يؤكد أهميته و عظم شأنه ، وإذ لا يقسم الله فذلك يدل

على ان ما يريد قوله و بيانه غاية في الوضوح ، بحيث لا يحتاج لاقناع الآخرين به الى القسم ، و لكنه في الاثناء يلفتنا الى حقيقة عملية(١) النساء / ١٠.

واقعية ، و هي : ان الحياة لا تتلخص في ما يراه الانسان ببصره ، بل لها جانبان : جانب ظاهر يحضر عنده بحواسه المادية ، و آخر خفي مغيب يحتاج الى العلم و البصيرة النافذة لكي يشاهده ، و كأنه بذلك يستحثنا نحو توسيع معارفنا و التطلع الى الوجه الآخر من الحياة ،فهل نكفر بوجود الميكروبات و الفيروسات لأننا لا نراها بأعيننا ؟ كلا .. لان ذلك لا يغير من الواقع شيئا ، فهي موجودة رغم ذلك وهكذا فان من يكفر بالآخرة لانه لا يراها بعينه فانه من الخاطئين (١. (

ومن هذه الزاوية يوصل القرآن الآيتين الآنفتين بتأكيده على ان الرسالة ليست من بنات أفكار النبي (ص) ، إنما هي متصلة بالغيب حيث جبريل الأمين يتنزل بمفرداتها كلمة كلمة و بحروفها حرفا حرفا ، بل و بحركاتها دون نقيصة او تغيير ، فان للرسالة جانبين : ظاهرايتمثل في القرآن الذي يبصره الناس بأعينهم و تدركه حواسهم ، و غيبا لا يبصرونه و لا يدركونه و لا ينبغي لهم ذلك و هو جبرئيل الواسطة بين المرسل و الرسول و رب العالمين الذي يتنزل من عنده القرآن ، و عدم أبصارنا بالجانب الغيبي منها لا يبرر الكفر بها ، و ذلكلسببين:

الاول : ان قصور الانسان عن الاحاطة علما بغيب الحياة من المسلمات البديهية التي يقبلها كل عاقل ، و هكذا لا يمكن للبشر الاحاطة بالوحي الإلهي ، و بذلك ينسف القرآن الشيئية المادية عند البعض ، كالذين كفروا بالرسالة لانهم لم يروا جبرئيل " و قالوا لولا أنزل عليه ملك " (٢ " (او جاء معه ملك " (٣. (

الثاني : ان الجانب الظاهر (القرآن) دليل قاطع يهدي كل ذي عقل الى(١) تقدم الحديث حول القسم في الآية ٧٥ من سورة الواقعة فراجع.

(2)الانعام / ٨.

(3)هود / ١٢.

الايمان بالجانب الاخر (الوحي) ، فان المتدبر في الآيات القرآنية لابد و ان يسلم بأنها من عند الله ، لانه يجدها معجزات لا تتأتى إلا للخالق العظيم ببلاغتها و نظمها و معانيها الهادية للحق ، كما قال الله:

]انه لقول رسول كريم[

اي رفيع المنزلة عند الله ، منزه ، و غاية في الأمانة و الاخلاق فهو لا يقصر في التبليغ ولا يحرف ، مما يؤكد بأن الرسالة وصلت سالمة و تامة كما أرادها الله و أنزلها ، و هذا الأمر يعطينا الثقة و الاطمئنان بها ، و الاعتماد عليها بضرس قاطع . وفي الآية تأكيدان لهذه الحقيقة : " ان " و اللام في " لقول " ، و بالاضافة الى هذين التأكيدين اللفظيين هناك ثلاثة تأكيدات معنوية على ان الرسالة هي من عند الله:

ألف : كلمة "قول " ، فالرسول دوره لا يتعدى نقل الرسالة الى الناس ، فهو يقولها و ليس يؤلفها او يخلقها.

باء :انه تعالى لم يقل فلانا (جبرئيل او محمد) بل لم يقل نبي ولا ملك .. إنما اختار كلمة " رسول " لأنها أدل على المعنى المراد من سواها .. فالرسول هو الذي يحمل الرسالة من عند غيره.

جيم : وإذ امتدح الله رسوله بأنه " كريم " دل ذلك على أمانته و وصول الرسالة كما أراد المرسل ، وإذا كان نكران الذات من أبرز صفات الكريم فإننا نفهم من وصف الله لرسوله بذلك انه تنازل عن ذاته في قضية الرسالة لله ، و بالتالي ليس فيها شيء من عندنفسه.

و لقد اختلفت الاقوال في المقصود بالرسول ، فقال فريق : انه جبرئيل الذي يتنزل بالوحي من عند الله

الى النبي (ص) فهو رسول الله الى نبيه ، و قال آخرون : انه النبي محمد (ص) ، وما أذهب اليه ان الكلمة منصرفة الى الاثنين ، لانهما رسولان من عند الله و فيهاذات الصفات الرسالية ، ولأن المقصود هنا اثبات ان القرآن من عند الله و ليس من عند أحد كالنبي أو جبرئيل ، مما يستوجب التأكيد على الصفات المذكورة في الإثنين.

]وما هو بقول شاعر[

لانه لا يشبه أقوال الشعراء لا في أوزانه و قوافيه ولا في بلاغته ، إذ المسافة بين بلاغته و أدبه الرفيع و بين بلاغة الشعراء و أدبهم مسافة لا يعلمها إلا الله ، فهي كما وصفها الرسول الاعظم (ص) بقوله : " فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله علىخلقه " (١) ، و لا في معانيه لان الشاعر قد يهمه ظاهر الكلام فقط فيتخبط في المعنى ، ولو كان الرسول كالشعراء لكان يضخم الأمور حتى إذا نقل رسالة الله ، فتلك طبيعة الشعراء.

و أعظم مفارقة بين رسالة الله و الشعر أنها تنطوي على الحق و تهدي اليه ، بينما ينطوي أغلب الشعر على الباطل ، و أنها تعبر عن الحقائق الواقعية ، بينما يطلق الشعراء لعواطفهم و ظنونهم العنان دون حساب ، فهم يعتمدون على المشاعر و الأحاسيس بينما تعتمد رسالة الله على علمه الواسع ، من هنا نستطيع القول بأن كلمة الشاعر لا تنحصر في الذي ينظم الأبيات و القصائد ، وإن كان من مصاديقها الجلية ، إنما تتسع لكل من يتبع الثقافة البشرية المنطلقة من الظنون و المشاعر البشرية لا من العلم الإلهي كأصحاب النظريات و الفلسفات ، و لعل هذه المفارقة هي السر في فشل النظريات البشرية و تزلزلها ، و ثبات القيم الإلهية و نجاحها ، وإلا(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٩٣ - ص ١٩ .. و لا يعني ذلك ان القرآن في منزلة الخالق لانه مخلوق له عز وجل و إنما يعني أن كل فضل في الكلام من قبل القرآن فهو كفضل من الله لانه كلامه.

لما تتبع المـــلايين جيلا بعد جيل رسول الله و رسالته بينما لا تتبع الشعراء و تعتد بكلامهم ؟

نعم .إن إقبال الناس منذ بعث النبي (ص) الى اليوم و حتى المستقبل - الذي هو لرسالات الله - على الاسلام و ايمانهم به لآية بالغة على أنها من عند رب العالمين.

]قليلا ما تؤمنون[

قالوا : ان " ما " هنا بمعنى العدم ، أي أنكم لا تؤمنون البته ، و اضافوا : العرب تقول : قلما يأتينا يريدون لا يأتينا (١) ، و لكن يبدو ان القلة هنا بمعناها حيث ينسجم ذلك مع سائر الآيات التي تنفي الايمان عن الكثرة " ان تتبع اكثر من فيالارض يضلوك عن سبيل الله " بينما تثبته للقلة " و قليل من عبادي الشكور " .

و كلمة أخيرة : ان الفرق بين الرسول و بين الشاعر هو الفرق بين الكريم الذي يتنازل عن ذاته و بين من تكون ذاته هي المحور في كلامه و تحركه ، فالشاعر يسأل الأجر و الرسول يعطي ولا يسأل ، و الرسول يقول الحق ولو على نفسه بينما الشاعر لا يملك هذه الشجاعة والاخلاص . كما ان قلة ايمان الناس لن يكون في يوم من الأيام مقياسا للحق ، لأن الرسالة ذاتها حق ، و بالتالي فان الداء في من لا يؤمن و ليس فيها ، لانها قمة سامقة قل أن يصل ذروتها أحد.

[42]و ينفي القرآن أن تكون الرسالة من أقوال الكهنة.

]ولا بقول كاهن [

(1)الرازي / ج ٣٠ - ص ١١٧.

فما هي العلاقة بين نفي الشعر و الكهانة ؟

اولا :لان الشعر و الكهانة من الظواهر التي كانت شائعة في المجتمع الذي تنزلت فيه الــرسالة يومئذ ، و كان الشعراء و الكهان يمثلون طبقة المثقفين و الواعين بين الناس ، وإذ ينفي الله كون القرآن من أفكار أوعى أفراد المجتمع فانه ينفي كونها من عند أي أحدمن الناس ، لان ما يعجز عنه الاقدر لا يستطيع الإتيان به غيره.

ثانيا : لأن أي ثقافة يأتي بها الانسان فانما يحصل عليها عن أحد طريقين أو عنهما معا : فاما تكون ذاتية يتفتق بها عقله و خياله كالشعر ، وأما تأتيه عبر الآخرين كالكهانة التي يتلقى الكهان أفكارها من القوى التي يتصلون بها أمثال الشياطين و الجن ، بغض النظر عن الصحة و الخطأ . و حيث ينفي القرآن الإثنين فانما يؤكد بأن الرسالة ليست من عند نفس الرسول (ص) ولا مصدر آخر يتصل به سوى وحي الله عز وجل.

ان الرسالة هي الحق المرتكز في فطرة الانسان و عقله ، و آياتها تترى و تتواصل الحجج الدالة عليها حتى يقتنع الانسان بها ، ثم انها تقوم بدور تذكرة البشر و تنمية عقله و إرادته.

]قليلا ما تذكرون [

و القليل هنا حسبما يبدو لي بمعناه المعروف.

و لعل الترتيب في النفي بتقديم نفي الشعر ثم نفي الكهانة ب " و لا " يهدينا الى ان الكهانة في عرف المجتمع أرفع و أعجب من الشعر ، كما في قول الله " : قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة " (١. (

(1)راجع تفسير هذه الآية في سورة الجمعة.

و الكهانة من حيث المعنى هي التحدث بالغيب ، و الكهان هم الذين يدعون العلم به ، اما من حيث اشتقاقها اللفظي فيبدو أنها من الأسماء الدخيلة لان أصلها دخيل على المجتمع العربي من الثقافات الجاهلية التي تسربت الى الديانات السماوية كاليهودية و النصرانية ومن خلالهما انتقلت الى العرب ، و يشير الى ان الكلمة مستعربة صاحب المنجد إذ يقول : " و اللفظة إما من كهن بالعبرانية ، أو من كهنا بالسريانية (١) ، و الأقرب أنها قدمت إسما و حرفة من الشعب العبري ، لان اليهود كانوا يسكنون شبه الجزيرة ، و كانت لهم محاولات لنشر مبادئهم و أفكارهم فيها.

و ثابت تاريخيا أغلب رواد الكهانة من اليهود و النصارى وقد اتخذوها سبيلا للوصول الى الزعامة الروحية.

اما كيف يقضي الكهان بما يحسبه الناس غيبا ؟ الجواب للأسباب التالية:

اولا : الذكاء المتميز الذي يساعدهم على التقاط إشارات الحقائق و إرهاصات الظواهر كبعض الجواسيس المتفوقين اليوم.

ثانيا :القدرة على استشفاف المستقبل و التنبأ به ، و هذه القدرة يمتلكها أغلب الناس إلا أن الكهنة ينمون هذه القدرة في انفسهم شأنهم شأن السياسيين الكبار أو لاعبي الشطرنج ومن أشبه.

ثالثا : الاتصال بالجن و الارواح الشيطانية عبر رياضيات روحية معينة شأنهم شأن المرتاضين اليوم.

رابعا :معرفتهم بالثقافات و العلوم الغريبة عن ذلك المجتمع الجاهلي ، و هذه العوامل كانت تساعد الكهنة على التعرف على بعض الحقائق المجهولة عند الناس و التي كانوا يخلطونها بكثير من الاكاذيب و الاساطير.

(1)راجع المنجد مادة كهن.

و حول اصل الكهانة جاء في الخبر المأثور في كتاب الاحتجاج : ان الزنديق سأل الامام الصادق (ع) فمن أين أصل الكهانة و من أين يخبر النـاس بما يحدث ؟ قـال (ع) : " ان الكهانة كانت في الجاهلية ، في كل حين فترة من الرسل ، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون اليه يشتبه عليهم من الأمور بينهم فيخبرهم عن أشياء تحدث ، و ذلك من وجوه شتى : فراسة العين ، و ذكاء القلب ، و وسوسة النفس ، و فتنة الروح ، مع قذف في قلبه ، لان ما يحدث في الارض من الحوادث الظاهرة فذلك يعلم الشيطان و يؤديه الى الكاهن ، و يخبره بمايحدث في المنازل و الاطراف " (١) ، و تهدينا هذه النهاية الى ان نسبة الصدق لدى الكهان فيما يتصل بأسرار الناس تكون أكبر من نسبتها في الحديث عن الغيب ، لان الأسرار قد وقعت و اطلع عليها الجن و الذين يتصلون بهم و يخبرونهم ، و ليس الغيب كذلك ، ولا سيمافيما يتصل بوضع برنامج حياتي متكامل في بصائر العقل و تزكية القلب و تنمية الإرادة و نظام الحياة ، فانه لم يبلغه أي كاهن عبر التاريخ . انه فقط معاجز الرسل [٤٣] ان التمايز بين خط الرسالة و الثقافات البشرية واضح لا غموض فيه ، و لذلك فان نظرة فاحصة للقرآن تهدينا الى أنه ليس شعرا ولا كهانة انما رسالة الله الى خلقه.

]تنزيل من رب العالمين[

اولا : ان القـرآن معجزة الله الخالدة ، لفظا بأدبه و بلاغته و نظمه و .. و .. ، و معنى بهداه و معانيه ، و الذي يدر القرآن من جانبيه (الظاهر و الباطن) يتيقن بلا أدنى شك انه فوق قدرات العالمين إنسا و جنا ، و هذا ما توحي به كلمة " تنزيل "إذ لا ينزل الشيء إلا من المكان العلي ، و بتعبير آخر : إنه تعالى لو لم ينزل الرسالة(١) الاحتجاج / ج ٢ - ص ٣٣٩.

بلطفه لما كان العالمون - مهما تفتقت عبقرياتهم و بلغت قدراتهم - قادرين على السمو الى مقام الإتيان بمثل آيات القرآن .. لا بالشعر و لا بالكهانة ، و لو بلغ الأمر أن تظافرت القوى و التقت الحضارتان ، حضارة الانسان و الجن " قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (١. (

ثانيا : ان الله تعالى يتجلى في كتابه بصفاته و أسمائه الحسنى ، و كتابه يهدي إليه من بدايته حتى نهايته ، وإن القارىء آياته و المتدبر كلماته ليرى ربه ببصيرة الايمان و اليقين ، قال الامام الصـادق (ع) : " لقد تجلى الله لخلقه في كلامه و لكنهم لايبصرون (2) "، و قال الامام علي (ع) : " فبعث الله محمدا .. بقرآن قد بينه و أحكمه ، ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه ، و ليقروا به بعد إذ جحدوه ، و ليثبتوه بعد إذ انكروه ، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غيـر ان يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته ، وخوفهم من سطوته ، و كيف محق من محق بالمثلات ، و احتصد من احتصد بالنقمات " (٣. (

ان المسافة بين كلام الله و كلام المخلوقين ليست بالتي تخفى على ذي لب و فطرة حتى يجهل أحد التمييز بين الرسالة و أفكار المخلوقين.

و لنا وقفة هنا على العلاقة بين الحديث عن الرسالة و أنها من رب العالمين بالذات ، فلم يقل الله : تنزيل من الله .. أو ما الى ذلك من أسمائه الحسنى الأخرى.

ان أصل كلمة "رب " من التربية بما تعني الكلمة من نماء و تزكية و لطف ،(١) الاسراء / ٨٨.

(2)بحار الانوار / ج ٩٢ - ص ١٠٧.

(3)نهج البلاغة / ج ١٤٧ - ص ٢٠٤.

و رسالة الله هي اظهر آية على علاقة الرب الخالق بالمخلوق المربوب . لانها وسيلة الله في تأديب خلقه و تربيتهم ، و طريقهم لكل خير و نماء و بركة إذا عملوا بها ، كما أنها علامة حنانه و تلطفه بهم.

و ننقل هنا بعض الاخبار التي وردت في شأن الآيات الأربع (٤٠ / ٤٣) فيما يتصل بشأن نزولها عند المفسرين ، من ذلك ما رواه ابن اسحاق عن الوليد ابن المغيرة ، وعن النضر ابن الحارث ، و عن عتبة ابن ربيعة ، وقد جاء في روايته عن الاول :

"ثم ان الوليد ابن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، و كان ذا سن فيهم ، و قد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، و لا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، و يرد قولكم بعضه بعضا ، فقالوا : فأنت يا ابا عبد شمس فقل ، و أقم لنا رأيا نقل به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا و الله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون و عرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه و هزجه و قريضه و مقبوضه و مبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد راينا السحار و سحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا ابا عبد شمس ؟ قال :و الله ان لقوله لحلاوة ، و ان اصله لعذق ، و ان فرعه لجناة ، و ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، و إن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقولهو سحر يفرق بين المرء و أبيه ، و بين المرء و أخيه ، و بين المرء و زوجه ، و بين المرء و عشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، و ذكروا لهم أمره ... " (١)و حكي عن الثاني (النضر ابن الحارث) قال:

"فقال : يا معشر قريش ! انه و الله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، و أصدقكم حديثا ، و أعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، و جاءكم بما جاءكم به قلتم :ساحر لا و الله ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة و نفثهم وعقدهم ، و قلتم كاهن ! لا و الله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة و تخالجهم ، و سمعنا سجعهم ، و قلتم : شاعر ! لا و الله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، و سمعنا أصنافه كلها هزجه و رجزه ، و قلتم : مجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه و لا وسوسته و لا تخليطه . يا معشر قريش ! فانظروا في شأنكم ، فانه و الله قد نزل بكم أمر عظيم .. " (٢)[٤٤ - ٤٧] و نعود للآيات الكريمة حيث تؤكد أمانة الرسول و صحة الرسالة ، بنفي أي إضافة منه (ص) اليها نفيا قاطعا ، مما يهدينا الى حقانية الحق ، وأن الله يفرضه على الانسان فرضا دون ان يتساهل حتى مع حبيبه و أقرب خلقه اليه النبي محمد (ص. (

]ولو تقول علينا بعض الأقاويل[

قال الزمخشري : التقول افتعال القول كأن فيه تكلفا ، من المفتعل ، و سميت ألاقوال المتقولة أقاويل تصغيرا بها و تحقيرا ، كقولك الأعاجيب و الأضاحيك ، (1)في ظلال القران / ج ٨ - ص ٢١٦.

(2)المصدر.

كأنها جمع أفعوله من القول (١) ، و المعنى و لو نسب الينا قولا لم نقله (٢) ، و الافتراض هنا افتراض جدلي يفيد ان النبي (ص) لم يتقول - حاشاه - إذ لم نر الوعيد الإلهي تحقق في هذا الشأن . و الآية تزكية للرسول ليس فيما يتصل بالقرآن و حسب بل في كل نطقه و كلامه . وهذه الشهادة الإلهية البينة اية على عصمة نبينا (ص) ، وأن سنته كالقرآن ليست من أهوائه انما هي بعلم الله و حكمته أجراها على لسانه.

]لأخذنا منه باليمين[

معنويا بسلب سمة النبوة منه ، و ماديا بمجازاته أشد الجزاء ، لان خطأ الانسان يكون أفظع و أسوأ كلما كان في موقع أهم ، وهذا ما يجعل ثواب نساء النبي و عقابهن مضاعفا عند الله . و لعمري إنه إنذار و وعيد لكل من يخون أمانة الله ، و بالذات اولئك الذين حملهممسؤولية الرسالة .. أعني العلماء ، فياويل

الذين يفترون منهم الكذب ، و يحرفون الكلم عن مواضعه.

و قد اختلف في الأخذ باليمين ، فقال جماعة : انه كناية عن الأخذ الشديد باعتبار اليمين رمز القدرة ، و قال آخرون : أنه أخذ القوة منه أي سلبنا منه القوة (3)، لان القوة في اليمين ، فإذا أخذت انتفت ، وفي المجمع : لأخذنا بيده التي هي اليمين على وجه الإذلال ، كما يقول السلطان : يا غلام خذ بيده ، فأخذها إهانة ، و قيل : معناه لقطعنا يده اليمنى (٤) ، و يبدو لي أنه الأخذ الشديد ، و أخذ الله دائما يكون شديدا . أما كيف يأخذ الله ؟ فذلك من شأنه.

(1)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٠٧.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ عند الآية.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٠.

]ثم لقطعنا منه الوتين[

في الدر المنثور : عرق القلب (عن ابن عباس) و عن عكرمة قال : نياط القلب (1)، و في المنجد : عرق في القلب يجري منه الدم الى العروق كلها (٢) ، و المهم انه العرق الذي لو قطع لما بقي الانسان حيا .. ولو أخذ الله أحدا بيمينه فقطع منه الوتين فمن يستطيع ان يمنع عنه إرادة الله ؟

]فما منكم من أحد عنه حاجزين[

أي مانعين يمنعون نفاذ أمر الله في شأنه . و الآية قمة في البلاغة إذ تتحدى البشر فرادى " من أحد " و مجتمعين " حاجزين " في آن واحد ، وذلك لكي يمس التحدي أفرادها و احدا واحدا دون استثناء تأكيدا للمراد . و ربما يقرأ المتدبر في تضاعيفها ان هناك قوى تسعى للضغط على القيادة الرسالية للتغيير من نهجها و التقول على الله ، فيجب ان لا تستجيب لها او تنخدع بما عندها ، لانها لا تنفع شيئا و لا تحجز إرادة الرب عز وجل . و حيث ان الرسول (ص (مطمئن لهذه الحقيقة فإنه لا يتوكل إلا على الله ، ولاينتمي إلا الى الحق ، و لا يقول إلا الوحي.

و كفى بقول الرسول (ص) هذه الآيات و إعلانها للناس مع ما فيها من شديد اللهجة دليلا على نقله بامانة ، إذ لو كان يتقول على الله لكان يحذفها او يعزز نفسه بصورة مطلقة دون حد ولا شرط ، كما يعزز الكثير من الدعاة و الحكام أنفسهم حتى على الحق ، وما أحوج القادة وكل رسالي الى هذه الشجاعة تأسيا بسيرة حبيب الله (ص. (

(1)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٣.

(2)المنجد مادة وتن.

[52 - 48]وبعد ان أثبت القرآن بانه قول رسول كريم بالمعالجة الموضوعية الدقيقة ، و بالتالي كونه كلام الله عز وجل ، ينثني لبيان صفة أخرى لنفسه.

]و انه لتذكرة للمتقين[

او كما قال تعالى في سورة البقرة : " هدى للمتقين " (١) ، لان المتقي وحده الذي يرتفع بنفسه و

عقله الى مستوى فهم اياته ، و هو وحده الذي يخشى ربه فيلزم نفسه ما في كتابه من الحدود و الاحكام و القيم لكي لا يتعرض لغضبه و عذابه ، وهم وحدهم الذينيملكون الاستعداد للتسليم له ، لانهم يحافظون على فطرتهم سليمة كما أودعها الله فيهم ، فإذا بهم يجدون آياته تلتقي بتطلعاتهم السامية في الحياة . و يتأكد لنا بأن القرآن تذكرة للمتقين إذا عرفنا ان التقوى ليست مجرد الخشية و الخوف .. انما هي مجموعة من الصفاتالنفسية و العقلية و الاجتماعية التي تجعل الانسان في مستوى التذكرة بالآيات و فهمها .. فالمتقون كما وصفهم ربهم : " الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون * و الذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك و بالآخرة هم يوقنون " (٢) ، فالذي لا يؤمن بالغيب كيف يؤمن بالرسالة التي مصدرها غيب السماوات و الارض ؟؟ و الذي لا يؤمن بالجزاء كيف يلتزم بها ؟؟

ان هذه الآية تهدينا الى إحدى خصائص الوحي الإلهي المتميز بها عن الافكار الاخرى و الفلسفات ، و هي انه لا يستطيع التفاعل معه و فهمه الا المتقون فقط ، فاذا به " شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين الا خسارا " (٣) ، " و الذين لا يؤمنون

(1)البقرة / ٣.

(2)المصدر / ٣ - ٤.

(3)الاسراء / ٨٢.

في آذانهم وقر وهو عليهم عمى " (١) ، ولذلك خاطب الله رسوله فقال : " وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا * و جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا " (٢) ، و لقد اعترف بهذه الحقيقة الكافرون و المشركون منذ قبل : " و قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب فاعمل اننا عاملون (3) " ، و هذه الخصيصة في الرسالة تفسر ظاهرة التكذيب بها من قبل بعض الإنس و الجن ، لان الرسالة في مرتبة عالية قل ان يسمو اليها البشر ، و الله يعلم بأن جبلا كثيرا منهم سوف يكذبون بها.

]و إنا لنعلم أن منكم مكذبين[

بتأكيدات لفظية ثلاثة " إن " و اللام في " لنعلم " و " أن " ، و إذ يكذبون فلأنهم لم يسمو الى درجة المتقين الذين يتذكرون بالوحي و يسلمون لآياته و يستوعبون حقائقه الكبيرة ، و ليس لعيب في القرآن.

]وإنه لحسرة على الكافرين[

و الحسرة بنت الخسارة ، و الأثر المعنوي المترتب عليها ، و بذلك يكون القرآن قد أشار الى الأمرين معا ، و انما يكون كذلك لانه الحق الذي يدمغ باطلهم فإذا هو زاهق في الدنيا ، كما انه ميزان لاعمال الخلق في الاخرة ، و الشافع المشفع و الماحل المصدق ، و حيث كذبوا به يريهم اعمالهم حسرات عليهم يوم القيامة ، و لا يشفع لهم ، بل يمحلهم بالشهادة عند الله ضدهم.

(1)فصلت / ٤٤.

(2)الاسراء / ٤٦.

(3)فصلت / ٥.

ومن هنا نكتشف خلفية تأويل الامام الصادق - عليه السلام - للآية في الامام علي بن أبي طالب انه

الذي يكون حسرة على الكافرين بقوله : " يعني عليا " (١ (، فان امام الحق في كل أمة جنبا الى جنب القيم الإلهية حجة الله على خلقه عند الحساب و الجزاءحين يحشر كل أناس بإمامهم ، مما يجعله هو الآخر حسرة على الكافرين إذ يكون شاهدا و حجة عليهم.

]وإنه لحق اليقين[

اي حق يفرض نفسه على الانسان فيصبح موقنا به ، فهو حق في عالم الواقع و يقين في عالم النفس . قال صاحب الكشاف : ان القرآن اليقين حق اليقين ، كقولك هو العالم حق العالم ، و حد العالم ، و المعنى لعين اليقين و محض اليقين (٢ (، و قال الرازي : اي حق لا بطلان فيه ، و يقين لا ريب فيه (٣) ، و يأتي التأكيد على هذه الصفة القرآنية في سياق نفي الشعر و الكهانة عن آياته كتعريض من طرف خفي بالإثنين الأخيرين اللذين ملؤهما الخيال و الكذب و الرجم بالغيب ، و هذه من المفارقات الاساسية بين رسالة الله و ثقافة الشعراء والكهنة ، انها تحتوي على الحق و العلم بأعلى درجاته (اليقين (من دونهما حيث ينطويان على التناقض و الباطل و حيث يعتريهما الخواء الفكري و العلمي.

و نهتدي من نعت القرآن بأنه " لحق اليقين " ان انتهاج القرآن هو الشرط الاساسي في مسيرة الانسان نحو اليقين ايمانا و علما ، و انه الواجب الذي يفرض نفسه على العقل حينما يتطلع الى الكمال المعنوي و المادي باليقين ، أي ان الانسان يبقى في حيرة وشك لا يصل الى الايمان التام ليس بالحقائق العلمية و الحياتية و حسب ،(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص . 410

(2)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٠٧.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٢٠.

بل بأصل الوجود ، و جود نفسه و الكون من حوله بكل مفرداته ، حتى يكتمل نور عقله بنور وحي الله ، لانه الذي يعرفه بالخالق الموجد ، و يرتقي به الى آفاق اليقين به ، فتنكشف عن بصره و بصيرته الحجب و الاغطية ، و تنزاح الغشاوة .. إذ لا معنى للايمان بالمخلوق (ماديا كالانسان و الطبيعة ، او معنويات كالحقائق و القوانين) إلا بعد الايمان بالخالق ، و ذلك ما يحققه اتباع القرآن.

و نقف قليلا ننعم الفكر في حكمة الحديث عن القرآن بهذا التعبير : " وإنه لحق اليقين " في سياق سورة الحاقة التي تحدثنا عن الجزاء.

ان نقطة التلاقي بين الحاقة والقرآن تكمن في ان كلا منهما يحق الحق و يظهره ، و يهدي الانسان اليه ، و يرفعه الى أعلى درجات الايمان و التسليم (حق اليقين) ، و لكن يبقى القرآن هو الوسيلة العظمى و الأقوم للهداية ، أعظم حتى من الحاقة نفسها ، لانه يهدينافي الدنيا و الاخرة حيث تنفع الهداية ، بل هو طريقنا للايمان بالساعة و القيامة (الحاقة. (

و لكي نفهم القرآن فهما صحيحا ، فنؤمن به ، و يكون لنا تذكرة و سبيلا الى اليقين الخالص ، يجب ان نتطهر من الشرك بالله عبر تسبيحه ، لان كل انحراف في حياة الانسان مظهر من مظاهر الشرك و ظلال له ، و كلما سبح ربه أكثر فأكثر تسبيحا سليما كلما تميزت في نفسه و فكره حقائق الوحي عن وساوس النفس ، و إلقاءات الشيطان ، ثم ان التسبيح هو الوسيلة لاجتناب القوارع الالهية في الدنيا و الابتعاد عن اصحاب الشمال في الآخرة.

]فسبح باسم ربك العظيم[

و قال " باسم ربك " لانه السبيل لتسبيحه تعالى ، إذ لا يجد الانسان وسيلة للاتصال بربه لولا أسماؤه . و قال : " العظيم " بالذات لأسباب منها:

- 1انه رمز التسبيح الصحيح ، حيث معرفة عظمة الله شرط رئيسي في تقديره حق قدره . أوليست مشكلة كل صاحب شمال " انه كان لا يؤمن بالله العظيم " ؟ ؟ بلى . و لــو أننا فتشنا في أي انسان لما

وجدناه خاليا من الايمان بربه ، و لكن أصحـاب الشمـال(مشركين و كافرين) لا يؤمنون بالله كما هو عظيما منزها عن كل ما لا يليق بمقامه ، مما يدعوهم لاتخاذ الأنداد لـه من خلقه الذين يجدون فيهم بعض العظمة او يظنونهم عظماء .. و هذا هو مكمن الداء الذي انطلقت منه الفلسفات البشرية الضالة .. تجسيدية تشبيهية و شركية وما الى ذلك .. و لعله من هنا أصبح تسبيح الله بذكر عظمته في الركوع و علوه في السجود (سبحان ربي العظيم و بحمده ، سبحـان ربي الأعلـى و بحمـده (فرضا واجبا في الصلوات ، بل أصبحت الصلاة من بدايتها حتى نهايتها تسبيحا لله عز وجل.

- 2لان السياق يدور حول القرآن وهو أظهر آيات عظمة الله على الاطلاق ، ففيه تتجلى عظمته تعالى .. أوضح و أوسع و أعظم من تجليها في الطبيعة وفي النفس وفي كل شيء آخر.

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال " : اكثروا من قراءة " سأل سائل " فان من اكثر قراءتها لم يسـأل الله تعالى يوم القيامة عن ذنب عمله ، و أسكنه الجنة مع محمد إنشاء الله "نور الثقلين /ج ٥ - ص ٤١١

الإطار العام

كما هو سياق غالب السور المكية تعالج سورة المعارج الامراض القلبية التي تمنع الايمان ، كما ترسم منهاجا لبناء الشخصية الربانية ففي الثلث الاول حتى الآية (١٨) يحدثنا السياق عن مشاهد من الآخرة حيث الاحداث الكونية المريعة ، و ما تخلفه من الآثار على نفوس المجرمين ، فاذا بواحدهم يتمنى النجاة و لو يفتدي بأعز الناس و أقربهم اليه ، بل بهم جميعا.

و من خلال الحديث تعالج مرض التسويف بتصحيح رؤية الانسان الى الزمن عبر وعي الزمن الأبدي الذي لابد ان يعايشه البشر.

و انطلاقا من ذلك يشير القرآن الى صفة الهلع لدى الانسان ، و التي تبعثه على الجزع حين الشر و المنع عند الخير ، فتجعله متقلب الشخصية ، متغيرا حسب المحيط و الظروف ، مؤكدا بأنها ليست في المصلين بحق ، لانهم تساموا الى أفق الخلود فلم يعيشوا لحظتهم الراهنة فقط ، ولم يتأثروا بعواملها فحسب.

ثم تعالج الآيات حالة التمني التي يعيشها الانسان فيطمع ان يدخل الجنة بلا ايمان او سعي ، كلا .. ان النجاة من العذاب لا تحصل بالتمني و الود ، انما بالعمل الصالح و السعي ، و ان الصلاة لهي سفينة نجاة المؤمنين ، و هي مفتاح شخصيتهم الإلهية التي تتسم بالانفاق و الصدقة و خشية العذاب و رعاية الامانة و العهد و حفظ الفروج إلا من حلال و القيام بالشهادة و المحافظة على الصلوات ، و هذا في الواقع البرنامج المستوحى من الصلاة لبناء شخصية الانسان الربانية.

وفي الخاتمة (الآيات ٣٦ - ٤٤) ينسف الوحي مركب الاحلام و التمنيات الذي يركبه الهلكى من المجرمين و الكافرين ، فلا يرسو بهم إلا في بحر لجي من عذاب الله و غضبه ، و خسران الدنيا و الآخرة ..لان التمنيات تدخل أصحابها في نفق الخوض و اللعب ، فاذا بهم وقدحان اليوم الذي يوعدون ، و لم يستعدوا للقاء الله ، و لم يمهدوا للمستقبل عملا و زادا ، و انها لعاقبة كل منهج يعتمد التمنيات بديلا عن السعي و العمل.

فاصبر صبرا جميلا

هدى من الآيات

يعايش الكافرون لحظتهم الزمنية الراهنة معايشة حادة ، لانهم لا يعون الماضي بتجاربه و لا المستقبل بتطلعاته ، و لا يؤمنون بالاخرة . اما المؤمن الذي يعيها حيث الزمن هناك طويل لا ينتهي ، و يعي حقيقة الخلود ، فانه يعيش في عقله و نفسه و عمليا توازنا زمنيا.. فلا ينهزم اما التحديات و المشاكل انما يصبر صبرا جميلا ، لانها و ان استوعبت كل عمره الدنيوي فهي أقل من ساعة من ساعات الاخرة ، التي مقدار يوم واحد منها خمسون الف سنة ، ولأنه لا يدع لحظة تمر عليه إلا و يملأها بالعمل الصالح ، و يستغلهـا في سبيل مستقبل سعيد ، ليوازن بين فرصة السعي و العمل القصيرة (أعني الدنيا) ، و بين مستقبل الجزاء و الحصاد الخالد (أعني الآخرة) ، فانك حيث تراه و تدرس حياته تجده شعلة من النشاط و السعي المتواصل ، و مهما فتشت في سني حياته فلن تجد ألا شذرا تلك الساعات الضائعة التي تملأ عادة حياة سائر الناس . و كيف يسمحون لانفسهم بالخوض و اللعب وكل لحظة من عمرهم هي خطوة الى اللقاء مع الله ؟! انهم لا يحتملون غضب الله عليهم ، ولا ان ترهقهم ذلة عند لقائه ، و لذلك تركوا التمنيات و الاحلام الى السعي الدؤوب ، لانه ليس في أنفسهم ذرةمن شك في حقيقة الاخرة و عذابها الواقع حتى يطلقوا لشهواتهم العنان ، او يعيشوا عيشة الهازل!!

بينات من الآيات

[4 - 1]قال الامام الصادق - عليه السلام - : " لما نصب رسول الله (ص) عليا يوم غدير خم قال : " من كنت مولاه فعلي مولاه " طار ذلك في البلاد ، فقدم على النبي (ص) النعمان بن الحارث الزهري فقال : أمرتنا عن الله ان نشهد ان لا إله إلا اللهوأنك رسول الله ، و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصوم و الصلاة و الزكاة فقبلناها ، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت : من كنت مولاه فعلي مولاه ؟! فهذا شيء منك أو أمر من عند الله ؟! فقال : لا و الله الذي لا إله إلا هو ان هذا من الله ، فولى النعمان بن الحارث و هو يقول : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، فرماه الله بحجر في رأســـه فقتلــه " (١) ، و في رواية أخرى قال ابو بصير عن الصادق (ع) : " بينما رسول الله (ص) جالسا إذ أقبل أمير المؤمنين (ع) فقال له رسول الله)
ص) : ان فيك شبها من عيسى بن مريم .. قال : فغضب الحارث بن عمرو الفهدي فقال : " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك أن بني هاشم يتوارثون هرقلا بعد هرقل (اسم ملك الروم أراد بني هاشم يتوارثون ملكا بعد ملك) فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " فأنزل الله عليه مقالة الحارث و نزلت هذه الآية : " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم و هم يستغفرون " ثم قال له : يا عمرو إما(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤١١.

تبت وإما رحلت ، فقال : يا محمد بل تجعل لساير قريش شيئا مما في يديك فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمة العرب و العجم ، فقال النبي : ليس ذلك إلي ، ذلك الى الله تبارك و تعالى ، فقال : يا محمد قلبي ما يتابعني على التوبة و لكن أرحل عنك ، فدعا براحلته فركبها فلما صاربظهر المدينة أتته جندلة (اي حجرة) فرضت هامته ثم أتى الوحي الى النبي (ص) فقال : " الآيات الأولى من سورة المعارج " (١ (.

]سأل سائل بعذاب واقع[

و سؤال السائل يكشف ليس عن شك في وعد الله عز وجل و حسب ، بل يكشف ايضا حالة من الاستهزاء و التحدي دعته اليهما الثقافة الجاهلية التي جاءت الرسالة لتحرير الانسان منها ، كما دعته اليهما الضغائن الدفينة على الرسول و الرسالة.

و الآية الكريمة - كسائر آيات القرآن - أوسع من حادثة تاريخية ، أو مصداق واحد بذاته ، بل هي شاملة لكل موقف استهزاء بالحق ، و تكذيب به . ولا يصف رب العزة عظمة العذاب و مدى هوله ، بل يؤكد واقعيته فيقول : " واقع " ، و ذلك يهدينا الى حقيقة فطرية و عقلية لا يتردد في قبولها أحد وهي ان جهل الانسان بالحقائق القائمة في الواقع ، او تجاهله بها (تكذيبه) لا يغير من أمرها شيئا . أترى ان عقيدة الوجوديين الذين زعموا بان الوجود خيال يتراءى للانسان كالسراب أعدمت الوجود أو غيرت من الواقع شيئا ؟ هل ينفي عدم رؤية الأعمى لما حوله وجوده ؟ كلا .. وإذا قلنا ان كلمة " واقع " تدل على الماضي فإنها تأتي هنا للتأكيد من حيث انه حتمي لا شك فيه و لا تردد في وقوعه ، لان الله قد قدره و

قضاه تقديرا حتما و قضاءا مبرما.

(1)المصدر / ص ٣١٢ ذكره أبو عبيدة و الثعلبي و النقاش و سفيان بن عيينه ، و أشار اليه الرازي و النيسابوري ، و نقل القرطبي نص الرواية في تفسيره و الحسكاني في شواهد التنزيل.

و يبدو ان السؤال لم يكن سؤال مستفهم ، بل سؤال مكذب مستهزء ، و لهذا عدي الفعل بالباء فأعطى معنى التكذيب ، فكانه قال : سأل سائل مكذب بعذاب واقع .و هكذا أوحى النص بان الدافع الى السؤال لم يكن المعرفة وإنما التشكيك به.

وإذ يقع عذاب الله فانه - وإن كان - يبدل وجه الكون و علاقات أجزائه ببعضها فتكون السماء كالمهل و الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما ، إلا أنه لا يخرج عن اطار حكمة الله و إرادته الى حالة الفوضى ، وإنما يكون بقدر ، ولا يصيب إلا من يشاء الله ، فاذا بكتراه وقد حان حينه لا يقع إلا على الكافرين ، الذين لا يجدون ما يدفعونه به عن أنفسهم.

]للكافرين ليس له دافع[

يحجزه عنهم و يدفعه عن ساحتهم ، و ما عسى ان تبلغ قدرة أحد حتى يكون قادرا على دفع عذاب يصير السماء كالمهل و الجبال كالعهن ، و يقطع الروابط الحميمة بين الأخلاء و الأنساب لهوله و شدته ! و الانسان هناك لا يفكر إلا في خلاص نفسه ، فلا يسأل عن غيره ، فكيف السعي لدفع العذاب عنه ؟! بلى . يستطيع الانسان دفع العذاب عن نفسه يومئذ بفضل الله و رحمته ، و بعمله الصالح ، ولم يترك الكافرون بينهم و بين الله صلة كي يرحمهم ، بل سدوا عن أنفسهم كل أبواب الرحمة بكفرهم و عتوهم عن الحق و الرسل ، ولم يقدموا لآخرتهم و مستقبلهم عملا صالحا.

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة ينبغي للانسان ان يكشف عن نفسه و عقله حجب الضلال و الشرك و المتمثلة في العقائد السفيهة التي تجنح به نحو الموبقات و الشهوات و مخالفة الحق ، ظنا بأن أحدا من الجن أو الإنس أو الاصنام يخلصه من عذاب الله و سطوته ، او العقيدةالباطلة بأن الله لن يعذب عباده لأنه رحيم ودود ، فاذا به يود و يطمع ان يدخل الجنة على جناح التمنيات بلا أي سعي و عمل!

و نفهم من قوله " للكافرين " أنهم ليس لهم يوم يقع العذاب دافع يدفعه عنهم لا من عند أنفسهم أو من أشركوا بهم ولا من عند الله . وأي قوة يمكن ان تتحدى إرادة الله العظيم حتى يتشبث بها الكفار ؟ ان العذاب ليس من بشر مثلهم حتى يقدروا على دفعه ،و لا من مخلوق . انه من رب العزة المتعال الجبار.

]من الله ذي المعارج[

قال البعض : ان كلمة " ذي المعارج " ليست إسما لله سبحانه ، و جاء في الدر المنثور : أخرج احمد و ابن خزيمة عن سعد بن أبي وقاص انه سمع رجلا يقول : لبيك ذي المعارج ، فقال : انه لذو المعارج ، و لكنا كنا مع رسول الله (ص (لا يقول ذلك (١) ، و لكنالأظهر انه اسم لله لوروده في أدعية الحج حيث قالوا : يستحب ان يقول في التلبية : " لبيك ذا المعارج لبيك " ، على ان نص القرآن ظاهر في ذلك وهو المقياس.

و في معنى المعارج أقوال منها : الفواضل ، و عليه جل المفسرين ، و زاد صاحب المجمع : و الدرجات التي يعطيها للانبياء و الاولياء في الجنة ، لانه يعطيهم المنازل الرفيعة ، و الدرجات الطيبة (٢) ، و في التبيان قال العلامة الطوسي : هي معارج او مراقي السماء(٣) ، و قال صاحب الميزان : و هي مقامات الملكوت ، و قال الدرجات التي يصعد فيها الاعتقاد الحق و العمل الصالح ، قال تعالى " : اليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه " (٤) ، و قيل : هي مصاعد الملائكة .. و يمكن ان تكون الاقوال كلها صحيحة ، ويجمعها الاصل اللغوي للكلمة .. فالمعارج مواضع العروج(١) الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٤.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٣.

(3)التبيان / ج ١٠ - ص ١١٤.

(4)الميزان / ج ٢٠ - ص ٧.

و هي مرتبة بعد مرتبة . و يبدو ان تأويلها هنا ذات العروج المتواصل ، و ذلك يظهر من الآية التالية.

ولكي ينسف السياق أسس التفكير الخاطىء عند اولئك السفهاء الذين استعجلوا عذاب ربهم العظيم ، تلك الأسس القائمة على حسابات قصيرة ، يهدينا القرآن الى حقائق الزمن اللامتناهي الذي سوف يعيشه الانسان ، لكي يمتد وعي الزمن لدينا من مقاييس اللحظات الحاضرة الآفاق الآباد المطلقة و المستقبل الذي لا ينتهي ، و هناك نعيش حقيقة أنفسنا و حقيقة الظواهر المحيطة بنا.

ان من يتخذ المقاييس الدنيوية معيارا في معادلة الزمن يظن ان مئة سنة شيئا كثيرا ، و لكنه حين يطلع على الافق الواسع للزمن عند الله حيث الحساب بمليارات السنين و حيث الخلود فان المعادلة تختلف بالنسبة اليه لحتى يكاد يرى وعد الله بالآخرة واقعا أمام عينيه.. فهؤلاء الملائكة يسبقهم الروح يعرجون خمسين ألف سنة الى الله في الآفاق الواسعة ، و لانها حسب فهمنا الارواح النورانية ذات القدرات الهائلة فان عروجها ليس بحسابنا نحن في السرعة ، بل بحساب لا يستوعبه عقل البشر .. ومع ذلك ان خمسين ألف سنة يعرجون فيها ليست عنده تعالى إلا كيوم واحد لا أكثر!

]تعرج الملائكة و الروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة]و العروج عروجان :عروج مادي في آفاق الوجود ، و عروج معنوي في آفاق القرب من الله ، و ليس لله مكان ، تعالى ان يخلو منه مكان او يحويه مكان ، ومن هنا فان عروج الملائكة و الروح اليه عروج في القرب منه ، قرب الفضيلة ، ولا ينفي ذلك حقيقة عروجهم ماديا في منازل السماوات والى العرش ، بل هذا العروج بذاته رمز للقرب المعنوي منه سبحانه ، و من هنا اختلفت الملائكة فمنهم من يعرج الى السماء الرابعة ، و منهم من يعرج الى العرش باختلاف فضلهم عند رب العالمين.

اما الروح فهو أعظم من الملائكة ، و لعله الخلق الذي يؤيد به الله ملائكته الكرام و انبياءه و اولياءه الابرار ، و لعله سمي جبريل بـ " الروح الأمين " لكونه مؤيدا - عليه السلام - بالروح.

[8 - 5]ومن فتح آفاق المتدبر على الزمن بالحديث عن العروج يعالج القرآن مسألتين:

الاولى :تتصل بالداعية الى الله ، و هو يواجه تحديات الكفار بالرسالة ، و بالضبط يواجه تحدي الزمن في الاستقامة على الحق ، و الاستمرار في الطريق حتى يفتح الله . فان اكثر الناس قادرون على اتخاذ قرار الجهاد في سبيل الله ، و لكن القليل منهم يقدرون علىالاستقامة مع طول الأمد و تراكم التحديات المضادة.

وانما يفتح القرآن آفاق المؤمنين على المعادلة الحقيقية للزمن ، و يؤكد على ان الزمن الدنيـــوي ليس المقياس ، و انما معادلة الزمن تقاس باليوم الواحد خمسين الف سنة ، كل ذلك ليسهل الاستقامة في أنفسهم ، فلا يعد واحدهم حتى الصبر سني عمره مجاهدا في سبيلالله شيئا كثيرا ، بل يعتبر عنده - أنى طال به الزمن و امتد - أياما قصيرة يصبر فيها على الاذى لتعقبه راحة طويلة ، و هكذا جاء الحديث بعد بيان الزمن عن الصبر فقال ربنا:

]فاصبر صبرا جميلا[

وهو الصبر الذي يكون لوجه الله ، و البعيد عن اي ضعف او هزيمة ، و الذي لا خروج معه عن الحكمة و الصواب . قال اكثر المفسرين : هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يقاسيه الرسول من أذى قومه ، و تكذيبهم إياه فيما يخبر به من الآخرة.

وما أعظم ما تعطيه هذه الآية بسياقها من روح الصبر و الاستقامة و المقاومة للمؤمنين و المجاهدين في سبيل الله.

الثانية تتصل بالكافرين الذين يستبعدون عذاب الله و وعده ، و ربما الى حد التكذيب البته . ولو بحثنا عن السبب وراء هذا الموقف من وعد الله فسنجده اعتمادهم على مقاييس الزمن الدنيوية في التقييم و النظر الى المستقبل . و يعالج القرآن هذه العقدة بأمرين:

أحدهما : السعي لتوعيتهم بالمقياس الحقيقي للزمان ، حيث مقدار يوم واحد خمسين ألف سنة ، مما يغير رؤيتهم المحدودة برؤية ربانية واسعة لو أنهم آمنوا و اتبعوا الآيات.

]إنهم يرونه بعيدا[

لمحدودية افكارهم التي تتصور الزمان محدودا . ارايت الطفل كيف يستبعد وعدا مدته ساعات ؟ كذلك الكفار يرون وعد الله بعيدا لان منهجية الرؤية و وسيلتها عندهم محدودة . اما المنهجية الربانية التي تتلاشى فيها الارقام الزمنية لسعتها فان ملايين السنين ليست بذات شأن حتى يكون أمدها بعيدا .. و كيف يكون ذلك و المؤمنون يطلعون بها على عالم الخلود ؟!

]و نراه قريبا [

لا فرق بين أجل الموت ، او النصر للمؤمنين ، او عذاب الكافرين في الدنيا ، او قيام الساعة و وقوع الآخرة .

الثاني :التذكير بالوقائع و المشاهد التي ترافق وقوع وعد الله ، الأمر الذي يهز النفس ، و يلقي عنها حجبها و عقدها ، و يجعلها ماثلة في وعيهم.

]يوم تكون السماء كالمهل[

قال القمي : الرصاص الذائب و النحاس (١) ، و قيل : الزيت المغلي ، و في المنجد : ما كان ذائبا من المعدنيات (٢. (

]و تكون الجبال كالعهن[

اي الصوف المتفرق ، قال في التبيان : فالعهن الصوف المنفوش ، و ذلك ان الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة (٣) ، و زاد صاحب المجمع : و قيل : كالصوف الاحمر ، و قيل : انها تلين بعد الشدة ، و تتفرق بعد الاجتماع (٤) . و علق العلامة الطباطبائي بقوله : في هذهالآية وما قبلها تعليل للصبر ، فان تحمل الأذى و الصبر على المكاره يهون على الانسان إذا استيقن أن الفرج قريب (٥. (

ولا يحدثنا القرآن عن صفة الارض يؤمئذ ، لان دمار السماء و هي السقف المحفوظ الذي يؤمن للارض و لأهلها الحماية ، و كذلك تدمير الجبال التي تحفظ توازنها ان تميد بنا ، هذين الأمرين يهديانا الى ما تكون فيه أرضنا يومئذ من الزلزال و الخطر العظيم.

وما هو حال الانسان الضعيف و موقفه حينما يعاصر هذه المشاهد الرهيبة ؟ فهذه السماء على عظمتها أصبحت كالمهل ذائبة ، و تلك هي الجبال الراسيات صارت عهنا(١) تفسير القمي /ج ٢ - ص ٣٨٦.

(2)المنجد / مادة مهل بتصرف.

(3)التبيان / ج ١٠ - ص ١١٦.

(4)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٣.

(5)الميزان / ج ٢٠ - ص ٩.

يحركها النسيم ! انه حينئذ يعرف صدق وعد الله ، و تقع من على بصيرته كل الحجب .. فيترك الهزل و الاستهزاء الذي قاد الكافرين الى السؤال عن العذاب و استعجاله .. و هل يستعجل عاقل أمرا إرهاصاته تصنع هذا الصنيع بالطبيعة و الوجود من حوله ؟!

ان العذاب الالهي إذا وقع يذهل الانسان عن كل شيء ، و تتقطع به الاسباب و الراوابط ، فينسى أقرب المقربين اليه بحثا عن الخلاص ، فلا يجد فرصة حتـــى للسؤال عنهم.

]ولا يسئل حميم حميما[

و الحميم هو الأقرب للانسان ، و عدم سؤاله عنه دليل على شدة الموقف ، و ذلك ان نفس الانسان أقرب اليه من كل احد .. و حيث يهتم بها يغفل عن سواها ولو كان أقرب المقربين كالولد و الصاحبة . و في الروايات ان الأم يوم القيامة توزن أعمالها فتنقصها الحسنة الواحدة حتى تدخل الجنة او تصير الى النار ، فتذهب الى ولدها تستعطفه و تطلب منه التنازل لها عن حسنة من حسناته فلا يقبل . وقد جاء في الدعاء (بعد صلاة الليل) : " يا من لم أزل أتعرف منه الحسنى ، يا من يغذيني بالنعم صباحا و مساءا ، إرحمني يوم آتيك فرداشاخصا اليك بصري ، مقلدا عملي ، قد تبرأ جميع الخلق مني ، نعم . و أبي و أمي و من كان له كدي و سعيي " (١. (

ومن أهم ما يقع يومئذ هو رفع الحجب عن المجرمين حتى يروا الحقائق التي عميت عنها ابصارهم و قلوبهم في الدنيا ، كما يرون ايضا أقرباءهم الذين يتهربون منهم.

(1)مفاتيح الجنان / دعاء صلاة الليل.

]يبصرونهم[

قيل :يرون الملائكة و الروح الذين يعرجون الى الله ، و قيل : أئمة الهدى و الحق ، و قيل : الأحماء ، لبيان ان عدم سؤالهم عنهم يومئذ ليس لعدم رؤيتهم إياهم ، وإنما لإنشغال نفوسهم و أفكارهم ، و الى ذلك ذهب الزمخشري و الرازي و صاحب الميزان ، وهذا أقرب الى السياق . و بني الفعل للمجهول لان المجرمين يحشرون عميانا أعينهم و قلوبهم كما كانوا في الدنيا عميانا لا يرون الحقائق ، و انما يبصرهم الله او ملائكته بأمره .. و هناك تبلغ ندامتهم ذروتها لما يرون من واقع العذاب الذي كذبوا و استهزؤوا به في الدنيا الى درجة العتو و التحدي.

]يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه[

و هم أقرب الناس اليه ، و أعزهم لديه.

]و صاحبته و أخيه[

في الدرجة الثانية.

]وفصيلته التي تؤيه[

قيل :هي العشيرة و القبيلة ، و قيل : هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها الى أبوة خاصة ، في التبيان و المجمع و الميزان ، و زاد المجمع و الكشاف : أي عشيرته التي تؤويه في الشدائد و تضمنه ، و يأوي اليها في النسب.

]ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه[

اما المؤمنون فإنهم على العكس يسألون عن بعضهم ، و يسعون في خلاص بعضهم البعض بالشفاعة و السؤال من الله ، و قلوبهم مطمئنة الى رب الارباب لانهم لم يتورطوا في الجرائم حتى يهولهم الأمر .. إلا خشية الايمان.

بلى . إنهم آمنوا بوعد اللــه ، فسعوا لخلاص أنفسهم ، اما المجرمون الذين كفروا ، و تمادوا في الجريمة بسبب الكفر بالاخرة و الجزاء ، فإنهم يجدون أنفسهم بين يدي عذاب شديد.

]كلا إنها لظى [

و " لظى " اسم من أسماء جهنم ، و هي النار شديدة التوقد ، و قال في المجمع ، هي الدركة الثانية من النار ، و قال الرازي : اللهب الخالص ، يقال : لظت النار ، و تلظت تلظيا ، و المعنى أنه لا مصير للمجرمين إلا جهنم و العذاب ، ولا مفر لهم .. تشويهم حرقا ، و تنزع ما ينشوي منهم نزعا.

]نزاعة للشوى[

قيل :الشوى فروة الرأس ، و قيل : محاسن الوجه و عموم الجلد . و قال صاحب التبيان : و معنى " نزاعة " كثيرة النزع ، و هو اقتلاع عن شدة ، و الاقتلاع أخذ بشدة اعتماد (١) ، و في المجمع : تنزع الاطراف فلا تترك لحما ولا جلدا إلا أحرقته ، و قيل:
تنزع الجلد و اللحم عن العظم (٢) . و لعل الشوى هو عموم ما يعد للشواء بالنار ، فيكون المعنى ان لظى تجذب المجرمين و تنزعهم نزعا (وهم شواؤها) فتحرقهم.

]تدعوا من أدبر و تولى[

(1)التبيان / ج ١٠ - ص ١١٨.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٦.

أدبر عن الحق الى الباطل ، و تولى عن طاعة القيادة الربانية الى طاعة غيرها ، و ان النار لتتطاول على المجرمين و تجرهم الى قعرها و حريقها مكرهين ، لأنهم قد رفضوا دعوة الرسول الى الايمان فأدبروا و تولوا.

]و جمع[

حطام الدنيا و أموالها حلالا و حراما.

]فأوعى[

و قد قال المفسرون المعنى : جمع المال و لم يخرج حق الله ، فكأنه جعله في وعاء على منع للحقوق منه ، و قال العلامة الطبرسي : جمعه من باطل ، و منعه عن الحق (١. (

(1)المصدر / ص ٣٥٦.

الذين هم على صلاتهم دائمون
هدى من الآيات
نستوحي من القرآن ان الشخصية البشرية نوعان:

الاول :الشخصية المتقلبة التي تتأثر بالظروف المحيطة ، و تنعكس عليها كل الظواهر ، لا فرق بين ما يسر و ما يحزن ، او بين الخير و الشر . و هذه طبيعة السواد الاعظم من الناس.

الثانية : الشخصية المستقرة التي تصوغها الصلاة (و الصلة الوثيقة برب الكائنات) و يستمد اصحابها استقامتهم في الحياة من الايمان برب العالمين ، الأمر الذي يجعلهم يتسامون على المؤثرات السلبية ، ذلك لان الصلاة في بصائر القرآن ليست الركوع و السجود فقط، بل هي منهج شامل يستوعب كل بعد من حياة الانسان ، و هكذا ترى المصلي هو المنفق في سبيل الله ، و المصدق بالآخرة ، و الخائف من عذاب ربه ، و الحافظ لفرجه ، و الراعي لعهده و اماناته ، و القائم بالشهادة الحق على نفسه و في المجتمع ، و بالتالي المحافظ على صلاته (اوقاتها و مظاهرها و جوهرها) ، و بهذه الصورة ينبغي ان نعي الصلاة ، و نعرف المصلين ، و نسعى لكي نكون منهم.

ان الصلاة الحقيقية ثمن الجنة و الكرامة عند الله ، لانها كما بينت الآيات مجمع كل صفة حسنة ، و سعي صالح . و من اراد الجنة و الكرامة فانها شرطهما ، اما التمنيات التي تفرغ حياة الانسان من اي سعي و فضيلة ، و تسوقه الى الخوض و اللعب - غفلة عن الآخرة -فانها تجعل اصحابها خاشعة ابصارهم ، ترهقهم ذلة في يوم القيامة!

بينات من الآيات

[21 - 19]لان القرآن رسالة الله و عهده الى الانسان فانه اودع تبيانا لكل شيء حتى لا تكون لأحد حجة على ربه في الأدبار عنه الى غيره من السبل و المناهج ، ففيه يقرأ الانسان سنن الخالق في الحياة ، و يقرأ الخير و الشر ، و الحق و الباطل ، و الجنة و النار، و الدنيا و الاخرة..

ومن أبرز ما في القرآن تعريف الانسان بنفسه ، ذلك ان الانسان قد خلق جهولا ، يجهل أقرب الأشياء اليه (وهي نفسه) وفي ذلك خطر عظيم عليه ، فقد يدعوه الجهل بالنفس الى الشرك بالله ، و قد يدعوه الى ممارسة الأخطاء الفظيعة في قيادتها و تربيتها .. و من هنا وجد توجها أساسيا في القرآن اختص بمعالجة موضوع الذات الانسانية ، و بيان أهم صفاتها و طبائعها ، كما الآيات التالية من هذه السورة.

]إن الانسان خلق هلوعا[

قيل الهلع شدة الحرص ، و قلة الصبر ، و قيل : الهلوع الضجور (١) ، و في البصائر : اي البخل و الحرص ، او الخوف و قلق القلب ، و اضطرابه من كل صوت و حدوث أمر (٢) ، و الذي يبدو ان اصل الهلع هو الخوف ، فالهلوع يخاف عند الشر فيجزع ، و يخاف عند الخير من نفاذه و انتقاله الى غيره من يديه فيمنع ، وهي الصفة التي تفقد الانسان توازنه و ثباته أمام الظروف و العوامل و الحوادث المحيطة.

و يبقى بيان القرآن لمعنى الهلع أجلى و أبلغ من بيان كل مفسر و أديب حيث يقول تعالى:

]إذا مسه الشر جزوعا[

فإذا به يصبح طعمة لحالات الخوف النفسية ، فيفقد توازنه النفسي و الفكري و السلوكي ، الى حد الهزيمة و الياس . و " الشر " الذي تقصده الآية شامل لكل الحوادث السلبية معنوية و مادية ، فالخسارة الاقتصادية شر ، و فقدان الأحبة شر ، و المرض شر، و .. و..

و لو اننا حققنا في حوادث الانتحار و الحالات النفسية في العالم فسنجد ان معظمها عائدة الى صفة الهلع (الجزع) عند الانسان . و يقول الله " مسه " لان المس أدنى ما يصيب الانسان من الشر او الخير .

]وإذا مسه الخير منوعا[

و السبب حبه المفرط لذاته ، و شح النفس الذي يجعله يريد الخير لنفسه فقط ،(١) التفسير الكبير / ج

٣٠ - ص ٦١٢.

(2)تفسير البصائر / ج ٤٩ - ص ١٢٠.

"و انه لحب الخير لشديد " (١) و حق ما جاء في الرواية : " ما فتح الله على عبد بابا من أمر الدنيا إلا و فتح الله عليه من الحرص مثله " (٢) ، وفي الآية بصيرتان:

الاولى : ان المتتبع لكلمة الانسان في استخدام القرآن يجدها ترد دائما عند الحديث عن الصفات السلبية فيه ، قال تعالى " : و خلق الانسان ضعيفا " (٣) " و لئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور " (٤) " إن الانسان لظلوم كفار " (٥) " و كان الانسان عجولا " (٦) " و كان الانسان أكثر شيء جدلا " (٧) " و حملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا " (٨) .. و هكذا ترد الكلمة عند الحديث عن الصفات الذاتية للانسان.

الثانية : ان المفسرين اختلفوا في معنى الخلق ، و جرى بينهم بحث كلامي و فلسفي حول صفة الهلع كيف خلقها الله وهي ذميمة أم هي صفة يوجدها الانسان في شخصيته بنفسه ؟ فصاحب التبيان أكد كونها من فعله تعالى فقال : وإنما جاز ان يخلق الانســان علـى هذه الصفة المذمومة لأنها تجري مجرى خلق شهوة القبيح ليجتنب المشتهى ، لان المحنة في التكليف لا تتم إلا بمنازعة النفس الى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى ، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح في العقل ليجتنب(١) العاديات / ٨.

(2)اصول الكافي / ج ٢ - ص ٣١٩.

(3)النساء / ٢٨.

(4)هود / ٩.

(5)ابراهيم / ٢٤.

(6)الاسراء / ١١.

(7)الكهف / ٥٤.

(8)الاحزاب / ٧٢.

أحدهما و يفعل الآخر (١. (

وفي التفسير الكبير : قال القاضي قوله تعالى : " الآية " نظير لقوله " خلق الانسان من عجل " و ليس المراد انه مخلوق على هذا الوصف ، و الدليل عليه ان تعالى ذمه عليه ، و الله تعالى لا يذم فعله ، و لانه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا انفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة ، و لو كانت هذه الخصلة ضروية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها (٢) ، و علق الفخر الرازي مفصلا بأن الهلع واقع على أمرين : أحدهما نفسي باطن ، و الآخر فعلي ظاهر ، و هو يدل على ما خفي .. و قال : أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنهـا تحدث بخلق الله تعالى ، فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار (و الجبر) ، و الافعال الظاهرة من القول و الفعل يمكنه تركها و الاقدام عليها ، فهي أمور اختيارية (٣. (

و الظاهر ان صفة الهلع صفة ذاتية مركوزة في الطبائع الاولية للانسان ، و انما يبينها الله و يذمها لكي يعرفنا بها و يحذرنا منها فنجتنبها ، و ليس في ذلك شيء من الجبر لان الله سبحانه قد خلق الانسان في أحسن تقويم إلا ان ذاته المرتكزة في الجهل و الجهالة والضعف و العجلة وما أشبه لم تتغير . أرأيت الذي يشعل شمعة في الليل فتضيء ما حولها يحمد عليها و لا يذم على الظلام المحيط لانه ليس من

صنعه ، و هكذا تركب الانسان من صنفين : النور (من الله) و الظلام)من نفسه) ، قال ربنا سبحانه : " ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك " (٤) ، و سائر ما في الانسان من جوانب القوة و الضعف و الخير و الشر فانما هي ظلال لهذين(١) التبيان / ج ١٠ - ص ١٢١.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٢٨ - ١٢٩.

(3)المصدر / ١٢٩ بتصرف.

(4)النساء / ٧٩.

الصنفين ، إلا ان على الانسان ان يسعى جاهدا للتغلب على الظلام و ظلاله في نفسه ، و تنمية النور ، و اشعاعاته ، و الهلع واحد من ظلال الظلام الذي يجب ان يتغلب عليه بسعيه و عزم إرادته.

و الله تعالى عرف البشر كوامن نفسه شرها و خيرها ، و أعطاه إرادة الإختيار التي يتجاوز بها صفات السوء و طبائعه ان شاء او يسترسل معها ، و رسم له المنهج الذي يسلم بتطبيقه منها . فما هو المنهج القرآني لعلاج صفة الهلع عند الانسان ؟

اولا : حضور الآخرة في وعيه نفسيا و فكريا ، فان من يتذكر أهوالها و مشاهدها لا يجزعه من الدنيا شر بالغ ما بلغ ، لأنه يكون أبدا مشغولا عنه بذلك الشر المستطير ، بل تراه يعيش السكينة و الاطمئنان كالمؤمنين : " الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون " ، كما لا يبطره خير فيمنع خشية العذاب و طمعا في الثواب .. و لعل هذه الفكرة تفسر لنا العلاقة بين الحديث عن مشاهد القيامة (٨ / ١٨) و بين الحديث عن الانسان (١٩ - ٢١) . و المستقرىء للآيات القرآنية يجد ان الوحي ما يكاد يحدثنا عن صفات الانسان السلبية إلا و يمهد لذلك بالحديث عن الآخرة ، او يلحقه بالتذكير بها ، لأنه علاج ناجح لها.

[35 - 22]ثانيا : الصلاة التي هي معراج المؤمنين الى الفضيلة ، و وسيلتهم للتزكية و التربية الذاتية . أوليست هي الوسيلة التي دعانا الله ان نبتغيها اليه ؟ أوليست هي حبل الله و سفينة نجاة الانسان من الباطل و الشر ؟ .. بلى . و لكن يجب ان نفهم الصلاة ونقيمها بشروطها كما يبينها القرآن حتى نخلص من صفة الهلع و سائر الصفات السيئة ، و نعرج بأنفسنا روحيا و سلوكيا الى آفاق الكمال و الفضيلة ، فان الانسان كانسان متورط في الهلع.

]إلا المصلين[

الذين عرفوا الصلاة على حقيقتها فأقاموها في حياتهم .. عرفوا الصلاة بأنها الاتصال الدائم بلا انقطاع مع الله ، و الكون في طاعته كل ساعة و لحظة .. عرفوا الصلاة برنامجا متكاملا يتصل بكل شؤون الحياة و مفرداتها الخاصة و العامة ، الفردية و الاجتماعية و التربوية و الاقتصادية و الاخلاقية و القضائية و .. و .. ، لا صلاة القشور المحصورة في الركوع و السجود و بعض المظاهر . فما هي الصلاة الحقيقية في مفهوم القرآن ؟!

إن القرآن لا يفصل لنا في كيفية الصلاة ولا عدد ركعاتها و سجداتها ، وإنما يعرفنا الصلاة الربانية ببيان صفات المصلين الواقعيين عند الله ، وهي:

الاولى : الدوام على الصلاة.

]الذين هم على صلاتهم دائمون[

قال الزمخشري : يواظبون على أدائها ، و لا يخلون بها ، و لا يشغلون عنها بشيء من الشواغل (١) ، و في الدر المنثور عن ابن مسعود قال : على مراقبتها ، وعن عقبة بن عامر قال : الذين إذا صلوا لم يلتفتوا

عن يمين و لا شمال (٢ (، و كل ذلك صحيح ، إلا أن الآية جاءت لتعطي البعد الأشمل و الأصح للصلاة كما يراها الاسلام و يلتزم بها المصلون الحقيقيون ، وهي الصلاة الدائمة التي تورث الصلة المستمرة مع رب الكائنات في القيام و القعود في آناء الليل و أطراف النهار.

ان البعض فهم الصلاة فهما خاطئا على انها مجرد عدد من الركعات و الاذكار التي يؤديها المسلم في وقت مخصوص ، وقطعوها -و هي عمود الدين - عن الاتصال(١) الكشاف / ج ٤ - ص ٦١٢.

(2)الدر المنثور / ص ٢٦٦.

بمفردات الحياة و سلوك المصلي . أما الصلاة التي يريدها الاسلام فإنها الصلة الدائمة بين العبد و ربه ، وما العبادة المتعارفة إلا رمز و مظهر لذلك الجوهر .. فالمصلي الحقيقي لا يعيش الحياة مجزاة ، ولا يحد الصلاة بوقت معين ، انما يعتبرها موصولة بكل مفردة فيحياته ، و انه لو خالف قيمها و أهدافها في واحدة منها فإنها لا تعد في نظره مقبولة ، فلا يغش الناس عند المعاملة ، ولا يكذب في كلامه ، و يبخسهم أشياءهم ، ولا يغتاب ، ولا يتهم ، ولا يركن للظالمين ، ولا .. و .. ، لأن كل ذلك يسلب صلاته روحها و معناها و ثوابها .. فالصلاة لابد ان تنهى عن كل فاحشة فردية أو اجتماعية ، و لابد ان تقطع المسلم عن كل أحد غير الله فيعيش مستقلا حتى تسمى صلاة.

ان الذي يصلي ثم يحيد عن أهداف الصلاة في سائر يومه و حياته لا يمكن ان يطلق عليه مصليا ، لأن من شروط المصلي ان يدوم على صلاته بالتزام مضامينها و قيمها و أهدافها و الاستقامة عليها طيلة يومه و حياته . وحيث فهم الواعون المخلصون من الرعيل الأول الصلاةمنهج حياة فداموا عليها أصبحت اليهم معراجا الى كل فضيلة و كـرامة.

ولقد أول أئمة الهدى الصلاة في الآية بأنها النوافل (الصلوات المستحبة) ، قال الامام الباقر (ع " : (هذا في النوافل " (١) و قال القمي : إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه (٢) ، و هذه الاخبار تهدينا الى أمرين : أحدهما : مدى حرصهم علىصلاتهم الواجبة و دوامهم عليها ، فإن من دام على المستحب كان أدوم على الواجب ، و الآخر : درجة التزامهم بالاسلام و منهجيته في الحياة ، بحيث أنهم يرفعون المستحبات المندوبة الى مستوى الواجبات أداءا و إلتزاما ، و هذا بدوره يكشف عن(١) البصائر / ج ٤٩ - ص ١٢٠.

(2)تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣١٦.

مدى حبهم للعبادة.

وقد ذكر الله صفة المداومة على الصلاة لأن المعطيات الحضارية و غيرها كالتغلب على صفة الهلع في النفس البشرية لا تتأتى بصورة سريعة منذ أول ممارسة للصلاة من قبل الانسان ، بل لابد من الدوام عليها و الاستقامة حتى تعرج بنا الى تلك المعطيات.

الثانية : الإنفاق في سبيل الله.

وبه يخرج المصلون من سلطان المال و الثروة الذي يأسر الكثير من الناس الذين أنعم الله عليهم فيمنعون حقوق الله و حقوق المجتمع ، و إنها لآية على تحول الصلاة الى برنامج عملي في حياتهم . أوليس هدفها ان يتمحض الانسان في الخلوص لله ، و يتنازل عن كل شيء حتىذاته من أجل الحق ؟ بلى . فلماذا يبخلون بالمال ؟

ان المصلين الحقيقيين حينما يكررون في صلاتهم قوله تعالى " الحمد لله رب العالمين " فإنهم يعون بعمق ان الحمد ليس مجرد كلمات و شعارات يلوكها الواحد بلسانه ، بل هو باللسان المعبر عن النية الصادقة و الايمان المخلص ، و بالعمل من خلال تطبيق منهجية الحمد في واقع الحياة ، و منها إنفاق نعم الله في سبيله شكرا له و تعبدا.

إنهم قد اتصلوا بالله و عرفوه (رب العالمين) و علموا بأن ما في الوجود كله من عنــده وهو مالكه ، حتى أنفسهم ، وما الأموال التي عندهم إلا أمانات استودعهم إيــاها ، فكيف يبخلون بها و يمنعون عن أدائها اليه حين يطلبها فيأمرهم بإنفاقها في سبيله ؟!

ان الإمتناع عن الانفاق في يقينهم لون من الخيانة للمستأمن ، وهذا ما يدفعهم الى الانفاق في وجوه الخير من جهة ، و من جهة أخرى يدفعهم الشعور بالمسؤولية الاجتماعية الى مد يد العون لأصحاب الحاجة و العوز تطبيقا لمنهجية التكافل الاجتماعي التي تستهدفها الصلاة.

]و الذين في أموالهم حق معلوم * للسائل و المحروم]و السائل هو الذي يعرض حاجته على الناس و يسأل العون مع أنه قد يكون محتاجا وقد لا يكون كذلك ، و لكن كرامة المصلين و عزتهم تمنعهم ان ينتظروا يدا تمتد اليهم بالسؤال حتى يعطوه مهما كان المعطى كثيرا .. فهذا سيد الشهداء وقد طرق الباب طارق يناوله صرة منالنقود الكثيرة ، ولا ينظر اليه بل يمد يده الكريمة من وراء الباب . هكذا قال المجلسي : فسلم الحسين و قال : " يا قنبر هل بقي من مال الحجاز شيء " قال : نعم أربعة آلاف دينار ، فقال : " هاتها قد جاء من هو أحق بها منا " ، ثم نزع برديه و لف الدنانير فيها و أخرج يده من شق الباب حياء من الاعرابي و أنشأ:

خـذهــا فإنــي اليــك معتــذر و اعلم بأني عليك ذو شفقةلو كان في سيرنا الغداة عصا أمست سمانا عليك مندفقةلكن ريــب الزمــان ذو غيـــر و الكف منــي قليلــة النفقةقال : فـأخذها الاعرابي و بكى ، فقال له : " لعلك استقللت ما أعطيناك ؟ " قال : لا . و لكن كيف يأكل التراب جودك ؟ (١. (

اما المحروم فإن فرقه عن السائل أمران : احدهما : وجود الحاجة الماسة عنده و كونه مستحقا ، و الثاني : حياؤه الذي يمنعه عن السؤال .. هكذا جاء في تفسير(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٤٤ - ص ١٩٠.

الرازي و المجمع و التبيان و الميزان و الكشاف : و المحروم الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم (١) ، وهذا يدل على ان المؤمنين ينفقون أموالهم على المحتاجين و هم يشعرون بأنهم هم أهل الحاجة الى الانفاق .. فلا ينتظرون السائل يسألهم ، بل يعطوه للسائلين ، ويبحثون بأنفسهم عن المحتاجين لينفقوا عليهم لوجه الله ، ولقد جاء في التاريخ : ان الامام زين العابدين (ع) استشهد وفي كتفه أثر الجراب الذي كان يمر به ليلا على بيوت الفقراء و المحتاجين وقد ملأه تمرا و خبزا.

و الظاهر من الروايات ان الانفاق الذي تعنيه الآية ليس الواجب المفروض في الشريعة بقدر ما هو الانفاق المندوب الذي يبادر اليه المصلون أنفسهم قربة لله تعالى ، قال الامام الصادق (ع) : " ان الله عز وجل فرض للفقراء في مال الاغنياء فريضة لا يحمدون بادائها (اي انه ليس فضلا يمدحون بادائه) و هي الزكاة ، بها حقنوا دماءهم ، و بها سموا مسلمين ، و لكن الله عز وجل فرض في أموال الاغنياء حقوقا غير الزكاة ، فقال عز وجل : " وفي أموالهم حق معلوم " فالحق غير الزكاة ، و هي شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله ، يجب عليه ان يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله ، فيؤدي الذي فرضه على نفســه ، ان شاء في كل يوم ، و ان شاء في كل جمعة ، و ان شاء في كل شهر " (٢) ، و عنه قال - عليه السلام - : " هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف و الألفينو الثلاثة آلاف ، و الأقل و الأكثر ، فيصل به رحمه ، و يحتمل به الكل عن قومه " (٣) ، و هذا المحمل هو الاقرب لان الانفاق المستحب أدل على رسوخ الايمان من الواجب.

و حيث بادر المصلون الى هذا النوع من الانفاق فإنهم لا يعتبرون أنفسهم(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٣٠.

(2)البرهان / ج ٤ - ص ٣٨٤.

(3)المصدر / ص ٣٨٥.

متفضلين على من أعطوا ، بل يشعرون في أنفسهم ان ذلك " حق " واجب عليهم أداؤه ، مما يبعدهم عن الرياء و المن و الأذى . ثم أنهم من الناحية الاقتصادية متوازنون في إنفاقهم ، فهم لا يسرفون و لا يقترون ، بل يقدمون على مواقف و خطوات مدروسة قائمة على الحسابات الدقيقة .. فإنفاقهم كما يصف " معلوم " مدروس و مخطط و محدد.

الثالثة : التصديق بالآخرة.

]و الذين يصدقون بيوم الدين[

قال العلامة الطبرسي : يؤمنون بأن يوم الجزاء حق لا يشكون فيه (١) ، وفي الكشاف : تصديقا بأعمالهم و استعدادا له (٢) . و سميت الآخرة " يوم الدين "لأنها يوم الجزاء و فيها الميزان ، و لأن الحاكمية المطلقة فيها لدين الله عز وجل . وإذا كانت الدنيا صولات و جولات بين الحق و الباطل فان الآخرة دولة مطلقة للحق . و تصديق المصلين بذلك اليوم وما فيه من الحقائق تصديقان : تصديق القلب بالايمان و اليقين الراسخ ان الاخرة حق واقع ، و تصديق الجوارح بالعمل و السعي الصالح ، الذي يكون مصداقا للايمان ، و دليلا على صدق مدعيه . وقد أعطى الاسلام لهذه الكلمة مفهومها الحقيقي الشامل حينما اعتبر كل صالحة و حسنة صدقة ، قال رسول الله (ص) : " كل معروف صدقة الى غني او فقير " (٣) ، و قال (ص) : " تبسمك في وجه أخيك صدقة ، و أمرك بالمعروف صدقة ، و نهيكعن المنكر صدقة ، و إرشادك الرجل في دلو أخيك صدقة " (٤. (

(1)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٦.

(2)الكشاف / ج ٤ - ص ٦١٢.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ٩٦ - ص ١٢٢.

(4)كنز العمال / ج ٥ - ص ١٦٣.

و نهتدي من قوله : " يصدقون بيوم الدين " الى ان اعمالهم الصالحة مصداق ايمانهم بالآخرة ، فلا يعملون رياءا او سمعة ، او اشرا او بطرا ، او استعلاءا في الأرض . كما نستوحي من ذلك ان يوم الدين هو العامل الرئيسي الذي به يصدقون و يندفعون البالاعمال الصالحة . أترى لو كفر أحد بالجزاء ماذا يدفعه الى التصدق و الانفاق و التضحيات ؟ لا شيء ، و لهذا فان توقف مسيرة الاحسان و العطاء عند الكفرة سببه كفرهم بالآخرة.

و حيث اعتبر القرآن التصديق بالآخرة صفة أساسية عند المصلين حقا فلأنهم عندما يقومون الى الصلاة يعيشون بوعيهم الايماني ظواهر الاخرة و احداثها الفظيعة .و ماهي قيمة الصلاة إذا لم يكن المصلي حاضرا بروحه و بصيرته في الآخرة عند أدائها ؟

و ايمانهم بالآخرة له دور أساسي و كبير في حياتهم ايمانا و تفكيرا و عملا ، فهو مقياسهم في القضايا المختلفة ، فلا يقربون الذنوب خشية الخزي و العذاب يومئذ ، و يستزيدون من عمل الصالحات طمعا في الفوز بالجنة و رضوان الله ، ولا يجزعون عند البأساء و الضراء لأن الشر الحقيقي ليس الفقر ولا فقدان الأحبة ولا المرض إنما هو عذاب الله و سخطه ، و لا يمنعون عند الخير برهم عن أحد طمعا في الخير العظيم عند لقاء الله . و بعبارة : ان الانسان لا يمكن له الثبات ، بل يبقى هلعا متقلب الشخصية حتى يؤمن بالاخرة ، لان ذلك وحده الذي يعطيه الاطمئنان إذ يشبع تطلعاته الفطرية ، و يشعره بأنه يسير نحو مستقبل أفضل و أنبل.

الرابعة : الخوف من عذاب الله.

]و الذين هم من عذاب ربهم مشفقون[

في التبيان : الاشفاق رقة القلب عن تحمل ما يخاف من الأمر ، فإذا قسى قلبالانسان بطل الاشفاق ، و قيل : من أشفق من عذاب الله لم يتعد له حدا ولم يضيع له قرضا (١) ، و خوفهم في الحقيقة ليس من شدة العذاب بقدر ما هو خوف من سخط الله ، لان فراق رضوان الله أعمق و أشد ألما من السنة النيران.

ان المصلين الحقيقيين يفترضون أنفسهم في النار ، و ينطلقون من ذلك بالجد و الاجتهاد و السعي الحثيث لانقاذ انفسهم منها ، و انما لا يفترضون انفسهم في الجنة لكي لا يستبد بهم الغرور فيركنون الى الراحة و الدعة ، و لكي لا يعيشوا في ظل خرافة الشرك او أمنيةالشفاعة المحتومة على الله تعالى سبحانه او حلم الاعمال الصالحة التي لا يعرفون مدى قبولها من عند الله ، فهم لا يعطون لها الامان بالاعتقاد الخاطىء ان الله لا يعذبهم ، و لا بالاتكال اغترارا على أعمالهم ، ولا بالفهم السيء للشفاعة.

]ان عذاب ربهم غير مأمون[

و تأكيد هذه الحقيقة من قبل الله يأتي في سياق المنهج التربوي للقرآن ، فان من لا يأمن العذاب لا يسمح لنفسه بالغفلة ، و ضياع الفرصة ، كما انه يتحرك في بعدين : بعد اجتناب الذنوب التي جزاؤها العذاب ، و الثاني : بعد العمل الصالح الذي يقرب العبد الى الله ، و ينجيه من غضبه ، و يقربه من الأمان الحقيقي من عذابه.

ان الذي يأمن مكر الله و عذابه او يكفر به و يكذب كاولئك الذين بلغ كفرهم بوعد الله حد الاستهزاء و التحدي بالسؤال عن العذاب ؛ ان هذا الانسان لا يتحسس المسؤولية ، و من ثم يخوض و يلعب ، و قد يعتمد على التمنيات فيود لو يفتدي(١) التبيان / ج ١٠ - ص ١٢٤.

بالاخرين و ينجو ، او يطمع ان يدخل جنة نعيم ، و لكنها لا تعطي أمانا أبدا ، قال شيخ الطائفة مفسرا الآية : قيل يخافون ان لا يقبل حسناتهم و يؤخذون بسيئاتهم (١) ، و في الكشاف : أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة و الاجتهاد ان يأمنه ، و ينبغي ان يكون مترجحا بين الخوف و الرجاء (٢) ، و قيل : لان المكلف لا يدري هل أدى الواجب كما أمر به ، و هل انتهى عن المحظور كما نهي (٣. (

و كـون العذاب غير مامون لا يعني انه تعالى لا يعدل ، حاشا و هو السلام المؤمن ، بل لكون الانسان غير معصوم ، و لكن التمحض في الحق من جانبه صعبا و قليلا أهله ، قال الامام الصادق (ع " : (أتي رسول الله - صلى الله عليه وآله - فقيل له : ان سعد بن معاذ قد مات ، فقام رسول الله (ص) و قام اصحابه معه ، فأمر بغسل سعد و هو قائم على عضادة الباب ، فلما ان حنط و كفن و حمل على سريره تبعه رسول الله (ص) بلا حذاء و لا رداء ، ثم كان يأخذ يمنة السرير مرة و يسرة السرير مرة حتى انتهى به الى القبر ، فنزل رسول الله (ص) حتى لحده وسوى اللبن عليه ، و جعل يقول : ناولوني حجرا ، ناولوني ترابا رطبا ؛ يسد به ما بين اللبن ، فلما ان فرغ و حثا التراب عليه و سوى قبره قال رسول الله (ص) : " إني لأعلم أنه سيبلى و يصل البلى اليه ، و لكن الله يحب عبدا إذا عمل عملا أحكمه " ، فلما ان سوى التربة عليه قالت أم سعد : يا سعد هنيئا لك الجنة ، فقال رسول الله (ص : (يا أم سعد مه ، لا تجزمي على ربك فان سعدا قد أصابته ضمة ، قال : فرجع رسول الله (ص) و رجع الناس فقالوا له : يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد ، انك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء ، فقال (ص : (ان الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسيت بها ، قالوا : و كنت تأخذ يمنة السرير مرة و ، و يسرة السرير(١) المصدر.

(2)الكشاف / ج ٤ - ص ٦١٣.

(3)الميزان / ج ٢٠ ص ٢٠.

مرة ، قال : كانت يدي في يد جبرئيل أخذ حيث يأخذ ، قالوا : أمرت بغسله و صليت على جنازته و لحدته في قبره ثم قلت ان سعدا قد أصابته ضمة ؟! قال : فقال)ص) : نعم . إنه كان في خلقه مع أهله سوء "

(١.)

الخامسة : العفة الجنسية.

ان مما يبعد المصلين عن صفة الهلع هو سيطرتهم التامة على شهواتهم ، فبينما تسير الآخرين غرائزهم و أهواؤهم تجد المؤمنين يوجهونها على أساس القيم كيفا و مقدارا ، مما يعطيهم الثبات في شخصيتهم.

]و الذين هم لفروجهم حافظون[

و يفسر علاقة هذه الآية بالآيتين السابقتين عن الخشية من العذاب حديث أمير المؤمنين - عليه السلام - : " من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات " ، و هذا يؤكد العلاقة بين عقائد الانسان المؤمن و سلوكه ، وأن المصلي بحق هو الذي يترجم القيم الايمانية الى حقائق واقعية في حياته ، فالتصديق بيوم الدين و الاشفاق من العذاب ليس مجرد أقوال على ألسنتهم أو أفكار في أذهانهم ، بل هي واقع ملموس في شخصياتهم.

و بالتدبر في معاني الآية الكريمة نهتدي الى الحقائق التالية:

الف :إنها باستثناء " أو ما ملكت أيمانهم " شاملة للزوجين الرجل و المرأة ، فإن المرأة كالرجل مكلفة بصيانة نفسها جنسيا إلا على زوجها ، وأن لا تبحث عن طرق ملتوية لاشباع غريزتها الجنسية.

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٦ - ص ٢٢٠.

باء :ان حفظ الفرج يبدأ من طهارة القلب بعفة الايمان و عفة النظر عما حرم الله ، و هكذا سائر الجوارح كالسمع و اللمس ، فان فرج الانسان لا يزال محفوظا حتى تدخل قلبه افكار الشيطان ، او يزيغ نظره الى الحرام ، و كذا سمعه و جلده.

جيم : ان التعبير جاء بالجمع " فروجهم " و ليس بالمفرد ، و ذلك يهدينا الى ان من حفظ فرجه فانه يحفظ فروج عرضه و من يتعلق به كسنة اجتماعية طبيعية ، و هكذا من يقتحم به الفواحش فانما يجعل فروجه - زوجته و أخواته و إخوانه و عقبه - عرضة للتورط في الفاحشة ، فقد اوحى الله الى موسى (ع) : " يا موسى ! من زنى زني به ، ولو في العقب من بعده " (١) " يا موسى ! عف يعف أهلك " (٢) ، " يا ابن عمران ! كما تدين تدان " (٣) ، وفي حيث آخر : " لما أقام العالم (الخضر عليه السلام) الجدار (لليتيمين) اوحى الله الى موسى (ع) : إني مجازي الأبناء بسعي الآباء ، ان خيرا فخير ، و ان شرا فشر ، لا تزنوا فتزني نساؤكم ، وإن من وطئ فراش أمرئ مسلم وطىء فراشه . كما تدين تدان " (٤. (

دال : و اذا نظرنا الى الآية بتفكر أمكننا توسيع معنى الفروج ليشمل كل فرجة يساهم بها الانسان في ممارسة الجنس ، كالفم الأذن و العين و فتحات الشم ، وإن المصلين يعفون بها عن ممارسة الحرام ، فلا يقبلون بشفاههم غير أزواجهم ، ولا يتلفظون بها كلمات الغرامو الغزل ، كما انهم لا يستمعون بآذانهم أحاديث الهيام و كلمات الحب ، و يصونون أعينهم عن النظر إلا الى محاسن الازواج و زينتهن ، بل و يحفظون مشامهم قدر المستطاع عن الإستلذاذ بالحرام !

(1)كلمة الله للشهيد الشيرازي / ص ١٩١.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

(4)المصدر / ص ١٩٣.

هاء :و لعلنا نقرأ في بطون الآية الكريمة ان المصلين يحسنون إدارة عوائلهم في كل الابعاد و منها الجنس ، بحيث تتصل الفروج المتعلقة بهم الى حد الاشباع جنسيا و عاطفيا ، مما يحفظها عن التفكير في ممارسة الجنس الحرام خارج اطار العلاقة الزوجية ، هذا ما يستفاد من السياق و بالذات من قوله سبحانه في خاتمة الآية " فإنهم غير ملومين " كما يأتي تفسيره.

وان الدراسات العلمية في جنس الاجتماع لتؤكد على ان اغلب الانحرافات في هذا الجانب - و بالتالي فشل الازواج في حفظ ازواجهم و حصر علاقاتهم الجنسية بهم - مبتنية على سوء إدارتهم للعائلة.

ان الاسلام دين الفطرة ، و معنى ذلك أنه ينسجم مع طبيعة الانسان ، و الغريزة الجنسية غريزة طبيعية ، و الاسلام لا يحاربها ، و لكنه يفرض عليه منهجا سليما ، فهو من جهة يحرم ممارسة الجنس الحرام ، ومن جهة أخرى يفتح المجال فيما يخص الزوجات وما ملكت اليمين.

]إلا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم[

وإذا عرفنا ان الزوجة تتعدد في الاسلام الى أربعة ، كما انها تشمل الدائمة و المؤقتة ، فان مصادر التمتع بالغريزة الجنسية تكون متنوعة ، خصوصا عندما كانت الظروف مواتية لملك اليمين في ظل نظام الرقية الشائع في القديم.

]فإنهم غير ملومين[

لا من قبل الله ولا من قبل الناس.

و الغريزة الجنسية أشبه شيء بتيار ماء عارم لا يدعه المؤمن يندفع حيث يشاء ،بل يصنع حوله السدود ، و يحفر القنوات التي تستوعبه و توجهه الى ما فيه الحق و الصلاح.

]فمن ابتغى وراء ذلك[

نتيجة للشذوذ بممارسة الحرام زنا و غيره (١. (

]فأولئك هم العادون [

يقال عدى فلان : اعتدى ، و عدى في مشيه إذا أسرع و تجاوز الحد المعروف ، و هو الأصل ، و العادي : الظالم بالتجاوز . قيل : فأولئك الذين تعدوا حدود الله ، و خرجوا عما أباحه لهم (٢) . ومن مصاديق " وراء ذلك " الاستمناء) العادة السرية) فقد سئلالامام الصادق (ع) عن الخضخضة فقال : " إثم عظيم قد نهى الله عنه في كتابه و فاعله كناكح نفسه ، ولو علمت بمن يفعله ما أكلت معه " ، فقال السائل فبين لي يابن رسـول اللـه من كتاب الله و نهيه ؟ فقال : " قول الله : " الآية " وهو مما وراء ذلك " (٣. (

وإن من انتصر على هوى النفس و وسواس الشيطان بشأن الشهوة الجنسية فقد أوتي خيرا كثيرا ، قال الامام الباقر (ع) : " مـا عبـد الله بشيء أفضل من عفة بطن و فرج " (٤) ، و هذه الرواية تفسر لنا العلاقة بين العفة الجنسية و بين كون العفيف من المصلينالحقيقيين عند الله . و كيف يقيم الصلاة من يخبط خبط عشواء في الفواحش و ربنا يقول : " و أقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء(١) راجع سورة المؤمنون عند الآية / ٦ - ٧.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٥.

(3)تفسير البصائر / ج ٤٩ - ص ١٢٣.

(4)المصدر / ص ١٢٢.

و المنكر " (١) ؟؟ اي ان تجنب الفـواحش و المنكرات شرط أساسـي لإقامة الصلاة بحـدودها.

السادسة : رعاية الأمانات و العهد.

]و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون[

قال العلامة الطبرسي : الأمانة ما يؤتمن المرء عليه مثل الوصايا ، و الودائع ، و الحكومات و نحوها (٢) ، و قيل : كل نعمة أعطاها الله عبده من الاعضاء ، فمن استعمل شيئا منها في غير ما أعطاه الله لأجله و أذن له في استعماله فقد خانه (٣) . و اطلاق المعنىهو الاصح ، فالامانة كل ما استؤمن عليه الانسان ، و العهد كل ما تعاقد عليه و قطع على نفسه الوفاء به . و أظهر مصاديق الأمانة العقل و ما يفرضه من مسؤولية اختيار الحق و الذي يتجلى في رسالات الله ، تلك الأمانة التي عرضها على السماوات و الارض فابين ان يحملنها و اشفقن منها و حملها الانسان . كما ان أظهر مصاديق العهد ما أخذه الله على بني ادم أن يوحدوه و لا يشركوا به شيئا ، و المشار اليه في قوله تعالى : " وإذ أخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . (4) "وما هي قيمة الصلاة التي لا تردع الانسان عن خيانة الأمانة و العهد ؟ و ما هي قيمتها إذا لم تعطه روح الوفاء بهما و الرعاية لهما ؟!

السابعة : القيام بالشهادة.

(1)العنكبوت / ٤٥.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٦.

(3)الميزان / ج ٢٠ - ص ٢١.

(4)الاعراف / ١٧٢.

]و الذين هم بشهاداتهم قائمون[

فلا يكتمون الشهادة ، و لا يشهدون بالباطل ، لا فرق عندهم اكانت لهم ام عليهم ، لان المهم هو اقامة الحق و اعلاء كلمته لوجه الله . و بالتالي فانهم لا يتأثرون بالضغوط التي تدعوهم للعدول بالشهادة عن الحق.

و الشهادة أوسع من ان نحصرها في القضاء ، بل هي قيام الانسان بالشهادة للحق في كل حقل و بعد ، و ذلك بالدفاع عن الحق قولا و فعلا ، مما يجعله ميزانا للحق ، و حجة بالغة على المخالفين له ، كما قال الله يخاطب حبيبه : " يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا " (١) ، و قال : " و كذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا. (2) "

و بكلمة " قائمون " أعطى القرآن مفهوما أعمق للشهادة ، فهي ليست مجرد قول الحق عند اختلاف الناس فيه ، بل قد يرقى الى خوض الصراع الذي قد ينتهي الى القتل في سبيل الله ، وهو قمة شهادة المرء للحق . و بكلمة : ان القيام هنا قد يكون نقيض القعود في قول الله : " و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما " (٣) ، مما يجعل كل مؤمن شهيدا شاهدا على عصره ، و يجعل الصلاة رمز شهادته و معراج شهوده.

الثامنة : المحافظة على الصلاة.

]و الذين هم على صلاتهم يحافظون[

(1)الاحزاب / ٤٥.

(2)البقرة / ٤٣.

(3)النساء / ٩٥.

بمظهرها و كيفيتها (يعني الصلاة المتعارفة) ، و قد قدم الله تلك الصفات للتأكيد بأنها الجوهر و الأهم في الصلاة ، لأنها المحتوى و الصلاة اطارها ، و هي القيم و الصلاة مقامها ، وهي النور و الصلاة مشكاتها ، و ينبغي لكل مقبل على الصلاة ان يضعها نصب عينيه قبلها وبعد أدائها ، و يسعى للالتزام بها الى جانب إلتزامه بمظاهر الصلاة . قال صاحب المجمع : اي يحفظون أوقاتها و أركانها فيؤدونها بتمامها ، ولا يضيعون شيئا منها (١) ، و قال الرازي : و محافظتهم عليها ترجع الى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل وجه(٢ . (ولا يمكن لأحد ان يحفظ صلاته من الفساد حتى يلتزم بشروطها فلا يقتحم الفواحش و المنكرات ، لانها تبطل أجرها ، و تمنع قبول الله لها من أحد.

ما هو أجر المصلين الحقيقيين الذين تقدمت صفاتهم ؟ يقول ربنا:

]اولئك في جنات مكرمون[

كرامة حقيقية تتمثل في القرب من الله ، و كرامة ظاهرة في نعيم الجنات ، و في هذه الآية تسكين لروعتهم من العذاب ، و تأمين لهم بأنه بعيد عنهم . و جزاؤهم هذا نقيض جزاء الكافرين الذين تخشع أبصارهم ، و ترهقهم ذلة و إهانة.

وفي نهاية سردنا لصفات المصلين في مفهوم القرآن نسجل هاتين الفكرتين:

- 1ان التعبير يكون صحيحا لو قال الله عند كل صفة (الذين) من غير الحاق للضمير المنفصل " هم " بالكلام ، ولكنه أثبته تعالى لغرض التأكيد أولا ، و لبيان ان صفاتهم ليست عرضية ، بل هي سجايا و ملكات دافعهم اليها مرتكز في أنفسهم ،(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٥٧.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٢٩.

لا اتباعا لهوى أحد أو استرسالا مع ظرف محدد.

- 2ان بيان تعريف المصلين بهذه الصفات يعطينا مقياسا لتقييم أنفسنا ، و ميزانا لمعرفة الناس من حولنا ، فما اكثر من يصلي و لكنه لا يقيم الصلاة ، فيكون له الويل و اللعنة ، لا كرامة الله و الجنة.

[36]و من بيان صفات المصلين التي هي ثمن الكرامة في الجنات ينعطف السياق القرآني لانتقاد موقف الكافرين الذين يطمعون في دخول الجنة ، و يتمنونها نصيبا و مصيرا من غير سعي و اجتهاد ، مؤكدا بأنها منهجية خاطئة ، لأنها تقوم على التمنيات ، و لأنها لا تقودإلا الى الخوض و اللعب في الدنيا ، و الخسران المبين في الآخرة.

]فمال الذين كفروا قبلك مهطعين[

قيل أذلاء (١ (، و في المنجد : من ينظر في ذل و خضوع لا يقلع (٢) ، قال تعالى : " مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم و افئدتهم هواء " (٣) ، و الأقرب هنا ان الاهطاع اسراع في ذل ، يقال :

استهطع البعير في سيره اسرع ، و ناقة هطعى : سريعة(٤) . و يدل على ذلك قوله تعالى : " خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين الى الداع " (٥) أي مسرعين في إجابة داعي الله منكسي رؤوسهم أمامه.

(1)القمي / ج ٢ - ص ٢٣٨.

(2)المنجد / مادة هطع.

(3)ابراهيم / ٤٣.

(4)المنجد مادة هطع.

(5)القمر / ٧ - ٨

و الآية تستنكر على الكفار بالرسالة مسارعتهم في الفرار من دعوة الرسول (ص (، كأنهم قطيع بعير شاردة ، او كما وصفهم تعالى حال إعراضهم عن التذكرة : " كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة " (١) حيث لا يثبتون قبل الرسول الذي يحمل اليهم منهج الفلاح و العزة في الدنيا و الآخرة ، ولا يعلمون أنهم بذلك الإسراع في الفرار إنما يسارعون في الذل و الفشل ، و ليس كما يزعمون مسارعة في الخير ، وهذا ما يعاينونه في الآخرة " يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهمذلة " ، و هاتان الآيتان بيان واضح لمعنى الإهطاع أنه الإسراع.

[39 - 37]و لا يفر الكافرون قبل الرسول في صف منتظم واحد ، بل في صفوف مختلفة ، و ذلك لان المسارعة في الفرار من الحق موقف مبدئي اجتماعي سياسي يتخذه المهطعون لعوامل متفاوتة بينهم ، مما يجعل مواقفهم التابعة للاهواء مختلفة ، فمن مشرق و من مغرب كما يقول الله و يصف القرآن:

]عن اليمين و عن الشمال عزين[

اي متفرقين جماعات كل ينتسب الى جماعة مختلفة . و أصل العزي من النسبة ، يقال :تعزى اليه يعني انتسب ، و العزية : الانتساب (٢) ، قال الازهري : عزا فلان نفسه الى بني فلان ، يعزوها عزوا ، إذا انتمى اليهم ، و الاسم العزوة .و كأن العزوة كل جماعة اعتزاؤها (و انتسابها) الى أمر واحد (٣) . و لقد رأينا كيف أن الانحراف عن الرسالة صير الناس مذاهب و طوائف ، بينما كانت الرسالة - لو استجابوا لها - تجمعهم أمة واحدة قوية و عزيزة .. إلا أنهم مزقوا أنفسهم بالضلال(١) المدثر / ٥٠ - ٥١.

(2)المصدر / مادة عزي بتصرف.

(3)التفسير الكبير / ج ٣٠ ، ص ١٣١ - ١٣٢

عن هداها كل ممزق فصاروا الى الضعف و الذل.

وفي الروايات إشارة من رسول الله (ص) الى معنى " عزين " على أنه التفرق جماعات و مذاهب ، فعن جابر بن سمرة قال : دخل علينا رسول الله (ص) المسجد و نحن خلق متفرقون فقال : " مالي أراكم عزين ؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ "قالوا : و كيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : " يتمون الصفوف الأول و يتراصون في الصف " (١. (

و التفرق نتيجة طبيعية للكفر بالله و الرسالة ، لأن الايمان يجمع الناس على محور واحد هو محور الحق ، اما الكفر فانه يتخذ أشكالا مختلفة .. أحزابا و أفكارا و قيادات . و هناك قول بأن المقصود بالكافرين هم المنافقون الذين يظهرون الايمان و يخفون الكفر و التكذيب (٢) ، و الأقرب تعميم المعنى ليشمل الكافرين

و المنافقين جميعا.

وإذا تنكب الانسان عن صراط الجنة الرسول (قيادة) و الرسالة (منهجا) فكيف يسعد ؟ ومن أي باب يدخل الجنة ؟ و بأي وسيلة ؟

ان الانسان إنما يرفض الحق قيادة و منهجا فرارا من المسؤولية و الاجتهاد ، لا بغضا للحق في ذاته أو جهلا به ، بينما نفسه تظل تتطلع الى الخلاص من العذاب و الفوز بالجنة ، و هكذا تراه يلجأ الى التمنيات و الظنون . من هنا يستنكر عليهم السياق ذلك الطمع الزائف فيقول:

]أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم[

(1)تفسير البصائر / ج ٤٩ - ص ١٢٤.

(2)هكذا في مجمع البيان ، و اليه ذهب الفخر الرازي و العلامة الطباطبائي و صاحب تفسير فتح القدير للشوكاني.

و للآية إيحاء بأن ذلك الذي رفض دخول الجنة بالصد عن طريقها و بابها من أين يدخلها ؟ وهل ينتظر أحدا يأتي ليدخله فيها وهو لا يريد ؟

]كلا[

انه لا يكون فلا يدخل أحد من غير بابها ، و من دون ان يسعى اليها سعيها ، و ما يحمل جناح التمني و الطمع صاحبه إلا الى النار و التهلكة . و قال ربنا " : يدخل " مبنيا للمجهول لبيان ان صاحب التمنيات لا يسعى بنفسه ، انما يترقب نجاته من غيره ، وليس يفعل ذلك أحد ، فأما الله والاولياء فهم اعداؤه ، و أما الانداد فإنهم لا يملكون نفعا ولا ضرا.

ثم ان الانسان حينما يتفكر في الخليقة من حوله ، بل في خلق نفسه ، يصل الى حقيقة مهمة تنفي له التمنيات و الاطماع من أساسها ، وأنها لا تدخل أحدا الى جنة النعيم ، لأنه أينما نظر و تفكر لن يجد شيئا يدور في الفراغ ، بلا قانون أو سنة ، ومن ذلك نفسه.

]إنا خلقناهم مما يعلمون[

إشارة الى خلقة الانسان المادية (العناصر التي يتكون منها) و المعنوية) الاطوار و القوانين و السنن) . و فكرة أخرى تفسر العلاقة بين نسف القرآن للتمنيات و بين إشارته الى خلقة الناس و هي ان في الانسان جانبين لابد ان يتكاملا : الجسد والروح ، وهو لا يملك في تكامل جسمه شيئا كثيرا ، فمن نطفة يصير علقة فمضغة حتى يولد طفلا فيشب و يشيخ ثم يموت ، بينما يعتمد تكامل روحه على إرادته و سعيه ، و الجنة جزاء إحرازه للتكامل في هذا الجانب ، و لن يدخلها بمجرد الطمع و التمنيات ، و بصيرة ثالثة : انالكافرين انما تركوا الايمان و السعي للطمع و التمني بسبب كفرهم بالآخرة ، حيث قالوا : كيف نعود أحياء بعد ان نصير ترابا ؟ فذكرهم الله بأصل خلقتهم (التراب) لبيان أنه تعالى قادر على إعادتهم بشرا أسوياء بعد ان يصيروا ترابا . و لعل الآية تقرير بأن جذر ذلكالتمني و الكفر راجع الى طبيعة الانسان الترابية و جانب الظلام في وجوده.

[41 - 40]و يعالج الله موقف الكفار من وعده و عذابه الواقع بالرد على تحديهم للحق و سؤالهم عن العذاب ، و ذلك من خلال تذكيره بحقيقتين:

الاولى : طبيعتي الجهل و الضعف عند الانسان ، و اللتان تجعلان تحديه في غير محله ، فانه لو اطلع على عذاب ربه و عرف قدر خالقه لما ساقه الكفر و التحدي . وما عسى ان يكون و هو المخلوق الضعيف حتى يتحدى خالقه ، و يسأله إنزال عذابه عليه تكذيبا و هزوا ؟! والى هذه الحقيقة تشير الآية (٣٩. (

الثانية :قدرة الله المطلقة و حكمته النافذة ، فهو قادر لو أراد ان يهلك الكفار و يمحوهم من الوجود ، و لكنه حكيم لا يفعل ذلك .. و من تحسس هاتين الصفتين لله ينبغي الايمان بالآخرة و خشية العذاب.

]فلا أقسم برب المشارق و المغارب إنا لقادرون * على ان نبدل خيرا منهم]و اول سؤال يفرض نفسه : ماذا تعني المشارق و المغارب ؟ يجيب الامام أمير المؤمنين علي - عليه السلام - عن ذلك عندما وجه ابن الكوا تهمة التناقض الى القرآن ، فقال له - عليه السلام - : " ثكلتك امك يا ابن الكوا ! هذا المشرق وهذا المغرب) مشيرا بيدهالى الجهتين) ، وأما قوله : " رب المشرقين و رب المغربين " فإن مشرق الشتاء على حده و مشرق الصيف على حده ، أما تعرف بذلك من قرب الشمس و بعدها ؟ ! وأما قوله : " رب المشارق و المغارب " فان لها ثلاثمائة و ستين رجا ، تطلع كل يوم من برج ،و تغيب في آخر ، فلا تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم " (١. (

وعـــن ابن عباس قال : " للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، و مغرب تغرب فيه ، غير مطلعها و غير مغربها بالأمس " (٢. (

و العلاقة واضحة بين إشارة الله الى آية المشارق و المغارب الكونية ، و بين تأكيده على أنه قادر على التبديل ، ذلك ان تبدل المشارق و المغارب اليومي -هذه الحركة الكونية - آية من آيات قدرته تعالى على التبديل ، و ان الخلق و الأمر اليه ؛ بحيث لو أراد الرد على تحدي الكفار بإنزال عذابه لفعل فأهلكهم ، و أتى بغيرهم خيرا منهم ، لا عجزه شيء أبدا.

و السؤال الثاني : لماذا قال ربنا : " خيرا منهم " ؟ لعل الجواب : ان سنة هلاك الأمم الغابرة قائمة على أساس ان الأمة الناشئة البديلة تكون أفضل لقربها من فطرة الخلق ، و عدم تلوثها بعوامل الفساد و الزيغ . لقد أهلك الله قوم نوح ، و طهرت الارض جميعا من فسادهم و زيفهم ، و أنشأ من بعدهم قوما صالحين (هم ذرية الناجين في السفينة) ، ثم أهلك فرعون و قومه و استعمر بلادهم بنو اسرائيل ، و كانوا أمة مؤمنة و هكذا لا يكون خلق الله إلا صالحا ، كما قال ربنا سبحانه : " لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم " .

]وما نحن بمسبوقين[

أي لا يسبقنا شيء ، ولا يعجزنا أحد ، ولم نمارس في أمر الخلق لغوبا ولا(١) الاحتجاج / ج ٢ - ص ٢٥٩ .

(2)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٧.

علاجا ، ولا تعلمنا التجربة من أحد أو احتجنا الى شريك او معين ، سبحان الله .. وإنما تقتضي حكمته الإمهال . قال شيخ الطائفة مشيرا الى هذا المقطع من الآية : و قوله : " الآية " عطف على جواب القسم ، و معناه ان هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا على وجه يمنع من الحاق العذاب بهم ، فلم يكونوا سابقين ، ولا العقاب مسبوقا منهم ، و التقدير : وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم (١) . و يستشف من الكلمة معنى الغلبة لأن من دخل السباق و سبق فهو مغلوب ، و تعالى الله ان يغلبه أحد وهو القادر على كل شيء(٢. (

وفي الآية " نبدل خيرا منهم " اختلاف في كيفية الإبدال ، فقيل : بالإهلاك و ذلك بأن يهلكهم الله و يخلق غيرهم ، و قيل : بانه تعالى يبدل الرسول عنهم -وهم المكذبون المهطعون عن اليمين و عن الشمال عزين رافضين لرسالته - يبدلهم بآخرين قبله يطيعونه و يصدقون بدعوته . و الإثنان صحيحان.

ثم يشير تعالى الى حقيقة أساسية وهي : ان الدنيا و ان كانت تتجلى فيها سنة الجزاء إلا أنه ليس ضروريا ان يجازي الله فيها كل أحد ، و السبب أنها دار الابتلاء ، أما دار الجزاء فهي الآخرة ، و إنهم - أي الكفار - لن يفوتوه ، بل سيلاقون جزاءهم يوم القيامة.

]فذرهم[

في الدنيا.

]يخوضوا و يلعبوا[

(1)التبيان / ج ١٠ - ص ١٢٩.

(2)لقد مر بيانه في سورة النجم و مواضع أخرى لمعنى (لا أقسم) فراجع.

فيــذهبوا بكل خلاقهم ، و يتمادوا في الذنوب حتى يأتوا في الآخرة لا خلاق لهم ، وقد فعلوا ما يستحقون به المزيد من العقاب و العذاب ، فان فرصتهم أنى بدت طويلة فهي محدودة بالدنيا.

]حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون[

يعنــي يوم الجزاء عندما يلاقون الاذلال و العذاب . و من مصاديقه يوم يتوفاهم الله . أوليس إذا مات ابن آدم قامت قيامته ؟ أوليس الموت يضع حدا لخوضهم و لعبهم ؟

و أصل الخوض دخول الماء ، يقال خاض بالفرس إذا أورده الماء ، و الغمرات اقتحمها ، و كذا المهالك (١) ، و لعله الدخول في الشيء بالكامل ، و خوض الكافرين هو دخولهم في الذنوب و اتباعهم الاهواء و الشهوات مسترسلين بلا ضوابط او حدود . و اللعب كل ما يقدم عليه الانسان باهداف شهوانية تافهة . و قول الله تعالى : " فذرهم " هو تحديد لموقف الرسول و من يتبعه تجاه الفريق المذكور من الكافرين ، و لا يعني ذلك ان يعتزل الرساليون ساحة الجهاد و العمل في سبيل الله ، بلى . انهم من الناحية الدينية العقائدية ليسوا مسؤولين عن دعوتهم لقبول الحق و الايمان بالاخرة عن طريق الجبر ، بل يتركونهم فالخيار لهم ، كما لا ينبغي ان يذهبوا أنفسهم حسرات على عدم ايمانهم و اختيارهم طريق النار . هذا من جانب ، ومن جانب آخر يجب ان لا تدعوهم تحديات الاعداء و استفزازاتهم الى التعجلبردات الفعل غير المدروسة ، وإنما يجب ان يصبروا صبر جميلا ، في الوقت الذي يواصلون فيه مسيرة الجهاد ، حسبما يوحي اليه السياق العام لهذه السورة الكريمة.

(1)المنجد مادة خوض بتصرف.

[44 - 43]و يبين القرآن صفات اليوم الذي يوعد الكافرون و أعداء الله ، مصورا مشاهد منه ، تبعث في القلوب رهبة و تدعو الانسان الى التفكير في اتقاء سوء عذابه.

]يوم يخرجون من الأجداث سراعا[

بإرادة الله ، فاذا بجسد تتصل به روحه ، و يصير بشرا سويا واعيا في ساعات معــدودة ، "سراعا " بحيث لا يحتاج الأمر ان يمر كل واحد بمراحل خلقه الأولى .. نطفة فعلقة فمضغة .. الخ . و الجدث هو القبر . و ان الكافرين الذين تنكبوا عن الصراط و رفضوا دعوة الله عن طريق رسله في الدنيا لا يملكون يومئذ حيلة ولا قدرة للصد عن دعوة الحق ، بل يجيبون دعوة الداعي مسرعين.

]كأنهم الى نصب يوفضون[

اي يعدون و يسرعون . و للنصب معان:

الاول :العلامات ، فكل ما نصب و جعل علما و علامة فهو " نصب " وما أشبه إسراعهم يومئذ بإسراع

الضائع في الصحراء حينما يقع بصره على العلامات الهادية الى الطريق!

الثاني : الاصنام ، جاء في المنجد : الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها و يذبح لغير الله (١) ، قال تعالى : " إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون " (٢. (

(1)المصدر / مادة نصب.

(2)المائدة / ٩٠.

قال صاحب التبيان : شبههم في إسراعهم من قبورهم الى ارض المحشر بمن نصب له علم او صنم يستبقون اليه (١) ، و قال الفخر الرازي مثله : كما كانوا يستبقون أنصابهم (٢. (

الثالث : قصب السبق الذي ينصب حدا لميدان السباق أو علامة لمعرفة السابق من المسبوق ، و كأن أهل النار يومئذ يسرعون سرعة المتسابق الذي يسعى للوصول قبل غيره من المنافسين.

]خاشعة أبصارهم [

فالموقف منعكس عليهم من الناحية المادية حيث يعلوهم الوجوم ، و لا يرتد اليهم الطرف ، و ترجف أطرافهم من شدة الموقف .. ومن الناحية المعنوية ايضا حيث يشملهم الصغار و الذل.

]ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون[

(1)التبيان / ج ١٠ - ص ١٢٩.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٣٣.

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال : " من كان يؤمن بالله و يقرأ كتابه لا يدع قراءة سورة " إنا ارسلنا نوحا الى قومه " فأي عبد قرأها محتسبا صابرا في فريضة أو نافلة أسكنه الله تعالى مساكن الأبرار ، و أعطاه ثلاث جنان مع جنته كرامة من الله ، و زوجه مائتي حوراء ، و أربعة آلاف ثيب ان شاء الله "تفسير الثقلين ج ٥ - ص ٤٢٠

الإطار العام

في الوقت الذي تبين هذه الآيات من السورة الملامح العامة لرسالة نوح (ع) ومن خلالها للرسالات الإلهية جميعا (الآيات ١ / ٤) كما تشير الى قصته مع قومه و التي انتهت بهلاكهم غرقا بالطوفان (الآيات ٥ / ٢٨) ، فان محورها الاساسي كما يبدو ليس ذلك و انما هوالتركيز على ان نوحا - عليه

السلام - ضرب مثلا رائعا للمعاناة في سبيل الله ، و الاستقامة على نهج الرسالة رغم التحديات الخطيرة المتمادية ، حيث بقي - سلام الله عليه - " الف سنة الا خمسين عاما " (١) يكابد مرارة نفور قومه الذين أصروا على الباطل، و استكبروا عن الحق ، و مكروا مكرا كبارا ، لا ينثني عن أهدافه ، ولا يتراجع عن نهجه ، وتلك الاستقامة درس عظيم لنا ، لأنها كانت من الثوابت التي لا تقبل التغيير .. بلى . كان يغير من اساليبه فمرة يدعو جهارا ، و أخرى إعلانا ، و ثالثة اسرارا ، لا يدخله أدنى شك في الحق الذي بين يديه بسبب تكذيب قومه ، و البشرية يومئذ معارضة لدعوته ، ولا(١) العنكبوت / ١٤.

بسبب تأخر نصر الله عنه ، و إنما كان على عكس قومه تماما ، يزداد مضيا على الحق ، و تسليما لأمر ربه ، و يقينا بنصره.

ان العناد المقدس الذي اتصف به نـوح (ع) جعله رمز الرساليين (دعاة و قادة (عبر التاريخ ، و من ثم واحدا من أولي العزم من الرسل ، وأي عزم ذاك الذي واجه به عناد البشرية كلها .. فلله درك يا شيخ المرسلين ! و لعمري انك لآية العزم و الاستقامة!

أن اعبدوا الله و اتقوه و اطيعون

بينات من الآيات

[1]ان اتباع الحق ضرورة حياتية ليس في الافق المعنوي (الروحي و العلمي (وحسب ، وإنما في الواقع المادي ايضا ، و هذه الحقيقة اعظم تجليا في حياة المجتمع منها في حياة الفـرد ، و الذي يستقرىء تاريخ البشرية يجد شواهدها ماثلة في الامم الغابرة ، و هكذاحينما ينظر الى الحياة من حوله .

و حيث تسير البشرية باقدام الضلال و الفساد الى هاوية العذاب الأليم و نهاية الهلاك بين الحين و الآخر يعطف الرب عليها بلطفه و رحمته فيبعث الانبياء برسالاته لانقاذها قبل ان تحين ساعة الصفر ، وذلك من أظهر آيات رحمته ، والتي تتجلى في الرسالات و الرسل الذين هم قمة الرحمة الإلهية للناس.

و لقد انحرف قوم نوح (ع) وكان الخط البياني لمسيرتهم يتجه نحو الموت الجماعي ، و لكن الله الرحمن الرحيم أبى إلا أن يرسل اليهم رسولا منهم رأفة بهم ،و اقامة للحجة عليهم ، و امضاءا لسنته في خلقه ، اذ ما كان الله معذبا قوما حتى يبعث فيهـم رسولا ، و على هذا الأساس و لهذه الاهداف جاء نوح يحمل رسالة الانذار الى قومـه.

]إنآ أرسلنا نوحا الى قومه[

و قومه يومئذ كل البشر الذين عددهم على بعض الاقوال (٧٠٠) الفا ، و نهتدي الى ذلك من طبيعة العذاب إذ عم الارض كلها طوفانه ، وفي الحديث عن الامام الباقر (ع) قال : " كان بين آدم و نوح عشرة آباء كلهم أنبياء ، وإن الأنبياء بعثوا خاصة و عامة ، فاما نوح فإنه أرسل الى من في الارض بنبوة عامة ، و رسالة عامة " (١) .. وفي الأخبار ان إسمه ليس " نوحا " (٢) ، بل "سكن " عن الامام علي (ع) (٣) و قيل " عبد الأعلى و عبد الملك " عن الامام الصادق (٤) " و انما سمي نوحا لانه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاما " (٥) كما قال أمير المؤمنين للشامي ، وفي معاني الأخبار : " معنى نوح انه كان ينوح على نفسه ، و بكى خمسمائة عـام ، و نحى نفسه عما كان فيه قومه من الضلال " (٦) و قال الصادق (ع) عن النبي : " عاشنوح ألفي سنة و أربعمائة و خمسين سنة " (٧) ، و عنه قال : " كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة ، ثلاثمائة سنة " (٨. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ ص ٤٢١ نقلا عن كمال الدين و تمام النعمة.

(2)راجع موسوعة بحار الانوار / ج ١١ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(3)المصدر / ص ٢٨٦.

(4)المصدر / ص ٢٨٧.

(5)المصدر / ص ٢٨٦.

(6)المصدر / ص ٢٨٧.

(7)المصدر / ص ٢٩٠.

(8)المصدر / ص ٢٨٩.

و الآية تشير الى ان الأمم تسير عبر دورة حضارية ، ففي البدء يكونون على فطرة الايمان و الاستقامة ثم ينحرفون ، و عند منعطف خطير من حياتهم و بالضبط عند الانحدار القاتل يبعث الرسل و المصلحون لكي يوقفوا مسيرة السقوط ، ولذلك يبدأ الأنبياء في الغالب بالانذار باعتبارهم يرسلون الى قوم ضلوا و انحرفوا ليحذرونهم مغبة استمرارهم في الضلال.

]أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب اليم[

لان العذاب لا يأتي من الفراغ ، بل هو سنة إلهية و قانون تكويني له اسبابه و مبرراته التي يستطيع الانسان بإزالتها تلافيه و النجاة منه ، و لهذا فان الاستجابة للانذار تنفع مادام العذاب لم يحن اجله ، حيث الفرصة لا تزال قائمة ، يمكن فيها الاصلاح و التغيير.

و معرفتنا بخلفيات انبعاث الرسل في الامم المختلفة و اهدافهم .. و بالذات أنهم ينهضون للتغيير و يتصدون لقيادة الاصلاح حينما تتردى اوضاع المجتمعات و تسير الى العذاب ان ذلك يحملنا بالتأكيد مسؤولية التصدي للتغيير إذا كنا نريد اتباع الانبياء و مواصلة مسيرتهم ، وإذا كنا نريد للناس الخير و الصلاح . بلى . ان النبوة سمة غيبية يختص بها الله من يشاء من عباده ، و لكن الرسالة أمانة و مسؤولية يمكن لأي انسان ان يرتفع الى مستوى حملها و التصدي لها ، فيكون قائدا رساليا بالتزام الحق ، و اتباع النهج الإلهي الذي مشى على هداه الانبياء و الرسل عليهم السلام.

[4 - 2]إن أحدا لا يستطيع ان يدعي العصمة ، او حضور جبرئيل عنده ، و لا حتى بلوغ درجة الانبياء ، و لكن يستطيع ان يحمل رسالة الله الى قومه ، إذن فللرسالة وجهان : وجه خاص يتفرد به من اصطفاهم لوحيه مباشرة ، و وجه عام يتسع لاتباعهم و السائرين على نهجهمو خطاهم ، فما هو نهج الأنبياء في ضلوعهم

بدورهم الخطير ؟ ان حديث القرآن في هذه السورة يبين لنا الخطوط العامة للنهج الذي تلتقي عليه كل الرسالات و الزعامات الإلهية ، و ذلك بعرض قصة نوح عليه السلام.

اولا : التصدي لقيادة التغيير:

]قال يا قوم إني لكم نذير مبين[

ان نوحا لم ينظر للاوضاع نظرة لا أبالية - كما هو شأن الكثير من الناس الذين لا يهمهم سوى انفسهم و مصالحهم - إنما تحسس الانحراف بكل ابعاده) الاجتماعية ، و السياسية ، و الاقتصادية ، و الاخلاقية) و لم ينتظر من الاقدار ان تغير احوال الناس ، و لم يلقبالمسؤولية على غيره ، بل كان متيقنا بأن الواقع رهن إرادة الانسان ذاته ، ولا يتغير سلبا أو ايجابا إلا تبعا لتغييره ما بنفسه ، فبدأ بتغيير ذاته و انطلق منها لاصلاح المجتمع ، متحملا من أجل ذلك كامل المسؤولية ، و متحديا كل العقبات و الضغوط مع إصرار على إبلاغ الرسالة ، و الاستقامة في طريق ذات الشوكة.

ومن هنا طرح نفسه كقائد و رمز للتغيير ، و قبلها بالعمل الدؤوب المبرمج ، و المخلص لوجه الله . اعتقادا

منه بأن القيادة أمانة و مسؤولية قبل ان تكون منصبا و شهرة ، و عملا و تحديا ، فكان أول طريقه مصارحة المجتمع بالحقيقة ، و توجيهه الى وجود الانحراف ،باعتبار ان وضع اليد على الداء ، والقناعة بأصل الخطأ أول خطوة في طريق الاصلاح ، فان الامة التي يأخذها الغرور ، ولا تنتهج النقد الذاتي تبقى الى الأبد في إنحرافها و أخطائها و تخلفها.

ولم يكن نوح عندما طرح نفسه جاهلا بمدى التحديات التي سيواجهها ، ولكنهتحمل ذلك استجابة للمسؤولية الإلهية ، إذ أمره الله بانذار قومه ، وإذ يدعوه ضميره الى القيام بذلك الدور الحضاري الهام ، و حيث نهض ينذر قومه اعتمد الاسلوب الواضح و البليغ ، ايمانا منه بان حقانية الدعوة و حدها لا تكفي بل لابد حتى يستجيب الناس لها ان يكونالانذار بها بينا ، يمتاز به الحق عن الباطل و تقوم الحجة ، وقد أعطى ذلك بصيرة واضحة لمن قد يطلع على عاقبة قومه بأن عدم إستجابتهم لم يكن بسبب الغموض في البيان ، و من ثم فانهم لا يستحقون ما حل بساحتهم من العذاب.

و من تكرار كلمة القوم ثلاث مرات في هاتين الآيتين " الى قومه ، أنذر قومك ، يا قوم " نهتدي الى فكرة مهمة وهي : ان الانسان الفرد مسؤول عن قومه و مجتمعه ، كما أنهم مسؤولون عنه ، و لا يجوز لأحد ان يعيش فردا لا يبالي بغيره ، و ان الفرد قادر على الخروج عن سياق المجتمع الفاسد و تحدي الانحراف ، وأن نوحا بوقفته الرسالية الشجاعة لآية على بطلان حتمية التوافق الاجتماعي.

ثانيا : تشخيص أسس الواقع المنحرف و طرح البدائل الصالحة:

]أن اعبدوا الله و اتقوه و أطيعون[

و بهذه الجملة حدد نوح عليه السلام معالم النظام القائم و النظام البديل معا (ثقافيا و اجتماعيا و سياسيا) فان الآية تهدينا الى البصائر التالية : الأولى : الى انحراف المجتمع (كفرا و شركا و فسادا) و مشكلة الانسان (فردا و مجتمعا) ليست الجهل بالخالق من الاساس ، بل هي في الدرجة الأولى عدم الخضوع لإرادته ، و تلقي القيم من لدنه ، و لقد كان مجتمع النبي نوح (ع) متورطا بالفعل في الوثنية و الشرك بتصريح الآية الكريمة : " و قالوا لا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث و يعوق و نسرا " و ما أكثر ما يؤدي اليه الانحراف المبدئي عن عبادة الله و التوحيد من تعويق لمسيرة الانسان نحو الرقي و التحضر الحقيقي ، ومن ضلال كبير في الحياة و بالذات في جانبها الروحي و الاخلاقي و الثقافي ، مما يجعله عاجزا عن الوصول الى أهدافه و طموحاته الحقيقية التي لا يبلغها أحد الا بعبادة ربه .الثانية : ان المجتمع يومئذ لم يكن ضالا عن المبادىء الأولية و حسب ، بل كان بعيدا عن ربه حتى في التفاصيل العملية لمفردات الحياة ، اذا لم يكن يخشى الله و يتقيه ، و ذلك يعني انفلاته من كل الضوابط ، و إسترساله مع الهوى ، حيث ان ضمانة الالتزام بالقيم الانسانية و الدينية على السواء مرهونة بمدى التقوى عند الفرد و المجتمع.

كما تكشف لنا الكلمة الأخيرة " و أطيعون " عن وجود الفساد في النظام السياسي ومن ثم الاجتماعي ، باعتبار ان النظام السياسي اطار للنظام الاجتماعي و سائر النظم ، و المتدبر موضوعيا فيما ورد عن قوم نوح من آيات القرآن يجد فيها بيانا واضحا لطبيعةالقيادة السياسية و الاجتماعية ، و التي ترمز بدورها الى الانحراف المبدئي و العملي ، فهي لم تكن قائمة على أساس الكفاءة ، إنما على أساس الأموال و الاتباع ، الأمر الذي قسم المجتمع الى طبقتين : الاولى : طبقة المترفين الحاكمين ، و الأخرى : طبقة المعدمين)
الاراذل بتعبير المترفين) ولا ريب ان القيادة في أي مجتمع رمز لقيمه الواقعية ، ومن المعالم الأساسية لمسيرته.

و حيث رأى نوح - عليه السلام - الوضع المتخلف و الفاسد عقد العزم على تغييره ، فجعل خطوته الأولى تشخيص العوامل الاساسية للانحراف باعتباره المصلح و بيانها للناس ، و واضح للمتدبر ، انه لم تخدعه المظاهر و النتائج ، انما توجه الى الجذور الاولية ، لان علاجها هو النهج السليم لعلاج الاعراض و الظواهر التي لا تعدو كونها مجرد نتائج لها ، وهذه من أهم خصائص الحركات الرسالية.

ومع أننا نقرأ في الآية معالم الوضع القائم إلا أن الظاهر منها هو الإشارة الى البدائل الحضارية الثلاثة " اعبدوا الله و اتقوه و أطيعون " مما يؤكد ان التفكير في البدائل من قبل المصلحين لا يقل أهمية عن

التفكير في جذور التخلف ، بل إنه الأهم ،إذ كيف يعرف الناس ان المسيرة تكون الى الامام بعد هدم الواقع إذا لم تكن البدائل مطروحة بوضوح كاف ؟ و لقد جسد نوح (ع) هذه القيمة في حركته فأكد : ان تحكيم القانون الإلهي (بعبادة الله) و الذي لا يتم إلا (بالتقوى) و تطبيق تفاصيل النظام الاجتماعي من جهة ، و الطاعة للقيادة الرسالية من جهة أخرى هو البديل القويم للوضع الفاسد ، ومن ثم السير بالمجتمع نحو الحياة الأفضل.

و نستطيع القول : ان عبادة الله بديل للاصول المنحرفة ، و التقوى بديل للفروع الخاطئة ، و الطاعة للقيادة الرسالية من أجل إصلاح الممارسات اليومية و السلبية ، و بالتعبير القانوني الحديث تمثل عبادة الله الدستور)الخطط الاصولية العامة) و تمثل التقوى القانون (مجموعة القوانين الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و .. و ..) ، و تمثل الطاعــة للقيادة اللوائح (مفردات الأمور و التطورات) و من هنا قال بعض المفسرين :وفي الآية ندب الى أصول الدين الثلاثة : التوحيد المشار اليه بقوله " : اعبدوا الله " و المعاد الذي هو أساس التقوى ، و التصديق بالنبوة المشار اليه بالدعوة الى الطاعة المطلقة (١ (.

وفي قول نوح - عليه السلام " : -و أطيعون " دلالة واضحة و أكيدة على ضرورة بل وجوب أن يطرح القائد المصلح نفسه بديلا للقيادة المنحرفة ، لأنه مادام قادرا على تخليص المجتمع من بليته فهو مسؤول عن النهوض بمهمته و دوره ، وفي الاسلام تفريق بين حبالرئاسة الذي يبغضه الله ، و طموح الإمامة الذي يندب اليه(١) تفسير الميزان عند الآية.

و يفرضه على أهل الكفاءة (١. (

ثالثا : التأكيد على المعطيات:

و هذا من الاصول في كل دعوة ، ان يبين الداعية المعطيات التي تنبثق عن اتباع دعوته ، ولا ينبغي للرساليين الغفلة عن ذلك ، لانه يساهم بصورة ايجابية فعالة في دفع المجتمع للالتزام بالمنهج المطروح ، و خلق ديناميكية التطبيق في نفوس أفراده ، ولعل ذلك من دواعي تفصيل القرآن في التشويق الى الجنة كنتيجة للعمل بالحق و التخويف بالنار كعاقبة لاتباع الباطل ، و بذات المنهج و المنطق حدث نوح قومه:

]يغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم الى أجل مسمى[

و هذان المعطيان أهم ما تحتاجه الأمم و المجتمعات التي تتجه نحو الهلاك و النهاية حضاريا و ماديا ، ذلك ان العذاب الأليم الذي يحل بالاقوام ليس إلا نتيجة للذنوب و الانحرافات التي يتورطون فيها ، فتكون سببا في هلاكهــم ، و الســؤال : لماذا قــال الله : " من ذنوبكم " و ليس ذنوبكم ، مع ان من تفيد التبعيض ؟

لعل ذلك لأمور ثلاثة:

الاول : ان مجرد العبادة و التقوى و الطاعة للرسول لا تجب عن الانسان كل ذنوبه ، لان منها ما هو متعلق بحقوق الناس ، فلا تغفر إلا بإرضائهم و أدائها ، ومنها ما لا يغفر إلا بالعمل الصالح بعد الايمان ، بلى . إن (العبادة و التقوى و الطاعة) تسبب غفران الله لأهم الذنوب ، أي التي تؤدي الى الهلاك ، وهي بعض ذنوب الناس و ليس كلهــا.

(1)لقد مر الكلام في سورة الفرقان بهذا الشأن عند قول الله " و اجعلنا للمتقين إماما " فراجع.

الثاني :أنه تعالى لا يريد أن يعطي أحدا صك الأمان المطلق حتى لا يغتر بايمانه و عمله ، انما يوازن فيه الخوف إذ من الممكن انه لم يغفرها ، و الرجاء بما غفر له ، و يعبر القرآن عن هذه المنهجيــة الإلهية

بصورة أخرى مثل " : لعلكم ترحمون " " لعلكم تتقون " و التي تفيد الترجي لا القطع.

الثالث :وإذا فسرنا الغفران بأنه محو الآثار السلبية للذنب ، فانه يمكننا القول :بأن لبعض الذنوب آثارا واقعية لا تنمحي بمجرد الايمان ، بل يمحو الله ما يترتب عليها من الآثار الأخروية و بعض الآثار الدنيوية السيئة.

و قيـــل المعنى : يغفر لكم ذنوبكم السالفة ، و هي بعض الذنوب التي تضاف اليهم ، فلما كانت ذنوبهم التي يستأنفونها لا يجوز الوعد بغفرانها مطلقا ، لما في ذلك من الاغراء بالقبيح . (١)ولان الأجل الذي ينتظر قوم نوح مترتب على منهجهم الخاطىء في الحياة ، و بالتالي ذنوبهم الفظيعة ، فإن عدو لهم الى المنهج الرسالي سوف يجنبهم الأخطاء ، ومن ثم يؤخر أجلهم الى مدته الطبيعية أو أكثر وهذا من أعظم الاهداف التي ينشدها الأنبياء باعتبارهم يأتونمنقذين.

ومن قوله تعالى : " و يؤخركم الى أجل مسمى " نهتدي الى ان للانسان (فردا أو أمة) أجلين : أجل حتمي و آخر معلق ، فأما الحتمي فهو الأجل الاعتيادي الذي يوافيه كل فرد فـرد عند إنتهاء مدته المقدرة له بالموت بعد ستين سنة ، أو سبعين أو أقل أو أكثر ، وأما المعلق فهو الأجل الذي يكتب للمجتمعات بسبب من الأسباب سلبا بتقصير الأجل المسمى نتيجة الذنوب ، و ايجابا بمده و إطالته نتيجة الاعمال الصالحة جاء في الحديث عن الصادق (ع) في تفسير قوله : " ثم قضى أجلا و أجل(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٣٤.

مسمى عنده ... " قال : " الأجل الذي غير مسمى موقوف ، يقدم منه ما شاء ، و يؤخر منه ما شاء ، و أما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد ان يكون من ليلة القدر .. " (١. (

و عنه - عليه السلام - انه قال : " الأجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه الله و حتمه ، و المسمى هو الذي فيه البداء ، يقدم ما يشاء ، و يؤخر ما يشاء ، و المحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير " (٢. (

و الذي يظهر من الآية الأولى و الرابعة : ان قوم نوح حينما ضلوا و كفروا قدر لهم الهلاك السلبي ، و ثمة التقاء بين الأجلين هو أنهما حينما يأتيان لا يمكن دفعهما بشيء أبدا إلا أن يصلح الناس أمرهم من قبل ان يأتيهم العذاب.

]ان أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون[

و يؤكد الله هذه الحقيقة لان الايمان بها يزرع الخشية في النفس ، و يدفع الانسان الى المزيد من الجد و العزم و استغلال الفرصة.

[7 - 5]تلك كانت رسالة شيخ المرسلين - عليه السلام - التي تصدى لإبلاغها ، و أعمل كل جهده و صبره و حكمته لكي يؤمن قومه بها ، و لكنهم رفضوه و رفضوها إصرارا على اتباع المستكبرين ، وعلى ضلالات الشرك ، بالرغم من أنهم وهم يسيرون الى الهلاك أحوج ما يكونون اليه و اليها.

]قال رب إني دعوت قومي ليلا و نهارا[

و هذه من صفات المجاهدين الرساليين انهم لا يعرفون وقتا مخصوصا يحصرون فيه(١) (٢) موسوعة بحار الانوار / ج ٥ - ص ١٣٩.

دعوتهم و جهادهم ، إنما يسخرون كل طاقاتهم ، و يصرفون كل أوقاتهم من أجل رسالتهم و أهدافهـم ، يدفعهم الى ذلك أمران مهمان : أحدهما : الرغبة في ثواب الله و خشية عقابه ، و الآخر : إحساسهم بعظمة أهدافهم و تطلعاتهم ، وأن بلوغها لا يمكن إلا بالجد و الاجتهاد والمزيد من السعي ، إذ الاهداف كبيرة و الامكانات محدودة ، فلابد من سد النقص الكمي في العدد و العدة بالكيف ، الأمر الذي لا يجعل حتى ليلهم - كما يتصور البعض - وقت راحة و إستراخاء ، فإنهم ان لم يشتغلوا فيه بدعوة الناس و الأدوار الاجتماعية المباشرة ، فسيجعلونه فرصة للتفكير في شأن رسالتهم و مسؤولياتهم ، و الاتصال بربهم

تعرضا لنفحاته و مرضاته ، و تلقيا لإرادة العمل الدؤوب في سبيله ، و تزودا بالايمان و روح التسليم.

و لكن جهود نوح ما كانت تنفع قومه لأن بينهم و بين دعوته حجبا سميكة من الاصرار و التحدي الأعمى للحق ، بل كانت تزيدهم فرارا منه ، و بعدا عن الحق ، و هذه من خصائص الصراع بين الحق و الباطل ، انه كلما صعدت جبهة الحق من تحركها و نضالها ازدادت جبهة الباطلفي عنجهيتها و عنادها.

]فلم يزدهم دعآءى إلا فرارا[

و قد احتار المفسرون بسؤالهم : كيف يعقل ان تكون دعوة نوح سببا لفرار قومه من الحق ؟ إلا أن المسألة طبيعية وقد أكدنا في مواضع من تفسيرنا على القول بأن في داخل الانسان ضميرا يدعوه الى الحق (فطرته و نفسه اللوامة و عقله (و حينما يعقد الكفار عزمهم علىرفض الايمان فإنهم يواجهون حربا نفسية باطنية مع الضمير ، مما يدعوهم لتحدي عقولهم و وجدانهم ، و من جملة وسائل التحدي للحق التهرب من مجالس الدعوة و الدعاة ، و ذلك لإقناع النفس بعزة الإثم ، وفي عالم السياسة لا يخفى على المراقب ان وجود الحركات الرسالية فيمجتمع ما تؤثر على النظام القائم بصورة معاكسة ، حيث يقوم بالمزيد من القمع و الظلم ، وقد سمى دعوته بالدعاء لأنها في حقيقتها طلب لنجاتهم من العذاب الاليم.

]و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم[

و بالتالي يتأخر عنهم العذاب الأليم ، و الأجل المعلق.

]جعلوا أصابعهم في آذانهم[

كناية عن الحجب التي تمنعهم عن سماع الدعوة و الاستجابة لها ، و ربما كان بعضهم يضعها بالفعل.

]و استغشوا ثيابهم[

أي استتروا بها فهي حجاب كالغشاء تمنعهم من الاتصال بالدعوة ، بل حتى من مجرد النظر الى الداعية ، و الى جانب هذه الحجب الظاهرة ، هناك حجب باطنة تغشى قلوبهم أهمها : الاصرار على الباطل ، و الضلال ، و الاستكبار عن التسليم للحق.

]و أصروا و استكبروا استكبارا[

و المفعول المطلق "استكبارا " يفيد التأكيد و التهويل . أي استكبروا أيما استكبار فاحش ، تحدوا به الحق رمزا و قيما ، و هذا تمهيد لتبرير الحكم الإلهي بعذابهم تبريرا موضوعيا ، فان من يعرف مدى تودد نوح لهم و تلطفه بهم من جهة ، و مدى عنادهم وجحودهم من جهة أخرى لا يستبعد العذاب عن ساحتهم ، ولا يشك في عدالة الله . و في الدر المنثور عن قتادة قال : بلغني أنه كان يذهب الرجل بإبنه الى نوح فيقول لإبنه : احذر هذا لا يغرنك ، فان أبي قد ذهب بي و أنا مثلك فحذرني كما حذرتك (١) ومن ظاهر الأخبار أنه -عليه السلام - عاصر ثلاثة أجيال ، كلها كانت لا تؤمن به إلا قليل منهم . لان معدل الأعمار يومئذ كان ثلاثمائة سنة تقريبا . قال الصادق (ع) : " كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة " (٢. (

[12 - 8]و أمام الموقف الصلف الذي اتخذه قوم نوح (ع) ضده و ضد رسالته لم يجعل خياره الهزيمة و التراجع ، ولا التوافق و المداهنة ، إنما أصر بعزيمة الايمان على المضي قدما نحو الهدف ، و أداء الرسالة بأكمل وجه ، فهو متيقن من الحق الذي بين يديه ، ولا يساوره أدنى شك فيه ، فالاهداف و القيم بالنسبة اليه ثوابت لا تقبل التبديل او التحويل ، وهذه من أهم خصائص الخط الرسالي الأصيل . ولذلك عمد شيخ المرسلين الى تغيير اسلوبه.

]ثم إني دعوتهم جهارا[

أي صارح قومه بأمره ، فبدل أن يطرح أهدافه و قيمه لمن يتصل بهم بصورة غير مباشرة ، خشية ردات

الفعل ، او خشية عدم استيعابها جاهرهم بها.

]ثم إني أعلنت لهم و أسررت لهم أسرارا[

ومن الآيتين يتضح لمن يدرس تاريخ الحركة الرسالية في عصر نوح (ع) انها كانت تنتقل بين الحين و الآخر من اسلوب الى غيره تبعا لمقتضيات الظروف ، وهذه مسيرة طبيعية عند الحركات الرسالية و بالخصوص تلك التي يمتد عمرها أجيال و تعاصر تطورات كثيرة ، فليست إذن العلنية صحيحة على طول الخط ، كما ان

(1)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٨.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ١١ - ص ٢٨٩.

التقية ليست اسلوبا ثابتا الى الأبد ؛ لان الحركة الرسالية حركة واقعية ، فقد لا تعلن الدعوة لان الظروف السياسية و الاجتماعية و التربوية لا تسمح بذلك.

وقد احتار المفسرون في التفريق بين الجهار و الاعلان ، و الذي يبدو : ان الجهار يعني التصريح الواضح و المباشر بافكار الدعوة و قيمها للناس ، و قد تكون هذه العملية محدودة فيمن يتصل بهم الرساليون اتصالا خاصا ، فالقيم الرسالية كالتغيير الجذري و الكفاح المسلح أمر صعب و مستصعب لا يحتمله الناس من البداية مما يضطر الداعية الرسالي الى الارتقاء بهم نفسيا و فكريا حتى يتسنى له مجاهرتهم ببعض الأمور ، فليس صحيح مثلا ان يفهم الفرد انه في تنظيم ثوري رسالي من أول لقاء بل لابد من ايصاله الى هذه الحقيقة شيئا فشيئالكي يمكن مصارحته بها و استيعابه لها . أو أن الجهر مرحلة بين الكتمان و الاعلان فليست سرية مائة في المائة ولا العكس ، أما الاعلان فهو أشبه ما يكون بـــالاعلام - حسب المصطلح الحديث - أي الطرح الجماهيري السافر للدعوة الرسالية ، و قوله في الأخير : "و أسررت " يدلنا على ان هذه المراحل و التكتيكات ليست ذات مراتب حتمية (اسرار ، ثم اجهار ، ثم اعلان (كلا .. وإنما هي معطيات يمليها الواقع ، فقد ينتقل العمل الرسالي من الاعلان الى الكتمان الشديد مباشرة لسبب من الاسباب.

و مع هذه التغيرات الظاهرية تبقى الاستراتيجيات المحورية واحدة و ثابتة ؛ إنها دعوة الناس الى العودة الى الله ، و الترغيب في معطيات الايمان ، و اتباع الرسالة ، و التحريض على نبذ الانداد الموهومين من دونه عز وجل.

]فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا[

أي دعاهم الى الاستغفار ، و طمأنهم بأن الغفران صفة الله الرحمن ، ولا ريب ان المعنى من الاستغفار ليس مجرد القول : استغفر الله ، انما هو الندم على الخطايا في النفس ، و الرجوع منها بالقول و العمل ، و اللجوء الى الله استجارة به منها و من عواقبها ، و بتعبير آخر : ان الاستغفار برنامج متكامل و هذا ما تفصح عنه المعطيات التي يأتي بها.

]يرسل السماء عليكم مدرارا[

أي مطرا كثيرا متواصلا ، تدره السماء كما يدر ضرع البقر الحليب ، وقد قدم القرآن ذكر الماء لأنه عصب الحياة و الحضارة.

]و يمددكم بأموال و بنين[

يعني ان الاستغفار يتسبب في النمو اقتصاديا و بشريا ، و قيل : انهم كانوا قد قحطوا ، و أسنتوا (اجدبوا) و هلكت أموالهم و أولادهم (قبيل العذاب الاليم) و لذلك رغبهم في رد ذلك بالاستغفار مع الايمان و

الرجوع الى الله (1)و الى ذلك ذهب أكثر المفسرين ،و نهتدي من هذا السياق الى ان الايمان و الاستغفار ليس من شؤون الآخرة و حسب بل هو متصل ايضا بحياة الانسان في الدنيا . و عن قتادة قال : رأى نوح (ع) قوما تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا ، فقال : هلموا الى طاعة الله فان فيها درك الدنيا و الآخـرة (٢ (و الـى ذات الحقيقة أشـار الامام علي (ع) في خطبـة الاستسقاء حيث قال " : وقـد جعـل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق ، و رحمة الخلـق فقـال سبحانه : " الآية " (٣. (

]و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهارا[

(1)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦١.

(2)الدر المنثور / ج ٦ - ص ٢٦٨.

(3)نهج البلاغة / خطبة ١٣٤.

تستوعب المياه و تقلها للشاربين إنسا و حيوانات ، و سقاءا للجنات و الاشجار و المزارع ، و ثابت علميا و عمليا ان وجود الانهار من العوامل الحضارية الاساسية ، لانه سبب الزراعة التي هي بدورها من مظاهر الحضارات و مقوماتها ، و الجنات و الانهار يشبع كلاهماحاجات مادية و معنوية عند الانسان . ولا ريب ان الجعل هنا لا يتم عن طريق المعجزة بحيث تتنزل الجنات من السماء باشجارها و أثمارها او تزداد الأموال و الأولاد بعوامل غيبية مجردة ، انما تحدث البركة و تكون الحضارة بعاملين (سعي الانسان الذي قمته و رمزه الاستغفار + بركة الله و فضله) و نحن يجب ان نقرأ في ثنايا دعوة نوح - عليه السلام - حينما قال " استغفروا ربكم " كل عوامل التقدم و الترقي من سعي و اتقان و جد .. أوليس الاستغفار غاية سعي الانسان نحو الفضيلة و الكرامة ؟! أوليس يعني تجنب الأخطاء ، والسير على المنهج القويم ؟ و كما ان الاستغفار يجلب الخير و التقدم للأمم فان الذنوب تسلبهما ، و تصير بها الى الشر و التخلف ، و يبدو من سياق الآيات ومن الاحاديث : ان قوم نوح اصيبوا بنقص في الأموال و الأنفس و الثمرات . بل انضب ماؤهم ، فجاءت دعوة النبي نوح- عليه السلام - بهدف اصلاح مسيرتهم و انتشالهم من حضيض هذه المشاكل الى افاق البركة و الرفاه ، قال العلامة الطباطبائي معلقا على هذا السياق : أي ان هناك ارتباطا بين صلاح المجتمع الانساني و فساده و بين الاوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الانسانية ،و طيب عيشه و نكده (1)و الى ذلك أشار الفخر الرازي مستدلا بقول الله : " ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس " (٢) و بقوله تعالى : " ومـا أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير " (٣. (

(1)الميزان / ج ٢٠ - ص ٣٠.

(2)الروم / ٤١.

(3)الشورى / ٣٠.

[14 - 13]و يخاطب نوح قومه بلغة الوجدان ، مذكرا بنعم الله و آياته لعلهم يعودون الى فطرتهم ، فيعبدون الله و يتقونه ، و يطيعونه بدل الطاعة للمترفين.

]مالكم لا ترجون لله وقارا[

قـال ابـن عبـاس : الوقار هو الثبات ، من وقر إذا ثبت و استقر ، و منه قوله : " وقرن في بيوتكن " فوقاره تعالى ثبوته و استقراره في الربوبية ، المستتبع لإلوهيته و معبوديته (١) و قيل : المعنى مالكم لا توحدون الله تعالى ؛ لان من عظمه فقد وحده ، و عن الحسن : مالكم لا تعرفون لله حقا ، و لا تشكرون له نعمة (٢) وقد ذهب أكثر المفسرين الى القول بالعظمة ، و يبـدو أننا نهتدي الى معنى الآية لو

قارنـاهــا بقول الله : " وما قدروا الله حق قدره (3) "فان توقير الله بحق هو معرفة قدره بمعرفةأسمائه و صفاته الحسنى ، و العيش في الحياة على ضوء هذه المعرفة ، و ذلك لا يمكن إلا بعبادته و تقواه و اتباع رسله و رسالاته.

و تكشف لنا الآية عن مدى الضلال المتورط فيه أولئك القوم ، و نستوحي ذلك من كلمة " لا ترجون " إذ تبين انهم ليس لا يوقرون في أنفسهم ربهم و حسب ، بل لا يرجون ان يوقره الآخرون ، ولا أن يأتي يوم يوقرونه في أنفسهم ، فليس ثمة ولا بصيص نور في فكرهم يمكن ان يوقروا ربهم به في المستقبل.

ثم يذكر نوح بعض الآيات و النعم الإلهية الهادية الى الايمان بالله و التسليم ، و من ثم توقيره لو ان الانسان توجه اليها و أراد شكرها ، و أولها خلق الانسان و نظام خلقته.

(1)تفسير البصائر / ج ٤٩ - ص ٢٠١.

(2)راجع المصدر فقد اورد (١٥) رأيا في الاية.

(3)الانعام / ٩١.

]وقد خلقكم أطوارا[

و لهذه الكلمة معان من بينها:

- 1المـراحل التـي يمر بها الانسان في خلقه ، حيث يبدأ نطفة ثم علقة ثم مضغة ... و هكذا ، حتى يصير شيخا كبيرا ، و ان خضوع البشر الحتمي لهذه الاطوار دليل أكيد على انه لا يملك أمر نفسه في كل شيء ؛ انما حياته محكومة بالقانون و النظام ، الذي يهديه العالمقنن و المنظم ، كما يدله على الحساب و الجزاء ، حيث ان الاخراج من الارض كما اطوار الخلق حقيقة لا يمكن لأحد ان يرفضها او يدعي القدرة على مقاومتها.

- 2التنوع البشري الذي يؤدي الى التكامل ، فقد خلق الله الناس مختلفين في مواهبهم و قدراتهم و توجهاتهم ، مما يكامل مسيرتهم في الحياة ، فلم يخلقهم كلهم أمراء ولا أطباء . وذلك من عظيم نعم الله ، وإلا أصبحت الحياة قسرية ، و ذات لون واحد مما يؤدي الى فشلها قال تعالى : " و رفعنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضكم بعضا سخريا " (١) (سخريا : اي سخرة) ، و ثابت بالتجربة ان النظريات القسرية نظريات خاطئة فاشلة ، فقد خطط ماوتسي تونغ و سعى لجعل المجتمع الصيني على نمط واحد ، و غفل عن ان المجتمع بحاجةالى التنوع لكي يتقدم و يتطور ، و لذلك وجدنا كيف ان من خلفه خطأه و خطط للتغيير . قال الامام الباقر (ع) في معنى الاطوار : " و قد خلقكم على اختلاف الاهواء و الإرادات و المشيئات " (٢. (

[20 - 15]و ينطلق السياق بنا يعرفنا ببعض نعم الله و مننه علينا في الآفاق ،(١) الزخرف / ٣٢.

(2)تفسير القمي / ج ٢ - ص ٣٨٧.

و ذلك ليطمئن الانسان بانه مهما جال ببصره و فتش في الوجود فإنها تهديه آيات الخلق الى ربه ، حيث آثار قدرته و حكمته و رحمته مطبوعة على كل جزء جزء فيه.

]ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا[

انها سبع سماوات و لكنك لا تجد فيها فطورا و لا تناقضا ، انما هي منسجمة يكمل بعضها بعضا ، كما الاطوار في الخلق و الناس ، و الآية تهدينا الى ان من بين المقصود بالسماوات السبع تلك التي تظل

الاقاليم السبعة و ذلك بدلاليتين ، الأولى : انه قال : " ألم تر " مما يعني ان المقصود مما يراه الانسان و يشاهده وذلك لا يمكن لو قصدت السماوات التي تنقل بينها النبي)ص) في رحلة المعراج لأنها طبق فوق آخر وليس ظاهرا منها سوى الأولى.

و الثانية : ان التعبير في الآية اللاحقة جعل القمر نورا فيها كلها ، بينما أطلق سراجية الشمس ، لان دور القمر محدود في آفاق الارض فقط ، بينما دور الشمس يشمل كواكب و آفاقا أخرى فكلمة " فيهن " إذن إشارة الى سماوات الاقاليم و ليست السماوات التي بعضها فوق بعض حسب الظاهر ، إذ القمر في واحدة منهن و ليس فيهن جميعا.

]و جعل القمر فيهن نورا و جعل الشمس سراجا[

و بهذه الآية كشف القرآن للبشرية جانبا من أسرار الكون في وقت ما كانت تحلم بالتطلع الى معرفة طبيعة الأرض فكيف بالأجرام التي حولها كالقمر و الشمس ؟ ان القمر يختلف عن الشمس في خلقته و دوره ، فبينما خلقت من كتل النيران حتى توفر الطاقة الحرارية ، و الإضاءة فيها ذاتية ، نجد القمر كالمرآة التي تعكس أشعة الضوء الساقطة من الشمس ، وكما أنه تعالى لم يترك الأرض و السماء تكوينيا مظلمتين من دون نور و سراج ، كذلك لن يدع المجتمع البشري من دون امام و نهج يهتدى بضوئه ، فلا غرابة إذن ان نجد بعض الروايات تأول القمر و الشمس في أئمة الهدى - عليهم السلام - و كل امام حق .. قال ابوذر -عليه السلام - : " ان أهل بيت النبوة فينا كالقمر الساري " (١. (

]و الله أنبتكم من الارض نباتا[

قال شيخ الطائفة ابو جعفر الطوسي : فالانبات اخراج النبات من الارض حالا بعد حال ، و النبات هو الخارج بالنوى حالا بعد حال ، و التقدير في " أنبتكم نباتا " اي فنبتم نباتا ، لأن " أنبت " يدل على نبت من جهة انه متضمن له (2)و علق صاحب المجمع فقال : يعني مبدأ خلق آدم ، و آدم من الارض و الناس ولده ، و هذا كقوله : " و بث منها رجالا كثيرا و نساءا " و قيل : أنبت جميع الخلق باغتذاء ما تنبته الأرض ، و قيل معناه : أنبتكم من الأرض بالكبر بعد الصغر ، و بالطول بعد القصر (٣. (

فالانسان إذن ابن الارض ، لا فرق بين آدم وبين كل فرد فرد من أبنائه ، فمع أنه - عليه السلام - خلق مباشرة من التراب إلا أننا عند التحليل العلمي الواقعي نهتدي الى ان كل ذرات الجسم أصلها الارض.

]ثم يعيدكم فيها[

كما أنبتكم منها حيث يذوب البدن بالموت و تتحلل أعضاؤه في التراب.

(1)البرهان / ج ٤ - ص ٢٧٠.

(2)التبيان / ج ١٠ - ص ١٣٨.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٣.

]و يخرجكم إخراجا[

بالبعث و النشور ، و إننا نعرف بان هناك تشابها بين الانسان و النبات في أطواره ، حتى في الاخراج من الارض التي تصير يوم البعث كما رحم الأم يمطرها الله أربعين صباحا ، فاذا بك ترى الارض تنشق عن الناس سراعا.

]و الله جعل لكم الارض بساطا[

نفترشها و نمشي على ظهرها ، و الجعل يعني التمهيد الذي تم بلطف الله و رحمته من خلال القوانين الطبيعية ، و خلق الارض بالكيفية التي تجعل الحياة عليها ممكنة و ميسرة.

]لتسلكوا منها سبلا فجاجا[

اي طرقا كثيرة واسعة ، و قيل : طرقا مختلفة ، و الفج المسلك بين الجبلين (١) و هذه الآية تأكيد على أنه تعالى بسط الارض لنا ، إذ لو لم يبسطها ما كنا نجد لنا طرقا للمشي فيها و التنقل بين بقعها المختلفة ، ومن الآيات الإلهية انه لا توجد بقعة إلا و فيها سبلا يستطيع البشر ان يسلكها ، و قوله " : سبلا " بالجمع يهدي الى الكثرة و التنوع في نفس الوقت ، فبسط الله للارض يعم اليابسة و الماء و الهواء.

وإذا قلنا : ان الفجاج هي الطرق بين الجبال فانه ثابت عمليا بأن أغلب الطرق البرية بين البلدان تمر من خلال السلاسل الجبلية ، و ذكر الله للطرق التي بين الجبال بالذات لأنها أظهر آية و دلالة من التي في السهوب و الصحاري.

[21]و هكذا ذكرنا سبحانه بتلك النعم لعلنا نعرف عظيم منه علينا فلا نعبد(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ١٣٧.

سواه ، و تذكير نوح - عليه السلام - لقومه بمنائح الله و نعمه يأتي في سياق استثارة عقولهم و ضمائرهم التي حجبها الضلال لعلهم يتذكرون الحق و يتبعونه و يعرفون ان تلك النعم من عند الله رب العالمين ، و أنها تدعو الانسان الى التسليم بالحق قيما و قيادة ، و بعبارة أخرى : تفرض القيم الاساسية التي تتضمنها رسالات الانبياء على البشر (عبادة الله و تقواه و الطاعة للقيادة الرسالية) إلا أن قوم نوح بلغوا من الانحراف عن الحق و الجحود ما لا تنفع معهم الموعظة.

]قال نوح رب إنهم عصوني[

و هذا لوحده ذنب عظيم ان يرفض الانسان التسليم لقيادة الحق ، و لان احدا لا يستطيع ان يعيش فراغا قياديا فإنهم اتبعوا قيادات الباطل و الضلال.

]و اتبعوا من لم يزده ماله و ولده إلا خسارا[

و نستوحي من الآية : انهم كانت تحكمهم طبقة الاغنياء المترفين ، ومن الطبيعي ان يقف هؤلاء ضد دعوة الانبياء و القيادات الرسالية و طرحهم القيادي لانهم حريصون على رئاسة المجتمعات و السيطرة على افرادها و خيراتها و مقدراتها ، قال العلامة الطبرسي : اي اتبعوا اغنياء قومهم اغترارا بما آتاهم الله من المال ، فقالوا : لو كان هذا رسولا لكان له ثروة و غنى ، و قيل : اتبع الفقراء السفلة الرؤساء الذين لم يزدهم كثرة المال و الاولاد إلا هلاكا في الدنيا ، و عقوبة في الآخرة (١) و ذلك مما يدلنا الى مدى ارتكاسهم فيالمادية و الشيئية ، إذ اعتبروا الاموال و الاولاد مقياسا لاختيار القائد و ليس الحق ، و هنا نصل الى فكرة هامة و هي : ان الخطأ الفظيع الذي وقع فيه قوم نوح (ع) انهم لم يسلكوا السبيل القويم في الحياة مما أدى(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ١٣٧.

بهم الى الخسران العظيم ، مع انه تعالى فرض على الانسان ان يختار طريقه تشريعيا و في الحياة المعنوية و الاجتماعية كما يختار طريقه بين فجاج الارض و مناكبها.

وقد أكد نوح ذنب معصيتهم له بالذات ، فلم يقل مثلا : انهم لم يعبدوا الله أولم يتقوه لان معصية القيادة الإلهية في الواقع معصية لله و عنوان كل انحراف و فساد ، و انما لم يعبدوا ربهم ولم يتقوه لانهم لا يريدون الطاعة للرسول و اتباعه ، بل ان العصيان هنا شامل لعدم استجابتهم للاهداف الثلاثة كلها) عبادة الله و تقواه و اتباع القيادة الرسالية) لانه هنا يعني رفض الدعوة و الداعية كلا و تفصيلا.

و السؤال لماذا يتبع الانسان المترفين ؟ و نجيب : لانه ينبهر بالمال او القدرة فيلهث وراء من يملكهما ، لعله يحصل على بعض الفتات من الخبز ، او تصيبه عزة من عزته ، و لكن الأمر على العكس من ذلك بالضبط إذ المجتمع الذي تشيع فيه هذه الثقافة سوف يصبح فريسةميسرة للمترفين ، فيمتصون جهوده و يستغلونه استغلالا بشعا ، ولو أننا حققنا في ظاهرة تسلط المستكبرين من أصحاب الثروة و القدرة على المجتمعات و الشعوب المستضعفة لوجدناها متأسسة على هزيمة المحكوم نفسيا أمامهم ، ولا يزيد المستضعفين ذلك إلا خسارة ، لانه كلمازاد الانبهار زاد المستكبر استكبارا ، و استغلالا لجهود المستضعفين ، و قمعا لتطلعاتهم المشروعة ، و طبيعي ان من لا يسخر المال من أجـل مصالحه الحقيقية سوف يزداد خسارة كلما ازداد مـالا ، و من هنا قال ربنا سبحانه : " من لم يزده ماله و ولده إلا خسارا "لان المعنى هنا شامل لخسارة الطرفين التابع و المتبوع ، بينما قد لا يشملهما لو جاء التعبير بما هو مفترض (لم يزدهم) ذلك أنه إذا خسر المتبوع فستنجر الخسارة نفسها على التابع الذي يلحق به في كل شيء.

[22]في قلب الانسان عقل يتوهج بقيم الصدق و الصلاح ، و وجدان يقظ يحاكم صاحبه عند كل انحراف ، وفي المجتمع الانساني عرف عام يلاحق المجرم باللائمة و اللعنة .. كل ذلك يدعو المجرم الى صنع ثقافة تبريرية للتهرب من وخز الضمير و محاكمة الفطرة كما يدعوه المقاومة المصلحين و اسكات أصواتهم المعارضة ، لعلهم ينجون من لومهم و إدانتهم ولعل هذا هو السبب في ان الانسان كلما ازداد اجراما كلما ازداد مكرا و كيدا لانه تزداد حاجته الى الفرار من لوم ذاته و إدانة العرف العام.

]و مكروا مكرا كبارا[

بنسبة عصيانهم و ضلالهم ، و هذا ما يفسر مدى اهتمام المستكبرين و أذنابهم في هذا العصر الذي تزداد فيه الجريمة ، و يطغى فيه المستكبرون باجهزة الاعلام و وسائله ، حتى تكاد الميزانية الإعلامية تضاهي أحيانا الميزانية العسكرية.

[26 - 23]ومن عظيم مكرهم تواصيهم بالباطل و تضليلهم لبعضهم ، ابقاء على الانحراف و إصرارا على الضلال.

]و قالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث و يعوق و نسرا [و قد اختلف المفسرون في هذه الأسماء ، و أقرب الآراء : انها ترمز الى رجال عظماء من أبناء آدم ، أوحى إبليس الى تابعيهم باتخاذ تماثيل لهم ، ثم أمرهم بعبادتهم ، و بهذا وردت بعض النصوص.

و قولهم : " لا تذرن " حتى نهاية الآية (٢٣) مما لاكته ألسن المترفين الذين أحسوا بخطر الرسالة على زعامتهم و مصالحهم ، وهم لا يدعون الناس للتمسك بتلك الاصنام ايمانا بها إنما لأنها رمز للثقافة التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع ، كما تنفخ دعاة العنصرية فيها وفي رموزها لمواجهة الحركات التحررية.

]وقد أضلوا كثيرا[

بهذه الدعوات الباطلة ، حيث وجدوا بين الناس من اتبعهم بسبب الجهل او انسياقا وراء المصلحة الدنيوية.

]ولا تزد الظالمين إلا ضلالا[

قيل :ان الضمير في " تزد " راجع الى الاصنام ، فالمعنى انها لا تزيد الظالمين باتباعها إلا ضلالا ، و قيل : ان الجملة استئنافية ، و هي دعوة من نوح على قومه بأن لا يزيدهـم الله إلا ضلالا ، و هي دعوة عليهم بكل شر مستطير ، أوليس الضلال أصل كلشر ، وقد استجاب الله دعاء نبيه الذي أيقن بأن الحياة لا تصلح لهم ، و ان الموت أولى لهم ، و كذلك أوحى اليه ربه : " أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " (١) فاهلكهم غرقا بالطوفان ، و هنا يلفتنا السياق الى حقيقة أساسية ، وهي ان سنة الجزاء مرهونة بالانســان نفسه ، فهي تجري في سياق العدالة الإلهية ، و ان كانت مظهرا لقدرة الله ايضا ، ولو أننا

فتشنا في الاسباب لهلاك اي قوم لوجدناها أعمالهم و مساعيهم لا غير ، و هذه بالضبط قصة قوم نوح مع الطوفان.

]مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا[

أصابهم الغرق في الدنيا ، و نقلهم الموت الى سوء العذاب في الآخرة ، حيث نار جهنم التي تنتظر كل كافر و مشرك ، وما كان موتهم في لجة الامواج ينجيهم من نيران جهنم في البرزخ ، لان تلك النار تكمن في وجودهم.

]فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا[

(1)هود / ٣٦.

يحجزون عنهم العذاب ، أو يقاومون بهم سلطان الله و مشيئته ، كما يزعم المشركون بعبادتهم الاصنام بشرا أو حجرا أو غيرهما.

]و قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا]و الديار - كما يبدو - هو من يسكن الدور و الديار ، و انها حقا دعوة بعذاب الاستئصال الذي حقت به كلمة الله عليهم ، فما بقي يومئذ أحد إلا من آمن بنوح و ركب السفينة ، و من هنا نهتدي الى ان عذاب الاستئصال يأتي بهدف تطهير الارض من العناصر الفاسدة التي لاتنفع معها النصيحة ، و ان مبرر وجود الانسان هو ما يشتمل عليه من الحق في كيانه فاذا صار خلوا من أي حق فقد مبرر الوجود تشريعيا و تكوينيا مما يؤدي به الى الهلاك ، و هذه الحقيقة تنطبق بصورة أجلى على الانسان (المجتمع) منها على الانسان (الفرد) و من هنانفهم الآية الكريمة : " و لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " (١) و كذلك الروايات التي تقول : " ان الله ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء (2) " لانه لولا وجود المؤمنين من الناس لما بقي مبرر لوجود الآخرين.

[27]ثم يبين شيخ المرسلين الخلفيات و الحيثيات وراء دعوته على قومه ، فهو لم يدع عليهم لأنه مل و تعب من الجهاد في سبيل الله ، ولا لأنه يحمل العداء الشخصي ضدهم لما لقيه من الأذى و المعاناة على أيديهم ، إنما كان منطلقه في ذلك رساليا خالصا لوجه ربه.

]إنك إن تذرهم يضلوا عبادك[

الموجودين ، فيزيدون الضالين ضلالة ، و يؤثرون على من آمن ليعود كافرا(١) البقرة / ٢٥١.

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٦٧ - ص ١٤٣ عن أبي جعفر (ع. (

مشركا مثلهم ، وفي هذه الآية يجب ان نقرأ مدى الضغط الذي يواجهه المؤمنون حينما يستقلون برأيهم و مسيرتهم عن مجتمع الضلال و الفساد .. انه يبلغ حدا يخشى عليهم من الانحراف بسببه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر أنه لا يرتجى خيرا ولا مستقبلا سليما للاجيال التيتنسل منهم ، باعتبارهم قد أحكموا أساليبهم التربوية السيئة التي من شأنها بناء شخصية الاولاد على اساس الباطل و العداء للقيادة الرسالية و لخط المؤمنين.

]ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا[

بالوراثة و بالتربية ، و الفاجر هو من لا يقف عند حد شرع أو عرف ، ولا يقيم وزنا لقيمة لا في نفسه ولا في المجتمع ، انما يطلق لشهواته العنان ، بينما الكفار صيغة مبالغة من الكفر وهو خلاف الايمان ، و الكفور خلاف الشكر.

ولقد انتهى نوح الى هذه النتيجة بتجربته المرة الطويلة التي عاصر فيها ثلاثة أجيـال على الاقل و خبرهم بتمام المعرفة ، و كذلك بإخبار الله له ، قال الراوي : قلت لأبي جعفر الباقر (ع) : ما كان علم نوح حين دعا على قومه انهم : " لا يلدوا إلا فاجرا كفارا " ؟! قال : " اما سمعت قول الله لنوح " : انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " (١) و قد ذهب اغلب المفسرين الى القول : بان الله تعالى أخرج من أصلابهم كل من يكون مؤمنا ، و أعقم أرحام نسائهم ، و أيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعينسنة (٢. (

و الآية تبيــن بـأن الانسان قد يرحمه الله ليس لذاته بل لآخرين يتعلقون به كالأولاد.

(1)تفسير القمي / ج ٢ عند الآية.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٥.

[28]و ختاما لهذه السورة المتضمنة للحديث عن المعانات الصعبة ، و دعاء شيخ المرسلين على قومه نجد آثار اللطف و حب الخير يجليها لسان نوح عن قلبه الحنون ، و ذلك حتى لا يظن أحد أنه - عليه السلام - يحمل العداء الشخصي ضد قومه بالذات ، فإنه وازن بين الدعاءسلبا ضد الكفار الفاجريــن ، و الدعاء ايجابيا لصالح المؤمنين الصالحين.

]رب اغفر لي[

و هذه قمة العبودية لله و الخشية منه ، فبالرغم من الجهاد الطويل في سبيل الحق الذي امتد طيلة حياته إلا أنه لم يمن على الله بشيء من طاعاته لايمانه بانها ما كانت تكون لولا لطفه و توفيقه ، و ان الخضوع له و الاعتراف بالتقصير تجاهه خير وسيلة للمزيد من القرب منه و السعي في خدمته و إنه حقا درس يحتاجه كل مجاهد في سبيل الله ليقاوم به الغرور و همزات الشيطان ، و بالذات اولئك الذين يتطاول بهم العمر في خدمة الرسالة.

و لكنه باخلاق النبوة التي تدعوه للخروج من قوقعة الذات ، و التفكير في نجاة الآخرين بمقدار التفكير في نجاة نفسه ، لم ينس غيره بالرغم من ان ساعة دعائه كانت صعبة حرجة ، سواء قلنا بأنه دعا ربه قبل الطوفان أو أثنائه أو بعده .. فهذا هو يلتفت لأولي الفضلعليه (أبوه و أمه) و لشركاء الصف و المسيرة (المؤمنين) لا فرق عنده بين من عاصروه و بين من سبقوه أو يأتون بعده ، و يلتفت مرة مؤكدا براءته من الظلم و الظالمين ، كما أكد بسابقتها ولاءه للحق و أهله.

]و لوالدي[

إذ لهما الفضل فطريا و تربويا في وجوده و بناء شخصيته ، و هكذا نتعلم درس الوفاء لأول معلم يلتقيه الانسان في الحياة ، إنه لم ينس عناء والديه ، حيث حملته أمه وهنا على وهن ، ثم سهرت ليلها و تعبت نهارها من أجل راحته ، وحيث أجهد أبوه نفسه في طلب المعاشله و أكله و شربه و كسوته ، وفوق ذلك كله ما تلقاه من تربية طيبة على الايمان و حب الله.

]و لمن دخل بيتي مؤمنا[

يعني المؤمنين الذين انتموا الى خطه و مسيرته ممن عاصروه.

]و للمؤمنين و المؤمنات[

في كل زمان و مكان لانهم و ان اختلفت الظروف و الأزمنة إخوته الذين تجمعه بهم وحدة الهدف و الخط و المسيرة.

]ولا تزد الظالمين إلا تبارا[

أي هلاكا و عذابا و ضلالا ، و هذه الجملة تأكيد للبراءة من الباطل قيما و أناسا في مقابل تأكيد الولاء للانتماء للحق الآنف.

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من أكثر قراءة " قل أوحي إلي " لم يصبه في الحياة الدنيا من أعين الجن ولا نفثهم ولا سحرهم ولا من كيدهم ، و كان مع محمد - صلى الله عليه وآله - فيقول : يا رب لا أريدبه بدلا ، ولا أبغي عنه حولا"

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٣٠

الإطار العام

ان التخرصات بوجود قوى غيبية قاهرة تؤثر في مجريات الحياة من الافكار التي لا تكاد تخلو منها ثقافة من الثقافات البدائية ، وهي عامل رئيس في الشرك بالله و عبادة الاصنام و الأوثان ، فالذي يعبد شجرة فانما لظنه بأن فيها حلولا من عالم الغيب ، و الذي يعبدالحجر لا يعبده بذاته وإنما يعبد الروح التي يزعم أنها تحوم حوله.

و الجن من بين تلك الارواح التي أثير ولا يزال حولها الكثير من الجدل الى حد الخرافة و الخيال المبالغ ، فقد زعم البعض أنها أرواح خلقت ذاتيا من غير خالق ، و قال آخرون انها تقوم بدور الخير و الشر في الحياة ، وعلى هذا الاساس ارتأوا ضرورة إرضائها فاشركوابها..

وقد أفرز الوحي الالهي الخرافة عن الواقع ، فبين الحق ، و نسف الثقافات الباطلة حول الجن ، كما كشف في هذه السورة التي سميت بإسمهم عن جوانب من حضارتهم اعتمادا على علم الله المحيط بكل شيء ، و ليس على الظنون و التخرصات ، و تحدثنا آياته بلسانهم : (الآيات ١ - ١٤. (

و الذي يدقق النظر في آيات هذه السورة يهتدي الى وجوه تشابه أساسية بين حضارتهم و حضارة البشر :

/ 1فهم مخلوقون مكلفون من قبل الله بالاذعان للحق ، و اتباع رسالته المتمثلة في القرآن.

/ 2وإن واقعهم الاجتماعي و السياسي يشبه الى حد بعيد واقع المجتمع البشري ، ففيهم الزعماء الذين يتسلطون على المجتمع و يشطون طغيانا وسفها .. كطواغيت الناس و حكامهم الفاسدين.

/ 3كما أنهم يقعون في ذات الأخطاء التي يتورط فيها ضلال الناس كالشرك بالله عز وجل.

/ 4و بالتالي فان فيهم الصالحين و دون ذلك و المسلمين و القاسطين كما هو حال البشر.

و في البين يشير القرآن الى ان الالتقاء بين حضارتي الإنس و الجن القائم على الشرك بالله و زيادة الانحراف و الرهق فانه منبوذ و محرم في شرع الله .. و منه استعاذة السحرة و المشعوذين بالجن ، مما يزيدهم بعدا عن الحق و توغلا في الباطل.

و يفضح الوحي مجموعة التخرصات و الخرافات التي صورت الجن قوى خارقة ، و رفعتهم الى مستوى

الربوبية ، مما دعى بعض جهال الناس لعبادتهم و الشرك بهم ، فيؤكد:

أولا : أنهم لا يحوزون على العلم الحق المطلق ، فلا يصح الاعتماد على ما يلقونه من ثقافتهم و افكارهم في روع من يعوذ بهم ، لان علمهم محدود إذ يجهلون الكثير من الأمور .. و واضح تأكيد القرآن على ان كثيرا من تصوراتهم و ثقافاتهم قائمة على الظن لا على العلم الواقعي القاطع (يلاحظ تكرار كلمة " ظننا " بلسان حال الجن مرات عديدة) ، كما أنهم لا يدرون بمصير من في الارض أريد بهم شرا أم أراد بهم ربهم رشدا . و حيث جاء القرآن كشف لهم عن مدى ضلالتهم و جهلهم بجملة من أهم الأمور و أوضحها .. أعني الايمانبالله و توحيده.

ثانيا : و أنهم ليسوا قوى ذات قدرات خارقة حتى يخشى منهم البشر او يعوذون بهم طمعا في نيل القدرة ، و دليل ذلك اعترافهم أنفسهم بعجزهم عن اختراق الحجب و استراق السمع من الملأ الأعلى ، و عجزهم عن مقاومة إرادة الله ، أو حتى الهرب من حكومته و سلطانه.

و حيث تتمحور السورة حول الحديث عن الجن الذين أشرك بهم ولا يزال بعض الإنس تؤكد الآيات الأخيرة على حقيقة التوحيد ، وأنه تعالى الذي يملك الضرر و الرشد ، وهو أهل الاستعاذة به ، و عالم الغيب لا يشاطره أحد فيه إلا من ارتضى من رسله .. مما يعطي الشرعية لخط الانبياء فقط ، اما الجن و من يتصل بهم - سواء كانوا كهنة و سحرة و منجمين - فلا يجوز إتباعهم أبدا.

إنا سمعنا قرآنا عجبا

بينات من الآيات

[3 - 1]ان علاج القرآن لموضوع الجن ليس ترفا فكريا يهدف اعطاءنا مجرد رؤية عن خلق غريب ، بل هو علاج لمشكلة حقيقية موجودة في ثقافات الناس ، و منعكسة على واقع بعضهم بصورة خطيرة ، حيث الخرافات و الاساطير ، و حيث الشرك بالله عز وجل . و مع ان القرآن كلهموحى به من عند الله الى رسوله إلا ان مطلع هذه السورة المباركة يؤكد بأن الحديث عن الجن و الذي تتضمنه الآيات ليس حديثا من الرسول عن تجربة شخصية حدثت له ، و لا كسائر كلام البشر عن الجن الذي لا يتأسس إلا على الخيال و الظنون ، بل هو حديث لعالم الغيب و الشهادة و اطلع عليه رسوله - صلى الله عليه وآله - عبر الوحي الذي لا ريب فيه.

]قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن[

قال ابن عباس : انطلق رسول الله (ص) في طائفة من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء ، فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا و بين خبر السماء ، و أرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الارض و مغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي (ص) و هو بنخل عامدين الى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له و قالوا : هذا الذي حال بيننا و بين خبر السماء ، فرجعوا الى قومهم و قالوا " :إنا سمعنا قرآنا ... حتى نهاية الآية الثانية " فأوحى الى نبيه - صلى الله عليه وآله - : " الآية الأولى " . ورواه البخاري و مسلم في الصحيح ايضا (١) . قال الزمخشري في النفر : جماعة منهم ما بين الثلاثة و العشرة . (2)

و الاستماع على الأظهر هو مرحلة متقدمة من السماع حيث يعني التركيز و التدقيق فيما يسمع ، ولقد انبهر النفر من الجن باعجاز القرآن و عظمة آياته ، انبهارا قادهم الى التسليم له ، و اكتشاف ما هم فيه من الضلال و الباطل بنور آياته البينات . و هكذا يجلي الاستماع و التدبر عظمة القرآن لقارئه . اما الذي يهذه هذ الشعر ، و ينثره نثر الرمل ، أو يكون همه آخر السورة ، فانه لا يتجاوز الحروف و الكلمات الى المعاني المعجزة ، كما تجاوز اليها اولئك الجن.

]فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا[

و هـذا الاعجاب يشبه الى حد بعيد اعجاب السحرة بمعجزات موسى - عليه السلام -و من ثم ايمانهم به و نبذهم للسحر . و حري بالانسان ان يبحث عما حملهم على ذلك من القرآن ، و ان يعجب إذا عجب

به و ليس بهم.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٣٠.

(2)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٢٣.

ان الجن كما الإنس لديهم ثقافات ، و بينهم دعاة العلم (السفهاء بحد تعبيرهم (و هم يضلونهم دائما عن الحق ، و لكنهم حينما استمعوا للقرآن و انصتوا بدا لهم الفرق واضحا بين رسالة الله التي تحمل العلم و الهدى ، و بين الثقافات الشائعة عندهم و التي لا تنطوي إلا على الجهل و الضلال . ولعل هذه المفارقة من أهم عوامل الإعجاب بالقرآن إذ استمعوا له.

]يهدي الى الرشد [

أي يعرف بالحق ، و يرسم للانسان المنهج السليم الذي يوصله اليه . وإن القرآن ليعلمنا الحق ، و ينمي فينا العقل و الضمير و سائر حوافز الخير ، مما يدفعنا الى تطبيق الحق بالصورة الأكمل ، و أين تجد هذه في غير كتاب الله ؟ هل تجدها في أفكار الفلاسفة الغامضةالتي تحتجب وراء الكلمات الكلية لإخفاء الجهل و التناقض ، أم في ثقافة البدائيين و الشعراء ؟ كلا ... وهذا ما دفع النفر من الجن الى الايمان بالقرآن و نبذ كل الأفكار و الثقافات الأخرى ، فهم وجدوه وحده الذي يهدي الى الرشد.

و مع ان للرشد معنى عاما يتسع لكثير من المفردات ، فالقرآن يهدي الى معرفة الحقائق العلمية ، و السنن الطبيعية ، و الانظمة الحكيمة التي أجراها الله في سائر الحقول الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية .. إلا أن أعظم الرشد الذي يهدي اليه هو التوحيد باعتباره سنام الهدى و قمة الرشد.

وقد أشار بعض من المفسرين الى ذلك ، قال الفخر الرازي : " يهدي الى الرشد " الى الصواب ، و قيل الى التوحيد ، " و لن نشرك بربنا أحدا " اي و لن نعود الى ما كنا عليه من الاشراك به ، وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا مشركين (١. (

و لان الهداية لا تتم بمجرد معرفة الحق بالضمير و العقل ، بل لابد من الشجاعة الكافية لنقد الذات ، و تحدي الواقع المنحرف ، و بالتالي تحمل مسؤولية الصراع ضد كل باطل ، لذلك بادر الجن الى الايمان بالحق من جهة ، و نبذ الباطل بعزيمة الايمان من جهة ثانية.

]فأمنا به[

و الايمان بالقرآن يعني رفضا قاطعا للقوى الاخرى غير الله ، و عزما على المضي قدما في طريق التوحيد أنى كانت التحديات .. وقد فهم النفر من الجن الايمان بهذه الكيفية و عزموا على رفض الانداد المزعومين فقالوا:

]و لن نشرك بربنا أحدا[

و هذا يعني الاستعداد لدخول الصراع ، و الاستقامة على الحق ، و تقديم التضحيات من أجل الايمان و قيمة التوحيد ، و كذلك ينبغي ان يكون كل من يختار الحق ، فالرشد غاية يجب ان يسترخص المؤمنون في سبيلها كل شيء ، كما فعل السحرة (عند مواجهة عصا موسى) إذ ألقوا ساجدين ، و توجهوا الى فرعون بخطاب الرفض و التحدي : " فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا " (٢) ، و قدموا أنفسهم قرابين في طريق ذات الشوكة ، حيث قطع فرعون ايديهم و أرجلهم من خلاف ، و صلبهم في جذوع النخل صبرا.

و نفي الجن القاطع المؤبد بأنهم لن يشركوا ربما يهدينا الى وجود قوى تضغط(١) التفسير الكبير / ج ٣٠

- ص ١٥٤.

(2)طه / ٧٢.

عليهم باتجاه الشرك بالله بما قد يصل الى حد الاكراه ، مثلما اكره فرعون السحرة على السحر ، و كما يكره الطغاة اليوم جنودهم عسكريين و إعلاميين و مخابرات على ممارسة الظلم ضد الشعوب . و لان أعظم الضغوط التي تمارس و أخطرها هو ضغط التضليل عن الحق ، و الايحاءبالشرك من خلال التربية الفاسدة و الاعلام المضلل ، فقد أعلن أولئك النفر المؤمنون أنهم لن يقبلوا التغرير بوجود الشركاء او التشكيك في عظمة الله.

]وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا[

و فكرة الصاحبة و الولد آتية من تصور المخلوق المحدود للخالق العظيم تصورا معتمدا على مقايسته بذاته ، و هذا بالضبط العامل الفكري الرئيس الذي تقوم على أساسه النظريات و الفلسفات البشرية التي خاض اصحابها في الحديث عن ذات الله و صفاته فشبهوه بخلقه سبحانه و تعالى عما يصفون.

ان الجاهل ينكر وجود آفاق متسامية لا يبلغها علمه ، فيريد تشبيه كل شيء بما يعرفه ، فاذا به يتخيل أمورا لا واقع لها ، و يصبح هذا التخيل - بدوره - حاجزا بينه و بين معرفة الحقائق . لذلك ينبغي تسبيح الله و تقديسه عن الشبه ، لان ذلك السبيل الوحيد لمعرفتهسبحانه.

و هنـــاك عامل نفسي للشرك يتمثل في ان المشركين يريدون الزعم بأنهم أبناء الله ، كما قالت اليهود و النصارى " نحن أبناء الله و أحباؤه " .. فلابد من التأكيد على وجود الصاحبة باعتبار الأبناء نتيجة للعلاقة بين الطرفين ، تعالى الله علوا كبيرا.
ولا ريب ان دعاة هذه الفلسفة هم أول من يريد تعريف نفسه إبنا للرب حتى يعطي لنفسه شرعية خضوع الناس و تقديسهم و طاعتهم له او ربط نفسه بإبن الله حتى يخلصها من المسؤولية . مما يعني ان نفي الشرك ليس رفضا لفكرة مجردة ، بل هو رفض لنظام ثقافي و اجتماعي و سياسي ثقيل.

و في كلمة " جد " اختلاف بين المفسرين ، ففي البرهان عن أبي جعفر (ع) قال " : إنما هو شيء قاله الجن بجهالة فحكى الله عنهم " (١) ، وعلى هذه الرواية يكون المعنى هو المتعارف أي الجد أبو الأب و الأم . و قال الرازي : الجد الغنى ، و منهالحديث : " لا ينفع ذا الجد منك الجد " أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، و كذلك الحديث الآخر : " قمت على باب الجنة فاذا عامة من يدخلها الفقراء ، وإذا اصحاب الجد محبوسون " يعني أصحاب الغنى و الدنيا ، فيكون المعنى : وأنه تعالى غني عن الاحتياج الى الصاحبة ، و الاستئنـاس بالولد (٢) . و لا نجد في السياق ما يشير الى ان الكلام جاء على سبيل الحكاية ، و انما يهدينا السياق الى أنه تقرير للحق الذي جرى على ألسن أولئك النفر من الجن . و الذي يبدو لي ان الجد هنا بمعنى العظمة بحيث يمكن ان نجعلالغنى عن الصاحبة و الولد في اطارها ايضا ، وقد أشار العلامة الطبرسي في بيان لغوي لطيف الى هذا المعنى فقال : الجد أصله القطع ، و منه :الجد العظمة لانقطاع كل عظمة عنها لعلوها عليه ، و منه : الجد أبو الأب لانقطاعه بعلو أبوته وكل من فوقه لهذا الولد أجداد، و الجد الحظ لانقطاعه بعلو شأنه ، و الجد خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف ، و منه : الجديد لانه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر (٣) ، فالمعني من " تعالى جد ربنا " اي سمت عظمته و علت . و الفرق بين هذه الآية و قولنا : (ربنا تعالى) أنها هنا صرحت بالمتعلق و هو العظمة (الجد) ، بينما نطلق في قولنا بدون المتعلق علو الله على كل شيء وعن كل ما يصفه المشركون.

و قد خصص القرآن في الآية ذكر العظمة بالذات لان مشركي الجن يعملون من خلال نسبة الشركاء لله على الطعن في عظمته و التقليل من شأنه . و كيف لا تقل(١) البرهان / ج ٤ - ص ٣٩١.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٥٠.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٧.

عظمة من يحتاج الى الصاحبة و الولد ؟ و نفي الصاحبة عن الله هو نفي قاطع لوجود أي شريك له عز وجل ، لان المزاعم بوجود الشركاء مبنية على أساس بنوتهم له و التي لا تكون إلا بوجود الصاحبة . أما نفي الولد فهو نفي للوالد ايضا لأن من يلد فهو مولود مخلوق بالقطع ،قال الامام علي (ع (في صفة الله " :لم يلد فيكون مولودا ، ولم يولد فيصير محدودا " (١) ، و قال : " لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركا ، و لم يلد فيكون موروثا هالكا " (٢. (

[4]و يؤكد القرآن على وجود التشابه بين المجتمع البشري و مجتمع الجن من الناحيتين الفردية و الاجتماعية ، فهم خلق مكلفون عاقلون مختارون ، و محدودة علومهم كما نحن ، و لذلك يقعون في الأخطاء المقاربة لأخطائنا كالشرك ، و هذا يهدينا الى خطأ الاعتقاد باطلاعهم على كل شيء ، و الاعتماد على ما يقولون ، اذ قد يقولون شططا . هذا من الناحية الفردية ، و من الناحية الاجتماعية يتشابهون معنا في كونهم فرقا مختلفين ، و طبقـــات مستضعفة و مستكبرة ، بل و يعيشون في ظل انظمة اجتماعية و سياسية متشابهة ..حيث يترأسهم سفهاء منهم ، كما يتزعم المجتمعات البشرية الحكام و الملوك .

]وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا[

و الشطط في الأصل : الكلام الذي يبعد عن الحق ، قال الراغب الأصبهاني : الشطط خفة النفس لنقصان العقل ، و الشطط : القول البعيد من الحق (٣) . و الكلمة تستوعب كل قول يحيد عن الصواب الى الخطأ ، و لكن اظهر مصاديقها فيما يتصل بالله عز وجل هو قول الشرك ، والى ذلك أشار القرآن على لسان اصحاب

(1)نهج البلاغة / خ ١٨٦ - ص ٢٧٣.

(2)المصدر / خ ١٨٢ - ص ٢٦٠.

(3)مفردات الراغب / مادة شطط.

الكهف : " فقالوا ربنا رب السماوات و الارض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا " (١. (

وأما السفيه فمعناه لغة الجاهل الذي لا يحسن رأيا ولا تصرفا ، ففي المنجد : سفه سفها : كان عديم الحلم او جاهلا او رديء الخلق فهو سفيه ، و السافه الاحمق . (2)و يبدو انها كلمة جامعة لمساوىء الصفات و الاخلاق . و اصطلاحا - المعنى الذي يريده الجن من الكلمة - هو كل زعامة سياسية او اجتماعية او علمية شطت بها الافكار نحو الباطل ، وسعت في تضليل المجتمع كالحكام الطغاة و علماء السوء . وما اكثر ما يقوله سفهاؤنا - نحن البشر - على رب العالمين ، من على منابرهم ، وفي وسائلهم التضليلية ، في كل زمان و مكان ! فمااحوجنا ان نكون كاولئك النفر من مؤمني الجن ؛ نستمع القــرآن ، و نؤمن بما يهدي اليه من الرشد ، و نرفض الشرك بالله بجميع ألوانه و صوره ، و ننتفض على سفهائنا تحت راية التوحيد و على هدى الوحي!

و نخلص هنا الى الحقائق التالية:

الاولى :ان الجن ليسوا مجرد ارواح شريرة و حسب ، و انما فيهم المؤمنون الصالحون ، و بهذا يعالج القرآن مزاعم البشر و تصوراتهم الخاطئة عن طبيعة عالم الجن بانه شر محض.

الثانيــة : ان الهداية و الرشد لا تتحقق لأحد بمجرد وجود الكتاب الهادي الى الحق ، بل لابد من التقاء بين العقل الباطن و بين رسالة الله ، و ذلك بحاجة الى المزيد من الاصغاء للآيات ، و استماعها ، و التدبر في معانيها.

الثالثة : اننا إذا فسرنا الشرك بالتشريع من دون الله فان الآيات تدل على ان(١) الكهف / ١٤.

(2)المنجد / مادة سفه.

الجن كما الانس يبتدعون لهم تشريعات غير هدى الله و آياته ، و ان القرآن جاء بديلا عن منـاهجهم الضالة ، و علاجا لكل انحراف في حياتهم .. فهو رسالة الله للعالمين إنسا و جنا.

وإذا فسرناه بالخضوع لغير حاكمية الله ، فان الآية الرابعة بالذات تدل على ان الجن - كما نحن - مبتلون بالحكام السفهاء و الانظمة الفاسدة ، و ان رسالة الله التي تهدف الهداية الى الرشد و غايته التوحيد تهدف قبل كل شيء الى تحرير المجتمعات انسية و جنية من ربقة الطواغيت و الحكومات الظالمة (الحاكميات السفيهة. (

الرابعة :ان اصل اكثر الافكار الشركية - كما تقدم القول - و اصل قبول استعباد السلطات المنحرفة ، و اصل التمييز العنصري و غيره ، يعود الى الزعم بولادة الله ، و من ثم وجود شيء او شخص أقرب من شيء او شخص قربا ذاتيا الى الله عز وجل.

[5]و يوصل السياق كلام النفر عن طبيعتهم بما يكشف لنا واقع الجن.

]وأنا ظننآ أن لن تقول الإنس و الجن على الله كذبا]و لعل الظن هنا يعني العلم ، و لكن ليس العلم القائم على الحجة و البرهان ، و انما هو العلم المتأسس على التصور المجرد . و الآية تبين صفتين سلبيتين كانتا وراء تورطهم في الضلال:

الاولى : السذاجة المغرقة الى حد الوثوق في الآخرين و تصديقهم فيما يقولون ، بحمل ما يصدر عنهم على محمل الصدق و الصواب.

الثانية : التقليد الأعمى للآخرين ، قال العلامة الطبرسي معلقا على الآية:

و في هذا دلالة على انهم كانوا مقلدة حتى سمعوا الحجة ، و انكشف لهم الحق فرجعوا عما كانوا عليه ، و فيه إشارة الى بطلان التقليد ، و وجوب اتباع الدليل (١. (

و كلتا الصفتين نتيجة لالغاء دور العقل و فقدان الاستقلال بالتوافق مع تيار المجتمع و التبعية العمياء له . إلا أن القرآن الذي أنزله الله لإثارة دفائن العقول فجر فيهم لما استمعوا آياته كوامن قدراتهم ، العقلية و الروحية ، و خلق في أنفسهم إرادة التحررمن أغلال السذاجة و الجهل و التبعية ، و إرادة التحدي للانحراف بكل كيانه قيما) السفه) و اشخاصا (السفهاء) . ان مشكلة الكثير من الإنس و الجن انهم يتخذون الاشخاص لا القيم مقياسا ، فمتى ما ضلوا اولئك و انحرفوا ضلوا و انحرفوا معهم ، بينما يجب ان تكون القيم هـــي المقياس ، لانها الضمانة الاصيلة و الوحيدة لمعرفة الحق و الاستقامة على هداه.

و فيما يتصل بالكذب تهدينا الآية الى ان الانسان يرفضه و يستقبحه بالفطرة بحيث لا يتصور ان أحدا يجرأ على التورط فيه ، و هذا ما يجعله فريسة للكذابين المرة بعد الاخرى.

[10 - 6]ثم يحدثنا النفر بآية محورية عن التظاهر بين بعض الإنس و بعض الجن على الباطل ، كصورة من صور الشرك لدى بعض أبناء حواء ، حيث الهالة الكبيرة من الاساطير و الأوهام تدعو البعض الى الاعتقاد بان الجن قوى خارقة لديها العلم و القدرة المطلقين ، ممايحدو بهم الى الاتصال بالجن و طلب العون منهم . و يجهلون ان الأمر على العكس ، يضيف جهلا الى جهلهم و تعبا الى تعبهم ، الى حد الرهق الشديد.

]وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا](١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٥.

و الرهق : الغشاوة ، و قيل للتعب الشديد ارهاق لانه يعلو المرهق كالغشاوة فلا يكاد يبصر بقلب ولا بعين . وإذا كان المعنيون بالآية كل من غرتهم خرافة الاستعاذة بالجن و تعظيمهم فان الكهنة و السحرة ومن يتصل مباشرة بالجن مخصوصون بقول " رجال من الإنس" أوليسوا يستعينون بهم في الشعوذة و سحر أعين الناس و الكهانة ؟!

و لان الجن ليسوا - كما يتوهم هؤلاء الرجال - يعلمون كل شيء ، و يقدرون على صنع المستحيل ، فانهم يزيدونهم رهقا في أبدانهم و أنفسهم ، و ضلالا عن الحق باتباع أخبارهم الكاذبة ، و خوض اللجج اعتمادا على وعودهم التي يعجزون عن الوفاء بها . اما من جانب الجنفلعلهم كانوا كرجال الإنس يتمادون في الغي و الضلالة ، حيث يكبرون أنفسهم ، و يتوهمون أنهم أنصاف آلهة نتيجة تقديس رجال الإنس لهم و استعاذتهم بهم.

و الكهنة و السحرة بدورهم كانوا يضللون من حولهم من الناس ، قال الامام الباقر (ع) : " كان الرجل ينطلق الى الكاهن الذي يوحي اليه الشيطان فيقول : قل لشيطانك فلان قد عاذ بك " (١. (

و العياذ الاعتصام و هو الامتناع بالشيء من لحاق الشر (٢) ، و للاستعاذة هنا أحد معنيين:

الاول : انهم كانوا يعتقدون بأن الجن قوى شر في الطبيعة ، و بالتالي يجب ارضاؤها للتخلص من شرها و أذاها.

(1)البرهان / ج ٤ - ص ٣٩١.

(2)التبيان / ج ١٠ - ص ١٤٨.

الثاني :أنهم كانوا يعتمدون على الجن في مواجهة الأخطار و المشاكل ، أو في مقاومة القوى التي يخشونها ، ظنا منهم بأنهم ينفعونهم أو يضرونهم .. فبدل ان يفكروا في حل مشاكلهم من خلال العقل و السعي تراهم يلجؤون للخرافة و الاساطير ، و بدل ان يتقربوا الى الله عز وجل بالطاعة تراهم يعوذون بالجن ، ظنا بأنهم قادرون على صد غضب الله او التأثير على أمره سبحانه و تعالى . و هكذا عوض ان يشحذوا إرادتهم و يعملوا فكرهم لمواجهة العدو عسكريا يتوسلون بهذه الثقافة الميتة و المضللة .. فلا يصلون إلا الى الشر و الرهق .

ومن وجوه التلاقي بين الإنس و الجن - بالاضافة الى التعاون على الباطل - تشابه وجوه الانحراف و الضلال في الافكار و الثقافات ، و من بين ذلك الكفر بالاخرة كنتيجة للثقافة القائمة على الظنون و التصورات ، لا على الوعي بالواقع و المنهجية العلمية المعتمدةعلى الدليل و الحجة.

]وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا[

في المجمع : ان لن يبعث الله رسولا بعد موسى و عيسى (١) ، وفي التفسير الكبير :و يحتمل ان يكون المراد انه لن يبعث احدا للرسالة على ما هو مذهب البراهمة (٢) ، و مع امكانية صحة هذا الرأي إلا أن الأقرب بعث الناس للحساب و الجزاء ، وهذا هو جذر كل انحراف وفرار من اطار المسؤولية . و الآية تنسف الاعتقاد الواهي بأن الجن آلهة خلقوا ذاتيا و لا يموتون ، كلا ..انهم يموتون - كما يموت بنو آدم - و يبعثون كما يبعث البشر ، بلى . و بعضهم يشك في البعث مما يدعوه الى الشرك و المزيد من الزيغ.

(1)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٩.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٥٧.

وقد جرى جدل بين المفسرين حول هذه الآية هل هي من جملة ما حكاه النفر من الجـن ، أم هي قول الله ؟ فقال بعضهم : انها قول من الله ، و قال آخرون - وهو الاقرب - : انها قول الجن ، قال الفخر الرازي : و اعلم ان حمله على كلام الجن أولى لان ما قبله وما بعده كلام الجن ، فإلقاء كلام أجنبي عن كلام الجن في البين غير لائق (١) . و لعل التعبير اختلف من المتكلم " و إنا " الى الضمير الغائب " و أنهم " لأن المتكلم نفر من المـؤمنين ، وهم ليسوا من جملة الكافرين بالبعث ، مما دعاهم الى نسب الأمر البغيرهم.

ثم يعود السياق الى مجراه (ضمير المتكلم) باعتبار ان ما يأتي أمر عام و شامل حتى للنفر الذين آمنوا من الجن ، باعتبارهم كسائر الجن سعوا لاستراق السمع ، إلا أنهم حيث احتجبوا عن ذلك تحسسوا قدرة ربهم ، و آمنوا به تائبين.

]وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهبا]و الحرس هم الملائكة ، بينما الشهب أسلحتهم التي يرمون بها كل من يحاول استراق السمع ، فهي مشحونة جنودا و عتادا الى حد الامتلاء ، بحيث لا يجد مسترق ثغرة ينفذ منها الى الملأ الأعلى . و قال : " لمسنا " و لم يقل) : رأينا) لأن اللمس صفة مادية مما يؤكد المعنى و يقربه . و حقا : إنهم لمسوا السماء و عرفوا تلك الحقيقة من خلال التجربة العملية .. إذ هلك الكثير منهم بالشهب وهم في مهمة الاستراق.

]وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع[

سابقا قبل ان يشاء الله منعهم تماما.

]فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا[

(1)المصدر.

و من كلمة " مقاعد " نستفيد انهم كانوا يسترقون السمع من ثغرات معينة يقعدون فيها . و يشير أئمة الهدى الى الحكمة التي أغلق الله ابواب الاستراق بسببها عن الشياطين و الجن ، يقول الامام الصادق (ع) : " وأما أخبار السماء فإن الشياطين كانتتقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك ، وهي لا تحجب ولا ترجم بالنجوم ، وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الارض سبب يشاكل الوحي من خبر السماء ، و يبلس على أهل الارض ما جاءهم عن الله ، لاثبات الحجة و نفي الشبهة " (١. (

إذن فالجن لا يعلمون الغيب حتى يعوذ بهم الناس . قال صاحب البصائر بتعبير لطيف عن صلة هذه الآية بما قبلها من الآيات : فالانس كانوا يعوذون بالجن لانهم يعلمون الغيب أو خبر السماء فجاءت هذه الآية لتقول : انهم " لا يعلمون الغيب ، و ان السماء ممنوعةعنهم " (٢. (

و اختلف في حراسة السماء ، فمن قائل أنها لم تكن قبل بعث النبي (ص) ومن قائل غير ذلك ، و ظاهر الآية يشير الى ما ذهب اليه العلامة الطباطبائي إذ قال : ان الحادث هو المليء و كثرة الحرس لا أصل الحرس ، و ظهور قوله : " نقعد منها مقاعد للسمع " فيأنا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحرس و الشهب ، و الان ملئت المقاعد كلها ، فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا (٣) . و في الاحاديث : انه كانوا يحجبون عن سماء بعد أخـرى حتى ولد خاتم المرسلين فحجبوا تماما ، و عن الامام علي - عليه السلام - قال : "و لقد هم إبليس بالظعن في السماء لما رأى من الأعاجيب تلك الليلة - التي ولد فيها رسول الله - و كان له مقعد في السماء(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٣٦٩.

(2)تفسير البصائر / ج ٤٩ - ص ٣٧٦.

(3)الميزان / ج ٢٠ - ص ٤٣.

الثالثة ، و الشياطين يسترقون السمع ، فلما رأوا العجائب أرادوا ان يسترقوا السمع فاذا بهم قد حجبوا عن السماوات كلها " (١) إذن فمن يدعي معرفة الغيب من الكهنة و المنجمين باعتبارهم يتصلون بالجن فانما يزعمون باطلا حيث حجبوا باعترافهم أنفسهم.

و السورة الكريمة تهدينا الى طبيعة المنهج القرآني الواقعية ، فآياته لا تدور في الفراغ ، و لا تطرح الاساطير كما يقول الكفار و المشركون ، و انما يعالج قضايا و مشاكل نفسية و اجتماعية و ثقافية و اقتصادية و سياسية حقيقية ، و حيث تنزلت سورة الجن فمن أجلاجتثاث جذور الكهانة و الشرك بالجن و الشياطين ، و هكذا يعالج القرآن تلك النظريات الشائعة في المجتمعات . و لعل سائلا يقول : وهل عالج القرآن المذهب الوجودي و الماركسي و غيرهما من الفلسفات التي تجددت في القرون الأخيرة ؟ و نقول : بلى . لان هذه المذاهب ليست إلا تطويرات للنظريات القديمة ، فقد كانت الوجودية موجودة تاريخيا و ان كانت بصورة أخرى مبثوثة في الافكار اليونانية التي دعت الانسان لاثبات وجوده و الالتذاذ الدائم ، و هي مشابهة لدعوة سارتر و تلامذته الان ، كما كانت الفلسفة الاشتراكية حاضرة في عهد من عهود ايران تحت عنوان (المزدكية) وهي اشتراكية بلغت حد الشيوعية و الاباحية.

و تخصيص القرآن سورة باسم الجن صورة حية لواقعيته ، لان استعاذة رجال من الإنس بهم و تلقيهم لهمزاتهم كان ولا يزال من الاسباب الرئيسية لانحراف البشر و ضلالهم عن الحق ، حيث الخلط بين تلك الإلقاءات وبين الوحي . وما فلم (الوساوس الأخيرة للسيد المسيح) وكتاب) الآيات الشيطانية) إلا دليل على الجهل بالوحي ، ومن ثم الخوض في شأنه بغير علم.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ٤٣٦ عن الاحتجاج عن الامام علي (ع. (

و التطلع الى معرفة الغيب من الدوافع الملحة للانسان نحو الاتصال بأي جهة يتوقع معرفتها به لعله يعلم بعضه ، و لكن قسما من الناس يخطئون إذ يعوذون بالجن بدل أن يربطوا أنفسهم بوحي الله ، مع أنهم لا يعلمون من الغيب شيئا ، وما أدل على ذلك من اعترافهم أنفسهم بهذه الحقيقة.

]وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا]إنهم بهتوا بالارهاصات و التحولات الكونية التي رافقت بعث خاتم الأنبياء ، كامتلاء السماء حرسا و شهبا ، و عجزهم عن استــراق السمع بعدئذ ، فلم يستوعبوا الأمر ، و تخبطوا في تفسير تلك الظواهر هل هي شر لسكان الارض كأن تكون من اشراط الساعة أم خير أرادهالله ؟! وهذا يؤكد قصورهم عن علم الغيب ، و جهلهم بتفسير الظواهر الكونية المتجددة كما يجهلون كثيرا من تلك الظواهر ، فلا ينبغي التعويل عليهم في تفسير شيء من الظواهر كالمرض و الفقر و الهزيمة وما أشبه مثلما هو شأن بعض المستعيذين بهم . ولا ريب ان بعث الرسول(ص) خير عظيم لمن في الارض ، حيث ينقذهم برسالته و قيادته من ظلام الباطل و الضلال و الجهل ، الى نور الحق و الهدى و العلم ، و هكذا منع الشياطين من الاستراق نعمة عظيمة لهم حيث يزول السبب الذي تتشاكل به حقائق الوحي و تتشابه مع اباطيل الجن . قال ابن جريح:
قالوا : لا ندري لم بعث هذا النبي ، لان يؤمنوا به و يتبعوه فيرشدوا ، أو لأن يكفروا به و يكذبوه فيهلكوا كما هلك من قبلهم من الأمم ؟ (١) ، و قيل معناه : أن هذا المنع لا يدرى العذاب سينزل بأهل الارض أم لنبي يبعث و يهدي الى الرشد ، فان مثل هذا لا يكون إلا لأحد هذين الأمرين (٢) . قال العلامة الطباطبائي : وقد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد و حذفوه في جانب الشر أدبا ، ولا يراد شر من جانبه(١) الدر المنثور /ج ٦ - ص ٢٧٣.

(2)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٦٩.

تعالى إلا لمن استحقه (١) . و لقد قال الله : " رشدا " ولم يقل (خيرا) في مقابل الشر إشارة للرسالة التي تعطي الهدى ، و لان الرشد سبب كل خير و سنامه ، بل هو المصداق الاعظم للخير.

[12 - 11]و ينسف ربنا نظرة التقديس المطلق للجن ببيان اختلافهم ، و ان فيهم من لا يستحق الاحترام لتخلفه عن الصلاح و تورطه في الفساد العريض.

]وأنا منا الصالحون و منا دون ذلك[

أقل مرتبة . و كلمة " دون ذلك " تتسع لدرجات مختلفة يلي بعضها بعضا في التسافل حتى آخر درك من الانحراف و الضلال ، و يعلوا بعضها فوق بعض حتى درجة الصلاح . ثم يضيفون:

]كنا طرائق قددا[

أي مذاهب و جماعات مختلفة متفرقة ، من قد الثوب يقده إذا شقه و قطعه ، ففرقه خرقا بعد ان كان قطعة واحدة . ومن الآية نهتدي الى ان الاختلاف في مدى الصلاح بين الجن افرادا و جماعات راجع الى اختلاف مذاهبهم ، وأنهم كالبشر مختلفون في توجهاتهم و نظراتهم الحياة . و لعل تأكيد القرآن على التشابه بين الخلقين (الإنس و الجن) يأتي لبيان أنهم خلق من خلقه تعالى يتعرضون لما يتعرض له الناس ، و ليسوا الهة كما يزعم البعض فيعبدهم و يشرك بهم من دون الله.

ومادام الجن صالحين و دون ذلك فان الاتصال بهم قد يعود الى الإنس بالخير لو كان طرفه الصالحين ، و قد يعود عليهم بالشر العظيم إذا كان طرفه الضالين الفاسدين(١) الميزان / ج ٢٠ - ص ٤٤.

منهم ، و هذا ما يجعل الاعتماد على قول الكهنة و اخبارهم محل اشكال و شك ، باعتبار مصادره تحتمل الصواب و الخطأ و الصدق و الكذب.

قال ابن عباس و مجاهد و قتادة : على مذاهب مختلفة ، مسلم و كافر ، و صالح و دون الصالح . و قال شيخ الطائفة : و الطرائق جمع طريقة ، و هي الجهة المستمرة مرتبة بعد مرتبة ، و المعنى : إنا كنا على طرائق متباينة ، كل فرقة يتباين صاحبها كما بين المقدود بعضهمن بعض (١) . و خلاصة القول : أنهم مختلفون في مذاهبهم و توجهاتهم ، و في كل فرقة يختلف الافراد عن بعضهم صلاحا و انحرافا.

و الى جانب بيان القرآن تصور الجن عن علم الغيب ، مما ينفي المزاعم بأنهم آلهة أو أنصاف آلهة ، يبين ضعفهم و عجزهم باعتبارهم مخلوقين عن مقاومة إرادة الله ، بل عجزهم حتى عن الهرب من سلطانه و حكومته ، الأمر الذي يهدم ثقافة الشرك بهم من أساسها.

]وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الارض[

بصورة مباشرة من خلال مواجهة إرادته ، أو بصورة غير مباشرة من خلال القفز على سننه او خرقها ، ولو كانت هذه القدرة موجودة عند الجن لاظهرها شياطينهم ، و لخربوا كثيرا من قوانين الطبيعة و نظمها ، و لكنهم عاجزون عن ذلك .. مما يهدينا الى أنهم محكومون مثلنابإرادة الله و سننه ، فخطأ إذن أن يعتمد بعض الإنس عليهم و يعوذ بهم زعما بأنه يحتمي بهم عن مشيئة الله ، على أساس أنهم قوى قاهرة و ضاغطة تعالى الله عما يصفون ، فان وجودهم كسائر المخلوقين مرتكز في الضعف و العجز ، فهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أحد إرادة الله ، ولا يجدون أنفسهم سبيلا للهرب منه.

(1)التبيان / ج ١٠ - ص ١٥١.

]و لن نعجزه هربا[

لان إرادته تعالى ليست محـدودة بالأرض حتى يفلت من يطير الى غيرها من إرادته ، و يعجزه سبحانه ، انما هيمنته شاملة للوجود كله دون استثناء أو فرق بين كوكب و آخر ، ولا بقعة و بقعة أخرى . قال الزمخشري : أي لن نعجزه كائنين في الارض أينما كنا فيها ، و لن نعجزه هاربين منها الى السماء (١. (

و الظن في الآية ليس بمعنى الشك ، فان الجن على يقين تام علميا بأنهم لا يعجزون رب العزة ، بل هو

بمعنى اليقين الذي يصل الى حد التصور و الاستحضار للحقيقة بالظن و كأنها حقيقة مادية قائمة ، أي تركيز قوة التخيل و التصور بصورة شديدة.

[13]ولقد عرف النفر من الجن أنفسهم المحدودة بالجهل و العجز فتحسسوا الحاجة الفطرية الملحة بضرورة الاستعاذة بالخالق المتعالي عن أي عجز أو حد فعرفوا ربهم فاتخذوا معرفة النفس وسيلة لمعرفة الرب . أوليس من عرف نفسه فقد عرف ربه كما في الحديث ؟ فامنوا به، و راحوا يعوذون به ايمانا منهم بأن الاطمئنان و السعادة لا يوجدان إلا عنده عز وجل.

و حيث سمعوا آيات الذكر الحكيم وهم في مخاض الشك المنهجي و البحث عن سبيل الرشاد اصغوا لها مسامع قلوبهم ، و سلمت لحقائقها افئدتهم ، فآمنوا به.

]وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به[

و لعلنا نستشف من هذا المقطع ان المتكلمين كانوا يعانون من مشكلة التعتيم(١) الكشاف / ج ٤ - ص ٦٢٧.

و التضليل ، لانهم كانوا في بيئة جاهلية كجاهلية البشر قبيل بزوغ فجر الرسالة.

و يشير النفر الى الخلفية التي دعتهم الى اختيار الهدى بالايمان بالله ، ألا وهي كون الايمان سبيل السعادة.

]فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا[

وعلى عكس ذلك الشرك بالقوى المخلوقة كالجن و الأوثان التي لا تزيد المشرك بها سوى الخسارة بعد الخسارة ، لأنها محدودة و عاجزة عن تحقيق الضر و النفع لنفسها فكيف للآخرين ؟!

ان البعض كالفرقة اليزيدية قدسوا الشيطان ، و فلسفوا موقفهم على أساس انه رمز قوى الشر الذي ينبغي اتقاؤه بعبادته و كسب رضاه ، بينما تركوا عبادة الله لانه كما يزعمون رب الرحمة الذي لا خوف من جانبه .. و راحوا يعظمون الطاووس لانه في معتقدهم مسكون بالشيطان ! و الحال ان الايمان بغير الله لا يؤمن للانسان الاطمئنان ، بل يضاعف خسارته و تعبه . بلى . ان الايمان بالله وحده الذي يملأ القلب بالاطمئنان الى حسن الجزاء و نعم العاقبة ، فلا بخس ولا رهق.

قال صاحب المجمع : البخس النقصان ، و الرهق العدوان (١) ، و رافقه التفسير الكبير إلا أنه أضاف : و الرهق الظلم ، ثم فيه وجهان : الأول : لا يخاف جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحدا حقا ولا ظلم أحدا فيخاف جزاءهما ، و الثاني : لا يخاف ان يبخس ، بليقطع بأنه يجزي الجزاء الأوفى ، ولا يخاف ان ترهقه ذلة ، من قوله " ترهقهم ذلة " (٢) ، و أصل البخس القلة ، قال تعالى " و شروه(١ (مجمع البيان / ج ١٠ ص ٣٧١.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٥٩.

بثمن بخس دراهم معدودة (١) ، و انما قيل كذلك لان مادفعوه ثمنا ليوسف أقل من ثمنه حتى في السوق لو كان عبدا يباع . و سمي البخس بخسا لانه في حقيقته الأخذ من مال الناس بما هو تقليل لحقوقهم الواقعية (٢) . و ما تنفيه هذه السورة (البخس و الرهق) بالنسبة للمؤمنين بالله على عكس ما أثبتته الآية السادسة في شأن المستعيذين بالجن من الإنس.

[15 - 14]و يعود النفر المؤمنون من الجن للتأكيد بما يشبه الآية الحادية عشر على أنهم مختلفون .

]وأنا منا المسلمون و منا القاسطون[

و المسلم هو الذي يسلم نفسه بكل كيانها للحق ، فيكيفها معه معنويا و عمليا ، و أما القاسط فهو الظالم الذي يضم قسط الاخرين الى نفسه بغير حق ، على خلاف المقسط الذي يعطي حق الآخرين ، وإنما قابل القرآن كلمة المسلم بالقاسط مع أنها تقابل الكافر عادة لأن من أظهر معاني الاسلام هو العدل ، ولأن التسليم للحق هو العامل الرئيسي في تجسيد قيمة العدالة في الواقع ، ولأن المطلوب من الاسلام ليس مجرد التسليم اللفظي بل كبح جماح النفس الأمارة السوء.

]فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا[

قال الراغب : حرى الشيء يحري ، أي قصد حراه ، أي جانبه و تحراه (٣) ، و في تفسير البصائر تحرى تحريا : طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن ، و طلب أحرى الأمرين و أولاهما ، و تحرى الأمر توخاه و قصده ، و التحري هو الاجتهاد في(١) يوسف / ٢٠.

(2)لقد مر بيان لمعنى الارهاق عند الآية (٤٣) من سورة القلم فراجع.

(3)مفردات الراغب مادة حري.

تعرف ما هو أولى و حق ، و في الحديث : " تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر " أي تعمدوا طلبها فيها (١. (

وعلى هذا التفسير للكلمة يكون المعنى ان من اختار الاسلام و سلم له فقد جانب الرشد و الهدى ، وهذا مسلم به لأنه حينئذ سيهديه الله بنور الوحي و آيات الرسالة ، مما يكمل عقله و علمه فيجعله راشدا . و الآية تأكيد على ان الاسلام ليس مجرد تسليم النفس للحق ،بل هو اضافة الى ذلك وعي الحق بعد البحث عنه طلبا للرشد.

]وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا[

و من هنا نهتدي الى أن أظهر معاني (تحري الرشد) طلب النجاة من النار و من غضب الله ، بمعرفة طريق الهدى بالنفس و العقل ، و كذلك بتجنب الذنوب و الخطايا و القيام بالصالحات ، وذلك ما لم يفعله القاسطون مما أدى بهم الى العذاب . ولا يقول القرآن أنهم سيكونون حطبا لجهنم ، بل قال " كانوا " بصيغة الماضي ، و السبب أن مرتكب الذنوب و الفواحش قد جعل نفسه وقودا للنار لحظة اقتحامها ، بالفعل . قال الزمخشري : القاسطون الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، و نقل طريفة عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه : - انالحجاج قال حين أراد قتله : ما تقول في ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ! حسبوا انه يصفه بالقسط و العدل ، فقال الحجاج : يا جهلة ! إنه سماني ظالما مشركا ، و تلا قوله تعالى : " و اما القاسطون " و قوله تعالى : " ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " (٢. (

و جرى جدل بين المفسرين في عذاب الجن ، فقد اجمعوا على إمكان تعذيب(١) تفسير البصائر ج ٤٩ ص ٣٢٠ / ٣٢١.

(2)الكشاف / ج ٤ - ص ٦٢٨.

القاسطين من الإنس بجعلهم حطبا لجهنم ، ولكنهم اختلفوا في كيفية تعذب الجن بالنار و هم من جنسها ، فقال بعضهم كالفخر الرازي : إنهم وأن خلقوا من النار لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية و صاروا لحما و دما هكذا (١) ، و من أطرف ما قرأته في هذا الشأن : ان بهلول أتىالى المسجد يوما و أبو حنيفة يقرر للناس علومه ، فقال في جملة كلامه : ان جعفر بن محمد تكلم في مسائل ما يعجبني كلامه فيها : الأولى : يقول : ان الله سبحانه موجود ولكنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهل يكون موجود ولا يرى ؟ ما هذا إلا تناقض ! الثانية :إنه يقول : إن الشيطان يعذب في النار مع ان الشيطان خلق من النار ، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه ؟! الثالثة : إنه يقول : إن أفعال العباد مستندة اليهم ، مع ان الآيات

دالة على أنه تعالى فاعل كل شيء!

فلما سمعه البهلول أخذ مدرة و ضرب بها رأسه و شجه ، و صار الدم يسيل على و جهه و لحيته ، فبادر الى الخليفة يشكو من بهلول ، فلما احضروا بهلول و سئل عن السبب قال للخليفة : ان هذا الرجل غلط جعفر بن محمد (ع) في ثلاث مسائل : الأولى : أن أبا حنيفة يزعم أنالأفعال كلها لا فاعل لها إلا الله ، فهذه الشجة من الله تعالى وما تقصيري ؟! الثانية : أنه يقول : كل شيء موجود لابد أن يرى ، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنه لا يراه أحد ، الثالثة : انه مخلوق من التراب وهذه المدرة من التراب وهو يقول : ان الجنس لا يتعذببجنسه ، فكيف يتألم من المدرة ؟" فأعجب الخليفة كلامه ، و تخلص من شجة أبي حنيفة (٢. (

[17 - 16]و يستثير الواحد إنسيا أو جنيا فكره بحثا عن الأسباب التي أدت الى انحطاط حضارته ، و تخلفه عن ركب التقدم ، فلا يجد مهما أنعم الفكر و النظر(١) التفسير الكبير / ج ٣٠ - ص ١٦٠.

(2)شجرة طوبى / ج ١ - ص ٤٩.

سوى إجابة واحدة هي الإنحراف عن النهج السليم و التفرق بالسبل الملتوية ، و بتعبير القرآن : الانحراف عن الطريقة لأنها وحدها التي تأخذ الانسان الى السعادة.

]و ألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءا غدقا]أي كثيرا فراتا .فما هي تلك الطريقة ؟

ان تعريف القرآن لها بألف و لام العهد و الجنس يهدينا الى أنها طريقة معينة للإنس و الجن ، و ليس سواها طريقة حتى يستراب فيها ذهن السامع أو ينصرف عنها . ولقد كثرت الأقوال في بيان المقصود بالطريقة إلا أن أقربها - كما يبدو لي - الحق المتمثل في:

- 1الفطرة التي اركزها الله في خلقه ، حيث الايمان و التسليم للحق .. فان الاستقامة عليها هي السبيل الى كل خير و سعادة.

- 2خط الرسالات الإلهية و الانبياء ، قال العلامة الطبرسي : لو استقاموا على طريقة الهدى بدلالة قوله : " ولو أنهم أقاموا التوراة و الانجيل وما أنزل اليهم لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم " (١) ، و نظيره قوله تعالى " : ولو ان أهل القرىآمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الارض " ، و قوله : " و من يتق الله يجعل له مخرجا " وقوله : " فقلت استغفروا ربكم ..يرسل السماء عليكم مدرارا " (٢) . و الفطرة و الرسالات مع الانبياء يكمل واحدهما الآخر في هداية الانسان الى الطريقة السليمة و يثبتانه عليها لو اتبعهما ، وهي - أي الطريقة - واضحة عند كل مكلف بالاستقامة عليها ، إلا أن القليل هم الذين يلتزمون بها كما يريد الله ، و يستقيمون(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٣٧١.

(2)التفسير الكبير / ج ٣٠ ، ص ١٦٠ - ١٦١.

عليها حتى النهاية رغم المصاعب و العقبات . بلى . ان النتائج الحضارية للرسالة قد لا تظهر في اللحظة الأولى التي يقرر المجتمع فيها الالتزام بقيمها و الاستقامة عليها ، لان القيم الرسالية تشبه الى حد بعيد البذرة التي يزرعها الفلاح في الارض .. لابد من الصبرعليها حتى تؤتي اكلها و رعايتها في الاثناء ، مما يفرض الاستقامة كأساس في السعي الحضاري ، و وعي هذه القيمة الواقعية من شأنه تثبيت الانسان على الهدى ، و دفع روح القنوط و اليأس من الرسالة عن فكره و نفسه . أترى لو يئس الرعيل الأول من الاسلام حيث لم يكونوايرون منه سوى التضحيات تلو التضحيات فهل كانوا يبنون حضارته على امتداد المعمورة ؟ أو هل كانوا يحققون تلك الاهداف و المنجزات العظيمة التي وصلوا اليها بفضل الصبر و الاستقامة ؟ كلا .. وما أحوج الامة الاسلامية و هي تعيش مخاض الصحوة و العودة الى رسالتها انتلتفت الى هذه الحقيقة ، و تعزم السير اليها قدما مهما حاول الاعداء ثنيها عن الطريقة بتهويل التضحيات و المشاكل التي تواجهها كل أمة ناهضة في السنين الأولى للنهضة ، فان الاستقامة وحدها التي توصل الأمم الى موسم الحصاد حيث يكسبون المعطيات بكل شموخ و اقتدار، فلا يطعم الماء الغدق إلا من

تذوق مرارة الاستقامة و تحمل تحدياتها و جراحاتها.

و لقد توقف المفسرون عند الشطر الثاني من الآية " لأسقيناهم ماء غدقا " متسائلين : كيف يعد الله الجن و الإنس بالماء الغدق كنتيجة للاستقامة على الطريقة و الحال أن الجن ليسوا ذوي أبدان إنسية أو يحتاجون الى الماء فيكون الوعد به مغريا عندهم ؟ والجواب:

اولا : اننا نفهم من عموم القرآن بأن الحاجة الى الماء مرتكزة في كل كائن حي ، لقوله تعالى : " و جعلنا من الماء كل شيء حي " (١ (بغض النظر عن المقدار(١) الأنبياء / ٣٠.

و الكيفية.

ثانيا : يبدو ان الماء رمز للحضارة حيث الماء عصبها ، فأي تقدم حضاري لا غنى له عن الماء.

ثالثا :كما ان أجلى مصاديق الماء ليس ما نشربه و نسقي به الزرع ، إنما هو العلم الحق الذي تحيا بالاستجابة له النفوس و العقول ، و تنعش به الحياة . قال الامام الصادق (ع) : " يعني لأمددناهم علما كي يتعلمونه من الائمة (ع (1) " (وعن بريد العجلي قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : " و ألــو استقاموا على الطريقة " ؟ قال : " يعني الولاية " ، " لأسقيناهم ماء غدقا " ؟ قال : " لأذقناهم علما كثيرا يتعلمونه من الائمة (ع) " (٢) وعن الباقر (ع) قال: " لأشربنا قلوبهم الايمان ، و الطريقة هي الايمان بولاية علي و الاوصياء " (٣) .. ولا غرابة في تأويل الآية على هذا النحو ، لان الاستقامة على الطريقة في النفس بالايمان ، و في الفكر باتباع آيات الله و رسالته ، و في المجتمع بالانتماء الى حزبه واتباع أوليائه.

ومن كلمة " أسقيناهم " يتبين انهم ظمأى ، و عطشهم الى الايمان و المعرفة أشد من عطشهم الى الماء ، و الاستقامة على الطريقة الآنف ذكرها يؤمن للبشرية كل ذلك ، حيث الايمان بالله و حيث بصائر الوحي التي تروي القلوب و العقول ، و تبني حضارة السعادة ، و مستقبل الفلاح.

ولأن هدف الحياة هو الابتلاء لاستظهار معدن المكلفين و كوامنهم فإن المسألة لا تنتهي عند حدود الاستقامة على الطريقة من قبل المخلوقين و إسقاء الماء(١) البصائر / ج ٤٩ -ص ٤٢٨.

(2)المصدر.

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٣٨.

الغدق من قبل الله ، بل لابد من الفتنة ، كقضية أساسية يفرضها هدف الخلق ، و كون الدنيا ليست الدار الأخيرة.

]لنفتنهم فيه[

بهدف معرفة طبيعتهم ، و مواقفهم العملية من نعم الله عز وجل ، بالذات وأن المسيرة الحضارية للأمم تبدأ بجيل ملتزم مستقيم يشيد صرح الحضارة ثم ينحرف ببطر النعمة ، أو يرثه من بعده خلف يضيع القيم و يتبع الأهواء . فأما الأمة التي تفلح في الاستقامة على الطريقة قبل الرغد و بعده فإنها تصبح محل عناية الله ، و المزيد من فضله بالزيادة جزاء للشكر ، وعلى عكسها الأمة التي يأخذها الغرور بمنجزاتها ، و تنخدع بزينة الحياة الدنيا ، و فضل الله عليها ، فإنها تدخل نفق الانحطاط و العذاب.

]و من يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا[

قيل :هو العذاب الذي يزداد و يتصاعد بمرور الزمن ، وإن الأمة التي تضل عن مسيرة الحــق لترى الأهوال و ألوان العذاب المتكاثرة في أنواعها ، و المتزايدة في كيفيتها ، و قيل : هو العذاب الأليم الذي

يصعد الى المخ ، و قيل : صعود جبل في جهنم يجبر المجرمونعلى صعوده محملين بالاثقال ، فكلما بلغوا قمته أعيدوا للأمر كرة و أخرى دون استراحة .. وفي الأثناء تضربهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد النارية.

ومن الناحية الواقعية لو أردنا ان نتصور مسيرة أمة خالفت الطريقة السليمة و اتبعت السبل المنحرفة فسنجدها كمن يصعد الجبال الوعرة يخالف سنة الله في الجاذبية ، فيلقى في طريقه العقبات التي لا تطاق . قال ابن عباس : ان صعدا جبل في جهنم ، وهو صخرة ملساء فيكلف الكافر صعودها ، ثم يجذب من أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة ، فاذا بلغ أعلاها جذب الى أسفلها ثم يكلف الصعود مرة أخرى (١. (

و انما يسلك المعرض عن ذكر الله عذابا صعدا لان ذكره تعالى وسيلة الاستقامة على الطريقة ، ولا يقدر الانسان على الاستقامة من دونها ، فاذا ما أعرض أحد عن الوسيلة لم يبلغ النتائج فإذا بالماء الغدق يصبح عذابا صعدا . و لعمري إن الأمة الاسلامية حين استقامت على الطريقة سقيت الماء الغدق ، و صارت الى السعادة و السلام ، و لكنها حيث افتتنت بالمعطيات و النعم فشلت في الامتحان ، إذ أعرضت عن ذكر ربها و أوليائه فصارت ولا تزال الى العذاب الصعد.

[20 - 18]و في سياق الحديث عن الجن الذين اتخذهم البعض آلهة فاشركوا بهم ، و عبدوهم من دون الله ، يؤكد ربنا حقيقة التوحيد كهدف رئيس من وراء نسف المزاعم الموغلة في الخرافة حول هذا الخلق من خلقه تعالى ، مما يهدينا الى كون الآية الثامنة عشر آية محوريةفي سورة الجن.

]وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا[

و الأنبياء و كل من يسيرون على خطهم و يتبعون منهجهم حيث يقوموا لله بالدعوة و ينهضون للتغيير يجعلون محورهم توحيده عز وجل عن أي شريك من خلقه ، الى حد التجرد له عن أية ذاتية ، يتجردون عن الارض و العشيرة وكل قرابة و أية علاقة بشيء او بشخص ، و يسلمونأنفسهم بصورة مطلقة له ، و يكيفونها حيث التوافق مع رسالته وهذا من أهم الفوارق بين الدعوات الإلهية الخالصة و بين الدعوات البشرية التي يسعى أصحابها في الغالب الى الانتفاع منها لصالحهم.

(1)التفسير الكبير / ج ٢٠ - ص ١٦٢.

انك لو درست حركة الكهنة فستجدهم يسعون لجعل أنفسهم محورا من وراء ثقافاتهم و دعوتهم ، فهم دائما يريدون إقناع الناس بأنهم عظماء ، وأن لديهم قبسا من عظمة الله سبحانه و علما من علمه . أما الأنبياء و الرسل فإنهم لا يدعون مع الله أحدا أبدا . و يتفرع منذلك ان الدعوات البشرية عادة ما تكون وسيلة لارتزاق أصحابها بها . أما أولياء الله فإنهم لا يسألون أحدا أجرا . بل يأتون ليعطوا الناس الأجر و الخير.

وقد استفاد أئمة الهدى من هذه الآية حكما شرعيا جنائيا بحرمة قطع المساجد كالكف في حوادث السرقة مثلا ، وقد جاء في الرواية في قصة سارق أحضر الى المعتصم العباسي فاستفسر : من أي حد يجب ان يقطع ؟ فقال الراوي (و هو ابن ابي داود) : من الكرسوع ، قال : ومالحجة في ذلك ؟ قال : قلت : لان اليد هي الأصابع و الكف الى الكرسوع ، لقول الله في التيمم " فامسحوا بوجوهكم و أيديكم " ، و اتفق معي على ذلك قوم . و قال آخرون : بل يجب القطع من المرفق ، قال : وما الدليل على ذلك ؟ قالوا : لأن الله لما قال : " و أيديكم الى المرافق " في الغسل دل على ان حد اليد هو المرفق.

قال : فالتفت الى محمد بن علي بن موسى بن جعفر)ع) فقال : ما تقول في هذا يا أبا جعفر فقال : " قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين " ، قال دعني مما تكلموا به . أي شيء عندك ؟ قال : " اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين " ، قال : أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه ؟ فقال : " أما إذا أقسمت علي بالله إني أقول : إنهم أخطأوا في السنة ، فان القطع يجب ان يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف " قال : وما الحجة في ذلك ؟ قال : " قول رسول الله (ص) : السجود على سبعة اعضاء : الوجه ، و اليدين ، و الركبتين ، و الرجلين ، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها ، و

قال الله تبارك و تعالى : " و ان المساجد لله " يعني به هذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها " فلا تدعوا مع الله أحدا وما كان لله لميقطع " قال : فأعجب المعتصم ذلك ، و أمر بقطع السارق من مفصل الأصابع دون الكف . قال ابن أبي داود : قامت قيامتي ، و تمنيت إني لم أك حيا (١. (

و نستفيـد من الآية بصيرة عملية و هي حرمة جعل المساجد محلا لدعوة غير الله ، و استخدامها بغير غرض العبادة له عز وجل ، كالدعوات الانتخابية و التوجهات ، الحزبية وما أشبه.

ومن الفوارق الاساسية بين دعوة أولياء الله (رسله و أنبياؤه و من يسير على نهجهم) و بين الدعوات البشرية كالكهانة و السحر و الفلسفات المنحرفة أنهم لا يبحثون عن التيار الاجتماعي ليسبحوا معه ، إنما يهمهم العمل بالحق مهما كان ذلك مخالفا لتوجهات المجتمع ، بينما نجد الكهنة و السحرة ومن أشبه يسيرون في ركاب السلاطين ، و أصحاب النفوذ في المجتمع ، و يخشون من الإصطدام مع الواقع.

فالرساليون لا يعرفون المداهنة و المساومة ، بل يثورون لتغيير الواقع الفاسد ، و يصطدمون مع كل قيمة منحرفة بغض النظر عن العواقب مادام الأمر يرضي الله ، فإذا بواحدهم كإبراهيم - بل هكذا كل واحد منهم - يقف أمة لوحده في قبالة مجتمع بكامله وقد تظاهر عليهو تلبد كما تتلبد الغيوم بعضها مع البعض الآخر.

]وأنه لما قام عبد الله يدعوه[

أي يدعو ربه نابذا كل الافكار و القيم الشركية الضالة.

(1)العياشي / ج ١ - ص ٣١٩.

]كادوا يكونون عليه لبدا[

قال الشيخ الطوسي : جماعات متكاتفات بعضها فوق بعض ، ليزيلوه بذلك عن دعوته باخلاص الإلهية (١) . ولعل في الآية إشارة من بعيد الى تظاهر المشركين من الإنس ومن الجن مع بعضهم ضد داعية الحق ، ولكن ذلك ليس بالذي يثني الانبياء و الرسل ولا بالذي يفل عزائمهمو عقائدهم الراسخة ، فقد وقف نبي الاسلام (ص) وكما أمره الله متحديا جبهة الضلال المتلبدة ضده ، و معلنا بأنه لن يغير مسيرته ، و لن يتنازل عن قيمه و أهدافه.

]قل إنما ادعوا ربي ولا أشرك به أحدا[

وهذه الآية رمز لتحدي الرساليين لكل عامل واحد يضغط باتجاه المداهنة في قيمة التوحيد او التنازل عنها . أوليست الاستجابة للضغوط لونا من ألوان الشرك ؟!

[22 - 21]و تمتاز الدعوة الإلهية عن غيرها بأنها تثير في الانسان كوامنه ، و تدفعه الى السعي لا التمنيات ، كما يفعل الكهنة و دعاة الأديان و المذاهب البشرية ، الذين يوزعون صكوك الجنة و الأمان المزعومة على الناس إزاء المال ! كلا .. ان أولياء الله يصارحون الناس بأننا لسنا بدائل عنكم ، ولا يغني ايماننا عن سعيكم .. حتى لا يتخذهم الناس أربابا من دونه تعالى ، ولا شفعاء بالطريقة الموجودة في نظرية الفداء عند بعض النصارى.

]قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا[

و هذه قمة التجرد لله و توحيده ، و دليل إخلاص المساجد له من قبل(١) التبيان / ج ١٠ - ص ١٥٥.

الرسول)ص) . و الآية تحريض على التوجه لله وحده لانه الذي يملك الضر و الرشد ، كما ان فيها تحريضا

على الاعتماد على مواهب الله للنفس البشرية و السعي الذاتي كمنهجية سليمة و كجزء من الطريقة . و تلاحظ في السورة تكرر كلمة الرشد اربع مرات في الآيات (٢ ، ١٠ ،١٤ ، ٢١) و استخدامها محل النفع الذي يقابل الشر و الضر ، و لعل السبب يكمن في معالجة السياق لمشكلة الضلال و الانحراف التي تسببها المزاعم و الفلسفات البشرية الباطلة حول الجن و غيرهم ، فأراد تعالى التأكيد على دور الوحي في الهداية و الرشد ، بل التأكيد علىالرشد بذاته في مقابل علاج مشكلة الضلال.

و الرسول ليس لا يملك للآخرين ضرا ولا رشدا ، بل لا يملك حتى لنفسه شيئا من ذلك ، إنما الله وحده منه النفع و الضر و الاجارة ، فخطأ إذن ان يعوذ أحد بغيره جنا أو إنسا أو سواهما.

]قل أنى لن يجيرني من الله أحد و لن أجد من دونه ملتحدا]و هذه العقيدة من أهم دواعي التسليم له عز وجل و توحيده ، و بها يقاوم المؤمنون عوامل الهزيمة و الخوف حيث التوكل على رب العزة و الاستجـــارة به من سواه ، لا كما يفعل السفهاء فيستعيذون بالانداد و الشركاء من تقديـــر الله و أمره و عذابــه!

و الملتحد الملجأ الصغير بقدر اللحد ، وإن من يجيره الله فلا خوف عليه ، وإن من يريده عز وجل بسوء فلن يجد ملجأ ولا بمقدار اللحد يفر اليه منه و قد وسعت قدرته كل شيء.

[28 - 23]و يبين النبي (ص) كنه دوره و مهمته في الحياة ، فهو لم يأت ليعطي الناس صكوك الأمان ، ولا ليكون شريكا لله في ملكوته ، إنما جاء عبدا للهو رسولا من الله يبلغ رسالته الى الناس.

]إلا بلاغا من الله و رسالاته[

و "إلا " تفيد هنا الاستثناء الحصري ، و قال : " و رسالاته " بالجمع و ليس رسالته بالافراد لبيان أنه امتداد برسالته لكل رسالات الله السابقة ، و ان خط الانبياء واحد يكمل بعضه (افراد و رسالات) بعضا.

]و من يعص الله و رسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا]ولا تكون معصية الرسول الا باتباع هوى النفس و سفهاء الأمم من القادة المنحرفين الذين يقولون على الله شططا . وإدخال القرآن لعنصر التخويف بالنار في الحديث عن معصية الله و الرسول لان ذلك ينمي الحذر من الله في النفس ، و يضمن طاعة المؤمنين لله و الرسول.
و الآية هذه توازن الموقف من الرسول القائد ، فصحيح أنه لا يملك لأحد ضرا ولا رشدا ، إنما يملك الناس أنفسهم ضر أنفسهم و رشدها ، و لكنه حيث تجـــرد لله يعتبر مقياسا ، و يتحول بشخصيته و موقعه الى ميزان و قيمة في المجتمع ، بحيث يقرن الله رضاه و غضبه و طاعته و معصيته برضى الرسول (ص) و غضبه و طاعته و معصيته . و هكذا يصير كل قائد واحد ميزانا بمقدار ما يجسده من قيم الحق في حياته.

ولان العصاة إنما يتمردون على أوامر الله و رسوله اغترارا بما لديهم من القوة ، و بمن حولهم من الانصار ، فان الله يذكرهم بأنهما لا يغنيان عنهم شيئا في تحديهم لرسوله و للحق ، باعتبارهما الأقوى ناصرا و الأكثر جندا .. الأقوى لأن الله ناصرهم ، و الأكثر لأن الملائكة و قوى الطبيعة تقف الى جانب الحق ، و مهما تأخر وعد الله بدحرهم و الانتصار لحزبه و رسالاته في الدنيا و الآخرة فإنه آت لا ريب فيه.

]حتى إذا رأوا ما يوعدون[

من الهزيمة في الدنيا امام المؤمنين ، او الوعد بالبعث و الجزاء الذي راح يشكك فيه ضلال الانس و الجن .

]فسيعلمون من أضعف ناصرا و أقل عددا[

ومما يزيد في ضلال العصاة لله و لرسوله بالاضافة الى الاغترار بالقوة و العدد هو تشكيكهم في صحة وعد الله بالجزاء ، ولذلك تراهم لا يفترون يسألون مجادلين عن أجل الوعد . وهنا يتدخل الوحي يسدد المؤمنين في مواجهتهم لتلك التشكيكات و الجدليات ، بأمرهم ان لايخوضوا معهم حيثما شاؤوا فيكون زمام الحوار بأيدي اولئك ، وإنما إدارته حيث تقتضي القيم و الاستراتيجيات الرسالية ، فان الجدليات التي

تصبح هدفا بذاتها كجدلية السؤال عن الساعة لا تنتهي عند حد كما ان الرساليين ليسوا مكلفين بالإجابة على كل سؤال يطرحه الآخرون إلا في حدود المصلحة الرسالية و حدود ما أوتوا من العلم.

]قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا]وإنما ترك الرسول الإجابة على ذلك بالكيفية التي يريدها المجادلون اتباعا للمصلحة الحكيمة ، ولأن علم الساعة مما يختص به الله و له فيه البداء ، فقد يكون موعدها قريبا ، وقد يعطي الله للناس فرصة لمراجعة الذات بتمديد أجلها لعلهم يتذكرون و يتوبون . و الآية إشارة الى فكرة البداء من حيث أنه تعالى مختار في تحديد وقت الساعة متى شـاء ، فقد يكون لها في علمه زمن معين ثم يبدو له فيجعل لها أجلا آخر قريبا أو بعيدا.

و كفى بجهل الإنس و الجن بميقات الساعة و بالمستقبل دليلا على قصورهم عن علم الغيب ، و انحصار معرفته برب العالمين ، و ذلك مما يميز الخالق عن المخلوق.

]عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا[

و هذه الآية تنفي المزاعم و الأباطيل حول علم الجن و الكهان بالغيب . بلى . قد يظهر الله بعض أوليائه من الرسل على ما يريد من علم الغيب ، و هم بدورهم يحفظون سره تعالى ، إذ يعلم أين يضع رسالته ، ومن يختار لأمانته ، ومع ذلك يحفظهم تماما كما حفظ السماءمن استراق السمع.

]إلا من ارتضى من رسول[

فلا أحد يفرض على ربنا ان يظهره على غيبه ، إنما هو الذي يتفضل برضاه و حكمته على من يشاء فيطلعه على بعض الغيب ومع ذلك لا يدع غيبه يتسرب من مخازنه الى من لا يستحقه.

]فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا[

يحفظونه و يسددون خطاه ، و يراقبون حركاته و تصرفاته ، برصد ما يصدر منه في الحاضر و المستقبل " بين يديه " وما صدر عنه في الماضي " من خلفه " . و كيف يطلع المنجمون و السحرة و الكهان على الغيب وهم مغضوب عليهم عند الله ؟! أم كيف تصـل معـرفة الشياطين به وهم أعداؤه الذين أعد لهم الحرس الشديد و الشهب حربا عليهم ؟! وفي هذا جاءت أحاديث أئمة الهدى كالتالي:

قال الامام الباقر (ع) لحمران : " فان الله عز وجل عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدر من شيء و يقضيه في علمه قبل ان يخلقه و قبل ان يقضيه الى الملائكة ، فلذلك يا حمران ! علم هو موقوف عنده اليه في المشيئة ، فيقضيه إذا أراد ، و يبدو له فلا يمضيه ، فاما الذي يقدره عز وجل و يقضيه و يمضيه فهو العلم الذي انتهى الى رسول الله (ص) ثم الينا " (١) ، وعن الامام الصادق (ع) قال " :ان لله عز وجل علمين : علما عنده لم يطلع عليه أحدا من خلقه ، و علما نبذه الى ملائكته و رسله ، فما نبذه الى ملائكته و رسله فقد انتهى الينا. (2) "

و تهدينا الآية الى أمرين:

الأول : إذا كان ثمة سبيل للمخلوقين يطلعون بسببه على الغيب فانه ليس الجن ولا غيرهم لأنهم لا يعلمونه ، إنما ينبغي لهم الاستعاذة بالله و طلبه عند رسله و أوصيائه المرضيين عنده.

الثاني : خطأ ما زعمه البعض من ان أحدا لا يعلم الغيب البته ، فإنه يعلمه من ارتضاه الله لغيبه و بقدر ما يعلمه الله بصريح النص . قال الامام علي (ع) وهو يتحدث عن الناس : " و ألزمهم الحجة بأن خاطبهم خطابا يدل على انفراده و توحيده ، وبأن لهم أولياءتجري أفعالهم و أحكامهم مجرى فعله ، و عرف الخلق اقتدارهم على علم الغيب بقوله : " عالم الغيب .. " قال السائل : من هؤلاء الحجج ؟ قال : " هم رسول الله (ص) و من حل محله من أصفياء الله الذين قال : " فأينما تولوا فثم وجه الله " الذين قرنهم الله بنفسه و برسوله ، و فرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منها (من الطاعة) لنفسه " (٣. (

و يبين الله الهدف من اطلاع رسله المرضيين على الغيب ، و سلك الرصد من بين أيديهم ومن خلفهم ،

إلا وهو كونه مما يقتضي تبليغ الرسالة و يخدم مصلحتها.

(1)البرهان / ج ٤ - ص ٣٩٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٤٢.

(3)المصدر / ص ٤٤ نقلا عن الاحتجاج.

]ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم[

و الآية تهدينا الى ان الرسالة جزء من ذلك الغيب الذي يظهر عليه من يرسلهم بها ، و ان اطلاعهم على بعض الغيب لدليل على كونهم رسل رب العالمين ، مما يقيم الحجة على العقلاء و يفرض اتباعهم عليهم ، فذلك إذن مما يعينهم في إبلاغ الرسالة من جهة ، و إقامة الحجة الداعية الى تبليغها على الأنبياء أنفسهم بحيث لا يبقى لهم عذر لو قصروا حاشاهم.

]و أحاط بما لديهم[

إحاطة عامة شاملة.

]و أحصى كل شيء عددا[

أي إحاطة مفصلة بالارقام و الدقائق ، و حيث يفعل الله شيئا فان فعله يرتكز على العلم و الحكمة ، وإنما يطلع بعض رسله على الغيب لاحاطته بهم و معرفته بصلاح ذلك و ضرورته.